حوار مع الشيوعيين في أقبية السجون

تأليف

عبد الحليم خفاجي

عبد الحليم خفاجي
المحامي



يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ
أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ
أَمِ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ

الطبعة الرابعة

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثالثة

بقلم الاستاذ عمر التلمساني

كتب الكثيرون عن الشيوعية والشيوعيين كتابات مستفيضة وقديمة بيد أن كلها نظريات وردود على أوراق وان كان في هذا ما يكفي للكشف عن زيف الشيوعية والشيوعيين الا أن الدور العملي المتسم بالحكمة والمنطق والعلم والمخالطة العقلية لقادة الشيوعية في مصر الذي سلكه الأخ الفاضل عبد الحليم خفاجي في كتابه « حوار مع الشيوعيين في أقبية السجون » هو المنهاج الواقعي الذي يفتح أمام الذهن بطلان ما يقولون ويضع اليد وضعا ملموسا محسوسا على كل الثغرات الواسعة في تلك النظرية الباهتة ·

وكان لخلق الأخ المؤلف وحسن معاشرته أكبر الاثر في الوصول الى الحقائق التي يرتاح اليها كل منصف ، يحكم عقله وعلمه في مناقشة الآراء والنظريات قبل أن يخضع لعاطفة هوجاء تعلو به الى شاهق غير مأمون أو تهوي به في قاع غير معلوم ·

جزى الله ابني المؤلف خير الجزاء عن خدمته لدينه وسعيه في كشف الحق الواضح المبين ·

تعقيب المؤلف :

كتب الأخ الكريم عمر التلمساني أول مقدمة للحوار من موقع مسؤوليته عن الاخوان في سجن المحاريق بالواحات الخارجة وقد قدمه بهذه الصفة ليقرؤه الجميع فرادى ومجتمعين ·· فلم يكن ما كتبه مجرد مقدمة بل كان تقديما كذلك ·· وكم تمنيت لو قدر لهـذا التقديم أن يرى النور بتصدر جميع الطبعات ولكن أبى القدر الا أن نتخلص منه في ظروف أمنية شديدة في سجن القناطر وأن تجيء هذه المقدمة المقتضبة اليوم من قلب مشاغل الحياة وهموم الدعوة عوضا عن ذلك الكنز المفقود ·· وآمل أن يوفقني الله في طبعة قادمة ان شاء الله الى تسجيل قصة كتابة هذا البحث في أحلك الظروف وتنقله معنا في مختلف السجون بكل ما كان فيها من مآزق ومخاطر ومفاجئات ·

مقدمة الطبعة الثانية

بقلم الاستاذ عبدالله العقيل *

ليس سهلا على النفس البشرية أن تتخلى عن مشاعرها وعواطفها وهي تتحدث عن شخص يرتبط واياها برابطة الحب يتجاوز مداها ما تواضع عليه الناس من روابط العصبية والاقليمية والقبلية والنسبية وترتفع الى آفاق العقيدة وآصرة الاخوة في الله والعمل من أجل مرضاته واعلاء كلمته ٠

وهذا هو شأني مع الأخ الكريم الاستاذ عبد الحليم خفاجي الذي يسعدني أن أستجيب لطلبه في تقديم كتابه القيم « حوار مع الشيوعيين في أقبية السجون » الذي جاء تسجيلا صادقا أمينا وبحثا علميا دقيقا مشربا بحرارة الايمان وقوة البرهان ومدعما بالحجج الدامغة والادلة الساطعة التي أفحمت الخصوم وجعلت ادعاءاتهم تتهاوى أمام قوة الدليل ونصاعة البرهان فزادت الذين آمنوا ايمانا مع ايمانهم واستمساكا بالحق الذي معهم واصرارا على منهجهم في اقرار العبودية لله والكفر بما عداه ٠

---

* مدير الشؤون الاسلامية بوزارة العدل والاوقاف والشؤون الاسلامية بدولة الكويت ٠

والمؤلف الفاضل لم يكتب ما كتب من قبيل الترف العقلي والحوار الذهني المجرد ولكنه سجل ما يعتقد انه الحق وسلك في تفنيد آراء مخالفيه الاسلوب العلمي الرصين والمجادلة التي هي أحسن ، ولم يكن هذا الحوار من خلف المكاتب الفخمة والارائك الوثيرة وانما كان على أرض السجن وفي الزنزانات وأثناء الاعمال الشاقة وتكسير الاحجار وحفر الارض وكانت الاجساد ممزقة بسياط الجلادين والوجوه يختلط فيها العرق بالدم بالغبار ومع هذا كان نور الايمان وفيض اليقين يعمر قلوب الدعاة الى الله ويشيع بالبشر في وجوههم ويزكي نفوسهم ويثبت أقدامهم ·

ولقد ثبّت الله الأخ المؤلف وكثيرا ممن معه من الدعاة المجاهدين والرجال الصابرين رغم قساوة المحنة وشراسة الجلادين وبطش الطغاة وكان هذا قضاء الله وقدره ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ·

والكتاب ليس في حاجة الى تقديم فهو يقدم نفسه · وأكبر دليل على النجاح والتوفيق الذي حالف مؤلفه أنه ما كادت تظهر طبعته الاولى حتى تلقفتها الايدي من مختلف بلدان العالم العربي والاسلامي بل وحتى المغتربين في مهاجرهم ونفد الكتاب · وهذا ولا شك دليل توفيق الله للمؤلف حيث قارع الحجة بالحجة وساق الدليل اثر الدليل · وفند المزاعم · وأزال الشبهات · حتى أسقط في يد القوم وبطل ما كانوا يدعون · وانكشفوا على حقيقتهم ما بين جاهل مغرر به وعميل مرتزق يتاجر بالمباديء في سوق الجهل والضلال ·

ومن هنا يجدر بالدعاة الى الله أن يستشعروا ضخامة العبء وعظم المسؤولية وهم يواجهون هذه الانماط المختلفة من أصحاب المباديء والشعارات التي تريد القضاء على الدين وتصفية دعاته بكل ما تملك من وسائل البطش والارهاب والكذب والتزوير والملق والنفاق وشراء الذمم والضمائر واستعداء الجهلة على الدعاة واغراء السفهاء بهم ·

وكلمة الحق التي ينطلق بها الدعاة العاملون بقوة الايمان وتوفيق الله انما هي الكلمة الطيبة التي مثلها كمثل الشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها · ولا شك أن (في حملة الاقلام منا كثيرون يحسنون القول في تأييد الحق ، ولكن اذا كانت له سوق يروج فيها أو دولة تخطب ود مؤيديه ولو الى حين وهم على استعداد لان يقولوا غير

ذلك أيضا ولهم من براعة القول ما يحسنون به الاعتذار للباطل في دولته ، فأحرى أن يحسنوا القول عن الحق اذا قامت له سوق) ٠

ولذا شرع الله المحن يبتلي بها عباده ليميز الخبيث من الطيب والصادق من الكاذب والاصيل من الدعي « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » ورحم الله الامام* القائل « ان ميدان القول غير ميدان الخيال ، وميدان العمل غير ميدان القول ، وميدان الجهاد غير ميدان العمل ، وميدان الجهاد الحق غير ميدان الجهاد الخاطىء » ٠

يسهل على كثيرين أن يتخيلوا ولكن ليس كل خيال يدور بالبال يستطاع تصويره أقوالا باللسان ، وان كثيرين يستطيعون أن يقولوا ولكن قليلين من هذا الكثير يثبتون عند العمل ، وكثير من هذا القليل يستطيعون أن يعملوا ولكن قليلا منهم يقدرون على حمل أعباء الجهاد الشاق والعمل العنيف ٠

وهؤلاء المجاهدون وهم الصفوة القلائل من الانصار قد يخطئون الطريق ولا يصيبون الهدف ان لم تتداركهم عناية الله وفي قصة طالوت بيان لما أقول ، فأعدوا أنفسكم وأقبلوا عليها بالتربية الصحيحة والاختيار الدقيق وامتحنوها بالعمل ، العمل القوي البغيض لديها الشاق عليها ، وافطموها عن شهواتها ومألوفاتها وعاداتها ، وانشروا دعوتكم في الجهات التي لم تصل اليها بعد ، ولا تضيعوا دقيقة بغير عمل » ٠

(*) هو الامام الشهيد حسن البنا ٠

مقدمة الطبعة الأولى

الكاتب والكتاب

"بقلم الاستاذ زين العابدين الركابي"

"السودان"

تحويل الظروف الصعبة ـ بسلبياتها المثبطة ـ الى مناسبات مفعمة بايجابيات العمل .. والبناء .. ومناخ موات للغرس الفكرى. وفرص متاحة لتبديل التضييق المكانى ـ السجن أو الاعتقال ـ بالانفتاح العقلى .. والسعة الروحية والاتصال الثقافى اللا محدود .

هذا الاتجاه الايجابى .. ظاهرة بناءة نادت انتباهنا ـ فى لحظات مبكرة من مطالعتنا لهذه الدراسة ـ وأورثتنا مزيدا من الثقة بالانسان المؤمن .

فمؤلف هذا الكتاب .. او صاحب هذه الدراسة : الأستاذ عبد الحليم خفاجى ـ لم يكتب دراسته فى مكتب مريح أو تحت ظلال شجر وارف فى حديقة جميلة .

انما كتبها .. فى السجن .

السجن بعذابه وقهره .. وكبته وقيوده .

ان اهوال الأساطير تتحول ـ فى السجون ـ الى برامج يومية تتحكم فى خطى الانسان .. وحركته .. وتحصر وجوده المادى والأدبى .. وتضغط آماله وتطلعاته جميعا فى دائرة « قهر الرجال » .

فالسجناء الذين يلقى بهم فى السجون لارتكابهم جرائم مخلة بالشرف .. لا يطيقون السجن .

فما بالكم اذا كان السجن قد جعل « مقرا دائما » للأحرار الذين يدافعون عن شرف الاسلام .. وشرف الحياة .. وشرف الانسان ؟

فى هذه الظروف الصعبة .. تخطى الأخ والصديق الأستاذ عبد الحليم خفاجى واخوانه تخوم السجن وأسواره .. واستصغروا المتاعب — على فداحتها — فى سبيل الاستحضار الدائم للهدف العظيم .. وفى سبيل خدمة الغاية الكبرى .

ان الافلات من الواقع السىء .. والضغوط المحطمة .. مطلب رائع .. يعين على تحقيقه .. حضور الهدف فى العقل والفؤاد .. وتتابع الزحف لبلوغ الغاية .. واستصحاب مستمر لحقيقة : أن طريق الدعوات محفوف بالمكاره .. وانه من أجل ذلك كانت البيعة فى « المنشط والمكره » معا .

ومن الطبيعى أن نقول — وهو قول تدعمه وقائع الدراسة —: أن اخوانا للاستاذ خفاجى قد شاركوه — فى السجن — هذه الايجابية وهذا التغلب على الظروف السيئة .. واستهموا في هذا الجهد الطيب .

وذلك مما يثرى الحياة بأكثر من نموذج حى وفعال .. مستمسك بالحق على كل حال .. نزاع الى الخير دوما .

منذ قرون .. وأمتنا تتعرض لسحق متواصل .. على مستوى الجماعة .. وعلى مستوى الفرد .. وكان لابد من المقاومة المتواصلة فى أسوأ الظروف .

اننا نتوقف عند هذه الظاهرة — ظاهرة تحويل الواقع السىء الى عمل ايجابى — وندرسها مليا .. لأنها زاخرة بالايجابية .. والوعى .. والأمل .

* فمن أهداف السجانين — وهم يلقون بالأحرار فى أقبية السجون — قذف اليأس فى نفوسهم .. وحملهم على اعلان التوبة .. ندما .. واقلاعا .. وعزما .

ندما على العمل الذى عملوه .

واقلاعا عنه .

وعزما على عدم العودة اليه .

والعمل هنا هو : الدعوة الى الاسـلام .. وتغيير الواقع باسمه وعلى هداه .

وكانت الايجابية .. والعمل للاسلام - داخل السجن - احباطا موفقا لهدف السجانين .. وافشالا للخطة النفسية .. فى الحمل على اعلان التوبة من السير فى طريق الاسلام .

* والاحساس بالاضطهاد يصبح سـلبية قاتلة .. حين يكتفى المضـطهدون بالبكـاء .. والحسرة .. والتطير .. ثم القنوط .

فما من أمة .. ما من شعب .. ما من جماعة عقائدية الا ونزل بها من الاضطهاد .. ما أعنتها وآذاها .

كل الناس يألمون .. كما نألم .

والفـرق بين ألم .. وألم .. يسـتبين فى الروح التى تتعرض للاضطهاد .

فمن الناس .. من يكون احساسه بالاضطهاد سـلبيا .. ينكفىء على ذاته .. ويطيل النواح .. ويفقد ثقته بنفسـه .. وينسحق .. وهنالك فى ارض الضياع تصـبح الشـكوى .. جهاده .. وسباب موكب الحياة الزاحف .. سلاحه .

ولقد هلكت أمم .. وتبخرت جماعات تحت ضـغط هذا الاحساس السلبى بالاضطهاد .

ومن الناس .. من يكون احساسه بالاضطهاد ايجابيا ينتزع نفسه ويسحبها .. سراعا .. من ضغوط الاضطهاد ويستدعى جميع طاقاته العاملة .. والاحتياطية .. ويقذفها فى سـاحة التحدى والصراع .

غريزة « البقاء » .

غريزة « الغضب » .

ميراث « الصراع البشرى » .

نزعة مقاومة الخطر .

عقيدة القضاء والقدر : « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا».

يتذرع بكل شيء تحت يده وفى امكانه .

ثم يتغير الحال .

يستمد من المران على مقاومة الاضطهاد ـ عزما جديدا على مواصلة السير نحو الهدف .

والاضطهاد ليس امنية .. ولا هواية ، فقد منع المؤمنون من تمنى لقاء العدو .

اما حين ينزل ـ عنوة ـ بالمؤمنين فينبغى ان يكون الاحساس به ايجابيا ..

ذلك ان الاحساس السلبى هنا . لن يحل المشكلة .. وصاحبه لا تقدما أحرز ..

ولا نفسه أبقى ..

ان الأحياء التى تعيش حتى الآن .. فى البر والبحر .. ارانب البرارى .. أو حيتان البحار .. أعانها على الاستمرار فى الحياة قدرتها على اتخاذ « موقف » ايجابى غريزى ازاء ضغوط المناخ .. وعنفوان تقلبات البيئة .

ولم تعش كائنات اخرى .. بسبب انها « انكمشت » امام عصف الطبيعة .. وانسحقت .. ثم انقرضت .

وفى عالم البشر .. اثبت التاريخ ان ديانات وعقائد شتى قد غابت عن الحياة تماما .

وأصحاب تلك العقائد .. لم يقرروا ـ فى مؤتمر عام او بوثيقة جماعية ـ تدمير عقائدهم ودياناتهم .

اختفت عقائدهم .. باختفائهم هم انفسهم .

وكان اختفاؤهم نتيجة للاحساس السلبى بالاضطهاد الذى لاقوه ووهنوا قدامه .

انما العقائد بحملتها .

لا يظن المسلمون أنهم « بدع » فى التعرض للاضطهاد .

لقد اضطهد اقوام ــ من كل ملة ــ شر اضطهاد . وقد خلت من قبلهم المثلات .

- اضطهد المسيحيون .
- واضطهد اليهود .
- واضطهد الشيوعيون .

ورغم ذلك نجد فى الأرض اليوم دولا مسيحية .. ودولا شيوعية .. وكيانا لليهود فى فلسطين .

ومن الانصاف أن نقول : فقط ان احساس هؤلاء بالاضطهاد كان ايجابيا

ولئن كانت هذه الدراسة تمثل فى مجال الكفاح بادرة ايجابية .. فهى تمثل فى عالم الفكر .. « الانفتاح والثقة » .

كان ابراهيم ــ عليه السلام ــ يجادل الكافرين .. ويتدرج بهم ــ فى حوار مفتوح ــ نحو الحقيقة .. فينفعلون وهو رزين .. ويثيروه .. وهو هادىء .. ويظل يتعقب مقولاتهم . ويسقطها تباعا .. من خلال « منطق ملاحظة الطبيعة » .

وفجر نبينا ــ عليه الصلاة والسلام ــ القوى العقلية فى جزيرة العرب .. وفتح أمام الفكر آفاق التفكير .. وتنشيط الذهن .. وطفق يجادل المشركين واهل الكتاب .. حتى خافوا منطقه وتحاشوه ..

وكان ابن حنبل .. وابن تيمية .. وابو حنيفة . كانوا ونضرب بهم مثلا فحسب ــ يحاورون أصحاب العقائد والمذاهب الأخرى .. بانفتاح غير محدود . وبثقة لا تعرف التهيب ، جرى ذلك .. ابان الصحوة العقلية .. فلما دخل العقل الاسلامى فى سبات طويل .. ضعفت « حجة » التفكير الاسلامى ..

وظهر الملحدون وكأنهم هم الذين يخفون فى تلافيف أدمغتهم .. الوعى والذكاء .. والمنطق القوى .

واستبدل المسلمون ـ باستثناء ثلة من المثقفين ـ الجهاد الفكرى .. بالشتائم .. والتعيير .. والتشنيع .

فى مجال نقد الماركسية ـ مثلا ـ لا يجدى وصف كارل ماركس بأنه يهودى .

فهذا .. هجوم سياسى .. بينما المطلوب ـ موضوعيا ـ نقد المذهب نفسه فى بنائه الأساسى .. وتركيبه الفلسفى والنتائج المترتبة على البناء والتركيب .

وهذه الدراسة حوار عقلى حر دار ـ فى السجون ـ بين فئة مؤمنة .. وآخرين أخطأوا الطريق الى الحقيقة ..

وهذه الدراسة تدعم قاعدة « اليقين لا يزول بالشك » .

صحيح أن هذه القاعدة الأصولية وردت فى الأبحاث الفقهية المتعلقة بالعبادات والمعاملات .

وينبغى أن تأخذ هذه القاعدة مكانها فى الدراسات العقائدية والفلسفية والفكرية .

فاليقين بالله لا يزول بالشك : « أفى الله شك فاطر السموات والأرض » . أن الاسلام يزدهر .. وبراهينه تتألق من خلال الحوار العقلى الحر .

ولن يهزم الاسلام فى مناقشة حرة أبدا .

وهذه الدراسة .. كما تبرز أصالة الفكر الاسلامى .. تبرز من جانب آخر .. جدوى التزام الهدوء والاتزان فى النقاش الموضوعى ..

فالانفعال أو الهيجان يعصف بسكينة النفس .. وحين تفقد النفس سكينتها .. يفقد التفكير عمقه .. ومن ثم تضعف الحجة ..

الملحد ليس عملاقا رهيبا .. ولا عبقريا اسطوريا .. ولا جنا يأتى بالخوارق .. حتى يفقد الناس سكينة انفسهم فى مواجهته ، انه شخص عادى .. يستدعى الرحمة .. اكثر مما يثير الاستفزاز .

لقد تبدت ثقة المؤمن بما عنده فى هذا الحوار .

يقول المؤلف : « بعد ان نجحنا فى وضع البداية الطبيعية للماركسية وهى المادية الجدلية .. وبعد ان أزلنا مخاوفهم من اى رد فعل ـ مهما كان عرضهم لنظريتهم متصادما مع عقيدتنا واسلامنا ـ وبعد ان زكينا مبدأ الصراحة والتعاون المشترك فى البحث عن الحقيقة . القينا السمع الى الزميل الذى اخترناه ليتولى العرض لما لمسناه من صراحته .. وتشجيعا لبقية زملائه على اقتفاء أثره » .

***

والانصاف الفكرى .. ملمح آخر من ملامح هذه الدراسة.
انصاف المؤلف لاخوانه .

وانصافه للشيوعين .

● فما فتىء المؤلف يؤكد دور « الجهد الجماعى » فى هذه الدراسة .. او هذا الحوار المتميز بالجدة والرحابة .

ولا تكاد عبارة تخلو من « ضمير الجمع » العائد الى اخوانه المؤمنين .

والفقرة التى نقلت عن المؤلف آنفا .. تجد فيها ضمائر .. نجحنا .. أزلنا .. عقيدتنا . اسلامنا . زكينا . ألقينا . لمسنا . لقد اختفى « الانا » فى « نحن » .. والفردية فى «الجماعة».

● وتبدى انصافه للشيوعين .. فى تقديره للظروف التى دفعتهم الى فك ارتباطهم بأمتهم وعقيدتهم .. والالتصاق .. بأمم أخرى . غريبة الوجه واللسان .. والمذهب والوجهة .

ان لمح جانبا خيرا فى أحد الشـــيوعيين ذكره .. وان راى خصائص الفطرة تتفجر فى ـ نفوس الشيوعيين ـ اثناء الحوار .. أشاد بها .

وإذا راى الحق فى جزئية مما عندهم .. اقره .

وهذه قيمة جليلة .. من قيم القــرآن العظيم ..

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا .. اعـــدلوا هو اقرب للتقوى » .

لقد قرات هذه الدراسة « حوار مع الشيوعيين » بانتباه احسبه موضوعيا .

ووراء هذا الانتباه أكثر من سبب .

● فهذه الدراسة هى اول حــوار مفتوح ـ فيما أعلم ـ بين فئتين التقتا فى السجن .. وافترقتا فى التصور والعقيـــدة والهدف .

فئة مؤمنة .

وفئة شيوعية .

كان جدال الشيوعيين يتم من وراء الحجب .. وبالمراسلة .

أما هذه الدراسة فقد حققت معنى من معانى « الشهادة » على الناس ..

بالرؤية المجردة .. والحضور الفعلى .

● والسبب الثانى هو : أن الفكر الشـــيوعى .. يزاحم المسلمين فى بلادهم ويحـــاول أن يتخطى رقابهم .. الى الصـــف الامامى .

يصنع ذلك بوسائل شتى .. بوجود الأحزاب أو الحركات الشيوعية ، وبالتاثيرات الفكرية فى الاعـــلام والثقافة والفن ..

والشعارات الاشتراكية .. وبنفوذ الشيوعية الدولية عبر السلاح والخبراء ..

وليس فى وسع الفكر الاسلامى أن يتجاهل هذه القضـــية ، فجد الاسلام والظروف المعاصرة لا يسمحان بهذا التجاهل .

● والسبب الثالث هو : حاجة الأمة الى أن ننتقل الفكـر الاسلامى الى مرحلة التفاصيل .. ودقة التحديد .. انطلاقا من اعتبارين هامين .

١ ــ البرامج المفصلة فى قضـــايا الناس ومشـــكلاتهم . تشكل نمطا عمليـــا من أنماط الأدلـــة العلمية .. على صـدق القرآن .. وقدرة الاسلام المستمرة على ضبط مســـيرة البشر باسم الله .

٢ ــ ان الشيوعية ، لها رأى مفصل فى قضايا التنميـــة التى هى من ابرز القضايا العالمية .

وبصرف الهمة الآن عن الانشغال . بالأخطـــاء المدمرة التى يقع فيها الشيوعيون وهم يتحدثون عن التنمية . فان انتقـــال الفكر الاسلامى الى مرحلة التحديد ، والوضوح التفصـــيلى ، يجرد الشيوعيين من هذا السلاح الواقعى ، ويقى الناس فتنتهم فى هذا الميدان .

من أجل ذلك ، كان الانتباه الفكرى ونحن نطالع هـــذه الدراسة .

بيد ان رأيى فيها لايغنى عن مطالعتها . وأرجو أن تكـون هذه المقدمة دعوة للمشاركة فى « الحوار مع الشيوعيين » .. دعوة تشحذ الاهتمام . ولا تسقط واجب القراءة عن الآخـــرين .

فالنيابة عن الغير هنا تعطيل لمسئولية السمع والبصر والفؤاد :
« ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

ولقد عرفت الأخ الأستاذ عبد الحليم خفاجي .

بيد أن معرفتي به لا تغني قارىء الكتاب عن التعرف عليه عبر الأفكار والكلمات .



الأخ عبد السلام أحد أعضاء الندوة وبيده البحث
داخل سجن القناطر ١٩٦٤

الحَلقَة الأولى

بَين يَديّ الدرَاسَة

قصَة البَحث

هذا البحث البسيط يلقى ضوءا خفيفا ــ من خـلال نقد الماركسية علميا ــ على ملامح العقلية المنهجية الاسلاميـة التى أرادها رائد الحركة الاسلامية الحديثة امتدادا لمرحلة اليقظة التى بثها فى الأمة فى قوله : « لابد من أن تحدد هذه الأهداف والمثل .. وبغير هذا التحديد والتركيز سيكون مثل هذه الصحوة مثل الشعاع التائه فى البيداء لا ضـوء له ، ولا حرارة فيه » [1] .

وهو يواكب الأمة العربية والاسلامية فى مسيرتها الى الغد الأفضـل ويواكب العاملين فى الحركات الاسلامية فى الدرجة الأولى ويواكب الداعين فى ربوع العالم من كل جنس أو مذهب الى استشراف حياة جديدة عميقة الجذور باسقة الفروع شهية الثمر .

وهو مجرد هيكل عام ينقصـه كل ما ينقص الهيكل حتى يصير جسما كاملا ولكنه هيكل لا تخطىء العين ملامح الكمال فيه .

أو هو مجرد لوحة تحددت معالمها بالقلم الرصاص ريثما يتوفر لها الألوان والظلال .

* والبحث يحقق بهذا التبسيط خاصية النظرة الشاملة ، حاجـة الكافة ، وطبيعة مرحلة الدعوة ، ريثما يتحقق بالتفصـيل ضرورة النظرة المتخصصة ، دور الخاصة ، وطبيعة مرحلة التطبيق ، ولا غنى لاحداهما عن الأخرى دائما على طريق المنهج الصحيح .

---

(1) رسالة دعوتنا فى طور جديد للامام الشهيد حسن البنا .

قصة البحث

وللبحث قصة لا تنفصل عنه بل أراها ضرورية فى توضيح الظروف التى أخرجته وكونت تاريخه لأن معرفة تاريخ الشيء جزء من حقيقته وعامل فى تقييمه ، فضلا عما توحيه المعاصرة الزمنية والمعايشة الذهنية من مشاركة وجدانية للموضوع وأشخاصه مما يذلل الفهم ويقدر العذر ويغفر التقصير وينبت الحب فلا تكون النتيجة اقتناعا باردا بل ايمانا دافئا دافعا يحرك العمل المخلص فى النفوس ، وهذه حسنة أخرى تضاف للتاريخ فوق حسنة الخروج منه بقوانين جامدة فى تفسير حركته ..

* والتاريخ فى موضوعنا هذا له جاذبيته الخاصة وأهميته الخاصة وله درجة حرارة أيضا يستمدها من طبيعة الموضوع ونوعية أشخاصه وظروف الزمان والمكان اللذين شهدا ولادته .

فعلى أرض الواحات فى مطلع الستينات وفى بطن الصحراء البعيدة بصيفها اللهيب وليل شتائها الزمهرير ومن خلال العذاب المنصب علينا ليلا ونهارا بكل أشكاله الثورية من تجويع وبرد وظلام وتفتيشات لا تنقطع وحرمان من رؤية الأهل سنوات عدة ومعاملة سيئة لا تتوقف من قلوب أقسى من الحجارة وفى ظل ما تعيشه أمتنا من صراعات مذهبية وسياسية كانت تفاعلاتها وراء نفينا الى هذا المكان السحيق .. وفى ظل ذلك كله كانت يد الله الحانية تحيل الظلام نورا والجوع شبعا وريا والعمل الشاق عبادة وقوة والنار بردا وسلاما والفجر الكاذب فجرا صادقا حتى أصبح سجننا باطنه فيه الرحمة وان كان فى ظاهره العذاب ..

* وفى اطلالة لنا على هذا الظاهر الملتهب كنا نرى المشاهد المفزعة تضحكنا وتسرى عنا : فهذا ضابط العنبر لا يكاد يلمح منظر الحملة العسكرية التى جردت لتأديبنا وهى تدخل علينا الزنازين بالسلاح بعد أن أحاطت الأسوار بالمدافع .. فهو لا يكاد يسمع النداءات وأصوات البروجى تتوالى من كل جانب ، حتى تصطك أسنانه وترتعد فرائصه : وكنا نحن الذين نهون عليه الموقف ولكن بلا جدوى حتى أطلقنا عليه أحمد

مرعش ـ من الرعشة !! وهذا الحارس الذى دهمته الحملة فوجد نفسه وجها لوجه أمام قائدها فقام مسرعا ليجأر بالنداء فلم تخرج الكلمات من فمه من شدة الرعب وبح صوته وكان المسكين فى حالة يرثى لها وهو يستميت فى المحاولة .. وهذا واعظ السجن الوقور الذى أحضروه خصيصا لاقناعنا نراه من وراء النوافذ مسجى على الأيدى بعد أن أغمى عليه ولم يتحمل رؤية الهول من حوله . مشاهد لم تتوقف على مدار سنوات خمس كانت هى مادة ضحكنا وسمرنا .. حتى كان مشهد.ورود قوافل جديدة تنتظم ستمائة معتقل من الشيوعيين فى أعقاب الأزمة التى حدثت مع عبد الكريم قاسم اثر سحقه لثورة الشواف ؛ نزلوا فى عنبر (٢) المقابل لعنبرنا والذى يفصلنا عنه فناء كبير.لم يلبثوا الا قليلا حتى سخروا للعمل فى الصحراء ، ويبدو أن أسلوب السخرة أثار شهية الادارة المتسلطة فتحولت الينا واصطنعت الأسباب لتشركنا فى هذه التكديرة الجديدة لأن منطقهم دائما ان النقمة تعم والنعمة تخص ؛ وكنا نعلم مقدما أننا الطرف الأول دائما فى أى تكدير حتى ولو كان بسبب بعيد عنا .. هكذا تعلمنا من قصة « الذئب والحمل » .

الصباح العاصف

ذات صباح قارس من أيام يناير قمنا فزعين على صرير الأبواب المفتحة ووقع الأحذية الغليظة وهى تجوس خلال الزنازين تدوس كل شىء فى طريقها وسط عاصفة من النداءات تأمر بالخروج السريع الى الفناء دون توان أو مناقشة .. وبعد لحظات كنا نجلس القرفصاء فى صمت رهيب لا يقطعه الا حركة الحراس المذعورة والكل فى انتظار قرارات المأمور الطاغية الذى أسمعنا من قصص طغيانه ما يشيب الولدان .. وما هى الا دقائق كأنها الدهر حتى خرج علينا فى زينته يتهادى كالطاووس .. عيناه الجاحظتان تقذفان بالشرر من برج جثته الضخمة .. وكلنا عيون شاخصة وآذان صاغية ، وفى تراخى المتعاظم انشق فمه عن سيل من الحمم : « لقد قررت الدولة أن تستفيد من عضلاتكم لأنها يئست من صلابة عقولكم ، وستقومون

بشق الترع والمصارف الى ما شاء الله حتى تستجيبوا لما نطلبه منكم » •

ران صمت رهيب فى أعقاب هذه الكلمات الحاسمة ، لأننا أدركنا منها بحسنا المتمرس على فهم أساليب الطغيان شيئا أعمق من السخرة فى العمل مثلما حدث مع أخوة لنا فى سجون أخرى حيث اتخذ الانتاج وكمياته ذريعة للاحتكاك الذى وصف بالتمرد واستدعت دواعى الأمن قمعه !! وأمام المصير المجهول تكتسى الوجوه بملامح الاصرار والعزم وتشع العيون ببريق التحدى وتقترب القلوب من الله أكثر من أى وقت مضى ويزداد الحب والثقة بيننا ، هكذا كنا دائما فى مثل هذه المواقف ••

توالت النداءات الغليظة بعد توزيع أدوات العمل من « فؤوس » «وكوريكات» «ومقاطف» وخرج طابور طويل من البوابة الشمالية فى اتجاه الصحراء الغربية يتكون من مائتين أو يزيد من الشباب المسلم الفتى كلهم فى العقد الثالث الا قليلا ممن هم فى حكم الآباء : ملابسهم زرقاء ، أغطية رؤوسهم بيضاء ، يحملون أدوات العمل فوق أكتافهم المعتزة •• خلفهم يسير طابور آخر من ستمائة شيوعى بملابس الاعتقال البيضاء حفاة الأقدام وأمام الجميع عربة حراسة تحمل ضباط الحملة وخلفهم عربة أخرى تحمل رتلا من الجنود المسلحين ويحيط بالطابور على الجانبين « جنزير » كبير من الحراس المدججين بالسلاح ••

خرج هذا الطابور من الأبواب الضخمة وخرجت وراءهم الشمس مسرعة تفرش الأرض بأشعتها الوردية أمام أقدامهم الواثقة التى تخط فوق رمال الصحراء سطور قدر جديد •

خطوط الهدنة

وهناك .. فى جوف الصحراء وفى المكان المخصص للعمل وجدنا كل شىء معد لاستقبالنا وتوقف الطابور الى أن تمت مراسيم توزيع العمل علينا وعلى الشيوعيين مشفوعة بالتهديدات اللازمة ان حدث أى تقصير فى تسليم المقطوعيات المطلوبة مقرونة بأقسى التشديدات العسكرية على الحراس ليراقبوا التنفيذ بدقة وليمتنعوا تماما عن الحديث مع أى مسجون أو معتقل

خشية أن نستميلهم لجانبنا •• وانتشر الحراس المسلحون فى دائرة كبيرة حول منطقة العمل . وعلى المرتفعات الجبلية المحيطة بالموقع نصبت المدافع المصوبة نحونا لكل من تسول له نفسه الشروع فى الهرب أو التفكير فى التمرد •• وتنبيه أخير موجه لنا وللشيوعيين معا بعدم الاختلاط ببعضنا والا حاق بنا أشد العقاب !! •

* وكانت الثغرة الوحيدة فى هذا النظام الصارم هى فى دورة المياه المشتركة التى كان يتاح لنا اللقاء عندها ومن ثم أطلقنا عليها « خطوط الهدنة » •

وفى البداية كان اللقاء بطريقة فردية بين صديقين قديمين اكتشف كل منهما وجود صاحبه فى معسكر عقائدى آخر أو بين اثنين من الأقرباء كل منهم فى طريق أو لغير ذلك من الأسباب العارضة ••

ثم تطورت اللقاءات الى المستوى التنظيمى عندما اكتشفنا ما يعانيه الشيوعيون من جوع متواصل كذلك الذى مر علينا من قبل لمدة عام ونصف قبل مجيئهم ؛ وكنا اليوم فى ظروف أفضل بسبب السماح لنا بالتعامل مع المقصف فى حدود الأجرة التى أعطيت لنا مقابل عملنا فى شق الترع والمصارف تنفيذا للائحة السجون التى تتكلم عن أجر للمسجون دون المعتقل وحرصا على شكلية الاجراءات فقد تنازعت مصلحة السجون مع ادارة الاصلاح الزراعى حول أجرنا عن هذا العمل انتهى بقرار اعطائنا قرشا واحدا للفرد عن كل يوم عمل وكان هذا يعتبر ثروة ضخمة نظرا الى الحرمان السابق اذ صار هذا الأجر عبارة عن جنيهين فى اليوم بالنسبة للجميع تصبح على مدار الشهر ستون جنيها مما رفع على الفور مستوانا الاقتصادى وسمح لنا بتوفر فائض من الأغذية أو هكذا كنا نقنع الشيوعيين ونحن نحمل اليهم كل يوم عددا من أكياس الخبز وجرادل العدس والفول وبعض الفاكهة تسلم عند خطوط الهدنة بالتساوى بين مندوب الحزب الشيوعى المصرى وحزب « حدتو » لكى يقومان بدورهما بالتوزيع على زملائهما داخل مواقع عملهم •

وكنا نصدر بذلك عن وعى بطبيعة ديننا الرحيم وعن علمنا بواقعة مد الرسول الكريم — عليه الصلاة والسلام — لأبى سفيان بمبلغ من المال لتوزيعه على فقراء قريش عندما أصابتهم مجاعة وهم على شركهم وبرغم استمرار القتال بينهم وبين المسلمين ..

* والحزبان الشيوعيان يتفقان فى الهدف ويختلفان فى الوسائل فالأول يرى عدم مهادنة أى نظام التزاما بثورية النظرية حتى تتحقق الثورة الشاملة والتغيير الكامل ، وحزب حدتو (أى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى) يرى التدرج فى الوسائل والاستفادة من الأساليب الديمقراطية والتسلل الهادىء الى المراكز القيادية فى الدولة حتى يصلوا الى أهدافهم بأقل الخسائر .. وكل منهما يرمى الآخر بشتى التهم التى تتراوح بين التخريب والعمالة ..

وكان يجمعهما العلاقة الطيبة معنا بحكم تزويدنا الدائم لهم بالمساعدات الاقتصادية وحل مشاكلهم مع بعض الحراس من مواقع كوننا « سوابق » فى فن المعاملة للادارات حتى انه كثيرا ما كانت تقوم السلطة العليا بتغيير ادارة السجن بدعوى اننا نجحنا فى التسلط عليها .

* وشيئاً فشيئا أخذت الرقابة تخف وأخذت اللقاءات تتسع وأخذ الحراس يندمجون معنا كلما أمنوا مرور أحد الضباط وأصبحت فترة القيلولة التى يسمح لنا فيها بتناول الغداء فرصة ذهبية للندوات الخفيفة ولم تلبث فترات الراحة ان طالت والعمل ان توزع على فرق بعضها يعمل وبعضها يستريح .. وكان ذلك كله من مصلحة اجتماعاتنا الموسعة التى حرصنا فيها على أن تكون جامعة لكل الاتجاهات الحزبية حتى يسهل كشف الحقيقة دون التواطؤ عليها ليقيننا أنه يستحيل على هذين الحزبين أن يلتقيا على اعتقاد بل كان كل منهما يسارع الى كشف ما عند الآخر فى شتى المجالات .. وهكذا ولدت فكرة الندوات الفكرية فى جو ودى للغاية وزدنا الأمر احكاما بعمل ضوابط وضمانات لاستمرار الحوار بعيدا عن كل عوامل الاثارة والتلبيس والتشنجات حتى نصل الى الحقيقة سافرة

بلا معوقات ... وقد سارت النـدوات بالفعل فى الطريق السـليم الذى نعتبره مثلا يحتذى لكل مختلفين فى العقائد اذا صـدقت النوايا وبعدت الأغراض السياسية عنها وخلت من الجهالة والأهواء .. وهيهات أن يظفر بذلك فى خضم الحياة .. وقد كانت النتيجة متكافئة بالفعل مع هذه المقدمات السليمة .. حسبما سنرى فى الحلقة القادمة ان شـاء الله من طريق سير الحوار ومما خرجنا به من دروس يهمنى توضيحهـا قبل البدء فى تنـاول جوانب الموضوع ...

الحَلقَة الثانيَة

شرُوط الحوَار وَالدّروس المستَفادة

لم نعد نشعر بقسوة طابور السخرة اليومى ، ولا بالأخطار التى كانت تتهددنا اذ كانت سعادتنا بهذه الندوة الفكرية تغطى على كل ذلك حتى أصبحنا نخشى أن تتحول الادارة عن سياستها التعسفية فتحرمنا متعة وفائدة الاستمرار فى هذه الندوة التى قلما تتاح بمثل هذا العدد الوافى فى هذا الزمن الكافى ، بهذه الروح العلمية الخالصة من كثير من الشوائب ، وسارت الأمور على النحو الذى أردناه وخططنا له فيما بيننا .

* فقد حرصنا أن تضم الندوة ممثلين عن كل الاتجاهات الحزبية المتنافرة ، وعلى أن تضم من الأشخاص من نقدر وزنهم الفردى أو مزاياهم الذاتيــة وان بدوا تحت ضغط الظروف المفروضة عليهم ذوى ألوان حزبية ، وكانت علاقاتنا الخاصة ويدنا العليا وراء اختيارنا لكل من نرى وجوده فيها حتى يتوفر جو الصراحة وعدم المخاتلة الفكرية مما ييسر كشف الحقيقة .

* كما هدفنا الى اشاعة روح جديدة ، وهى فى الواقع آداب ديننا ، حين أفهمناهم أن علينا أن نتعاون فى البحث عن الحقيقة بكل موازينها العلمية دون الوقوع تحت تأثير أفكار مسبقة أو التردى فى سلوك معيب وألا نكون أطرافا تتناحر ويتصيد بعضها لبعض ، فالأمانة أثقل من ذلك ، وتواصينا بوضوح على تنحية كل من نفتقد هذه الروح المنصفة فيه ، ولم يكن الأمر يخلو أحيانا من غلبة الطبع وكنا نبادر بالتوقف حتى تزول هذه الظاهرة وتعود روح الحياد والجد الى النقاش ، وكنا حريصين على ألا تكون هذه السقطات من جانبنا ..

* استمعنا دون ملل فترة تزيد عن الشهرين الى كل مستوياتهم الفكرية والتنظيمية بعمل قطاع طولى فى كل حزب يصل من القمة الى القــاعدة ، وكانوا يتفاوتون فى القدرة على عرض شىء واحد له نفس البداية ونفس

النهاية ونفس الأمثلة المضروبة ، هذا الشيء هو الماركسية أو النظرية كما يحلو لهم تسميتها •

غير أنهم بسبب يقظتنا وطبيعة تشكيل الجلسة وصراحة بعضهم لم نمكنهم من البداية الخادعة التى يبدءونها دائما مع أى مبتدىء وهى استعراض قصة التاريخ بصوره المظلمة استدرارا للشفقة على الطبقة المستغلة وتحريكا لروح الثأر والانتقام فى النفس فضلا عن تفاديهم الاصطدام بالموضوعات العقائدية اذا هم بدأوا بالمادية الجدلية حسب التسلسل المنطقى للنظرية ، ولم يكونوا فى حاجة الى هذه المناورة الفكرية معنا لما لمسوه من يقظتنا من جهة ومن تقبلنا النفسى لكل ما يقولونه بصدر رحب مهما تصادم مع عقيدتنا •

* كان وراء حرصنا على موقف الاستماع سببان :

الأول : هو التأسى بمسلك الرسل الكرام مع أقوامهم ، فعندما قال سحرة فرعون لموسى عليه السلام ، اما أن تلقى واما أن نكون أول من ألقى ، قال : بل ألقوا •• وعندما ذهب عتبة بن ربيعة الى رسول الله فى المسجد وأخذ يعرض عليه الملك والمال والجاه صبر عليه الرسول الكريم حتى فرغ من عروضه الطويلة ثم قال له : أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال اسمع، فقرأ عليه المصطفى صدر سورة «فصلت»، وختمها بأدب الداعية الربانى قائلا: أسمعت يا أبا الوليد، قال نعم، قال له: فأنت وذاك •

والسبب الثانى : اننا كنا – للأمانة – على شيء من التهيب فى البداية جعل ثقتنا فى أنفسنا – لا فى اسلامنا – تهتز لأننا لم نكن نتعدى مجموعة من الطلبة باستثناء اثنين من الخريجين ، وكان فى الشيوعيين مستويات ثقافية وعدد من الصحافيين ومن يحمل درجة الدكتوراه ، فكانت هذه الحقيقة وراء تخوفنا من أن نعجز علميا فى بعض الأمور التخصصية فنسيء الى اسلامنا ودعوتنا ، ففضلنا استكشاف الطريق أولا ••

* وسبب آخر يكمن فى اللاشعور دعانا الى هذه البداية المتحفظة هو حذرنا من أن تبلغ آراؤنا فى الأوضاع الاقتصادية والسياسية للسلطة التى

تتعقب أفكارنا وخواطرنا بعيونها المبثوثة التى لا تفتر حتى عن الكلمة الشاردة فى أى خطاب ، وللزملاء القدامى تاريخ معنا فى هذا المضمار مما جعلنا تتحفظ مع الجدد منهم .

* مثلما كنا نتلهف على الخروج للجبل كل صباح من أجل الندوة كنا كذلك أكثر تلهفا على العودة لاستئناف جلستنا الخاصة بعد صلاة العصر باحدى الزنازين لمناقشة ما استمعنا اليه وتقييمه علميا بحضور كل التخصصات الممكنة ممن درسوا بالأزهر الشريف أو بالجامعات ، أو ممن لهم ثقافة ذاتية ، وكانت هناك قوة خفية وراء سرعة وصولنا الى أصوب النتائج ووراء التقائنا على فهم موحد بالرغم من ضآلة ما تحت أيدينا من امكانات نحصل عليها خلسة من مكتبة السجن الممنوعة علينا فى ذلك الوقت .

* لم يكن الرضى تاما لدى بعض الأخوة الذين يعارضون سياسة الاتصال بالشيوعيين لأسباب مقنعة لديهم مما دعاهم الى محاولة تعطيل الاستمرار أكثر من مرة لولا أننا التزمنا الصبر والحكمة ودفعنا ضريبة الحب حتى لمس الجميع فيما بعد ثمار هذا العمل ، وكان للشهيد عبد الحميد البردينى والأخ محمد حامد أبو النصر الفضل الأول فى تذليل العقبات أمامنا .

* وأخيرا جاء دورنا فى الحوار ، وجعلنا البداية سهلة غير مثيرة لا تتعدى الاستفسارات وتسجيل الملاحظات وطرح ما لدينا دون الزام على سياسة (فأنت وذاك) ، وفوجئنا بأن هذه البداية البسيطة قد أحدثت بينهم أكثر مما كنا نتوقع من مجادلات وتضارب فى الآراء انتهى الى طلب مهلة للعودة الى المختصين .

ولم نلبث أن وجدنا الماركسية تتسرب نقطة وراء أخرى الى هؤلاء المختصين الذين ليسوا فى الواقع الا ممثلين فى الندوة مرة أخرى ولكن فى ندوات خاصة داخل عنابرهم على غرار ما كان يجرى بيننا ، والفارق الوحيد هو أننا كنا على علم يومى بآخر ما وصلت اليه مناقشاتهم .

* كانت المفاجأة الكبرى فيما أعلنه ما يزيد على الأربعين منهم من انفصال

عن التنظيمات الشيوعية وعودتهم الى الاسـلام ومطالبتهم ادارة السجن بتخصيص سكن مستقل ، وبدأنا بالفعل نسمع الأذان للصلاة وخطبة الجمعة بعد أن استجابت الادارة لمطلبهم •• ولم يكن جميع المستقلين على درجة متكافئة من الاسـلام بل كان فيهم من على ماركسيته قد فقد الثقـة فى القيادات الحزبية بعد معاينته لعجزها •• ومثل هذا المسـلك هو الخطوة الأولى دائما فى طريق العودة الى الطريق السوى •

وقد أدى هذا الموقف الى اتخاذ قرار جماعى من الحزبين بمقاطعـة ما نقدمه لهم من مساعدات اقتصادية ظنوها هى السبب المباشر لتحول هذه المجموعة عملا بتفسيرهم كل شيء من زاوية اقتصادية ؛ كما قصروا حضور الندوة على الرؤوس منهم دون السماح لأحد من القاعدة بحضـورها •• وقد نجحنا فى ثنيهم عن الشق الأول من القرار لاعتبارات انسانية •

* قدمنا حصيلة هذه الجولة لجميع الأخوة فى صورة بحث يتداول بينهم مرة على المستوى الفردى ومرة على المستوى الجماعى فى ندوة مفتوحـة لاستقطاب جميع المستويات العلمية فيه •

أما مغامرات كتابته واخفائه عن العيون ونجاته من التفتيشات المتلاحقة وعدم علم الادارة الغشوم به وتنقله معنا من سجن الى سجن ، ثم مغامرة خروجـه بعد ذلك فأمر شرحـه يطول ويؤكد فى النهاية أن الاجـراءات البوليسـية مهما بلغت فهى عاجزة عن أن تطفىء الشمس أو أن تصـنع الحياة •

الدروس المستفادة

وقد خرجنا من هذه الجولات بدروس عديدة فوق ما خرجنا به عن الماركسية أرى من الأهمية تسجيلها قبل تناول أى موضوع وهى :

(أولا) : قيمة وجود الحرية فى نشر الدعوة الاسلامية • فاذا كانت المذاهب الأرضية لا تجد فرصتها الا فى الأساليب البوليسية وصور الخداع الحضارية ، فان الاسـلام على العكس من ذلك • وبهذا تصير الحريـة

الحقيقية جديرة بأن تكون مطلبا انسانيا نشجع بل نعمل على وجوده فى الأنظمة الوطنية وألا ننتقص من أى خطوة الى الأمام فى هذا الطريق باعتبارها مناخنا الطبيعى ، ولأمر ما كانت الهجرة الأولى الى الحبشة لوجود عدد من الضمانات الانسانية على أرضها (فان فيها رجلا لا يظلم عنده أحد) .. وهذا ما يجعلنى اليوم أفهم أكثر من أى وقت مضى لماذا طالب الأستاذ الهضيبى أمام محكمة الشعب ١٩٥٤ بالحرية والحياة النيابية ولم أسترح يومها لهذا المطلب ولم أكن أدرك أبعاده ومغزاه .

(ثانيا) : « ان الاسلام لم يهزم أبدا فى حوار مفتوح ولا فى نقاش ريان بالحرية الفكرية » .

« ويود كل مفكر اسلامى أصيل أن تقوم ندوات عالمية يطرح فيها كل مذهب ودين فلسفته وتشريعه ويأخذ الحوار المفتوح مداه فى النقاش بين ممثلى المذاهب والأديان ابتغاء الحقيقة » .

هذا نص عبارة وردت فى العدد ٩٨ بمجلة المجتمع فى تقدمها لندوة الأهرام التى عقدت بين القذافى وبعض المفكرين المصريين وهذه العبارة تعبير صحيح عن حاجة العصر .. بقى أن نقول : ان هذا الذى ننادى به موجود فعلا اليوم على الصعيد العالمى والاسلام هو وحده الغائب عن مائدة الحوار .. ذلك أن ظاهرة المؤتمرات الدولية الفكرية أو العقائدية قد ظهرت فى النصف الثانى من القرن العشرين فى أعقاب الخلاف الصينى الروسى الذى تطلب لفضه كثيرا من اللقاءات العقائدية شاركت فيها مختلف الأحزاب الشيوعية ، ثم انتقل هذا التقليد الى جميع الدول الاشتراكية .. وكلنا يذكر زيارات وفد الحزب الشيوعى الروسى وعقده ندوات فكرية مع الاتحاد الاشتراكى العربى وغيره من الأحزاب العربية ، وكذلك ما عقدته هذه الأحزاب فيما بينها فضلا عن اللقاءات الفردية التى قام بها جارودى ومكسيم وأخيرا تلك التى عقدت مع الرئيس القذافى بجريدة الأهرام فى ابريل سنة ١٩٧٢ ثم ما دعت اليه ليبيا من ندوة اسلامية على أرضها ..

هذه الظاهرة هى احدى الميادين الخصبة لو أحسنت قوافل العمل الاسلامى أخذ مركز الاستاذية فيها .

(ثالثا) : ان البلاد الشيوعية التى يحكمها الحزب الواحد على رأسه سكرتير له الكلمة الأولى والأخيرة هى التعبير الحديث عن القبيلة القديمة وهى بذلك ميدان من نوع خاص للدعوة الاسلامية اذا أحسنا دخولها من فوق شيخ القبيلة .. فهو عندما تتغير عقيدته فان التغيير يسرى فى جميع أفراد القبيلة ، كذلك دخل التتار والأتراك الاسلام وقبلهما كثير من قبائل العرب والبربر وكذلك حدث فى عصرنا الحديث مع دوبشك بتشيكوسلوفاكيا ، وامرى ناجى بالمجر ، وتيتو بيوغوسلافيا ، وكاسترو الذى كان معاديا للحزب الشيوعى المحلى بكوبا ومعلقا لصورة العذراء على صدره فلما تحول تحت الضغط الأمريكى الى الشيوعية جر كوبا وراءه .

والنفس البشرية لا تستعصى على الحق ان دخل على النفس من أقطارها ..

(رابعا) : ان مسئولية الاسلاميين كبيرة أمام كل من يرفع راية الاسلام وينادى بها وقد شهدنا هذه الأيام صوت الدعوة يرتفع من منبر السلطة وهى ظاهرة جديدة معناها كما تقول نص عبارات المجتمع فى عددها ٩٥ :

« فى ليبيا اليوم اتجاه واضح نحو الاسلام .. ومن غير تنقيب فى ضمائر الناس ينبغى ألا يكون الموقف سلبيا من هذه التجربة .. ان موقف الفرجة على ما يجرى ليس موقفا سليما ولا حصيفا فهناك أكثر من اعتبار يدعو المهتمين بقضايا الاسلام الى الاطلاع على القضايا المثارة فى ليبيا ومتابعة تطوراتها بوعى وانتباه » .

(خامسا) : لظروف تاريخية أصبحت الاشتراكية ينادى بها فوق أرضنا ولكن لايجب أن يغيب عن المفكرين الأمناء أن أساتذة الاشتراكية فى العالم يعتبرونها مرحلة بين عصرين وهذا ما دعا الدول الشيوعية الى أن

تحتفظ لأحزابها السياسية باسم الحزب الشيوعى دلالة على صفة المستقبل الذى سينتهون اليه برغم الواقع الاشتراكى .

أحرى ببلادنا ومفكرينا أن يعبروا عن ملامح مستقبلنا وكل الدلائل تشير الى الاسلام وحده كمستقبل لنا بعد افلاس جميع حلولنا المرحلية .. وعلى المفكرين أن يدركوا ذلك ويعملوا له والا خانوا الأمانة وأوقعوا شعوبهم فى غيبوبة الشكوك .

(سادسا) : كان لسماعنا الماركسية من أفواه معتنقيها واحتكاكنا بهم عن قرب وتعاملنا اليومى معهم أثر كبير فى تقييم موضوعاتها من خلال رؤيتها كواقع يومى يتعايشون به وتتحكم فى سلوكهم .. وهذا ما لم يكن ليتوفر لنا من خلال قراءة الكتب وحدها ..

(سابعا) : ان هذا البحث قد كشف لنا عن قيمة العمل المشترك الذى تتوفر عليه كل المستويات فى أخوة وتجرد .. فقد كنا جميعا نصب فيه بين الحين والحين بحيث يستقطب باستمرار كل ما لدينا من معرفة .. وهذا هو جوهر العمل المطلوب فى مرحلة الدعوة حتى لا تتوزع على مدارس فكرية فى الموضوع الواحد ..

وهو اليوم معروض أيضا للمشاركة والاضافة الجديدة والنقد من أى انسان فهذا عين ما تتمناه لأنه لا وقت للخلافات الصغيرة ولا للغيرة المصطنعة فالكمال لله وحده .. وآمل أن يصلنا ما يفيد فى دفع الموضوع خطوة أخرى الى الأمام ..

(ثامنا) : لم أقف اليوم عند حدود الحجج التى سقناها فى ندوتنا مع الشيوعيين حيث لم أر بأسا من تقديم ما هو جديد من العلم فى بابه وان كان ما لدينا يومها كان كافيا لاحداث النتائج السابقة .

(تاسعا) : أود التذكير بأن عطاءنا اليوم لهذا العالم الحائر هو نفس عطاء الصدر الأول ، فهم لم يخرجوا على العالم ليطوروا الصناعات وأساليب الزراعة وان كان كل ذلك قد حدث فعلا على أياديهم بل خرجوا ليغيروا

النفوس فى الدرجة الأولى وليقدموا للبشرية المنهج الربانى القويم فى علاج كل قضايا الانسان .. قدموا لها التوحيد بدل الشرك ، والحب بدل الصراعات ، والأخوة بدل العصبيات ، والعدالة والكرامة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وأحلوا لهم الطيبات ، وحرموا عليهم الخبائث ، ووضعوا عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

وهذه هى رسالة الرسل وهى أيضا رسالتنا اليوم وهى مجال أستاذيتنا وهذا سيكون مفتاح أستاذيتنا الراشدة فى المجالين فيما بعد ..

(عاشرا) : ان حقائق التاريخ ملك للأمة العربية والأمة الاسلامية كلها وليست ملكا لأى فرد أو سلطة ، ومن الأمانة الواجبة على الجميع أن يفتحوا النوافذ ليدخل الضوء والهواء ولكى تراجع الأمة كل ما جرى على أرضها لكى تأخذ منه الدروس والعبرة وتختصر الطريق الى النهضة الحقيقية وقد بدأت بوادر ذلك بمصر مما نرجو له التقدم وعدم الانتكاس حتى لايطبق الظلام مرة أخرى على حياة الشعب ويبحث بين جدران السجون عن الطريق . فالبحث الدائر اليوم فى ضوء الشمس أجدى وأنفع للحاكم والأمة على السواء ولكل مخلص فى البحث عن الحقيقة . فى انتشال أمتنا من الضياع .

وبذلك نكون قد وصلنا الى الموضوع الذى نبدأ فيه بعرض موجز للماركسية وكانت هذه المقدمة ضرورية ليعيش القارىء معنا فى نفس الظروف ويتحمل معنا قدرا من المسئولية .

الحلقة الثالثة

قل هاتوا برهانكم ...

نموذج ... من سماحة الفكر الإسلامي
في الإصغاء - في الصبر - في سعة الأفق

انتهى بنا مطاف اللقاءات العابرة والأحاديث المتفرقة عند خطوط الهدنة الى صورة الندوة الكاملة على الشكل والنهج اللذين أوصحتهما فى الحلقة السابقة .. وأخذنا فى الاستماع الى الماركسية وسط جو العمل الدائر حولنا ، وقد أخذنا حذرنا من المرور المفاجىء لأحد ضباط الجبل فتسلحنا بأدوات العمل بأيدينا أو بجوارنا ..

وبعد أن نجحنا فى فرض البداية الطبيعية للماركسية وهى المادية الجدلية .

وبعد أن أزلنا مخاوفهم من أى رد فعل مهما كان عرضهم متصادما مع عقيدتنا واسلامنا .. وبعد أن زكينا مبدأ الصراحة والتعاون المشترك فى البحث عن الحقيقة .

ألقينا السمع الى الزميل الذى اخترناه ليتولى العرض لما لمسناه من صراحته وتشجيعا لبقية زملائه على اقتفاء أثره .. ولم ينس هو بدوره أن يقدم نفسه قائلا :

— « يهمنى قبل البداية أن أزيح الستار عن سر كبير لم يعد سرا كى لا تتوهموا أن صراحتى التى اشتهرت بها مبعثها غفلة أو سذاجة حركية أوقعتنى فى حبال أسلوبكم ؛ لأن فن التجنيد للحزب هو هوايتى ؟ وانما سر هذه الصراحة هو أنها أصبحت لا تضر لأن انتصار الشيوعية فى مصر أصبح حتميا وكل يوم يمر يقرب من هذه الحقيقة وأمام هذا اليقين الجازم الذى تعددت شواهده تنتهى كل مبررات الخوف والحذر . واذا شئتم تحديدا

لهذا اليوم الموعود فانه بكل ثقة واطمئنان سيكون مع آخر حجر يوضع فى بناء السد العالى .. يومها سنكون قد ركبنا على البلد « بالخسروان » .

قلنا : فلندخل الى الموضوع اذن ، ولنطامن قليلا من أحلامك ..

قال : المادية الجدلية هى الاطار الفلسفى أو الأساس العقيدى للماركسية .

والفلسفة عموما ، هى تفسير وتغيير أى تقوم بتفسير الوجود بغية احداث التغييرات اللازمة فيه ..

* والفلسفة المثالية عموما هى تلك التى محورها الاعتقاد بوجود خالق يعتبر مصدر الوجود ومصيره والتى تستند الى القوى الغيبية فى تفسير الظواهر المادية أو ترى وجود الفكر متقدما على وجود المادة وهى فى ايغالها فى التصورات الخيالية قد بعدت عن الواقع حتى أفسدته ..

ومهما تباينت المذاهب المثالية فيما بينها فى شكل ديانات سماوية أو فلسفات أرضية فكلها قامت كتعبير عن العجز العلمي في تفسير الظواهر الطبيعية بالاحالة الى قوى غيبية .. وكلها حملت كسلاح معنوى في يد الطبقة المالكة المستغلة في قهر وتخدير الطبقة المعدومة المستغلة .

* أما الفلسفة المادية فهى التى تبدأ من المادة بدراستها ومعرفة قوانينها معتمدة فى ذلك على المنهج التجريبى ؛ فكانت وحدها القادرة على تفسير جميع ظواهر الوجود تفسيرا علميا صحيحا ، ومن ثم فهى بحق الجديرة بوصف الفلسفة العلمية .

والفلاسفة الماديون يذهبون الى أن المادة وجدت أولا وأن الفكر وجد تاليا لها وأنها فى رأيهم أزلية لم يخلقها أحد وأنها أبدية ؛ ولا توجد أى قوة فوق الطبيعة أو خارج العالم ؛ وهناك بالطبع فلسفات ثنائية لا تقول بأولوية المادة أو أولوية الفكر وانما تثبت للعالم أساسين منفصلين ومختلفين فى طبيعتهما : المادة والروح . الطبيعة والفكر . الجسم والعقل ، وتلك كانت نظرة ديكارت . وهناك الفلسفة الوضعية التى تكتفى ببحث الحقائق

التى تصلح أن تكون موضوعا للملاحظة دون البحث فيما وراءها سواء كان ماديا أو روحيا .

وكما قلت قبل ذلك أن الفلسفة المادية من دون ذلك كله هى الفلسفة العلمية .

وقد عرفت المادة قديما بأنها كل ما تقع عليه الحواس .. وعرفت حديثا بأنها الوجود الموضوعى خارج الذهن . وللمادة قوانين ثلاثة :

١ ــ المادة سابقة فى الوجود على الفكر ، بمعنى أن الفكر هو نتيجة التطور التاريخى للمادة ، انه خاصة لجسم مادى مركب تركيبا معقدا وغير عادى هو مخ الانسان .

٢ ــ برغم أسبقية المادة للفكر وولادتها له الا أن الفكر يشكل المادة ويغيرها .

٣ ــ المادة تخضع لقوانين عامة ثابتة تسمى قوانين الجدل هى :

(أ) قانون التناقض : أى ظاهرة وجود الشىء ونقيضه فى وحدة واحدة تسمى وحدة الأضداد : السالب والموجب .. الحرارة والبرودة ، النور والظلام ، الاليكترون والبروتون فى الذرة ، كرات الدم الحمراء والبيضاء فى بلازما الدم ، الذكورة والأنوثة .. وهكذا ..

(ب) قانون الحركة : كل شىء متحرك ، وهذه الحركة هى نتيجة صراع الأضداد ، فالحركة تأتى من الداخل لا من الخارج ، وهى تسير فى خط حلزونى متزايد .

(ج) قانون التغير : الصراع حركة ، حتى اذا ما أضيف شرط خارجى الى الحركة تبدأ ظاهرة التراكمات الكمية أو ما يسمى بالتغير الكمى الى أن يتكون ما يسمى بالكم الثورى أى القدر الكافى من التراكمات ، لاحداث تغيير مفاجىء فى الظاهرة المادية ، فعندما يسمى بالنتوء أو بنقطة الصفر أو باللحظة الحرجة يحدث التغير المفاجىء أو الثورة فنحصل على حالة جديدة

تصير اليها الظاهرة المادية وهو ما يسمى بالتغير الكيفى أو النوعى ، وهو مفهوم التطور أى دوام الانتقال بالحركة من التغير الكمى الى التغير الكيفى وهكذا الى ما لا نهاية ، فاذا أوقدنا على اناء به ماء كانت النار هى الشرط الخارجى الذى يدفع حركة جزئيات الماء حتى تصل الى الكم الثورى وعند اللحظة الحرجة (١٠٠°) تنقلب بخارا أى تصير كيفا آخر أى تتطور •

(د) قانون الترابط : جميع الظواهر المادية مترابطـة ، يؤثر الكل فى الجزء والجزء فى الكل • ذلك يوضع فى الاعتبار عند بحـث أى قانون ، والقوانين الثلاثة تعمل فى اطار القانون الأخير •

منهـج البحث : ما سـبق ذكره هو المنهج العلمى فى البحـث •• فالفلسفة المادية هى الفلسفة العلمية ، والمنهج الجـدلى هو المنهج العلمى وهذا المنهج ينطبق على المادة فى مراحل تطورها وينطبق أيضا على الانسان باعتباره ظاهرة مادية فمن خلال التطورات الجيولوجية التى تقلبت الأرض فيها من خلال تفاعلات كيمائية وبيولوجية فى عصور جيولوجيـة سحيقة نشأت الخليـة الحية •• وظلت تتطور بدورها من خلال ظاهرة النشـوء والارتقاء وبفعل قوانين الجدل حتى وصلت الى الانسان باعتباره قمة هذه السلسلة الطويلة •• وفكره عملية مادية متطورة بل هو أرقى ما وصلت اليه المادة من تطور وهو حصيلة تجارب مادية مختزنة ولدت القدرة على ربط النتائج بالمقدمات والأسباب بالمسببات •• فالانسان من ثم لم يخرج عن كونه ظاهرة مادية على قمة سلسلة التطور سعادته فى اشباع رغباته المادية ، حريته فى تحقيق ضرورياته أى تحريرها من أسر الطبيعة بالعلم أو من قبضة المستغلين بادراك قوانين التطور الاجتماعى •

* والمنهج العلمى فى البحث يتلخص فى البحث عن الأساس المـادى أولا فى الظاهرة محل الدراسة لنحقق بذلك قانون المادة الأول وهو أسـبقية المادة على الفكر ، ثم بعد ذلك نبحث عن فعل قوانين الجـدل داخل هذه الظـاهرة • ونبدأ بالكشـف عن قانون التناقض ثم تـتابع الصراع بين النقيضين أو تركيه بينهما وهذا هو مدى الدور البشرى فى الفعـل حتى

يتحقق التغير الكمى فالتغير الكيفى .. كل هذا من خلال ادراك قانون الترابط ..

وبتطبيق هذا المنهج المادى الجدلى على التاريخ أى على المجتمعات البشرية باعتبارها ظاهرة مادية يمكن تقسيمها الى عصور مختلفة من خلال ما يسمى بالتفسير المادى للتاريخ أو المادية التاريخية ..

* انقضى يوم من أيام العمل بالصحراء بل انقضت أيام ونحن نستمع الى المادية الجدليـة وتطبيقاتها ، وهى تلك التى أوجزناها فيما سبق ، وعبر الشيوعيون بذلك عقبة كؤودا طالما كانوا يروغون منها والآن وقد وقع المحظور ربما يكون قد راودهم الأمل أمام صمتنا بقرب اقتناعنا بهذا العرض المسبوك .. ولم نشأ أن نتخلى عن الصمت حتى آخر كلمة فى الماركسية .. وتناقشنا فى عنبرنا فى كل ما سمعناه ؛ وفى الجلسة التاليـة راق للزملاء أن يقدموا قبل البداية قصة ما حدث للزميل (ع . ط) ورحنا نستمع اليه وهو يسرد ما وقع له حتى انتزع تقدير اللجنة المركزية للحزب فقررت له جائزة كبيرة لأنه كشف عن ايمانه بالمادية ... وبهذا يستأهل مكانه فى المراكز القيادية المقصورة على من تمت صبغتهم المادية .. قال « كان ذلك ونحن مرحلون بالسلاسل الى هذا السجن حيث قام القطار قبل أن يتم نزولنا جميعا من العربة مما أوقع البعض على الأرض وأخذ يتدحرج بجوار عجلات القطار . وكنت من هذا البعض .. وكدت أستغيث بالله وأنا أرى العجلة تكاد تلتهمنى ؛ ولكننى تذكرت أن ايمانى بالمادية يتناقض مع هذا الخاطر فقررت أن أنجح فى هذا الامتحان ؛ ونجحت ولم تخرج الكلمة من فمى . ولقد احتفل الحزب بهذا الموقف وكافأنى عليه ..

— انبرى أحد الأخوة الظرفاء معقبا على هذا المشهد الساذج قائلا : التجربة لم يتوفر لها الشروط الموضوعية يا زميل حتى تخرج منها بنتيجة صحيحة ..

قال : ماذا تعنى ؟

قال : أعنى أنه كان يلزم مرور العجلة فعلا على جسمك أو أى عضو فيه لترى أتثبت على هذا الاعتقاد ؟! ومع كل فان مجرد ورود هذا الخاطر بذهنك فى هذه اللحظة دون غيره من عشرات القضـايا والأشخاص الذين تقدسهم يعتبر حجة عليك لا لك .. لنا عود بعد ذلك فى موضعه ولنستأنف الحديث .. وبدأ الزميل يتكلم عن التفسير المادى للتاريخ كأحد تطبيقات المادية الجدلية ..

قال : مر التاريخ البشرى بالعصور الآتية :

أولا : عصر المشاعية البدائية : هو عصر انتشار ظاهرة القبائل على سطح الأرض ، وعصر الرعى والصيد والأساس المادى للقبيلة فى هذا العصر كان يتمثل فى وسائل الانتاج البدائية كالعصا والرمح حيث تتملكها القبيلة كلها على سبيل الشيوع ..

كان المجتمع البشرى ــ مجتمع القبيلة ــ طبقة واحدة من الناحيـة الاقتصادية .. من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته ، ومن ثم فلم يكن فى هذا العصر أى استغلال بكل مساوئه الاجتماعيـة ، بل كان الموجود مجرد تقسيم للعمل بين أفراد القبيلة .. وحيث أنه لم يكن هناك صراع طبقى داخل القبيلة لعدم وجود الملكية الخاصة وما توجبه من اسـتغلال لذلك ، فان التناقض الرئيسى كان بين المجتمع البشرى والطبيعـة من أجل الحصول على الرزق وتفسير ظواهرها ..

ولم تظهر فى هذا العصر سلطات الدولة اذ كان شيخ القبيلة يقوم بحل المتناقضات الثانوية بين الأفراد عن طريق المصالحات فى الأغلب والجـزاء الأبوى فى الأقل ..

كانت مشاعية الجنس احدى الملامح الاجتماعية لهذا العصر لأن المرأة لم تدفعها الحاجة الاقتصادية الى التبعية للرجل ولم يظهر شكل الأسرة الا فى العصور التى عرفت مبدأ الملكية الخاصة حيث سرت عدواها وانتقلت من الأرض الى الأدوات والدواب والنساء .

كانت عبادة « الطواطم » هى أول مراحل تطور المعتقدات وقد نشأت نتيجة عجز الانسان عن تفسير الظواهر الطبيعية فاختلطت الرهبة في نفسه بالاعجاب والاندهاش فعرف معنى التقديس واتخذ من بعض هذه الظواهر كالأشجار والحيوانات والأحجار معبودات يتقى شرها ويرجو خيرها ويقرب اليها القرابين .

وهذا العصر يعتبر عصرا نموذجيا فى علاقة الانسان بأخيه الانسان برغم شحة الموارد ، تلك العلاقة الخالية من أى صراع طبقى وبالتالى من جميع صور الاستغلال .. والبشرية فى تطورها الدائم ترنو الى الوصول اليه مرة أخرى فى صورة الشيوعية العالمية ..

ثانيا : العصر العبودى : بدأ باكتشاف الزراعة من خلال العلاقة الجدلية بين الانسان والطبيعة .. وكانت الأرض ــ وسيلة الانتاج الطبيعية ــ هى الأساس المادى لذلك العصر ، وباكتشاف الزراعة عرف فائض الانتاج الذى استثار غرائز المستغلين الى تسخير الغير فى العمل للعيش على فائض انتاجهم .

فبتملك وسيلة الانتاج الجديدة التى هى الأرض نشأت الملكية الزراعية ، وبهذا يبدأ انقسام المجتمع الى طبقتين : طبقة الأسياد وطبقة العبيد ، ونشب بينهما الصراع فكانت مصلحة السيد هى الملكية وتأكيده لها والحصول على فائض الانتاج منها وفى مقابل هذا يقوم بترضية العبيد بالقليل .. وكانت مصلحة العبيد فى التحرر من ذلك .

* فى هذا العصر نشأت سلطة الدولة كسلاح مادى فى يد الأسياد المستغلين لقهر طبقة العبيد ، كما استخدموا ظاهرة الدين كسلاح معنوى لنفس الغرض ولترضية طبقة العبيد بالواقع ولهم العزاء فى دار أخرى يعوضون فيها عن حرمانهم في الدنيا .

ونشأت ظاهرة الأسرة فى علاقة الرجل بالمرأة وتتلخص فى ملكية **السيد لعدد من النساء فى اطار ملكيته لوسيلة الانتاج الطبيعية التى هى**

الأرض مما استدعى لحسن استثمارها أن يقوم السيد بتملك وحدة اجتماعية تساعده على ذلك متمثلة فى ملكيته لبعض الآلات والدواب والنساء ، وكان حجم الأسرة يتناسب طرديا مع حجم الملكية •

كانت الدولة المصرية القديمة والامبراطورية الرومانية من نماذج العصر العبودى ••

* بفعل قوانين الجدل اشتد الصراع بين الأسياد والعبيد كطبقتين متناقضتى المصالح •• فشلت بعض حركات التحرر التى قام بها العبيد ، مثل ثورة اسبارتاكوس الذى ثار على رأس مائة ألف عبد ضد الامبراطورية الرومانية • وأخيرا تم التغيير بعد أن أصاب هذا التغيير الأساس المادى أولا فى المجتمع العبودى - أى بعد أن تغيرت وسيلة الانتاج - وهى هنا العبيد باعتبارهم وسائل انتاج كالآلات والدواب حيث تراكمت مشاعر السخط فى نفوسهم حتى أصبحت مهيأة للثورة على أسيادهم •• وكانت لحظة الصفر فى استجابتهم لغزو خارجى قام فيه الجيش الفاتح بتقسيم البلاد على الأسياد الجدد الذين عرفوا بالاقطاعيين ، ونال العبيد فى ظل هذا الوضع الجديد بعض الحرية المتمثلة فى السماح لهم بتملك قطعة صغيرة من الأرض لكل منهم بجوار عمله فى مزرعة السيد الاقطاعى ، وهذا ما يميز عصر الاقطاع عن العصر العبودى ، فالاقطاعيون والاقنان هما الحالة المتطورة للأسياد والعبيد ••

ثالثا : العصر الاقطاعى : أساسه المادى هى وسيلة الانتاج الطبيعية - أى الأرض - والعلاقة الانتاجية هى بين الاقطاعيين ورقيق الأرض أو الاقنان •• وقد تطورت هذه العلاقة الانتاجية من العلاقة السابقة بين الأسياد والعبيد حيث سمح للعبيد بتملك أجزاء محدودة من الأرض لكن الأمر لا يخرج فى مجموعه عن قبضة الاقطاعى •• وكلا العصرين العبودى والاقطاعى يوصفان بأنهما عصور الرق وأساسهما المادى واحد •• الأرض ••

وتعرف عصور الرق بأنها ذلك النظام الذى يستطيع فيه شخص -

نظرا لتملكه وسائل الانتاج ـ أن يتحكم فى أرزاق وحريـات الآخرين .. ويحمل العصر الاقطاعى ملامح العصر العبودى من حيث مظاهر الصراع الطبقى ولكن فى صورة أكثر تطورا .

وباستخدام منهج المادية الجدلية فى معرفة كيف تطـور هذا العصر حتى وصـل الى العصر الرأسمالى يلزمنا أولا البحث عن سبب مـادى ثم البحث عن فعل قوانين الجدل فيه .. أى يلزمنا البحث فيما أصاب وسـيلة الانتاج من تطور ، وقد تطورت وسـيلة الانتاج بالفعل عندما خصـص الاقطاعيون فريقا من الرقيق للقيام بالخدمات الحرفية والتجارة ... كبرت هذه الفئة وخاصة ما كان منها بالمدن محيطا بالملك وحاشيته وقواده وسميت بطبقة البرجوازية (سكان المدن) أو الطبقة الرأسمالية نسبة الى رأس المال الذى أخذ شكلا جديدا بين هذه الطبقات الوليدة هو رأس المال السـائل (النقود) أو رأس المال الثابت (ورش مصـانع) .. وهذا هو التطور المادى الذى أصاب وسيلة الانتاج حيث أخذت شكلا جديدا متقدما وقائدا هو رأس المال بدل الأرض .. وحينئذ تعارضت مصلحة الطبقة البرجوازية أو الرأسمالية مع مصلحة طبقة الاقطاعيين ، ولا تنس أن هؤلاء الرأسماليين هم فى الأصل من نسل رقيق الأرض الذى كان مخصصا لخدمة الاقطاعيين .

اشتد الصراع بين الطبقتين ، فكانت مصلحـة الرأسماليين هى هدم هذا الشكل الاجتماعى وتمزيق هذا الغلاف الذى يعوق حركتهم ولا يخدم الا مصلحة الاقطاعيين ، فتجارة الرأسماليين تتعرض للمخاطر أثناء مرورها بالاقطاعيات فضلا عن دفعهم كثيرا من الضرائب على عبورها من اقطاعيـة لأخرى .. كما أن الرأسماليين يحتاجون الى الكثير من الأيدى العاملـة من الريف لتشغيل مصانعهم التى اتسـعت بعد الاكتشافات العلمية ولكن الاقطاعيين لا يأذنون لهم بمغادرة الاقطاعيات ..

كما أن استمرار القيود الاجتماعية والتشريعية التى كانت تميز بين الأشراف والرقيق فى الوظائف والتقاضى والتعليم وكافة مظاهر الحياة كانت

تنطبق أيضـا على الرأسماليين باعتبارهم امتـدادا عضويا لطبقة الرقيق ووارثي أوزارهم ..

لذلك كله اشتد الصراع بين الطبقتين ورفعت البرجوازية شعارات الاخاء والمساواة والحرية ، ودعه يعمل دعه يمر ، اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس ، واستخدمت كافة الأسلحة المـادية والمعنوية بين الطرفين ، وتحالفت الكنيسة مع الاقطاع ، وتراكم الكم الثوري في الطبقة البرجوازية حتى اكتمل بقيـام الثورة الفرنسية بشـعاراتها المعروفة والتي كانت أول انتصـار للطبقة البرجوازية على طبقـة الاقطاعيين وكانت بدايـة العصر الرأسمالي .. وتصادف في هذه الفترة وجود بعض الشخصيات التاريخية .. ولكن علينا ألا نغالي في نسبة الأحداث اليهم حتى لا نقع في تفسير يخالف منطق المادية الجدلية التي تسند الفعل والبطولة الى حركة الطبقة ككل .

*** وافترقنا بعد هذا العرض على لقاء جديد في اليوم التـالي .. وابادر بتبصرة القارىء ببعض الأمور التي تساعد على سهولة المتابعـة ..**

١ ـ نلاحظ ان الزميل قد طبق منهج المادية الجدلية على احداث التاريخ وهذا التزام عقائدي صرف مسبق اضطره الى تطويع الأحـداث لتساير منهجهم في التحليل ..

٢ ـ ونلاحظ نظرتهم الى الملكية الخاصة باعتبارها نفوذ اجتمـاعي يسبب لاستغلال وانها وراء الانقسـام الطبقي ، والصراع البشري ، وهذا ايضا تبرير عقائدي تجاه الملكية سيضطر ماركس فيمـا بعد الى مؤازرة هذا الموقف الانتقائي العقيدي المسبق بتحليلات اقتصادية حول موضوع فائض القيمة لكي يؤكد بالتحليل ما اعتقد مسبقا ..

٣ ـ هذا الذي سقناه في ايجاز اخذ منا اياما كثيرة من الاستشهادات باقوال العلماء في كل موضوع اجتماعي او عقائدي أو سياسي على حدة من خلال ربطها بالنسيج العام للموضوع ..

٤ ـ في الحلقة القادمة ان شاء الله سنفرغ من الماركسـية ثم نتابع كل اجزائها في ضوء العلم ، وهذا العرض ييسر على القارىء أمر المتابعة والمشاركة معا ..

الحلقة الرابعة

الأفكار .. في المحك العملي

دور السلوك .. في تقييم الفكرة والمذهب

* لم تكد تمضى عدة أيام على ندوتنا مع الشيوعيين حتى اكتشفنا فيهم شيئا جديداً .. أهم من الموضوع المثار .. أى أهم من مواصلة الاستماع الى الماركسية .. قد لا يبدو هذا الشيء ملفتاً للنظر أو دقيق الخطر ولكنه كان لدينا ذا مغزى ودلالة كبيرة فى تقييم أصول النظرية ذاتها .. قد يبدو هذا الكلام مبالغاً فيه لكل من لم يعايش أصحاب العقائد والمذاهب عن قرب واستغنى ببريقها فى الكتب عن رؤية الواقع والاحساس به .

* هذا الشيء الذى اكتشفناه أو بالأحرى تعمق اكتشافنا له مطلوب رؤيته دائماً لدى من يدعى الايمان بشيء .. ديناً كان هذا الشيء أو مذهباً أو فكرة .

ومطلوب رؤيته فيمن يدعى الايمان به ، فردا كان هذا المدعى أو جماعة أو دولة .

ومطلوب رؤيته على كل حال يمر به هذا الايمان .. يسرا كان هذا الحال أم عسراً ، رخاء أم شدة ، محكوماً أو مبوءاً سلطة .

* هذا الشيء البسيط العجيب معاً .. هو السلوك ..

نعم السلوك اليومى من قول أو عمل اذ هو الثمرة الختامية لهذه القضية الكبيرة .. قضية العقائد والتشريعات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .. هو الثمرة الختامية بطعمها الحلو أو المر .

* والثمرة فى وضعنا الراهن بكل ملابساته التى أوضحتها فى الحلقتين الأوليين كنا نراها ونتذوقها فى العبارة الشاردة والحكاية العارضة والنكتة العابرة والمواقف المتجددة التى يشركوننا معهم فيها ولم يكن الأمر ليشغلنا لو

وقف عند حدود السلوك الفردى لأن الانحرافات الفردية لا يخلو منهـــا أى نظام ولكن عندما تصبح الظاهرة عامة ومحل رضا من الجميع فانها فى هذه الحالة تكون شيئا آخر خلاف كونها مسلكاً فردياً ..

* ففوق ما يقوم به العلماء والمتخصصون من تناول الأصول النظرية بالفحص والتحليل ، يقوم التطبيق العملى بأخطر عمليات التقييم ، بما يكشـــف عنه من آثار هذه الأصول النظرية فى حياة الناس العمليـــة ومن نصيب كل فرد من هذه الآثار فى معاملاته وقيمه وفى مشاعره وأمانيه ؛ وهل هو فى كل ذلك قد أشبع حاجاته كلها أم ما زال طالباً لها ، وهل تمتع بحرية حقيقية أم ما زال مقيداً ، وهل هو فى النهـــاية قد ظفر بســـعادة الرضى والطمأنينة أم ما زال حائراً .

* هذه الآثار الختامية هى أهم وسائل قياس صلاحية أصول أى نظام وهى مؤشر الصدق فيها .. بهذا قضت تجارب القرون ونطقت أوليات الايســـان وكشفت موازين الحضارات ان الزبد يذهب جفاء وان ما ينفع الناس يسكث فى الأرض .

حتى الاصحاح السابع من انجيل متى يقول : « احترزوا من الأنبيـــاء الكذبة الذين يأتونكم فى ثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة ، من ثمارهم تعرفونهم .. هكذا كل شجرة طيبة تخرج ثماراً طيبة ، وأما الشجرة الخبيثة فتخرج ثماراً خبيثة .. فاذن من ثمارهم تعرفونهم » .

* لذلك كله فقد تولد لدينا الحرص على جمع أكبر عدد من هذه الثمـــار أى من الحكايات والتصرفات التى تجاوزت المستوى الفردى الى مستوى الرضا الجماعى .. وكنا نفسح لها وقتا فى بداية كل حلقة من حلقات الندوة فهى لا تقل أهمية لدينا عن موضوعات الماركسية ذاتها .. الأمر الذى لن يتوفر لنا معرفته من قراءة كل الكتب ...

لذلك كان ترحيبنا صادقا بالاستماع الى أحد الزملاء وهو يحكى طرفا من النوادر الصحفية قبل استئناف الكلام عن التفسير المادى للتاريخ .

قال : الوقت كما تعلمون هو رأسمال الصحفى : والسبق هو ربحه ·· ولا يمكن متابعة الأحداث من توفيرهما فكان لابد للصحفى الناجح من سبق الأحداث ذاتها ··

— حل لنا هذه الألغاز

قال : حلها بسيط ·· كنت اذا كلفت بعمل تحقيق صحفى مثلا عن موكب الرئيس من الاسكندرية الى القاهرة ·· اجلس الى مكتبى على الفور فى اليوم السابق على الموكب واتخيل مظاهر الاستقبالات الشعبية فى كل محطة سيقف فيها القطار وأتنبأ بما قد تقوم به الجماهير من تصرفات جنونية وحماس منقطع النظير ·· اتخيل اللافتات والهتافات وكل كبيرة وصغيرة ·· وفى اليوم التالى تكون مصاحبتى للموكب من باب السياحة والاحتياط للمفاجآت التى قد تستجد حتى اذا ما وصل الموكب الى القاهرة كنت أسبق منه وصولا الى دار المجلة بتحقيقى المدعم بالصور ·· أما اذا التزمت متابعة الأحداث أولا ثم قمت بتسجيلها فهذا مالا يحقق السبق المنشود ··

قاطعه زميل آخر : لكن ما رأيك فى « ساندوتش فول مع مارلين مونرو » ذلك التحقيق الذى أدهشت به الوسط الصحفى كله ·· لقد عثرت عليها يا حضرات الأخوة وهى متنكرة فى زى غريب فى احدى صالات باريس وكنت الصحفى الوحيد الذى عثر عليها من بين عشرات الصحفيين من جميع أنحاء العالم ، وأنقذت نفسها منى بأن قبلت أن تتناول معى ساندوتش فول وتجيب على جميع أسئلتى بشرط ألا أكشف عن شخصيتها وقد أعربت فى حديثها عن اعجابها بناصر وبنهضة الجمهورية العربية و ·· و ·· الخ ·

وبالطبع كان الحديث مدعما بالصور التاريخية لى معها ··

قلنا وأى غرابة فيما قمت به ·· وهل اكتشافك لشخصيتها عمل غير عادى ·

قال : طبعا ·· لأن اكتشافى لها وحديثها معى المدعم بالصور قد أخرجته عبقريتى وأنا جالس على قهوة بحى الحسين أتناول ساندوتشا من الفول أوحى الى بهذه الفكرة ·· أما سؤالكم عن الصور فهو من سر المهنة ·

زميل ثالث : ما كنت أقوم أنا به يعتبر أصعب من ذلك كله .. قلنا : هات ماعندك . قال : كنت أتقمص شخصيات نسائية تتفنن فى عرض مشكلتها العاطفية على المجلة وأقوم مرة آخرى بالرد عليها .

فضحكنا وقلنا : لاشك يا زملاء أن زميلكم هذا هو أكثركم ثورية لأنه زاد على كل ما فعلتموه وهو أجدر برئاسة تحرير جريدة تقدمية .

ولما أصر زميل رابع على سرد واقعة حدثت له قلنا : كفى ما سمعنا من الزملاء اليوم حتى لا نجور على وقت الندوة .. ولكنه أصر فقلنا : ألديك جديد غير ما سمعناه !

قال : لدى ما هو جديد وجرىء معا والله .

قلنا : أو قلتها ؟ !

قال : ان لسانى لفظها بحكم ما فى النفس من رواسب المجتمع البرجوازى وهى لا تعنى عندى ايمانا بالله ، ولا شك أنه بقيام العصر الشيوعى ستتخلص النفس من رواسب فترة الانتقال ويظهر الى العالم الانســان الجديد الذى سيختلف عن انسان اليوم فى كل شىء .

قلنا : ادخل فى موضوعك ان كان لديك جديد .

قال : كان ذلك بشبين الكوم وفى حفلة ضمت جميع رجالات المحافظة وعلى رأسهم المحافظ وكنت أقوم بتقديم الشخصيات فى الحفل فقدمت الزميل فتحى وكان ما زال على أبواب العمل الصحفى وغير معروف لأحد ونريد أن نشهره ونجعل اسمه يملأ الجو بسرعة .. ولكن مشكلتنا أن أحدا لم يسمع به من قبل .. فهل تتصورون ماذا فعلت لأجعل كل الحاضرين يضجون بالتصفيق ويقبلون عليه للتعارف بعد الحفل .

قلنا : لا يصل تصورنا الى حيلك الشيطانية طبعا .

قال : قدمنا هذا الكاتب الكبير الجالس أمامكم الآن على أنه كان غائبا فى غياهب السجون والمعتقلات يقاوم الفساد والاستعمار وقد نكل به العهـد

السابق ولفق له التهم لكى يقضى على قلمه الحر الجرىء الذى يدافع به عن العامل والفلاح .. كل هذا والزميل فتحى لم يكن قد دخل حتى قسما للشرطة فى حياته . فضحك الجميع . وقلنا : لاشك انك أجدر بقيادة الحزب نفسه لا مجرد رئاسة تحرير جريدة .. مع ما لنا على كل ذلك من اعتراضات يا زملاء ولكن سنرجئها لحينها .. ويكفى ما سمعنا لنترك للزميل فرصة من الوقت لعرض النظرية .

الزميل : قد وصلت فى كلامى الى العصر الرأسمالى (العصر الرابع) .

* وهو أهم عصر من عصور التاريخ وقد قال ماركس « الرأسمالية جاءت نتيجة لتحول طبقة الفلاحين الى طبقة البروليتاريا الصناعية وما تبع ذلك من استغلال استعمارى وصراع من أجل المستعمرات » ، ولقد رأينا من عرض العصور السابقة كيف أن العوامل الاقتصادية لها تأثير شامل على تاريخ البشرية ، وكيف أن المجتمعات تسير فى عملية مستمرة من التغير والتطور يسببها التناقض والتوافق بين عوامل متضاربة ، وكيف أن الهيكل الاقتصادى للمجتمع هو الركن الأساسى فى التطورات الاجتماعية ، وهذا الهيكل تحكمه التطورات فى الأساليب التى يتبعها الفرد فى الانتاج وهذه بدورها هى التى تحدد طبيعة الأفكار والاتجاهات .. وقد أجمل انجلز ذلك فى قوله : « ان الأسباب المباشرة والنهائية للتطورات الاجتماعية والثورات السياسية ليس مردها الى تفكير الأفراد وتعمقهم فى البحث عن الحق والعدالة وانما مردها الى تلك التغيرات التى تطرأ على نظام الانتاج والاستبدال » .

* وفى عصر الرأسمالية هذا الذى نتكلم عنه اليوم نشاهد أن الآلة هى وسيلة الانتاج الرئيسية .. والعلاقة الانتاجية تقوم بين العمال والرأسماليين .. وفى الصراع الناشب بين هاتين الطبقتين تتكتل طبقة العمال فى النقابات والأحزاب العمالية وتتكتل طبقة الرأسماليين فى النوادى والأحزاب المحافظة كأدوات سياسية .

وتستخدم كل طبقة كافة الأسلحة المادية والمعنوية فى صراعها الدموى مع الطبقة الأخرى ، ولكن الصراع الدموى مع طبقة العمال الأكثر عددا

والأسوأ حالا سينتهى بانتصار حتمى لطبقة العمال . وقد قال ماركس : « صراع الطبقات حقيقة تاريخية متأصلة فى طبيعة نظامنا فلا حاجة الى الدعوة اليها ولا جدوى من انكارها ولكن مسؤولية تلك الحرب تقع على عاتق من تدفعهم الأنانية الى المحافظة على ما يستلكون » .

وقد كشف ماركس عن القوانين التى ستقوض النظام الرأسمالى بحكم منطق التطور الحتمى ، ومن ثم جاء بنظرية فائض القيمة أو بتعبير أدق القيمة الفائضة التى تكشف عن أن استمرار حرص الرأسمالى على الربح (آفة النظام) سيؤدى الى حدوث قوانين حتمية تعجل بنهاية الأسلوب الرأسمالى فى الانتاج وتختم عصور الصراع الطبقى وتفتح الطريق الى مجتمع جديد خال من الطبقية والاستغلال .

لقد بين ماركس أن العمل أساس القيمة أى هو المعيار الوحيد للقيمة .

واذا كان العمل فى البداية هو أساس القيمة فانه يقصد به حاليا العمل اللازم اجتماعيا .

* فى عصور الرق (الأسلوب العبودى والاقطاعى فى الانتاج) كان الاستغلال يتم باستحواز الطبقة المالكة على فائض انتاج طبقة العبيد أو الاقنان .

* أما فى ظل الرأسمالية التى تتميز بظاهرة الانتاج السلعى فان الاستغلال يتم بالاستحواز على فائض القيمة ولتوضيح ذلك أقول :

ان قيمة السلعة تحدد بوقت العمل اللازم اجتماعيا لانتاجها ، أى اللازم فى ظل الظروف التكنيكية العادية للانتاج فى فترة معينة طبقا لمتوسط مهارة وجهد المنتج .. وهذا لا يعنى أن كل سلعة تقايض فعلا بما يساوى قيمتها تماما لأنه يعبر عنها بالسعر الذى يتذبذب حول القيمة ارتفاعا وانخفاضا ..

والانسان فى ظل عصور الرق ملك كله لسيده ، أما فى ظل عصر الرأسمالية فانه يبيع فقط قوة عمله التى تعتبر سلعة مثل أى سلعة أخرى لها قيمة معينة هى تلك السلع التى يحتاج اليها العامل لكى تكفل معيشته

وتجدد قدرته على العمل وبعبارة أخرى ان قيمة قوة العمل هى قيمة وسائل المعيشة اللازمة للحفاظ على حياة صاحب قوة العمل .

وعندما يشترى الرأسمالى قوة العمل التى لها قيمة استهلاكية عنده فانه يدفع العامل الى العمل فينشىء هذا العمل قيمة جديدة أكبر من قيمة سلعة قوة العمل .. وهذه الخصيصة لسلعة قوة العمل هى التى تعطينا المفتاح لفهم ميكانيزم الاستغلال الرأسمالى .. وعليه فان قيمة السلعة التى يبيعها الرأسمالى تتضمن :

أولا : قيمة المواد والجزء المستهلك من المعدات . ثانيا : قيمة عنصر الخدمة (العمل من جانب العمال لاعداد هذه السلعة) .

والقيمة التى تنتج بواسطة فائض عنصر العمل من جانب العمال تسمى فائض القيمة . واستيلاء الرأسمالى عليها تحت ستار الربح هو جوهر الاستغلال ..واستمرار حرص الرأسمالى على زيادة الربح يفضى الى ثلاثة قوانين حتمية تؤدى فى النهاية الى تقويض النظام الرأسمالى :

١ - قانون تراكم رأس المال :

بزيادة الآلية فى الانتاج يتم الاستغناء عن عدد من العمال ينضافون الى جيش العاطلين .. وزيادة الآلية تخفض نفقات الانتاج .. ونتيجة المنافسة الحرة ينخفض سعر السلعة عن ذى قبل مما يترتب عليه انخفاض فائض القيمة على مدار المجتمع أى انخفاض ربح طبقة الرأسماليين ، مما يحفزهم الى استخدام الكثير من الأساليب الاستغلالية لتعويض هذا الانخفاض ، فيلجأون الى تشغيل من لم يطردوا من العمال ساعات أكثر ، ويشغلون الأطفال والنساء بأجور منخفضة .. وأخيرا يتكتلون لفرض أسعار احتكارية وللتحكم فى الأسواق ، وهذا كله يؤدى الى تراكم رؤوس الأموال فى أيديهم .

٢ - قانون تركيز رأس المال :

وهو نتيجة حتمية للقانون الأول لضمان استمرار الرأسماليين فى استغلال

الطبقة العاملة ونشأت لذلك الاحتكارات ذات الصور المختلفة (كارتلات وترست) •

والاستعمار هو أعلى مراحل الرأسمالية •• والامبريالية مرحلة متقدمة فى الرأسمالية •

٣ - قانون زيادة البؤس :

تزداد حالة العمال سوءا فيتكتلون ، وتشتد حالة الصراع بينهم وبين الرأسماليين الى أن يتحقق الكم الثورى اللازم لقيام الثورة ، وبذلك يزول التناقض بين الملكية والعمل حيث يصير الذين يعملون هم الذين يملكون •• ويعود الحق المسروق الى أصحابه الشرعيين •

ولذا كانت الرأسمالية التى تطورت الى الاحتكارات العالمية والامبريالية تعمل ما فى وسعها للحيلولة دون تفاقم الأزمات التى تقوض بنيانها فتعمل على تأخير هذا اليوم المحتوم بمحاولات شتى من تحسين أحوال قيادات النقابات العمالية وبعض الضمانات الاجتماعية ثم الاندفاع نحو الاستعمار ثم اشعال الحروب المحلية مثل كوريا وفيتنام •

خامسا مرحلة الاشتراكية :

✻ قلنا : تقصد عصر الاشتراكية •

✻ قال : بل أقصد كلمة مرحلة بالذات لتأكيد الاحساس بأنها وصلة بين عصرين متتاليين عصر الرأسمالية وعصر الشيوعية العالمية •• هى مجرد جسر بينها •• وهى تسمى أيضا بالشيوعية الأولى • وفى كل هذه التسميات لا تسمى عصرا لأنها فترة انتقال •• وكل ما فى هذه المرحلة من أمل الشيوعية العالمية هو فى تقرير الملكية العامة لوسائل الانتاج وفى اسباغ صفة الشيوعية على الحزب • ومن ثم فالنظام يحمل الواقع الاشتراكى والحزب يحمل اسم المستقبل الشيوعى •

وتتميز مرحلة الاشتراكية عن عصر الشيوعية العالمية بما يلى :

١ - فى ظل الاشتراكية ، من كل حسب قدرته ولكل حسب انتاجه ،

ومن ثم فقد تفاوتت الأجور (من أسباب الخلاف بين ستالين وتروتسكى) أما فى ظل الشيوعية فسكون من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته .

٢ — فى ظل مرحلة الاشتراكية يكون الابقاء على سلطة الدولة فى شكل ديكتاتورية الطبقة العاملة (البروليتارية) ريثما يتم القضاء على أعداء الثورة فى الداخل أى على الثورة المضادة وريثما يندفع عنها خطر المعسكر الرأسمالى فى الخارج . أما فى ظل الشيوعية فستذبل سلطات الدولة حتى تختفى ويحل محلها لجان المصالحات لحل التناقضات الثانوية .

٣ — فى مرحلة الاشتراكية يظل الابقاء على بعض الاشكال الاجتماعية كالأسرة أو الأشكال الاقتصادية كالنقود والحوافز المادية والملكيات الصغيرة مما قد يشكك فى جدية التحول الى الشيوعية العالمية ولكن ذلك الابقاء سينتهى ريثما يتوفر الأساس التكنيكى للانتقال وريثما تتخلص النفس البشرية من رواسب القيم البرجوازية ويظهر الانسان الجديد ..

سادسا : عصر الشيوعية العالمية :

* استطرد الزميل قائلا هو عصر الاشتراكية العلمية بمعناها الحقيقى ، وفيها يصير الناس طبقة واحدة خالية من الصراع وينتقل التناقض الرئيسى من داخل المجتمع البشرى ليصير بين الانسان والطبيعة كما كان فى عصر المشاعية البدائية الخالية من الصراع الطبقى ويحل محله النقد الذاتى كبديل وكعامل حركة مشروع .

ويحل العلم محل العقائد والفلسفات فى صراع الانسان مع الطبيعة فى تفسير ظواهرها واستخدامها فى توفير ضرورياته أى فى تحريره حيث يصير من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته ، وحيث تذبل سلطات الدولة ، وحيث تقوم المعاشرة الاختيارية (المشاعية الجنسية) فى علاقة الرجل بالمرأة محل الشكل الأسرى المليء بالقيود .. وفى ظل هذا العصر ستتغير الطبيعة البشرية وتتطور وستعيش فى مشاعية الوفرة والغنى آمنة شر الاستغلال والعجز .. هذا يا حضرات الأخوة هو كل ما نؤمن به .

* قلنا : هل بقى لديكم ما تقولونه عن الماركسية •

*قال بعضهم : ليس سوى أن كثيرا من الموضوعات التى وردت فى غضون الماركسية وكونت نسيجها تحظى على انفراد بدراسة مستقلة بطريقة مادية جدلية •• وهى فى مجموعها تعمل على تدعيم الماركسية وتغذيتها بالمادة العلمية وهو ما يعطى الماركسية فى النهاية صفتها العلمية من هذه الموضوعات •

(أ) دراسة فلسفية عن الوجود والانسان من خلال المفهوم المادى لهما •

(ب) نشأة الحياة واثبات امكان تخليق الخلية الحية معمليا مما يؤكد صحة القانون الأول للمادة •

(جـ) نظرية دارون •

(د) نظام الأسرة وانبثاقها من فكرة الملكية الخاصة لوسائل الانتاج •

(هـ) تطور الأديان وكيف تدرجت من عبادة الطواطم الى عبادة التماثيل فالنجوم والكواكب فالأرواح فالاله المجرد وكيف أغنى العلم اليوم عن كل هذه المحاولات •

(و) سلطات الدولة •

(ز) الأخلاق والقيم وكونها متغيرة نسبية •

*** والآن وقد فرغنا من الاستماع الى الماركسية يهمنى قبل التعرض الى النقد أن أشير الى ما يأتى :**

١ — أن وجه الاغراء فى الماركسية لدى متوسطى الثقافة نابع من أنها أشبه بالدين الذى يعطى فهما فى الوجود والانسان والحياة والقيم والشرائع •• ولهذا كان متوسطو الثقافة هم أخصب وسط لانتشارها ولا يمكن أن يتقدم الانسان مراحل فى العلم ويبقى فى الوقت نفسه على الاقتناع بصحة قضاياها • وقد شاهدت أمثلة على ذلك كثيرة ليست مشهورة لدى الرأى العام وان كان أبرزها وضوحا ظاهرة جلال كشك ومصطفى محمود اللذين قادهما تقدمهما العلمى الى الابتعاد عن الالتزام بها • ولا يبقى على ايمانه بها زمنا طويلا الا أحد صنفين ، من لازمته ثقافته المتوسطة أو من ارتبط من ورائها بمصلحة معينة من منصب أو جاه يجعله قانعا بحالة لا يريد له تغييرا حتى أن كثيرين ممن تصدروا السلطة عن طريق الانقلابات العسكرية كانت ثقافتهم المتوسطة هى مصيدة تغذيتهم بالأفكار اليسارية ••

٢ ـ هناك سبب ثان لدى الطبقات المحرومة والمظلومة من ضحايا النظام الرأسمالى اذ يصادف هذا الكلام لديها وترا حساسا لعلها تجد فيه خلاصها .

٣ ـ هنـاك سبب ثالث ناشىء من ضعف المواجهـة حيث ان النظام الرأسمالى ملىء بالأخطاء وعاجز فكريا عن الرد على ما يوجه اليه من تهم لها أساس كبير من الصحة ..

٤ ـ وسبب رابع فى تنحية الاسلام عن المجال التشريعى جعل الذين يجهلونه يظنون انه يمكن الجمع بين الاسلام كعقيدة والماركسية كمنهج حياة ونعلاج الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية .

٥ ـ وسبب خامس هو وجود روسيا كدولة كبرى تكبر فى الصدور الضعيفة فيظنون ان ما تدعو اليـه مثل هـذه الدولة الـكبرى لابد وأن يكون حقا ..

٦ ـ وسبب سادس فيما يصاحب التجنيد للماركسية من اغراءات شتى لا تغيب عن أحد ..

٧ ـ وسبب أخير هو فيما قصدته القوى الاستعمارية مع سبق الاصرار من نشر هذه التيارات اليسارية فى بلادنا وتمكينها من السلطة لضرب الروح الاسلامية فى المنطقة بل وفى كثير من البلاد الاسلامية .

الحلقة الخامسة

دور العقل في قضية الإيمان

جدوى الجهد المشترك .. في الدراسة
انتشار ظاهرة التفكير المادي بأوروبا .. وأسبابها

من العرض السابق للماركسية يبدو واضحا انها تشتمل على ثلاث قضايا رئيسية (المادية الجدلية ، « المادية التاريخية » ، فائض القيمة) مترابطة عضويا ومشدودة بعضها الى بعض بخلايا بينية من مختلف الفروع والقضايا العلمية التى يحظى كل فرع منها بدراسة مستقلة على أيدى مختصين وبتشابك هذه الخلايا مع محاورها الأساسية على أيدى المنظرين أو فلاسفة الماركسية يتكون نسيج الماركسية .. ذلك النسيج الذى وضع أسسه ماركس وطورته اضافات لينين وستالين وخروشوف ومن بعدهم ، ومن ثم فالدراسة الوافية تقتضى الماما ومتابعة دائمة لما يسمى بالماركسية اللينية الستالينية الخروشفية الماوية .. الخ .

ومع هذا فان تركيزنا على الاطار النظرى الذى تركه ماركس سببه أن هذا الاطار السابق على كل هذه الاضافات ما زال هو الفعال فى مجال الاقناع بالماركسية .. وتعمل الممارسات العملية والأسماء التاريخية والواقع الدولى فى المجال النفسى لا أكثر .

وكلما مر الزمن كلما ازداد الانفصام بين هذا الاطار النظرى الذى تركه ماركس وبين الواقع العملى فى البلاد الشيوعية حتى ان الماركسية اليوم وان كانت بموازين العلم لا وجود لها وأضحت شيئا تاريخيا بعد أن تحولت الى مجرد شعارات عقائدية لا حقائق علمية الا أن فاعليتها السياسية تجعل تلك البلاد التى تدين بها تحرص عليها لأنها تتبدى بها كحاملات لرسالة انسانية فى

سبيل تحرير الشعوب من الاستغلال والتخلف على أسس علمية محايدة .
وبدون هذا القناع العقائدى يظهر الوجه الاستعمارى سافرا ..

* ولم نكن نخفى دهشتنا فى البداية من وجود أفراد قلائل يحملون درجات علمية عالية بين الشيوعيين ولكن الاحتكاك عن قرب زال هـذا الاندهاش حيث تحققنا ان المختص بفرع معين من فروع العلم تكون صلته فى العـادة ببقية الفروع الأخرى صلة ثقافية لا تخصصية مما قد يوقعه فى رذيلة التسليم بكثير من القضايا الخارجة عن دائرة تخصصه وهى دائمـا كثيرة على مدار الماركسية .. لأن المختص وان اكتشف تخلف الماركسية فى مادة تخصصـه وعدم صحتها عمليا فانه مع هذا يظل على اعتقاده بأنها صحيحة فى القضايا الأخرى التى تشـكل فى مجموعها بناء متماسـكا قادرا على تقديم الحلول العلمية ..

فلو اكتشف دارس الاقتصاد عدم صحة ما قاله ماركس فى القيمة يظل أيضا على اعتقاده بصحة النظرية فى مجال الفلسفة والتـاريخ والاجتـاع ولا يستطيع أن ينفصل شعوريا عن القضية العامة بسهولة ليعيش فى فراغ مرة واحدة .. ولو اكتشف دارس الفلسفة تخلف الماركسية فى قضايا المـادية الجدلية فانه يظل على اعتقاده بصحتها فى القضايا الاجتماعية والاقتصادية ... وهذا يفسر سر ظهور بعض التشوهات العقائدية التى حاول بعض الزعمـاء فرضها على شعوبهم فى محاولة جاهلة أو مشبوهة للجمع بين منهج الماركسية والعقيدة الاسـلامية وسـوكارنو الذى كان يقول : اننى أؤمن بمحمد فى السماء وبماركس على الأرض ، نموذج لهذا النوع .

وقد اكتشفنا على الطبيعة هذه الحقيقة.حقيقة أن المتخصص فى نوع قد يقع فريسة الفروع الأخرى . وانه ان كان اسـتاذا فى جانب فهو تلميذ فى الآخر ، وان كان علميا فى جانب فهو يسلم تسليم العوام فى الآخر ، وان كان منفتح الذهن فى جانب فانه متعصبه ومغلقه فى الآخر . ولم يعد من ثم مدهشا لنا أن نرى المتخصص يصـول ويجول فى مادة تخصصـه ثم يعود الى الحبو والتعثر فى بقية مواضيع الماركسية يردد ما يقوله الجميع بنفس العبـارات

وبنفس الأمثلة المضروبة ونفس الاستنتاجات السياسية • وما كنا لنلمس هذه الحقيقة أبدا من خلال قراءة الكتب فقط بل وما كنا نتوقعها •

* وكأنى بسؤال ذكى يتبادر الى ذهن القارىء عندما يقول : وماذا يكون الأمر لو اجتمع كل المتخصصين فى كل الفروع معا ليطابقوا بين مجموع علمهم وبين الماركسية ، أليس فى هذا الحشد من العلماء يكمن القول الفصل لها أو عليها •

وأنا أقول للقارىء أن هذا قد حدث فعلا حيث اجتمع ٣٩ عالما سوفياتيا فى جميع التخصصات وأخرجوا فى عام ١٩٦٣ كتاب « أسس الماركسية اللينينية » وستأتى الاشارة اليه مفصلة فيما بعد • وفيه أصاخوا لحقائق العلم فى جانب وخضعوا لمتطلبات السياسة فى جانب آخر والمدرك لحقيقة الترابط بين القضايا يجد أن أحدهما لابد وأن يلغى الآخر • فاما أن يقوى العلم على دواعى السياسة واما أن تخنق السياسة صوت العلم •• وفى جميع عصور الظلام كانت السياسة فوق العلم وحقائقه • هذا الجانب الذى أصاخ له هؤلاء العلماء هو أعلانهم بعدم وجود الجدل فى الطبيعة ، وان بقى ذلك فى المجتمعات. أى عدم صحة قانون التناقض وصراع الأضداد فى الطبيعة ، وصحة هذا القانون فى المجتمعات البشرية • وهو ما لايستقيم فى ظل الماركسية ويتناقض مع منهجها ، ولنا مع كل ذلك عود فى موضعه من الدراسة وانما كان الدافع هو التذكير بأن الماركسية تظل فى المركز الأقوى بالنسبة للمتخصص الفرد ، وتظل فى مزاولة اغرائها له • وهنا تكمن احدى صعوبات المواجهة التى تستلزم مواجهة مشتركة متخصصة ، وأتاحت لنا مواجهتنا المشتركة هذه القدرة • الأمر الذى لا يفطن اليه كل من ينشغل بالرد على جانب واحد منها فى حدود تخصصه •

ولذلك كان المتخصصون فقط عاجزين عن مواجهتها منفردين أو مجتمعين بعيدا عن العقيدة الشاملة ؛ لأن الماركسية أشبه بالدين ، والدين لا ينتصر عليه الا دين أشمل وأنفع • ولذلك كانت كل مواجهات الماركسية ضعيفة ،

لأنها لم تقدم البديل حتى خرج عليها الاسلام بشموله لقضايا العقيدة والتشريع وبدعوته الدائبة الى العلم •

— وفيما يلي بيان لخط تناولنا لمواضيع الماركسية : ابتداء من المادية الجدلية ومرورا بالنظرية الاقتصادية ثم تفسير التاريخ • وأذكر القارىء بخط السير حتى يسهل أمر المتابعة وحتى اذا ما تشعب الكلام فى احدى النقاط لا يضل الطريق • سنبدأ بالكلام عن أسباب انتشار ظاهرة التفكير المادى بأوروبا دون غيرها من بقاع الأرض ثم حوار حول نشأة الحياة •• يليه :

* هل الوجود مادة فقط ؟
* وقفة مع قوانين الجدل •
* نظرية المعرفة (الأسلوب العلمى فى الاستدلال على وجود الخالق) •
* القضية المنطقية •
* منهجان علميان : منهج للأشياء ، منهج للانسان •

وعلى ضوء الحقائق العلمية الجديدة يكون لنا دراسة فى داخل الانسان :

قانونه ، مفهوم الحرية ، أداة الاختيار (الملكية) ، أنواع الثروة ، نظرية الربح ؛ ونكون قد أحطنا فى الطريق بقضيتين من قضايا الماركسية : (المادية الجدلية والاقتصاد) ثم نتناول تفسير التاريخ من جديد •

ثم نصل الى الاسلام كمنهج كامل ، نختص منه الكلام عن الملكية فى اطار النصوص ، ثم من التطبيق العملى على مدار التاريخ الاسلامى حيث تقابلنا قصة الأرض العشرية والأرض الخراجية باعتبارها نموذجان للملكية خاصة اسلامية وملكية عامة اسلامية •

وبهذا نكون قد حققنا غرضين فى وقت واحد : تفنيد الماركسية وتوضيح الاسلام كمنهج حياة وبصفة خاصة فى الجانب الاقتصادى ، ونكون قد أزلنا كل ما هو غير علمى وأحللنا محله الحقائق العلمية كمرتكز لنظرية جديدة ثالثة في علاج القضايا الانسانية ، جديدة في فهمنا لها لا أكثر مع التحفظ في استخدام اصطلاح النظرية أيضا ، وأفضل عليه « الدعوة » •

* وفى مطلع تناولنا للمادية الجدلية ، نبدأ بالكلام عن أسباب انتشار ظاهرة التفكير المادى بأوروبا ، وهو موضوع نبت اهتمامنا به بعد انفضاض الندوة حيث كان اهتمامنا أثناء الندوة منصبا على الموضوعات بطريقة مباشرة ، ووردت الاشارة الى ظروف أوروبا التاريخية بطريقة عابرة ، وقد أتيح لنا فيما بعد افراد مستقل يعتبر جديدا فى بابه لتفسير هذه الظاهرة .

*** انتشار ظاهرة التفكير المادى بأوروبا .. واسبابها ؟؟**

أبادر بتقرير هذه الحقيقة وهى مسئولية المثالية عن انتشار الفلسفة المادية .. ذلك ان الفلسفة المادية أو التفكير المادى عموما نشأ كرد فعل لانحرافات الفلسفة المثالية وكتعبير عن أزمتها فى نفس الوقت ..

وسأزيد الأمر وضوحا ببيان الظروف التاريخية والأجواء الفكرية التى شاعت فيها هذه الفلسفة المادية مما حدا بماركس الى اختيارها أساسا عقيديا لنظريته الاقتصادية ..

ولقد عاصر ماركس فترة المخاض الحضارى التى مرت بها أوروبا ، حيث تنسلخ صيحة الحياة من صرخة الألم ، وينسلخ ضوء النهار من ظلمة الليل البهيم .. وهى فترة حرجة بطبيعتها تسمح بالرؤية الفكرية والرؤية النفسية فى أكثر من اتجاه ، بل وأكثر من ذلك حرجا انها قد تدفع الرؤية النفسية فى اتجاه مضاد للرؤية الفكرية ، وينقلب الحرج الى مأساة عندما تكون الغلبة للرؤية النفسية الكليلة فلا ترى الحق والخير من خلال موازينهما وانما تراه من خلال هواها وعلى ضوء مصالحها وتحت ضغط مشاعرها المكبوتة وآلامها الدفينة التى خلفتها عصور الظلم والحرمان قبل أن ترى لها حقا فى الحياة الكريمة ..

والى ان يمتلك الفكر المستنير زمامها ويحد اندفاعها ويحكم قيادها ويضىء لها الطريق بموازين الحق والخير المبرأين من شوائب الظروف الشخصية والملابسات التاريخية يظل انتشار الضباب حائلا دون وضوح الرؤية النفسية والفكرية على السواء فتكثر من حولهما الضحايا .. الضحايا التي قد

تتعدى الأفراد والجماعات فتصيب شعوبا بأسرها ، فتعيش فى قيود جديدة وآلام جديدة من حيث ظنت انها تخلصت من قيودها وآلامها .

* وهذا بالضبط هو ما عاشت فيه أوروبا ... وهو الذى ما زالت أيضا تعانيه على مستوى القرن العشرين .. حيث كانت أسيرة لون معين من العقائد الموضوعة والفلسفات المخترعة ساهمت بوعى منها أو بغير وعى على بقائها أسيرة لون معين من الحياة والعلاقات لم يكن حصيلتها الا مذلة الجسم ومذلة الفكر ومذلة الروح .. وقد كان هذا الأساس الفكرى والعقيدى يمثل السلطة المعنوية التى استخدمتها كل القوى التى كانت ترى مصلحتها فى استمرار ، هذا اللون التقليدى من الحياة سواء فى ذلك قوة الكنيسة أو قوة الاقطاع حفاظا على دوام النفوذ والسيطرة .. وطالما تظاهرت قوة الكنيسة مع قوة الاقطاع للحيلولة دون صيحة الحياة ودون ومضات الضوء التى كانت ترسلها منارات الشرق الاسلامى على جميع مداخل أوروبا .

المثالية والمادية

فمنذ عهود الأغريق والرومان حتى وقتنا الحاضر وأوروبا مسرح لنوعين من المذاهب الفلسفية .. المثالية والمادية . فقديما تقابلنا مثالية أفلاطون ومادية ديمقريطس وابيقور وحديثا تقابلنا فى القرن التاسع عشر مثالية هيجل ومادية فيورباخ .. ونذكر فى هذا المقام من الفلاسفة الماديين على مدار هذا المحور الزمنى الفيلسوف انتستينس (٤٤٤ ــ ٣٦٨ ق.م) الذى كان يدعو الى الرجوع الى بساطة الطبيعة ورفض الدين المتوارث ويرى فى الوجود رأيا ماديا .. ومنهم أيضا روسيلينس فى القرن الحادى عشر (١٠٥٠ ــ ١١٢٠ م) الذى جدد المذهب المادى على عهد المدرسيين ومنهم وليم فون فى القرن الرابع عشر (١٢٧٠ ــ ١٣٤٧ م) الذى أرجع المعرفة كلها الى التجربة الحسية .. الخ .. وهكذا الى أن نصل الى فيورباخ فى القرن التاسع عشر .

ومن البديهى الا نتوقع أن يكون ما تتناوله هذه المذاهب المثالية والمادية على السواء ، فى القرن ١٩ أو القرن ٢٠ على نفس مستوى تناولها فى القرون الأولى والا اسقطنا من اعتبارنا كل ما استفادته البشرية من تقدم علمى على

مدار هذه الحقبة الطويلة أثر على طبيعة تناول المشكلة ولكنه لم يغير من جوهرها .. وقد تناوب الاتجاهان الغلبة فى ميدان الفكر والحياة أيضا حتى انتهى بهما المطاف فى القرن العشرين الى اقتسام أوروبا فى ميدان الفكر والأرض معا .. فقسم يدين بالمادية ويرفع رايتها علنا فوق رقعة الاتحاد السوفيتى وتوابعه وقسم آخر يدين بالمثالية ويرفع رايتها على استحياء فوق بقية دول الغرب وتفضح ذلك تصرفاته وسلوكه المشوب بكثير من اللوثات المادية ..

❋ أما تساؤلنا عن سبب هذا الانقسام والخصام الشديد فتقع مسؤوليته الكبرى على الاتجاه المثالى ..

ولتوضيح الأمر نذكر بأن الاتجاهات الفلسفية المثالية منذ القدم كانت تتناول موضوعات شتى مثل البحث فى الطبيعة بفروعها من فلك وحيوان ونبات ، وفى المنطق وفى الأخلاق والسياسة والرياضيات وفى الالهيات .. وجاءت محنة الفلسفة من خلال موضوع الالهيات عندما تجاوزت فى البحث منطقة الأمان فيها ..

ذلك ان الفلاسفة المثاليين استطاعوا بأعمال فكرهم أن يصلوا الى نتيجة صحيحة ونقطة بدء سليمة علميا وهى وجود خالق لهذا الكون البديع يتصف بالكمال المطلق .. ولكنهم انحرفوا بعد ذلك فى جميع متعلقات هذه القضية .. فكيف كان ذلك !! وما نتائجه ! .

❋ ان قضية وجود الله تعالى هى فى الواقع قضية علمية انسانية ، أى يستطيع العلماء فى كل عصر التدليل على صحتها بمختلف الاستدلالات العلمية . ومن ثم يقول الفقهاء ان الايمان بوجود الله مقدم على الايمان بالرسل ، ولم تكن الرسل تبعث الى أقوام يجهلون هذه الحقيقة : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله » . ولكنهم كذبوا الرسل .. وفى عصرنا الحاضر نجد العديد والجديد من الأدلة العلمية فى اثبات هذه الحقيقة حتى **أصبح كل فرع من فروع العلم يشكل نافذة جديدة عليها ، ولقد صدر الكثير**

من الكتب فى هذا المجال : . الله لجون كلوفر) ، (الله يتجلى فى عصر العلم) ... الخ .

ولم تعد المشكلة فى محاولة اثبات ذلك ، بل تنبت المشكلة الحقيقية فيما تثيره هذه القضية من عديد الأسئلة فى نفس الانسان بعد اطمئنانه فكريا اليها ، هذه الأسئلة تعتبر ثمرة طبيعية للمعرفة لا يستطيع أحد من الناس أن يتجاهلها ، ولا يملك الفكاك منها ، بل انها تظل تفرض نفسها فى الحاح شديد لا يتوقف ، حيث يثور التساؤل عن ذات الله تعالى وصفاته ومدى وكيفية التعامل معه ، وعن معنى الحياة والموت وعن كنه الوجود بأسره ؛ وعن النفس وخباياها وعن ظلال ذلك كله على سلوكنا وغايته : الى آخر هذه الالحاحات التى تولد القلق الدائم والتوتر المستمر فى النفس ما لم تهتد الى أمرها . ولا يملك أحد أن يعزل سلوكه اليومى عن نتيجة الأجوبة عليها ويظل فى خاطره أجوبته الخاصة الخاطئة بالطبع والتى لا يفصح عنها لأحد ان لم يجد الاجابة الشافية عليها من خارج . وهذا ما يشكل فى النهاية مفهوم العقيدة عنده ، فكيف يكون صمام الأمان فى تكوينها .

* وهنا يبرز سؤال هام ، وهل فى مقدور الفلسفة أن تجيب على هذه التساؤلات ؟ ! كان فى مقدور الفلسفة أن تتكلم كثيرا عن الطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات قبل أن تنفصل عنها وتصبح علوما مستقلة ، وكان فى مقدورها أيضا أن تتكلم فى الأخلاق والسياسة وتخطىء فى كل ذلك وتصيب ، فالمخاطر من وراء ذلك محدودة غايته أنها ما زالت تجهل .. أما أن تجيب هى على كل التساؤلات الخاصة بالألوهية ومتعلقاتها ، فهذا ما ترد فيها بالتخمينات والشطحات ، ذلك أن هذه القضايا لا تخضع بطبيعتها لموازين الانسان ، وليس معنى ذلك أنها معدومة لأنها منبنية على أساس صحيح علميا هو وجود الله تعالى حسبما سنبين أدلة ذلك فى فصل تال . .

* ولاشك أن هذه التساؤلات ستظل حائرة فى الصدور ويظل الانسان حائرا معها فى السلوك ، ويظل المجتمع بأسره حائرا فى التشريعات والقيم الى أن تجد الاجابة الشافية طريقها الى النفوس ، فتذهب الحيرة ويستضىء

السلوك بنور المعرفة الصافية . فكيف السبيل اذن الى هذه المعرفة ؟ .

والفطر السليمة لا تكف عن البحث عن وسيلة للصلة بذات الله تعالى ، الذى تحققت من وجوده فكريا ولم ترتو بعد وجدانيا ، انها تريد أن تسمع منه هو سبحانه الاجابة على كل ذلك .

وهذه الفطر السليمة تستهجن عدم قيام هذه الصلة بالله الذى خلقها ثم دلها عليه ، بل انها لتتعلق به أن يفعل هو ذلك .

والمنطقى أن تتم هذه الصلة بين موجودين وجودا علميا حقا كل منهما يعرف الآخر ، وذا لم تتم هذه الصلة فانهـا تكون اذن قطيعة غير مفهومة ولا مقبولة .. اننا نستهجن هذه القطيعة ممن نعرفه من البشر فكيف نصبر عليها ممن عرفنا ربوبيته لنا ، فالصلة قضية منطقية منبنية على أصل علمى .

ويلبى الله تعالى أشواق هذه الفطرة ويشير الى منطقية هذه الصـلة فى قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء » ، وفى قوله تعالى : « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » ، ويستهجن موقف المكذبين بذلك فى قوله تعالى : « أكان للناس عجبا أز أوحينا الى رجل منهم » .

* فمن طريق الوحى ــ صلة الله تعالى بخلقه ــ تتم معرفة جميع حلقـات المعرفة المغيبة عن حواسنا وتتم القدرة على التعامل معها وبالتالى تتم الحركة الصحيحة للانسان .

فالتدليل على وجود الله تعـالى قضية انسـانية وبتـكملتها بالوحى تصير قضية اسلامية .

ومن عجيب أمر هـذا الوحى انه يخبر عن كل ما ليس فى طاقة البشر معرفته بوسائلهم العلمية التى اقتضت حـكمة الله أن يجعلها موصلة الى حقيقة الحقائق وهى الذات الالهية ولا يجعلها موصلة الى ما عداها من أمر الملائكة والبعث والحساب ..

ومن هنا اتجه البحث لدى الأقوام قديما اتجاها منطقيا حول التحقق من صدق الرسول المبعوث واتجه الرسل بدورهم الى تأكيد صدقهم كما كانوا دائما قمة قومهم فى العلم والخلق وفعل الخيرات وبعد البعث كانت المعجزات أسلوبا مطلوبا لنقل مركز الثقة اليهم ريثما يتم تحريك العقول تحريكا ذاتيا .

* نخلص من ذلك أن سبيل الأمان فى موضوع الالهيات بالذات ، هو ان للعقل دوره فى الاستدلال على الله تعالى فقط وألا يتجاوز هذه المنطقة والا دخل فى دائرة الظنون والتخمينات .. كما ان للوحى دوره فى تكملة المعرفة بصفات الله تعالى وما يجب وما يستحيل فى حقه تعالى ، وما يلزم معرفته من جميع حقائق العقيدة والتزاماتها التشريعية .

* ولكن هل وعت الفلسفة المثالية هذا الدرس ؟ .. بالطبع لا .. اذ حاولت أن تكمل العلم بالله تعالى وصفاته وصلته بخلقه عن طريق التخمين والتخيل فجاءت بركام من التصورات الشاذة الغريبة مما أوقع الفكر الانسانى والسلوك البشرى فى متاهات كثيرة ..

وقد ذهب الفلاسفة فى ذلك مذاهب شتى ، فمنهم من تصور الله تعالى حالا فى جميع المخلوقات يتبدى فيها ، ومنهم من تصوره ملك على عرش عظيم أبدع خياله فى وصف الأسود الرابضة من حوله، ومنهم من تصوره عقلا محضا أو روحا محضا منعزلا كلية عن خلقه بعد أن بث فى كل شيء ناموسه ، ومنهم من تصوره — سبحانه — يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات ، ومنهم من تصوره فكرة مطلقة ما زالت تحاول التعبير عن نفسها من خلال التدرج فى الكائنات الى أن وصل الى الدولة ومؤسساتها . الى آخر الخلط الذى لا يحده حصر .. ومثل ذلك عن الروح والبعث والجزاء والخير والشر ..

فماذا كانت النتيجة ؟ ..

كانت النتيجة أن تعقدت حياة الناس وتقاذفتها شتى الاتجاهات واضطرب السلوك واضطربت معه العلاقات والقيم فمن افراط فى السلبية فى ظل مثالية أفلاطون التى دعتهم الى هجر عالم الحس الى عالم الخيال والمثال ، الى افراط فى الايجابية التى تعطى الانسان سلطان الله فى الأرض فى فلسفة نيتشه .

* فكان من الطبيعى أن يكون لذلك كله رد فعل قوى فى صورة التفكير المادى الذى لا يؤمن الا بالطبيعة الملموسة المحسوسة وينكر ما عداها ويرى فى اشباع الملذات قيمة عليا .. ولم يفطن هذا الفكر المادى الى الفصل بين أصل القضية الصحيح وهو وجود الله .. وبين ما أحاط بها من انحراف المثاليين فوقع فى خطأ رفض القضية ككل بجميع تعاليمها ..

* وهكذا تناوب الاتجاهان التفكير الأوروبى والحياة الأوروبية عموما .. أحدهما الجانى والثانى هو ثمرة الجريمة ، والاتهام طبعا موجه الى مختلف أنواع التفكير المثالى .. لكن أين كانت الكنيسة من ذلك كله ؟؟ ..

الحلقة السادسة

أين كانت الكنيسة .. في خضم التيارات الفلسفية ؟

- الوثنية طمست إشراق المسيحية
- الخرافة .. طريق المادية والإلحاد
- موجة إيمان جديدة .. تغمر العالم

قد رأينا كيف كانت أوروبا مسرحا لتيارين من الفلسفة : المثالية والمادية وكيف كانت المثالية هي المسؤولة عن ظهور تيار الفكر المادى كرد فعل لشطط المثالية في متعلقات قضية الألوهية .. وان هذه القصة قديمة قدم الفكر اليونانى نفسه وحديثة حداثة الفكر البشرى المعاصر ذاته بمعنى أنها قضية كانت .. ولا زالت .. وستظل ما وجد فريق من العلماء يقفون عند حدود الاستدلال على وجود الله تعالى ، ثم لا يفهمون أن لهذه الحقيقة مستلزماتها من ضرورة الوحى كقضية منطقيه به يتم العلم البشرى فى جميع قضايا العقيدة وكليات الشريعة وكل ما يهدى البشرية سواء السبيل والا ـ اذا حرمت الوحى او حادت عنه ـ تردت فى شطحات المثالية على اختلاف صور هذه الشطحات تبعا لاختلاف المستويات العلمية .. فتكون الأزمة ويكون رد الفعل قاسيا فى صور أفكار مادية لا تقف عند حدود قضية الألوهيـــة لتبحث من جديد عن طريق ، بل يسوقها الغضب المعمى الى رفض القضية ككل مرة أخرى .

هكذا كان يتقلب الفكر فى أوروبا بين نارى المثالية والمادية كالمستجير من الرمضاء بالنار .. فأين كانت الكنيسة من ذلك كله ؟

* أما عن الكنيسة فقد تاهت فى هذا الخضم من التيارات الفلسفية ؟!

صحيح أنها ورثت بلاد الاغريق والرومان ولكنها ورثت معهما أوزارهما فقد أصاب عقيدتها شرور الاتجاهين المثالى والمادى على السواء .. فظهرت عقيدة التثليث وتقديس الصور والمخلفات وحوت الكتب المقدسة أفكارا عن الكون والحياة من وضع الشراح المتأثرين بالتيارات الفلسفية اعتبرت فيما بعد نصوصا مقدسة لا يمكن معارضتها ، وفى هذا يقول الكاتب الأمريكى درابر فى كتابه « الدين والعلم » : « دخلت الوثنية والشرك النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عاليـــة فى الدولة الرومانية

بتظاهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين ولم يخلصوا لها يوما من الأيام ، وكذلك كان قسطنطين ، فقد قضى عمره فى الظلم والفجور ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية الا قليلا فى آخر عمره سنة ٣٣٧ م • ان الجماعة النصرانية وان كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك لكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها ، وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادؤها ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء » •

وظلت العقيدة النصرانية تتلبس بالخلافات السياسية والعنصرية والطائفية تلبسها بالأساطير الوثنية والتصورات الفلسفية حتى وقعت الانقسامات فيما بينها ، واليكم مثالا لذلك •

ـ قالت فرقة : ان المسيح انسان محض •

ـ وقالت فرقة : ان الأب والابن وروح القدس ان هى الا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس •

فالله ـ بزعمهم ـ مركب من أقانيم ثلاثة ، الأب والابن وروح القدس (والابن هو المسيح) فانحدر الله الذى هو الأب فى صورة روح القدس وتجسد فى مريم انسانا وولد منها فى صورة يسوع •

ـ وفرقة قالت : ان الابن ليس أزليا كالأب بل هو مخلوق من قبل العالم ولذلك هو دون الأب وخاضع له •

ـ وفرقة : أنكرت كون روح القدس أقنوما •

وقرر مجمع نيقيا سنة ٣٢٥ م ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ م أن الابن وروح القدس مساو للأب فى وحدة اللاهوت ، وأن الابن قد ولد منذ الأزل من الأب وأن روح القدس منبثق من الأب •

وقرر مجمع طليطلة سنة ٥٨٩ م بأن روح القدس منبثق من الابن أيضا • فاختلفت الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عند هذه النقطة وظلتا مختلفتين •

كذلك ألهت جماعة منهم مريم كما ألهوا المسيح عليه السلام •

هذا هو ما آل اليه وضع الكنيسة . ويعتبر القرآن الكريم ، كما قال مؤلف « المثل الأعلى للأنبياء » : هو أول وثيقة تاريخية أشارت الى تأثر النصرانية بالأفكار الفلسفية فى عقيدة التثليث بعد أن كان مظنونا أن التثليث قضية نصرانية محضة ، وذلك فى قوله تعالى : « وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل » .

ومع أن الكنيسة ظلت صاحبة السلطان الظاهر فى أوروبا لفترة طويلة ، الا أن السلطان الخفى والحقيقى كان لهذه الاتجاهات الفكرية ، المثالية والمادية على السواء بما تركت من تأثير كبير فى معتقدات الكنيسة انسحب أثره على الحياة بأسرها وعجل بنهايتها أمام زحف العلم القادم من الشرق .

عصر النهضة .. عصر التنوير .. عصر الانسان وأزمة الكنيسة :

* كلها أسماء أطلقت على الفترة التى بدأ فيها غزو الحضارة الاسلامية لأوروبا من جميع مراكز الاحتكاك مع الشرق . فى الأندلس ، فى جنوب ايطاليا ، فى التجارة والسفارات ، فى الحروب الصليبية ، حيث وجد الأوروبيون ما عليه المسلمون من وضوح العقيدة وبساطتها ومن ازدهار العلوم وتقدمها ، ومن حياة مفتوحة خالية من الحواجز الطبقية ، فبدأت سلسلة التأثيرات تتوالى ، وبدأت صيحات الحياة ترتفع فى وجه هذا النظام العتيد المتمثل فى الكنيسة والاقطاع .. وشجع بعض الملوك هذه النهضة الفكرية حتى تخلصت العلوم فى النهاية من سلطان الأديرة ووجدت فرصتها فى رحاب الجامعات التى أنشئت على غير هوى الكنيسة .. وأمامنا مثل لذلك الأمبراطور فريدريك الثانى الذى اعتلى عرش ايطاليا والذى كان يلقب بأعجوبة الدنيا والذى كان فى الوقت نفسه متمردا على سلطة البابا ، هذا الامبراطور قام بدور كبير فى التفاعل الثقافى بين الشرق والغرب حيث فتح بلاطه لعلماء المسلمين ومفكريهم ، وذهب اعجابه بنهضتهم الفكرية الى حد ادخال تقاليد العرب وعاداتهم فى بلاطه ، ثم أسس جامعة نابولى سنة ١٢٢٤ م ، حيث كانت تدرس فلسفة ابن رشد وفلسفة أرسطو المنقولة بواسطة المترجمين المسلمين ، واعتمد فى هذه الجامعة

على الدروس التى وضعها ابن سيناء والرازى وسائر أقطاب العلم والفلسفة من المسلمين •

والامبراطور فريدريك هو الذى أمر بترجمة فلسفة أرسطو وتعليقات ابن رشد عليها وهو الذى أدخل الأرقام العربية وعلم الجبر الى أوروبا •• وكانت جامعة نابولى وساليرنو هما النافذتان اللتان تسربت منهما النهضة الفكرية الى جميع أنحاء أوروبا عن طريق جامعات باريس وبولونيا واكسفورد •• هذا مثل واحد بالاضافة الى نواحى التأثير الأخرى •

* وبدأت أوروبا تستيقظ من سباتها لترى واقعها الأليم فى قبضة الكنيسة والاقطاع يتحديان كل عقل وكل منطق للعدل أو الانسانية ويقفان بالمرصاد فى وجه كل تغيير تهب ريحه من الشرق فى الأفكار أو فى الحياة الاجتماعية •• وألصقت تهمة الكفر بالعلماء الذين رفعوا مشاعل العلم ليبددوا بها ظلمات الجهل •

وأخذت المعركة تشتد بين رسل النهضة ورجال الكنيسة والاقطاع ، وحمل الينا التاريخ أروع قصص البطولة والفداء من جانب ، وأخس أنواع العذاب الذى تعرض له المفكرون الأحرار من جانب آخر •• وحمى وطيس المعركة وزادتها دماء الأحرار اشتعالا •

حلف المثالية والمادية ضد الكينسة :

* نشطت أولا الاتجاهات المثالية فى الفلسفة تحاول انتزاع سلطان الكنيسة وتحرير المعتقدات من قبضة النصوص المتحجرة •• وللضعف الطبيعى الكامن فى منهج الفلسفة المثالية على ما سبق ذكره فقد ذهبت تتخبط فى متاهاتها القديمة ولكن بأساليب جديدة تتناسب وعصر النهضة ، وكانت على العموم فى مركز أحسن من مركز الكنيسة يسمح لها برفع راية الهجوم عليها نظرا لتاريخها الطويل الأليم ورصيدها السىء فى النفوس ••

وكانت الاتجاهات المثالية عموما تسير فى اتجاهين :

(أ) اتجاه مثالى يؤيد الدين ويطالب بنبذ ما أدخلته الكنيسة والاعتماد

على الكتاب المقدس وحده والعودة بالمسيحية الى بساطتها الأولى.

(ب) واتجاه مثالى آخر جعل السلطان للعقل وحده بصرف النظر عن كل ما جاء فى الكتب المقدسة .

* ودخلت الفلسفة المادية المعركة بجوار الاتجاه المثالى من نافذة المنهج التجريبى فى العلم . ذلك أن المنهج التجريبى قد انتزع من الفلسفة المثالية بشقيها كافة الفروع التى كانت تختص بها وتدرسها دراسة نظرية وخاصة جميع العلوم التى لا تتعلق بالالهيات ، وكان ذلك استجابة للروح العلمية التجريبية التى كانت سائدة بين علماء المسلمين مما جعل هذه العلوم تتقدم على أيديهم تقدما كبيرا حتى أن الرازى وهو من علماء المسلمين فى الطب كان يلقب بالمجرب ، وكان رائد الأسلوب التجريبى هو بيكون الذى يعتبره اقبال رائدا من رواد العلم والمنهج الاسلاميين الى أوروبا المسيحية ، والمعروف عنه أنه كان يجيد اللغة العربية .

المهم أن الناس بدأوا يضعون أقدامهم على أرض ثابتة بعد أن وجدوا من الجرأة ما شجعهم على أن يلمسوا بأيديهم ويختبروا بأنفسهم ما كانوا يعالجونه طويلا من خلال الفكر النظرى وحده . وهالهم اختلاف النتائج بين ما تسوقهم اليه الأبحاث العلمية وبين ما تحت أيديهم من معلومات وليدة الدراسة النظرية التقليدية بل وصل الأمر الى حد أن تناقضت النتائج العلمية مع باقى بطون الكتب المقدسة من معتقدات ، فبدأ الشك فى العقائد الموروثة يتطرق الى القلوب وسهل من أمر الشك ما لرجال الكنيسة من رصيد سيىء فى النفوس وانتشر الافتتان بالعلم وبكل ما تدركه الحواس ، وهوجمت كل العقائد التى لا تأتى من هذا السبيل ، وحظيت الكنيسة بالقسط الأوفر من هذا الهجوم .. أليس أن أحد شعارات الثورة الفرنسية : « اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس » .

* ومن هذه الثغرة دلفت الفلسفة المادية وظهرت الى المسرح ظهورا سافرا حيث استغلت هذه العداوة بين فروع العلم الوليد والكنيسة واتخذت من عداوة الكنيسة أرضا خصبة لتبذر فيها الشك والالحاد مؤسسا على دعوى

العلم ، تلك الكلمة التى كان لها سحرها فى النفوس .. واتخذت من الاكتشافات العلمية سلاحا يقوى منطقها ويذرى بمنطق الكنيسة وساعدتها ظروف القرن التاسع عشر على ذلك . ويجمل الأستاذ العقاد فى « عقائد المفكرين » الأسباب التى عملت عملها فى نشر موجة الشك والانكار فى هذه الفترة مما ساعد على ارتفاع صوت المادية فى خمسة مسائل :

١ ـ مسألة دوران الأرض .

٢ ـ مسألة القوانين المادية .

٣ ـ مسألة التطور .

٤ ـ مسألة الأديان المقارنة .

٥ ـ مسألة الشر وعلاقتها بالقدرة الالهية .

المثالية والمادية بين التحالف والتعارك :

فرغم أن الاتجاهات المثالية والمادية عملتا معا فى جبهة واحدة ضد سلطان الكنيسة الا أن الأيام باعدت بينهما حيث عمل الاتجاه المادى بعد ذلك مستقلا ضد الاتجاهات المثالية عموما أى ضد الكنيسة والفلسفة المثالية معا باعتبار ذلك كله تفكيرا مثاليا من زاوية المادية ساق الناس الى متاهات فكرية أورثتهم الحيرة والشطط وباعدت بينهم وبين الواقع المحيط ، أليست المادية هى دائما رد فعل المثالية وهى التعبير عن أزمتها ؟

وقد مال الفكر فى القرن التاسع عشر الى الاتجاه المادى أى الى سيادة الطبيعة على العقل والدين ،والى استقلال الواقع كمصدر للمعرفة اليقينية ازاء الدين والعقل .

وتميز القرن التاسع عشر بأنه عصر « الوضعية » وكان على أثر اندفاع أوربا ـ وراء بيكون ـ أن ظهر الفيلسوف الفرنسي « كومت » في القرن التاسع عشر (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) فأسس المذهب الوضعي ، وهى فلسفة لا تعتبر شيئا حقيقيا وواقعيا الا ذلك الموضوع الوضعي

الذى جاء اثر التجارب الحسية وأمكن اختياره بالحس .

والطبيعة ، والحقيقة ، والواقع ، والحس كلها سواء فى نظر الوضعيين، واعتبار الطبيعة هى التى تنقش الحقيقة فى ذهن الانسان ، وما يأتى من خارج الطبيعة وهم وخداع وليس حقيقة . وما يتصوره العقل من نفسه وهم وتخيل للحقيقة وليس حقيقة .

وبناء على ذلك ، فالدين وما فيه من وحى (ما بعد الطبيعة) خداع .

والمثالية العقلية وهم لا يتصل بحقيقة هذا الوجود الطبيعى اذ هى تصورات الانسان عن نفسه من غير أن يستلهم فيها الطبيعة المنثورة التى يعيش فيها وتدور حوله . ان عقل الانسان — أى ما فيه من معرفة — وليد الطبيعة التى تتمثل فى الوراثة والبيئة والحياة الاقتصادية والاجتماعية ، انه مخلوق ولكن خالقه الوجود الحسى .. انه يفكر ولكن عن تفاعل مع الوجود المحيط به ، انه مقيد مجبر وصانع القيد والجبر هو حياته المادية ، وليس هناك عقل سابق كما أنه ليست هناك معرفة سابقة للانسان . عقل الانسان ومعرفته يوجدان تبعا لوجود الانسان ... هما انطباع لحياته الحسية المادية .

وطريق الانسان فى حياته الطبيعية يبتدىء بالفرد وينتهى بالجماعة ومن ثم فالفرد نفسه ليس غاية ، وحياته التى يعيشها ليست هدفا لسعيه ، انما غايته الأخيرة التى يجب أن يسعى اليها ويذهب فيها كما يذهب العابد فى معبوده هى « الجماعة » وطالما كانت الجماعة هى غاية الفرد الأخير فهى معبودة وتذهب حريته لتبقى لها الحرية وتفنى حياته لتبقى لها حياتها .

ماركس وانجلز وسط العواصف :

وفى داخل المذهب الوضعى تتدرج صور التفكير المادى ، وقد تأثر ماركس وانجلز بمادية فيورباخ ، ويقول انجلز : « ان مسألة علاقة الفكر بالكائن أو علاقة العقل بالطبيعة هى المسألة العليا فى كل فلسفة .. وكان الفلاسفة تبعا لاجابتها على المسألة ينقسمون الى معسكرين كبيرين ، فأولئك الذين كانوا يؤكدون تقدم العقل على الطبيعة ينتمون الى مختلف مدارس

المادية » •• وتتابعت أقوال ماركس فى هذا الاتجـاه فنراه يقول : « أن الأفكار لا يبتدعها دماغ الانسان •• وهذا الدماغ ليس الا « مادة » دقيقة التركيب وهو جزء من الجسم يعكس مؤثرات العالم الخارجى » ويقول : « ان وحدة العالم لاتقوم على وجوده بل وحدته الحقيقية تقوم على ماديته .. فان قيل وما شأن الفكر والشعور ومن أين جاءا ؟ ! قلنا انهما ثمرة المخ وأن الانسان نفسه ثمرة الطبيعة » •• ومن بعد ماركس قال لينين : « ان لوحة العالم هى لوحة تبين كيف تتحرك المادة وكيف تفكر المادة » •

* هذا هو الجو الفكرى والاجتماعى العاصف الذى انزوت فيه الكنيسة وسقط الاقطاع وفشلت الاتجاهات المثالية وانتشرت الفلسفات المادية التى كان أبرزها المادية الجدلية على يد ماركس •

* ولقد شـاهد ماركس نهـاية عصر مملوء بالأسى وبداية عصر متفتح بالأمل •• واختار أسلحة العصر التقليدية وعلى رأسها المادية ، وقد تأثر بمادية فيورباخ وجدل هيجل وصاغ منهما فلسفة مادية متماسكة ولذلك يقولون : لو لم يوجد هيجل وفيورباخ لما وجد ماركس •• ومن ثم فلسفته المـادية لم تخرج عن الصورة الفكرية الشائعة فى عصره ••• ورغم ان ماركس حاول فى بادىء الأمر ان يطرح عن الفلسفة مهمة التفسير أى مهمتها كمذهب يعـالج مجموعة من القضايا حول الانسان والعالم والمصير وأن يقصر وظيفتها على التغيير أى على قيامها بمهمتها كمنهج يرسم طريقا للتفكير والعمـل فقط الا أنه لم يستطع وراح يدلى بفلسفة قائمة على التفسير حيث أدلى بمجموعة أقوال عن الانسان والعالم والمصير .. وهذا يؤكد القول القائل بأن الانسان لا يملك أن ينعزل عن أن يكون له نوع اعتقاد فى الحياة من حوله • وكون ماركس لم يخرج فى مجموع فلسفته عن الصورة الفكرية الشائعة فى عصره يكشف عن نقطة ضعف كامنة فى شخصيته لأنه لم يبعد فى نظرته للأمور عن الفهم الجزئى •• وكان فى استطاعته أن يكون أكبر من ذلك شمولا وأكثر عمقا لو تخير الصواب أنى وجده سواء أكان فى جانب المثالية أم فى جانب المادية •• وكان هذا الصواب يتمثل فى أن مع المثالية نقطة بدء صحيحـة

وسليمة وهى الاعتقاد فى وجود الخالق جل وعلا ، وما عدا هذه الحقيقة المجردة فقد تنكبت فيه بالفعل سواء السبيل .. كما أن المادية دلفت من نقطة بدء صحيحة وسليمة وهى الاعتماد على المنهج التجريبى .. وبين هاتين النقطتين الصحيحتين تأخذ مختلف الحقائق العلمية وضعا جديدا .. ويأخذ علاج القضايا الانسانية نهجا جديدا لا ينافى حقا ولا يضيع مصلحة .. ولكن ماركس لم يفعل بل لم يستطع فكان فى مجموعه ممثلا لروح العوام الساخطة لا لروح العلماء المدققة المنصفة المرتفعة على الظروف الوقتية .. ولذلك فان علة الأمر تكمن فى وجوب دراسة نفسيته التى دفعته الى هذا الاختيار الأبتر .

والفصل الذى خصصه الأستاذ العقاد فى كتابه « الشيوعية والانسانية » عن حياة ماركس وأخلاقه عظيم القيمة لأنه يفسر لنا نقطة الضعف هذه التى تلبست بعبقريته فأخرجت هذا المولود المشوه : الشيوعية على أساس من المادية .. تلك المادية التى نجدها مبعثرة بين كتب « فقر الفلسفة » ، « فيورباخ ونهاية الفلسفة الألمانية الكلاسيكية » ، « جدل الطبيعة » ، « الرد على دورنج » ..

بيئة .. وبيئة :

واليوم تتحمل البشرية كلها أوزار هذه الاتجاهات المنحرفة والقاصرة فى المثالية والمادية على سواء .. والذى يدعو الى الدهش أن البيئة الاسلامية قبل موجات الاستعمار قد برئت من هذه الصورة القاسية من الصراع الفكرى والاجتماعى الذى عاشت فيه أوروبا ، رغم أنها أرسخ منها قدما فى جميع ميادين العلم .. ولا غرابة فى ذلك .. فالفضل يعود لوجود الكتاب والسنة معينا العقيدة الواضحة والشريعة العادلة مما أعطى المسلمين هداية عصمتهم من نهايات أليمة من الشطط والانحراف .. فقد كانوا دائما على ذكر بالمدى الذى يبلغه الانسان بوسائله العلمية فى أمور العقيدة وبالمدى الذى يبلغه من المعرفة عن طريق الوحى على رسول أمين ولا تعارض بين الوسيلتين .. ومن هنا عاشت الشخصية المسلمة فى مأمن من هذه المتاهة الفكرية التى تعكس أثرها على الأوضاع الاجتماعية .

ولا يؤثر فى نصاعة هذه الصورة ما حدث من تأثير جزئى نتيجة ترجمة الفلسفة اليونانية على بعض الاتجاهات الفكرية التى بدأت تفكر بالعقلية المثالية فى أمر الخالق وصفاته وأفعاله وأمر الروح والبعث والجزاء .. ولكن هذه التيارات ظلت ضعيفة فى خضم التفكير الاسلامى المتزن وفى ظل يقظة العلماء والفقهاء الذين نبهوا الى نقطتا الخطر ونقطة الأمان فى هذا اللون من التفكير الذى لم يجرف الا قلة لم تترك أثرا على سطح الحياة الاسلامية .. وفيما كتبه الامام الغزالى وابن القيم وغيرهما تذكير بأن محنة الفلسفة جاءت من ولوجها الى موضوع الالهيات بلا عاصم من وحى .. وبفضل ذلك كله لم تجد البيئة الاسلامية نفسها فى احتياج الى قضايا الفلسفة المثالية فى أمر عقيدتها كما لم تجد نفسها متبعة لأسلوبها الوصفى أو النظرى فى علــوم الطبيعة والكيمياء والطب وغيرها .. فهى لم تصد عنه تعصبا وانما لم يعش بينها لأنه لم يجد فراغا يملؤه ويفرض بعده سلطانه على الحياة ..

* ومن هنا لم تكن البيئة الاسلامية محتــاجة فى أمور عقيدتها حتى الى اصطلاح الفلسفة فهى غنية بموضوعها وباصطلاحاتها التى تولدت على أصولها الايمانية ولم تكن كلمة الفلسفة من بينها وانما كانت دائما للاشارة الى فكر السابقين من الأمم التى حرمت نعمة الوحى ..

* ولم تكد نفس قضايا الفلسفة اليونانية تنتقل الى أوروبا عن طريق علماء المسلمين حتى صادفت جسما عليلا متقبلا للمرض وصادفت فراغا راحت تملؤه فأضرت أكثر مما أفادت لأنها عملت فى أوروبا كتيارات فكرية أصيلة فى ظل ظروف اجتماعية واقتصادية سيئة ، فأفسدت من حيث ظنت أنها تصلح وكان لها رد فعل قاس فى صورة الاتجاهات المادية على ما سبق ذكره الأمر الذى برئت منه البيئة الاسلاميةا .

* واليوم ونحن فى القرن العشرين .. وموجة الايمان بالله تتصاعد يوما بعد يوم .. وعشرات الكتب التى تبحث فى العقيدة على ضوء التقدم العلمى تصدر تباعا نجد أن الدائرة بدأت تدور على الفكر المادى الذى أخذ يتوارى فى خجل أمام نور الحقائق ..

فهل معنى ذلك أن الخطر فى طريقه الى الزوال حتى لو وصل الأمر الى انقراض التفكير المادى كلية ... تجارب التاريخ الطويل تقول لا ؟ ! لأن الاعتقاد فى وجود الله مجردا لا يفى ولا يعصم من الزلل لأن ابليس نفسه لم يكن يجهل وجود الله ولكنه لم يكن يطيعه .. كما أن علمنا بهذه الحقيقة سيحرك فى النفوس كل الأسئلة السابقة عن الله وصفاته وصلته بخلقه وعن الحياة والموت والحساب وعن ما تستلزمه الأوضاع من تغيير . فهل سنترك أنفسنا للتخمينات والظنون وتعود للمثاليات سيرتها الأولى ويعود للحياة ضلالها القديم ؟ ! أم سنسلك طريق الهدى بمعرفة دور العقل وضرورة الوحى .. لنأمن ردود الأفعال .. ؟ !

والآن هل الوجود مادة فقط ؟. ! وكيف نشأت الحياة ؟ !

الحَلقة السَابعَة

أولاً: القضيَّة الأم .. هيَ الإيمَان بالله وَالقضَايا الأخرى تتبعهَا .. مَنطقيًا .. وَتسَلسلاً .. والتزامًا

حوَار سَافر .. تتَألق فيه بـرَاهيْن الإيـمَان وَحججُه .
الشيُوعي ينَاقِش الجزئيَات .. وَالمسُلِم يَـردّه إلى الاصُول !

(١) « هذا الحوار العقلى الحر الذى دار ـ فى السجون ـ بين فئة مؤمنة .. وآخرين أخطأوا الطريق الى الحقيقة .. يؤكد ـ بكل معنى من معانى التوكيد والتثبيت ـ قاعدة « اليقين لا يزول بالشك » .

صحيح أن هذه القاعدة الأصولية وردت فى الأبحاث الفقهية المتعلقة بالعبادات والمعاملات .

وينبغي أن تأخذ هذه القاعدة مكانها فى الدراسات العقائدية .. والفلسفية .. والفكرية ..

فاليقين بالله لا يزول بالشك « أفى الله شك فاطر السموات والأرض » .

أن الاسلام يزدهر .. وبراهينه تتألق من خلال الحوار العقلى الحر .. ولن يهزم الاسلام أبدا فى مناقشة حرة .

وهذه السلسلة من المناقشات .. كما تبرز أصالة الفكر الاسلامى .. تبرز ـ من جانب آخر ـ ضرورة التزام الهدوء .. والاتزان فى النقاش الموضوعى ..

فالانفعال أو الهيجان يعصف بسكينة النفس .. وحين تفقد النفس سكينتها .. يفقد التفكير عمقه .. ومن ثم تضعف الحجة »

---

(١) تعليق مجلة المجتمع الكويتية .

هل الوجود مادة :
وكيف نشات الحياة ؟ !

أحببنا أن نعرف المدى الذى تبلغه قدرتهم العلمية على الاجابة المحددة على هذا السؤال لادراكنا قيمة هذه القضية المحورية فى تحديد غيرها من القضايا .. ولا يمكن أن يستقيم منهج حياة يتجاهل هذه الحقيقة بالسلب المانع أو الايجاب القاطع وأى تجاهل لها معناه ببساطة أننا لم نعد أمام ما يسمى « بالنظرية » بل نكون أمام ما يسمى « بالتجربة والخطأ » وهو نوع من الاختلاجة الفكرية والعشوائية فى التصرفات تدفع الأمم ثمنها باهظا فى الأموال والأنفس والثمرات ..

واذا كان هناك وجه شبه بين الدين والنظرية ، فهو فى أن كلا منهما قد تكلم فى قضايا الوجود (الكون والحياة والانسان) ثم فى المنهج المتولد منها.

واذا كان هناك وجه خلاف بينهما فهو ذلك الذى يكون بين الأصل الصحيح والصورة الباهتة ، أما « التجربة والخطأ » فهو مالا أرى له موضعا فى عالم الانسان والعقائد ان لم أكن أراه بحق جريمة فى حق هذه القضايا .. ولا يخفف من جرمه محاولات ستره تحت اسم « الممارسة العملية » أحيانا ..

ومن ثم كان اهتمامنا منصبا على رؤية ملامح النظرية لا أكثر .. وهل صورتها مكتملة الملامح أم أن ما يعتبرونها نظرية هى وجه آخر « للتجربة والخطأ » عليه طلاء علمى .. أم انه ليس ثمة فى الحقيقة الا الرسالات السماوية فى جانب « والتجربة والخطأ فى الجانب الآخر » ؟ ! كانت هذه الخواطر وراء السؤال الذى وجهه واحد منا اليهم فى جلسة ضمت كل اتجاهاتهم الحزبية ..

* الأخ : ماذا تقولون عن نشأة الحياة ؟

ـ الزميل : وجدت الخلية الحية الأولى ، التى انشعبت عليها سلسلة التطور ، نتيجة تفاعلات كيمائية وبيولوجية فى عصور جيولوجية سحيقة .

قال من وجه السؤال بعد أن لمس المغالطة :

ـ لعلك نسيت يازميل ما سبق أن اتفقنا عليه من التعامل بصراحة تليق بنا ومن البحث المشترك عن الحقيقة •• وليس فينا أحد يهزل عندما صمم على أن يتحمل فى سبيل معتقداته كل التضحيات •• نود أن نلمس روح الجد فى اجابتكم لا روح الدعاية والتلبيس •• هذه الاجابة يقينى انك شخصيا لست مقتنعا بها •• ومثل هذه البداية لا تشجع على الوصـــول الى الحقيقة التى تواصينا بالبحث عنها ••

« وهنا انبرى أحد الزملاء ملطفا للجو وقد أصبح مستقلا عن التنظيمات فيما بعد » •

ـ يا فلان أنت أمام مجموعة قضـــوا عمرا طويلا فى الســـجن ايمانا بمبادئهم •• ويمثلون واقعا ضخما فى الأمة أرجو أن تقدر ذلك حين تجيب ، وتقدر أنهم لا يخفى عليهم قصدك •• حافظ على أن يحترموا تفكيرك •• ومع كل يا حضرات الأخوة فظنى أنه لا يجهل ذلك وانما أراد ألا يصدم مشاعركم الدينية •

* الأخ : من جانبنا ، فانه أسعد لنفوسنا منطق الصراحة لأنه أبعث على سرعة الالتقاء ، والأمر بسيط وهو لا يعدو أن لديكم اعتقادا له حججه • ولدينا اعتقاد له حججه •• ونحن الآن نتكلم عن الحجج والأدلة •• أى نتكلم من خلال عقولنا لا من خلال مشاعرنا ، أما من يعطل عقله منا أو منكم فله علينا أن نخاطبه بلغة المشاعر ••

مرة أخرى •• ماذا تقولون فى نشأة الحياة ؟ •• ولا يخفى عليكم أن العلم لم يقل كلمته بعد •• واجابة الزميل تخمين لا سند له من العلم •• وعندما نقول العلم •• نقصد به قول علماء الأكاديمية الروسية الذين يحاولون منـــذ أكثر من نصف قرن تخليق الخلية الحية ومعرفة سر الحياة •• لأن هؤلاء العلماء هم الثقـــاة لديكم •• ولا نريد أن نحتج الآن بغيرهم من العلمـــاء ولا بمنطقنا الفكرى الخاص أو الايمانى •

* الزميل : سنرجع الى المختصين لدينا فى هذا الشأن لعل عندهم علما فيه •• أما نحن فان الاهتمام السياسى يستغرق كل نشـــاطنا ولا نعطى هـــذا الأمر

اهتماما . ونعتقد أنه عديم الجدوى أو التأثير فى واقعنا . اننا نهتم بالواقع وبمشاكل العمال والفلاحين الراهنة . ونسترشد بالنظرية فى حلها ، وتترك أمر هذه الأمور الغيبية للاعتقاد الشخصى ريثما يكشف العلم عن سرها ويميط عنه اللثام . وبعد فراغنا من حل مشاكل العمال والفلاحين يكون لدينا متسع من الوقت لبحث هذه القضية باعتبارها ترفا علميا .

* أخ : هذا المنطق فيه قصور لا يليق بمن يتصدى لحل قضايا البشر .

واليك وضعك الراهن . فأنت فى السجن . مشاكلك الواقعية المشاهدة ، هى كل ما يدور داخل أسواره . أما ما يدور خارج الأسوار على مدار الوطن من مختلف النشاطات الاجتماعية والسياسية فيعتبر غيبا عنك . لكن هل يغيب عنك أن بقاءك فى السجن وأن خروجك منه مرتبط بهذا الغيب الذى يؤثر فيه تأثيرا مباشرا ؟ ! وانه لذلك فأنت تتابع هذا الغيب باستمرار ولا تنعزل عن تياراته . هيا بنا الى خارج الأسوار لنشارك بملء اختيارنا فى كل أنواع النشاط ، فان ذلك سيكون هو واقعنا المشاهد ، أما جميع دول العالم وما يجرى على وجه الأرض من صراع بين الشرق والغرب فيعتبر غيبا بالنسبة لوطننا .. لكن هل نستطيع تجاهل الأثر المباشر للأوضاع العالمية على استقرار وطننا الداخلى ، هل تسلك الانصراف عن متابعة ما يدور وراء حدودنا وندفن رؤوسنا فى التراب .

هيا بنا نمشى على مسرح العالم الكبير وننظر نظرة كلية الى تشابك مصالحه وتفاعل تياراته،فان ذلك سيكون هو واقعنا المشاهد الجديد ، وما وراء كرتنا الأرضية من أفلاك ونجوم وكواكب وأقمار ومذنبات وشهب وسدم واشعاعات ومجالات وقوى سيكون غيبا عنا ، فهل نستطيع أن نقف منه موقف اللامبالاة ولا نتجه الى أجواء الفضاء بالدراسات والأبحاث لما لكل ذلك من أثر مباشر على حياتنا ، وما يلزمنا من تكيف داخل دارنا الدنيا لنتوافق مع النواميس الكونية ولا نتصادم معها .

ابتداء من داخل أسوار السجن الى داخل حدود الوطن الى داخل أقطار الأرض فان تجاهل حلقات الغيب على مدار ذلك كله فيه غفلة وقصور

عاجلين وهلاك آجل ، وهو على العموم منطق غير علمى ألا يدعونا ادراك ذلك الى أن نقف من جميع قضايا الغيب موقفا جديا لنقطع فيها باعتقاد،فاما يقين له أدلته القوية واما انكار عليه أدلته القاطعة . والعلم على مدار العصور قد قال كلمته فى هذه القضية بأكثر من أسلوب لمن أراد أن يكلف نفسه فضيلة البحث والاهتمام . فهل فى اهتمامنا بهــذه النظرة الشاملة خروج على منطق العلم والواقع .

ألست ترى يا زميل أن درجات التزاوج بين الواقع المشاهد والواقع المغيب تكاد تجعل الغيب شهادة والمشاهد غيبا حسب الزاوية التى ننظر منها الى جوهر الحقيقة وحسب ما عليه الناظر نفسه من العلم .

الزميل : اذا أردت الحق فانى أوافقك على أهمية ذلك . ولا نملك أن نتجاهل هذا الأثر ، ولكننا جعلنا الأولوية لمشاكلنا الاقتصادية لأنها هى التى نكتوى بها . وبعد ذلك سيكون لدينا الفسحة لاعطاء هذا الجانب ما يستحقه من الاهتمام .

* الأخ : جميل منك هذا التقدير . ولكننا اذا أعطينا غمار الناس عذرا فى أخذهم الأمور بهذا المنطق ، فأنت ــ وقد نصبت من نفسك منقذا للبشرية ومخلصا لها ــ لا نستميح لك هذا العذر .

فمن أمانة مثل هذا الهدف أن تتزود له بادراك حقائق الكون والحيــاة الأساسية ليكون ذلك أعون لنا على علاج الدقائق .. كلانا .. نحن وأنتم . يهتم بالواقع الذى نعيشه ونوالى تشريحه للوقوف على علله . ولكننا ونحن نشخص الداء أو نصف الدواء . نتزود بالعلم الكلى لحقائق الحياة،وتتسلح بمعرفة جميع مراكز التأثير على الظاهرة محل الدراسة وأنت بمنطقك هــذا انما تتجاهل أهم المؤثرات فى علاج واقعك وفى اعطائك نتائج صحيحة ، فلا أنت ستصيب فى تشخيصك ولا فى علاجك ، فالقصور سيصاحبك فى جميع المراحل.

فكرر قوله أن الاهتمام بالواقع له المقام الأول . وهنا تدخل الزميل الذى استقل عنهم فيما بعد وهو اليوم صحفى لامع ، وقد أدرك أى مأزق تردى

فيه زميله ووجه اليه الكلام فى حدة قائلا : يا فلان •• انه يطالبك بشمول النظرة ، وهو فى هذا على صواب • ومن عجب أن يطالبك بأن تفكر بمنطق فلسفتك وأنت تتهرب منها ، ان المادية الجدلية تزودك بقانون الترابط الذى يدعوك وأنت تدرس الجزء أن تضع فى اعتبارك ارتباطه بالكل حتى يكون تفكيرك علميا •• فلماذا تتهرب من ذلك ؟

« ولم نشأ أن يزداد الموقف تحرجا ابقـاء عليه لجولة أخرى • وقد يستغرب البعض تعاطف بعض الزملاء معنا •• وليس فى الأمر غرابة • فقـد كنا نعلم أنه ينكر عليهم أمورا كثيرة بحكم نفسيته المتحررة ولأن فى نفسه اشكالات لم تحل ، فكأنه ينتصر لنفسه لا لنا فى محاولته التضييق على زميله » وهذا كان وراء حرصنا على استمرار وجوده معنا • لم نشأ أن يتحرج الموقف، فقال أحدنا :

ـ على أى حال •• حسبنا الآن أنكم أدركتم وقدرتم أهمية القطع فى أمر منشأ الحياة لأننا سنحصل على احدى اجابتين قاطعتين ، كل منهما بعيدة الأثر فى حياتنا البشرية •

* اما أن يقطع العلم بأن المادة أصل الحياة التى تطورت حتى مرحلة الفكر ، ولا وجود لقوة أخرى أو شىء آخر غير المادة ، فيخلو الطريق أمام فلسفتكم المادية وما يتفرع عليها •

* واما أن يقطع العلم باستحالة خلق المادة للحياة ويكشف عما فوقها من وجود، هل هناك غير أحد هذين الاحتمالين ؟!

قالوا : بالطبع لا ••

* الأخ : هل نحن على استعداد لتقبل ما يقوله العلم ؟ !

* الزملاء : بدون شك •

* الأخ : وحتى يأتى العلم بالقول الفصل ـ علم روسيا طبعا ـ هل نستطيع اليوم أن نجزم بأنه لا شىء غير المادة ، وأن الحياة منبثقة من تفاعلات كيميائية

وبيولوجية فى عصور جيولوجية سحيقة..هل نجرؤ على هذا القول ونفتأت على العلم ؟

« فصمت البعض .. وآزر البعض منطقنا وخاصة الزميل (ع . ط .) الذى كانت صراحته تنال تقديرنا ونجعله مضرب المثل لزملائه فى جلساتنا لنشجعهم على الاقتداء . وكان ذكيا أو صادقا الى درجة أننا لم نسجل عليه موقفا فيه التواء أو زوغان ، وكان لذلك أسبقهم الى القول : كلامكم منطقى ولا غبار عليه .

* الأخ : وما دام العلم لم يقل لا أو نعم — علم روسيا — أليس من الأمانة العلمية ومن الاخلاص للمبدأ أن تسايروه فلا تقولوا لا أو نعم فى أمر المادة ، مثلما لا نطالبكم بأن تقولوا لا أو نعم فى أمر الخالق والروح . وأن تعتبروا أن القول بالمادة فقط صواب يحتمل الخطأ .. وأن قولنا بالخالق وبالروح فوق المادة خطأ يحتمل الصواب عندكم ؟

* قالوا : ماذا تقصدون من ذلك ؟ !

* قلنا : ان الانصاف والاخلاص للحق في ذاته ، تدعوكم الى القول بنظرية الاحتمالات ، وهذا أدنى درجات الصدق مع النفس والتمشى مع منطق العلم .. فلا تقطعون بالقول بالمادة فقط بل تراجعون قوانينها دون اصرار على اعتبارها قوانين علمية لا تقبل النقض ، وانما الصواب أن تقولوا أنها قوانين احتمالية .. وأن تدركوا أن كل ما رتبتم على ذلك من نتائج واعتبرتموها علمية ، حقيقة أمرها أنها احتمالية . فلا تقولوا التفسير العلمى للتاريخ ولا الاشتراكية العلمية فربما كان العلم الصحيح فى جانب حقائق أخرى .. فهل توافقوننا ؟

« فصمت البعض وآزر البعض منطقنا » .

فرض بفرض ..

واستطرد أحدنا بعد فترة صمت قائلا :

* الاخ : وعلى ذلك .. فاذا كان القول بالمادة وقوانينها قد انتقلنا

به من الميدان العلمى القطعى الى ميدان الظن والاحتمال ، وأنه مجرد فرض يحتمل الخطأ والصواب •• فماذا لو فرضنا أن الحياة أوجدها خالق •• خذوها كفرض •• ولا نطالبكم بمنطقنا فهى عندنا اعتقاد له حججه وبراهينه • فماذا يدخل على منهجكم من تغيير لو صح هذا الفرض ؟ وكيف سيكون مركز فلسفتكم المادية وما تفرع عليها ؟

وهنا أبى أحدهم الا أن يغالط فقال :

* الزميل : نحن لا نعتمد على الفروض • وانما نتبع المنهج التجريبى • ويوم أن تجيب تجارب العلوم نفكر •• لأننا نخشى أن يجرنا الفرض الى الكلام فى الغيبيات •

* الأخ : قد سبق أن سلم بعضكم بأن القول بسيادة المادة مجرد فرض ، وسكت البعض الآخر •• ولا نظن أن السكوت كان لدليل أقوى • ثم انه أقيم على هذا الفرض الذى يحتمل الخطأ والصواب منهج معين فى الحياة يطبق على كثير من الدول ، أفلا يكون من حقنا أن نقول بالفرض فى أمر الخالق وليس من وراء ذلك ضرر عملى ؟ •

ثم ان الفرض من الأساليب العلمية التى تلازم التجربة دائما ، بل لابد للفرض أن يسبق اجراء التجارب لينير الطريق للباحث • فالباحث عند كل مفترق يقف ليتساءل ويرجح ، وما ذلك الا صور للفرض •• واليك حال الطبيب ، لابد وأن تمر بذهنه لحظة فرض لنوع المرض تنقلب الى تأكيد بعد تمام الفحص أو تنتفى •• اننا نطالب بالأسلوب العلمى ، ولا نطلب شططا • ونعجب كيف لا تأخذ الأمور مأخذا كاملا دون تهيب • ثم ماذا يكون موقفك لو علمت أن ما نطالبك بفرضه هو حقيقة علمية •

وهنا انبرى الزميل (ع . ط .) الذى اشتهر بيننا بصراحته وقال :

ـ اسمحوا لى أن أجيب •

فعلت الابتسامات الشفاه •• ولم يخب ظننا حين انطلق قائلا :

ـ اذا صح هذا الفرض سنضطر قطعا الى التوقف • لنراجع أنفسنا

كثيرا .. اذن وراء الحياة قصد ؟ ! . لن تصير المادة هى أصل كل شىء .. سيخلو الطريق للقول بالفكر الأعظم [١] . ستتغير قطعا النظرة الى الانسان ودوره فى الحياة .. سيصبح كونه مكلفا أمرا معقولا بل ضروريا حتى ولو كان أصله قردا فعلا ، ستنقلب فلسفتنا المادية وما تفرع عنها رأسا على عقب .. سيكون سهلا على نفسى أن أصدق بالكتب السماوية وبالرسل والرسالات .. وبعقيدة البعث والجزاء .. سأضع فى اعتبارى أمر الجنة والنار ، وما يتطلبان من الائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر . كل القيم فى الحياة ستتبدل . سأقول بنفسى للناس لقد كنت أجهل أمرا جللا والآن اليكم الطريق القويم .

وعن نفسى ، فانها لأمنية غالية أن أطمئن الى أننى سأبعث لأحيا حياة أبدية فى جنات النعيم .. فعندئذ يهون على أن أقضى هذه الحياة بطولها أو قصرها ، على أى وضع مضحيا فى هذا الطريق الجديد بنفس القوة التى أضحى بها فى طريقى هذا حتى ولو عشت طيلة عمرى أضرب بالنعال ..

« وانفجرنا ضاحكين من عبارته التى ختم بها هـذا الكلام القيم .. وشكرنا له صراحته وهو من المعدودين لديهم .. وقد نظروا اليه باندهاش بالغ » .

وعقب أحدنا قائلا : والآن نكرر الشكر للزميل (ع . ط .) على صراحته المعهودة . ولا نطالب بأكثر من النتائج التى رتبها هو بلسانه ، وبيننا وبينكم ما يقوله العلم فى هذا السبيل ، فقد ارتضيناه حكما .

ولعلكم أدركتم بعد هذا العرض الطيب من زميلكم كيف ـ لأننا نؤمن بحقائق معينة ـ كان لنا منهجنا الخاص ازاء كل القضايا الانسانية .. وكيف أننا لا ننظر اليها بمنظاركم .

« وهنا دوت صفارة العودة من العمل » ..

---

(١) « الفكر الأعظم » ... نص كلام الزميل ... ونحن نقف عند حدود ما اخبرنا الله تعالى عن نفسه من أسماء حسنى فلا نقول : المهندس الأعظم او العقل الاكبر أو غير ذلك من المصطلحات البشرية التى تدخلنا فى متاهات الفلسفة المثالية .

وقبل أن ننصرف نذكر بأننا سنظل نقدر الصراحة والاستعداد لتقبل الحقائق ، ونأمل أن يكون ما وصلنا اليه اليوم أساس نبنى فوقه ولا نعيد الكرة من جديد •

كما نذكر بنقط الضعف هذه ، فى البناء الفلسفى لتولوها العناية اللائقة ولتقطعوا فى هذا الأمر باعتقاد ، لخطورة ما يترتب عليه من نتائج •

ولم يتسع الوقت لكلام جديد •• وبدأت استعدادات العودة من العمل •• واكتفينا فى هذه الجولة بأن هززنا ثقتهم فى فلسفتهم التى لم يفكروا يوما فى مناقشتها . وقد فتحنا بذلك فيهم ثغرة لها خطرها •• علمنا أنهم بسببها قد عقدوا جلسات استمرت ليلتين فى نقاش متواصل • وقد انفرد الزميل ص.ح أحد زعماء — حزب حدتو — بعمل سلسلة من المحاضرات على نطاق حزبه فى داخل العنبر ، وركز فيها على أن قضية الايمان بالله هى قضية شخصية لا أثر لها على المنهج الجدلى الذى يعتبر منهجا علميا صالحا من خلال أى موقف عقيدى • وسيتضح لنا فيما بعد مقدار ما فى المنطق من بعد عن الصواب •

* وفى اليوم الثالث — قصد الزميل المتحرر موقع عملنا قبل أى شخص آخر وملامحه تنطق بالسرور وهو يقول :

— أحمل اليكم نبأ عجيبا •• لقد تحدث أحد رؤوسهم فى ندوة مفتوحة داخل العنبر وأنهى اليهم أنه قد قرأ أحد المؤلفات الفلسفية لعالم ماركسى بعنوان « أصل الحياة » ، وفيه يقرر المؤلف الماركسى أن هذا الكون أثر من آثار قوة كبيرة لها صفات معينة • ثم سكت قليلا وقال :

— وأنا أعتبر هذا تحولا خطيرا فى فلسفتهم •• ولا يفوتنى أن أسجل انتصاركم فى الجلسة الماضية بصورة قوية ••

* قلنا : حسبنا أنك أدركت معنا قيمة هذا الأساس ، وانه جدير بأن يحظى بالاهتمام •• وأنها نقطة ضعف خطيرة فى فلسفتهم ان لم تكن نسفا لها •• قل لهم لا ينسوا أنهم فى الشرق مهد الرسالات السماوية والاسلام بصفة خاصة •• ذلك الدين القيم الذى حرر العقول والنفوس وقام على العلم ،

وكرم العلماء وجعلهم ورثة الأنبياء ، ومن الخطأ البين أن يظنوا أنهم فى أوروبا حيث وجدت المادية مرتعا خصبا فى سخافات المثالية وخرافات الكنيسة وحجرها على العقول مما تبرأ منه المسيحية السمحة •• ومن الظلم أن نسحب هذه الظروف على منطقتنا قهرا عنها •• تلك المنطقة التى قيضها الله دائما لاعادة التوازن الى البشرية كلما جنحت نحو المادية أو الكهنوتية • ولعل من حسن الحظ أن تجرب الماركسية هى الأخرى نفسها فى هذه البيئة الفريدة لكى تراجع نفسها •

أما عن انتصارنا فنحن لم نكن أكثر من مستفسرين ثم مذكرين بالأسلوب العلمى ونسجل أيضا لبعض الزملاء روح الصدق والصراحة مما يبشر بأطيب النتائج ••

* هذه قصة احدى الجلسات فى هذا الموضوع وخرجنا من جميعها بأنهم على اختلاف مستوياتهم يشتركون فى هذا الضعف ولا يملك أحدهم أن يجيب •• لكنهم يستغلون سذاجة محدثهم ليوهموه بأن العلم قد قطع فى كل هذه الأمور فى صالحهم •• واذا ما لمسوا فطنة محدثهم عملوا على التملص وصرف الحديث الى المشاكل الاقتصادية والسياسية والصراع الطبقى ويطلقون لألسنتهم العنان ••

* وجهدنا بعد ذلك فى جلسات فردية وجماعية فى سوق ما وسعنا الجهد من الأدلة العلمية على وجود الله تعالى واهب الحياة والنعم ومنشىء الخلق من العدم •• واعتبرنا ذلك أساسا مهما قبل الدخول معهم فى مناقشة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية لأن جذور هذه القضايا جميعا ستمتد فى تربة العقيدة عندنا والفلسفة عندهم •• وكنا لا نحب أن نخوض جدلا عقيما اذا نحن دخلنا على هذه القضايا دخولا أبترا وأسقطنا هذا الأمر من اعتبارنا ••

ورحم الله الامام الأعظم « أبو حنيفة » الذى كان على علمه وفقهه الكبير ، يخص قضية الألوهية بوصف يليق بها هو : « الفقه الأكبر » •

والآن •• ماذا قال العلم عنها ؟ !

الحَلقة الثامنَة

المَاديّون الجَدَليّون في وَاد .. وحَقائق العلم في وَاد آخر

الإنسان ليس من صُنع المادة .. لأن المَصنوع لا يحيط بصانعه .

تراجع الفِكر المَاركسِي .. اَمَام التجَارب العَمَليّة .

كشفت أسئلتنا الاستطلاعية فى الجلسة السابقة عن مدى قدرتهم العلمية فى تفسير ظاهرة الحياة وهم الذين يلخصون مهمة الفلسفة عموما فى عبارة موجزة « التفسير والتغيير » وهاهى ذى اليوم تقف عاجزة تماما عن تفسير هذه الظاهرة تفسيرا قاطعا ، ورأينا ان كل ما لديهم من آراء فى هذا الشأن ليس أكثر من احتمالات على أحسن الفروض ، ومعنى هذا انهم يقعون فى مزالق المثالية فى التفكير بالتدريج •• باتباع الظن ، واذا فقدت الفلسفة قدرتها على التفسير فمعناه انها فقدت مهمتها الوحيدة لأن التعبير الذى يعقب هذه المهمة لا يدخل في تعريفها، حيث تقوم به الارادة البشرية على ضوء ما وعته من التفسير •

وبهذا العجز عن اعطاء التصورات الكلية الشاملة للوجود والحياة فانها تتخلى عن مهمتها الأساسية لمختلف فروع العلم الجزئية التى تعالج ظاهرة بعينها لمعرفة قوانينها •

* ولم يكن بوسعنا أن نفعل أكثر من ازاحة الستار عن هذه الحقيقة أمام أعين الشيوعيين ، وأن نردهم الى منطق العلم أمام كل فرع من فروعه على حدة ، بعد أن تبينوا أن ما لديهم من تصورات كلية ثابتة شاملة عن الوجود والحياة ما هى فى الحقيقة الا تخيلات مثالية مرة أخرى كتلك التى نعوها على الفلسفة المثالية من قبل، وانهم لكى يكونوا ماديين حقا عليهم أن ينعزلوا عن الاهتمام بهذه القضايا وهو ما ليس فى مقدور من يدعى انه صاحب رسالة للبشر تفسر الماضى وتعالج الواقع وتوجه المستقبل ، أن يفعله

والا عادوا الى متخصصين بين جدران المعامل يقدمون الكشف العلمى دون قدرة على تحديد قيمته أو فاعليته فى تيار الحياة المتدفق •• وهذا ما لايجعل للماركسية كمنهج أى وجود •• وقد رأينا فيما سبق كيف أن ماركس قد حاول فى بادىء الأمـر أن يطرح عن الفلسفة مهمة التفسـير أى مهمتها كمذهب يعالج مجموعة من القضايا حول الانسان والعالم والمصير وأن يقصر وظيفتهـا على التغيير أى على قيامها بمهمتها كمنهج يرسم طريقـا للتفكير والعمل فقط الا انه لم يستطع وراح يدلى بفلسفة قائمة على التفسير ، حيث أدلى بمجموعة أقوال عن الانسان والعالم والمصير • ومن هنا جـاء مقتل الفلسفة المادية حيث تؤول الى شيء غريب ، لا هو بقوانين العلم ولا بالفلسفة المثالية الخالصة لتفوق الأخيرة بنقطة بدء صحيحة هى وجـود الله وجودا مجردا ، ثم اتفاقهما معا فيما وراء ذلك من الظن والتخمين •

﴿ واذا ما أخذنا أحد تخمينات المادية أو بالأحرى المـاديين مثل تعريفهم للمادة ، وعرضناه على معطيات العلم الحديث ، أدركنا بوضوح انهم فى واد والحقائق العلمية فى واد آخر •• وان من أعجب الأشيـاء التى يكتشفها الانسان الدارس أن هناك من الشعارات العلمية فى خداع العقول ما هو أشد فتكا من الشعارات السياسية فى خداع الشعوب •• وأشد من ذلك عجبا قدرة الاثنين على ادعاء التقدمية أمام الناس •

فما هى المادة :

نشأت الماركسية فى القرن التاسع عشر فى ظل التعريف السطحى للمادة « بأنها كل ما تقع عليه الحواس » •• ونجح الأتباع والتلاميذ فى مطلع القرن العشرين فى اعطاء الماركسـية قدرا من مصـل الحياة بعـد أن توالت الاكتشافات العلميـة وتجاوزت ما تقع عليه الحواس الى عالم الذرة •• فأعادوا صياغة التعريف بأن المادة : هى الوجود الموضوعى خارج الذهن ؟ • واليوم يقف ٣٩ عالما سوفياتيا اشتركوا فى تأليف « أسس الماركسية اللينينية » حائرين بعد أن أفلتت جميع التعريفات من أيديهم وفقدت المسلمات النظرية حقيقتها أمام الممارسة العملية من جانب والتقدم العلمى من جانب آخر ••

وهاك مرور سريع على قصة تعريف المادة (معبود الماديين) منذ القرن ١٩ حتى نهاية القرن ٢٠ قبل أن نرى كيف يكون الاستدلال العلمى على وجود الله تعالى •

* ان تفجير الذرة فى القرن العشرين قد فتح الباب أمـام تعريفات جديدة للمادة ومحاولات أعمق فى فهمها •• قال أوستوالد بأن : « المادة صورة من الطاقة فحسـب » وقال ليبون : « المادة صور مختلفـة من الطاقة » وقال ج•ب•س هالدين : « المادة مجرد ضرب خاص من الاضطراب التموجى » وقال ادنجتون : « ان المادة مركبة من بروتونات وألكترونات أى شحنات موجبة وسالبة من الكهرباء • فاللوح هو فى الحقيقة مكان فارغ مشـتمل على شحنات كهربية مبعثرة هنا وهناك » •

وقال هوايتهيد : « ان مفهوم الكتلة فى طريقه الى فقدان امتيـازه الوحيد باعتبارها المقدار الواحد الدائم فى النهاية ، فالكتلة الآن اسم لكمية من الطاقة فى علاقاتها ببعض آثارها الديناميكية • » •

ويقول ليبيون : « ان عناصر الذرات التى تنحل تغنى تمـاما ، فهى تفقد كل صفة للمادة بما فى ذلك الثقل وهو أكثر صفاتها أساسية •• ذلك أن الميزان يعجز عن وزنها ولا شىء يستطيع أن يعيدها الى حالة المـادة فقد اختفت فى عظمة الأثير •• والحرارة والكهرباء والضوء تمثل آخر مراحل المادة قبل اختفاءها فى الأثير » •

ولكن ما هو الأثير ؟ : لا أحد يعرف •• ليس الأثير فيما يقول لورد سالسبورى الا اسما على الفعل « يتموج » • والأثير خرافة ابتدعت لاخفاء الجهل المثقف للعلم الحديث، فهو غامض غموض الشبح أو الروح •

ويقول الأستاذ أدنجتون : « ليس الأثير نوعا من المادة فهو لا مادى » ومعنى ذلك أن شيئا ما ، لا مـاديا يحيل نفسه الى مـادة بواسطة بعض الالتواءات Comortions الغامضة أو الدوامات Vortics كما سماها لورد كيلفن • ويصبح ذلك الذى لم يكن له بعد أو ثقل باضافة أجزاء منه بعضها الى بعض مادة متميزة ويمكن أن توزن •

* ويقول الأستاذ العقاد فى كتاب « عقائد المفكرين » : « حدثت فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر حوادث علمية غيرت كل صورة من صور المادة عرفها الأقدمون » .

وقد عرف الكيميائيون قبل ذلك أن عناصر المادة أكثر من أربعة وأنها ليست محصورة فى النار والتراب والهواء والماء وعرفوا أن ذرة الهيدروجين أخف العناصر ليست هى أصغر جسم من أجسام المادة ينتهى اليه التقدير .. عرفوا الكهرب الذى تحسب ذرة الهيدروجين جبلا ضخما بالقياس اليه .. ثم تقدموا فى معركة الكهرب والذرة حتى أفلتت المادة كلها من أيديهم ولم يبق منها غير حسبة رياضية .. حسبة رياضية كانوا يحسبونها مثلا فى الدقة والضبط والعصمة من الخلل فاذا هى فى النهاية حسبة لا يضبطها الحساب الا على وجه التقريب .. أفلت من المادة كل شيء ثابت أو كانوا يحسبونه مضرب المثل فى الثبوت والحقيقة .

فاللون من الشعاع .. والشعاع هزات فى الأثير .. والوزن جاذبية ، والجاذبية فرض من الفروض والجرم نفسه متوقف على الشحنة الكهربية وعلى سرعة الجسم فى الحركة ونصيبه من الحرارة .. والحرارة .. ما هى ؟ حركة .. والحركة فى أى شيء ؟ .. فى الأثير .

والأثير ما هو ؟ فضاء أو كالفضاء .. وكل وصف أطلقته على الفضاء فهو بعد ذلك مطابق لأوصاف الأثير .

حتى الصلابة التى تصدم الحس أصبحت درجة من درجات القوة تقاس بالحساب ، ويعلم الحاسب أنه حساب قابل للخطأ والاختلال . فهذه الصخرة القوية صلبة جامدة .. يضربها الضارب بيده فترده فيقول : نعم هذه هى الحقيقة التى لا مراء فيها ، فماذا لو كانت يده أقوى ألف مرة أو ألف ألف مرة من يد الانسان القوى بالعضل والعصب ؟ ان حقيقة الصخرة تفقد تحت يده برهانها فلا يحسه أو يحسه ولا يتحدث عنه كما يتحدث عن الحقائق التى تصدم المفكرين ..

وتقدم العلم بالكهرب والذرة مرة أخرى فاذا بالمادة كلها كهارب وذرات

واذا بالذرات تنفلق فتنطلق شـعاعا كشعاع النور •• هل هذا الشعـاع موجات ؟ هل هو جزيئيات ؟ قل هذا أو قل ذاك فهذا وذاك فى ميدان التجربة سواء •

وعاد العلماء التجريبيون الى القوانين الطبيعية التى تحكم الحرارة والحركة والضوء وكل ما فى عالم المادة من كهارب وذرات فوجـدوا لها قانونا واحدا هو « الخطأ والاحتمال » ••• ومن القول الجزاف اليوم أن يقال أن محسوسات المادة هى وحدها الوجود الحقيقى وان المتكلمين عن أصول المادة يأتون بشىء أثبت من الكلام عن الأرواح والمجردات • »

ويقول ليكونت دى نوى فى (مصير البشرية ص١٦) : « •• ان بعض التعابير كالحقيقة العلمية يجب أن تؤخذ بحدود ضيقة وليس بالمعنى الحرفى كما يظن العامـة •• فليست هناك حقيقة علميـة بالمعنى المطلق • والقول المعروف : السير نحو الحقيقة بواسـطة العلم ، قول باطل • فهنـاك فقط مجموعات من الاحساسات التى وجدنا بالتجربـة انها تتبع بعضها البعض بترتيب معين ، والتى تدعى أنها ستتوالى على نفس النمط فى فترة مستقبلة محدودة ، تلك هى روح حقيقتنا العلمية • »

« واذا كان العالم فى القرن التاسع عشر لديه الجرأة الكاملة ليقول : ان الحالة أ تتبع الحالة ب والحالة د تتبع الحالة حـ فان العـالم فى القرن العشرين أكثر تحفظا وأقرب الى التواضع منه الى الغرور ولا يجزم بشىء وانما يستطيع أن يقول أن الحالة أ قد تتبعها الحالة ب أما حـ أو د • وقد يستطيع أن يقول أن د أكثر احتمالا من ب ، جـ ولكن لا يحدد أيها التى ستقع » •

يقول ج• برونوفسكى : « هذا هو الرأى الانقلابى للعلم الحديث ، وقد استبدلت فيه نظرة النتيجة الحتمية بفكرة الاتجاه المحتمل ، « العلم والبداهة ص ٢٠٠ » •

* والآن •• نعود على استحياء الى سؤالهم التقليدى •• أيهما أسبق الفكر أم المادة ؟

لقد تبين من العرض السابق أن الحواس هى أبطأ أدوات المعرفة ، ولذلك يشترك فيها الحيوان وبعض النبات مع الانسان فى ادراك البيئة المادية من حوله . ثم لم يكن مفر من العقل كأداة أرقى فى المعرفة حتى انتهت به رؤيته للمادة الى حافة الأثير عندما خرج عن كل صفة معروفة من صفات المادة ولم يبق الا حسبة رياضية لها دلالة كبرى وهى أن الانسان ليس من صنع المادة لأن المصنوع لا يحيط بصانعه ، والانسان قد أحاط بصور المادة وخرج بها الى دائرة أوسع منها هى دائرة الأثير .. بل الى عمليات رياضية فكرية فى قدرة الانسان أن يحتويها ، وهذا لا يتأتى الا اذا كان فى طبيعة الانسان شىء يعلو على مكونات المادة .. شىء مفارق لكل خصائصها المعروفة .. واذ تحولت المادة الى حسبة رياضية يحتويها الفكر ، فان ذلك يجعل المنطق القائل بأن المادة أسبق فى الوجود على الفكر فى مأزق علمى شديد التناقض مع معطيات العلم الجديد . وفى مأزق أشد حرجا مع مسلمات الماركسية التى قامت على أساس صحة هذا الافتراض وما ارتبط به بعد ذلك من مصالح سياسية كبرى ، وما أشد محنة العالم حين يقف حائرا بين دواعى السياسة وأمانة العلم .

* وهذه الحيرة أوضح ما تكون على مدار كتاب « أسس الماركسية اللينينية » الذى اشترك فى اخراجه ٢٩ عالما سوفياتيا سنة ١٩٦٣ . وفى موضوعنا هذا من علاقة الفكر بالمادة يأتون بما ينقض المادة الجدلية من أساسها ، ولم يكن بد من هذا المصير .. فنجدهم يقولون : « ان النشاط الذهنى أو الفكر خاصة مميزة للمادة ولكنها ليست شكلا من أشكال المادة . وفى المسألة الأساسية فى الفلسفة يطرح الفكر كضد للمادة ، والروح كضد للطبيعة . فالمادة هى أى شىء يوجد خارج العقل ولا يتوقف عليه ، وبالتالى يكون من الخطأ الجسيم اعتبار الفكر جزءا من المادة ، وفى الوقت الحالى يعتبر التوحيد بين الفكر والمادة من مفاهيم المادة المنحطة » .

اذن لقد وصف العلماء السوفيات أنفسهم الفكر المادى للقرن التاسع عشر الذى قامت الماركسية على أساسه ، والذى يسوى بين المادة والفكر

ويعتبر الفكر شكلا متطورا من أشكال المادة يعكس الوسط المادى • وصفوا هذا القول بأنه مفاهيم مادية منحطة •• فهل معنى ذلك أنهم يقولون بانفصال الفكر عن المادة ؟

نجدهم يتناقضون ويحاذرون من هذه النتيجة أيضا ، اذ يقول مؤلفو « أسس الماركسية اللينينية » : « ان الجدلية المادية ترفض أى فصل بين الفكر والمادة ، اذ أن هذا الفصل يعنى فى جوهره العودة الى وجهات النظر الجاهلة البدائية عن تاريخ الانسان •• عندما كانت كل ظواهر الحياة تفسر بأنها راجعة الى الروح التى كان يفترض أنها تدخل الجسد » •

اذن فهما متصلان منفصلان ، وتلك مشكلة جاء حلها فى « أسس الماركسية اللينينية » على الوجه التالى : « ان حل المشكلة السيكوفسيولوجية أى مشكلة العلاقة بين النشاط العقلى وجهازه أى المخ (وهو عضو مادى فسيولوجى) يجب أن ننظر فيه الى كل من الاختلاف والاتصال بينهما • انه لمن المهم أن نعى الخلاف بينهما لأن الوحدة بين المادة والفكر تؤدى الى الغموض ، غير أنه من ناحية أخرى ينبغى فصل الوعى عن المخ لأن الوعى وظيفة المخ » •

* كل هذا العنف والجهد هو فى مجال البحث عن العلاقة المتبادلة بين الفكر والمادة ، وهل الفكر مجرد انعكاس أم يعمل بطريقة فيها تميز • أما مشكلة أيهما وجد أولا ، المادة أم الفكر ، فقد صرف مؤلفو « أسس الماركسية اللينينية » النظر عن القطع فى هذه القضية ، وذلك فى قولهم : « ابتدع ماركس وأنجلز الجدلية المادية خلال صراعهما ضد النظرية الميتافيزيقية للطبيعة التى تنكر التطور • غير ان الوضع قد تغير بعد هذا ، ففى النصف الثانى من القرن التاسع عشر انتشرت فكرة التطور (بفضل نظرية داروين) ، وفى الوقت الحالى يقوم الصراع بين الجدلية والمتافيزيقية بصفة رئيسية حول معرفة كيف نفهم التطور ، وليس حول ما اذا كان هناك تطور » •

ونسوا بذلك أن تنازلهم عن الاصرار على أن المادة أولا سيفقدهم

المقدرة على أن المادة هى المؤثر الحاسم فى عملية التطور ، وأن ذلك مقدمة لمزيد من التراجع .

وأخذوا يتراجعون ، خطوة وراء خطوة ؛ بعد أن تخلوا عن البحث فى أولوية المادة والفكر ، ثم بعد أن تخلوا عن البحث عن أولوية التأثير المتبادل بينهما .. وانتهوا الى الوقوف عند النشاط الانسانى . فنجدهم يقولون : « ان النشاط المادى للانسان نقيض نشاطه الذهنى . غير أن هذين النقيضين يتداخلان كل فى الآخر ويؤلفان وحدة ذات وجهين للحياة الاجتماعية ، غير قابلين للانفصال ومتفاعلين » .

أى أنه يلزم أخذ النشاط الانسانى « كوحدة من المادة والفكر » فبدون هذا لا يمكن معرفة حركة القوانين التى تحكم هذه الوحدة ، ولا حركة التطور ذاته الذى تتم معرفته خلالها .. وهنا نعـود من حيث بدأنا لنقف أمام منهجين :

(أ) اما أن نتبع ما انتهى اليـه الفكر واكتشفه ، أى الى اتباع أحكام « النظرية » .

(ب) واما أن نأخـذ ما يؤدى اليه الادراك الحسى فنلقى بأنفسنا فى متاهة التجربة والخطأ .

ولقد قال لينين من قبل فى الجزء ١٤ من كتاباته : « الممارسة الفعلية يجب أن تكون الأساس الأول فى نظرية المعرفة » .. وهذا معناه أى حتى ولو جاءت الممارسة على غير مقتضى النظرية . وهذا أيضا ما انتهى اليه مؤلفو « أسس الماركسية اللينينية » « مع فارق جوهرى هو أن لينين كان يعتقد فى صحة النظرية وان كان يرى تقديم الممارسة الفعلية عليها . أما هؤلاء فقد قضت تحليلاتهم على أسس النظرية ذاتها وتلاشت تماما فيما أسموه بالممارسة الفعلية وهو التعبير المهذب « للتجربة والخطأ » « مرة أخرى .. » وهذا كله معناه لا يوجد شىء اسمه النظرية ؛ وانما هو دائما منهج التجربة والخطأ فى مراحله المختلفة منذ أن ظهر فى شكل المادية الجدلية الى أن انتهى الى شكل الممارسة الفعلية .. اللهم الا اذا أعطينا وصف النظرية لكل فترة من

التجربة والخطأ ، على أن يكون مفهوما أن كل فترة لها نظرية جديدة ، ولا توجد نظرية واحدة على مدار الفترات جميعا تقوم بدور الموجه الكبير فى عملية التفسير والتغيير الذى يأخذ وصف الفلسفة .

* نعود من هذه الجولة باعتذار الى القارىء العادى عما نكون قد تسببنا فيه من تعب نفسى لكل هذه التعقيدات اللفظية . وكان لابـد لنا أن نرى كيف يفكرون ، وكيف أنهم لم يتخلوا عن الفلسفة المثالية التى نعوا عليها شطحاتها .

وسوف نرى فى الحلقة القادمة أن الأمر أبسط من ذلك بكثير ، وأن لنا أسلوبنا السهل فى الاستدلال على قضية الألوهية .. تلك القضـية التى تتجلى عظمتها فى بســاطة التدليل عليها والاطمئنــان اليها من خــلال كل المستويات الفكرية ، وخيرا أراد الله لنا أن أبعـد عنا كل هذه الشقشقات اللفظية فى فترة السجن وأثناء الندوات حيـث كان الفكر ينطلق صـافيا بلا حواجز فلسفية من هذا النوع الذى رأيناه .

ومع هذا فقد رأينا كيف تبخر الحجر الأول من المادية الجدلية حـول ما هى المادية وما علاقتها بالفكر .

بقى علينا أن نقدم فى الحلقة القادمة شواهد وجود الله سبحانه وتعالى من مبسوط خلقه حولنا لكى نرى ما تؤدى اليه هذه الحقيقه من نتـائج حاسمة سبق أن رتبها الزميل الصريح بلسانه فى ختام الحلقة السابقة ، وعلينا أن تتذكر كل ما قاله جيدا لأن فطرته نطقت بملامح منهج جديد محوره قضية التوحيد .

الحَلقة التَاسِعَة

البَلاغ المبين .. بالحُجّةِ وَالسّلوك .. معًا
المداخِل إلى النفسِ البشريّة .. متنوّعة .. زمانًا .. ومكانًا .. وَاستعدادًا

اليقين .. من خلال دراسة الظاهرة المرئية
وفي "مقام اليقظة" نرى الأشياء رؤية .. أدق وَأجمل .

خرجت مشغول الخاطر الى طابور صباح الجمعة أفكر فيما يمكن أن يقال — مع مطلع أسبوع جديد من العمل — فى قضية اثبات وجود الله تعالى بأسلوب علمى يتقبله ويقتنع به الجميع •• فاذا كنا قد ألفنا تناول هـذه القضية وسط المؤمنين بها عادة على سـبيل الاضافة الى هذه الحقيقـة المستقرة فى القلوب بما يزيدها بالعلم وضوحا وبالعمل استقرارا فنحن اليوم أمام من ينكرونها أصلا ، ليس ذلك فحسب ، بل ويترصدون لكل حجة ولكل منطق ، بل ربما كابروا وجـادلوا فى الحجة القوية ، فهم لا يعنيهـم أن تطمئن أنت اليها قلبيا بطريقتك الخاصة بل يعنيهم أن تقنعهم بها عقليا فى الدرجة الأولى •• لاشك أنها تجربة جديدة وجديرة بأن تشغل البال ، كما وأنهم على حق أيضا !!

* فهل يشفع لنا اشراق هذه الحقيقة فى نفوسنا اشراق الشمس فى سمائها وأنها لا تحتاج فى حياتنا الى دليل أسوة بمن قال قبلنا عن الله : ومتى غاب حتى يستدل عليه ؟ أو بمن قال : اننا نسـتدل بالله على وجود الأشيـاء ولا نستدل بالأشياء عليه !! (١)

* وهل يشفع لنا كوننا فى تعامـل يومى ومباشر مع الله بما نلمسـه من

---

(١) من أقوال ابن عطاء الله : « الهى متى غبت حتى تكون الآثار هى التى تدل عليك ، ومتى بعـدت حتى يكون جميل صنعك هو الهـادى اليـك .. كيف تخفى وأنت الظـاهر ام كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر » .

فيوضـــات ربانية لا تنقطع تؤكد معية الله سبحـــانه لرسله فى دعوتهم وفى محنتهم مع أقوامهم ، وتقدم لنا صورة فريدة من تفسير القرآن الكريم ، باعادة الوقائع ، فكل ما نمر به اليوم نجده متطابقا مع نظيره فى الصـــدر الأول ، فيزيدنا ادراكا لمرامى الآيات الشريفة ، ومشاركة لسلفنا الصالح ، وقربا من الله ويقينا فى مستقبل هذا الدين .

* وهل شفعت هذه الحقيقة المشرقة من قبل لرسل الله مع أقوامهم وهم يستغربون موقف الانكار منهم ويقولون لهم : أفى الله شك فاطر السموات والأرض ؟!

ترمومتر « السلوك الفطرى »

* نعم كل هذا لا يشفع ، وكل الأدلة المقنعة لا تشفع ، اذا كان فى النفوس حائل أو على قلوب أقفالها ... هذا الحائل يزداد سمكا أو رقة من فرد لفرد ومن وقت لوقت فى الفرد الواحد وهو موجود على الدوام فى حياة المكذبين بالرسل .. هذا الحائل هو « السلوك العملى » نعم ، الســلوك العملى .. ولا غرابة فى الأمر .. فبمقدار اقتراب السلوك العملى أو ابتعاده عن « السلوك الفطرى » أو « الأخلاق الأساسية » بتعبير المودودى ، يكون هذا الحائل أخف أو أغلظ .

* وقياس حرارة السلوك العملى بترمومتر السلوك الفطرى ، أمر يهم كل داعية ليعرف أنواع الأمراض النفســية فى الشعوب والأفراد ، وأيها من الأمــراض البســيطة وأيهــا من المستعصــية .. واذا تعمقنا فى السلوك العملى لأبى جهــل وأبى لهب بما كان فيــه من غدر والتــواء وحقــد أعمى ، وجــدناه منــذرا منــذ البــداية بنهايتهما الأليمــة .. وكان بنو اسرائيل النموذج الغريب لشعب تقتله هذه الأمراض الخبيثة ... واذا تعمقنا السلوك العملى للذين هداهم الله الى الاسلام فيما بعد لوجدنا فى ماضيهم السابق على الهداية ما ينبىء عن هذه الخاتمة السعيدة ، فقد سجل التاريخ شهادة أبى سفيان الصادقة عن الرسول لدى هرقل وما كانت لتحدث من مثل أبى جهل أو أبى لهب . كما سجل له أيضا معرفته لأقدار الرجال ،

فعندما شاع خبر مقتل رسول الله فى غزوة أحد وجاوبه عمر بن الخطاب بنفى الخبر •• قال له : أنت أصدق عندى من ابن قميئة •• ولم يكن ليغيب هذا السلوك العملى بين فرد وفرد من رسول الله صلى الله عليه وسلم • فهو يعرف جيدا الفرق بين خالد وأمية بن خلف وهما على شركهما ، فنراه يقول : ما مثل خالد يجهل الاسلام •• وان لخالد لعقلا ••

وما كان يلتقى بأحد من رؤوس العرب حتى يبدره بقوله : أأنت القائل كذا •• أأنت الذى تفعل كذا •• فيدرك الرجل أن حياته العملية والفكرية لم تكن خافية عن رسول الله •

فبقدر ما تكون عليه حياة الفرد أو الشعب من خصائص المروءة والكرم والشجاعة والصدق والرحمة والتجرد يكون اقترابه من السلوك الفطرى وتكون خصوبة نفسه لاستنبات بذور الايمان فيها •• فان كان أقرب الى : « هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم •• » كان أرضا مجدبة يصعب فيها استنبات أى عود أخضر •• اذن فثمة مشكلة أخرى ستقابلنا خلاف المشكلة الفكرية •••• طبيعتها هذه المرة أخلاقية •• بل أنها ستكون مفتاح صعوبة أو سهولة الاقناع بموازين الفكر ••

•• أليس أن هناك من أضلهم الله على علم ، وأن هناك من « جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » •• فهل سيكفينا فى هذا المقام الاقناع العقلى وحده لكى يتحول الفرد بعده تحولا فجائيا من اعتقاد الى اعتقاد •• ربما حدث ذلك للبعض اذا كان وراءه خلفية من السلوك الفطرى ولكن بالنسبة للجميع فسنظل أمام نفس المشكلة ؟! ولكن كل المشاكل مجتمعة لا تعفينا من مسؤولية البلاغ : « فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب » « وانك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » •

ويبقى لنا من خبرة السلوك العملى تبصرة الداعية بنفوس الناس وبنوع الأرض التى يبذر فيها وأن يصيخ لنداء الحق دائما : « اعلموا ان الله يحيى الأرض بعد موتها » و « ليس لك من الأمر شىء » •

※ والتجربة العملية معنا قد أكدت أن الذين تميزوا من الشيوعيين منذ البداية بخصائص أخلاقية كانوا فى النهاية من المسارعين الى الحق .. وأن الذين أعيانا التواؤهم وتذبذبهم ظلوا على ما هم عليه من الظنون والأهواء .. وتبقى حقائق العلم معلقة فوق رؤوسهم كناقوس يدق لا يعفيهم من المسؤولية مهما هربوا من النور ، « ومن يدعو مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه .. » « والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد »

فى الزنزانة

※ وتضمنا داخل الزنزانة جلسة خاصة بالأخوة يلتقى فيها الخاطر بالخاطر ، والفهم بالفهم والقلب بالقلب .. فى صدق مع هذه القضية الخالدة التى لا تبوح بأسرارها الا لمن يستعذب البذل فى سبيلها : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا .. » ويأتينا صوت صادق .

ـ اننى أشفق يا أخوة من الهبوط بهذه القضية الكبرى الى مستوى المجادلة ، اننى أراها فى حسى أعظم من ذلك .

※ أخ آخر : وأنا أذكركم أن وسيلة البشر فى اكتساب الايمان منذ آلاف السنين هى نفس وسيلتهم بعد آلاف السنين ، انها القلب أو الفؤاد ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء والمعراج : « رأى قلبى ربى » وقال تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها »، وقال جل شأنه فى سورة ق بعد سرد للحياة والتاريخ « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » . فلماذا تحصرون القضية فى العقل ؟

※ أخ ثالث : لا مجال للاشفاق فليس فيما تقوله تعارض مع دور العقل ورسالته ، وكأنى بك تريد أن تقدم شيئا على شيء . .العقل أم القلب .. ولا شك أن الايمان أعظم من أن يدخل على النفس من باب واحد . وأولوية الأبواب تختلف من فرد الى فرد ، ومن وقت الى وقت ، ومن مكان الى مكان . فهناك من تلزمه مسؤولية الفكر ، وهناك من يكفيه الاتباع .. وقد يسبق الأخير بعمله العالم بعلمه ان فقد العمل .

* أخ رابع : غير أن الكمال يتحقق حين يجسع العقل والقلب معا على هذه القضية ، فعنـدئذ يتزاوج العلم والخلق ، ويولد الانسـان الكامل على الأرض ، ويكون العالم المؤمن أشق على الشيطان من ألف عابد جاهل .

* أخ خامس : وقد رأينا كيف ضلت قلوب كان أصحابها لا ينقصهم العلم بالله مثل ابليس ، ورأينا كيف يتزلزل ايمان لا يعصمه العلم .. واذا كان للأولوية بينهما جدوى فانه لأجدى ما يكون أن تكون الأولوية مع هؤلاء الماديين لباب العقل ومنطلق العلم : « وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم » .. ثم ألستم معى أن قوله تعـالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » . ألستم معى أن هذا القول الحكيم يكفينا الجدال فى هذا المجال .. فبالعلم يدخلون الاسلام وبالعمل يذوقون الايمان .

* وحملت الأيام التالية والجلسات المتفرقة والمجتمعة مع الشيوعيين ترجمة عملية لهذه الخواطر والافهام .. بعض هذه الجلسـات قد لمست أثره فى النفوس بعد الافـراج بسنوات ، وبعضها أنقل منـه مشهدا حيا للقراء ، وبعضهـا قد ربط بين كل ذلك فى تسـلسل منطقى ، كان هو كل ما فى استطاعتنا فى ذلك الوقت ، ولنا جولات بينها .. أما عن الأثر الممتد الى ما بعد الافراج ، فقد جرى على لسان الصـديق الدكتور أحمـد كمال أبو المجد ، حين سألنى عن أحد الشيوعيين الذين كانوا فى الاعتقال .

ـ أتعرف الزميل « فتحى » الذى كان معكم فى فترة « البعثة » ؟

ـ أعرفه جيدا .. وأعرف أنه اليوم يشغل منصبا صحفيا هاما .

ـ ما رأيك فيه ؟

ـ انه دمث الأخلاق مستقل الشخصية هادىء الطبع ، وقد كانت له مواقف كثيرة فى مواجهة زملائه كلما عمدوا الى المغالطة والتلبيس ، انتهت به الى الاستقلال عنهم كتنظيم ، وأعتقد أنه بمؤهلاته النفسية سيستقل عن الماركسية كفكر متخلف يوما ما .

ــ هذا ما أتوقعه أنا الآخر بالفعل ، ولسؤالى عنه سبب يتصل بهذا التقدير • فأثناء عودتنا معا بالسيارة من السويس الى القاهرة ، بعد جولة فى الاتحاد الاشتراكى قص على أبرز ما تركته فترة « البعثة » فى نفسه ، وبصفة خاصة ذلك السؤال الحائر الذى يطالعه فى نومه ويقظته ، ويقفز من بين أوراق مكتبه حتى وهو غارق فى مواد التحرير ، وعلى وجه الخصوص كلما مر على شجرة ، حتى نغص عليه حياته •

ــ ما هذا السؤال العجيب الذى شغلتنى به أيضا ؟!

هذا السؤال هو •• أين المدير ؟!

ــ فضحكت وقلت زدنى ايضاحا •• فالشىء الوحيد الذى التقينا عليه من أول يوم هو كراهيتنا لمدير السجن ؟! قال : بل هو مدير آخر •• والسؤال عنه جاء من أحد الأخــوة المهندسين •• كما علمت من الزميــل فتحى •• وقد بقى السؤال معلقا فوق رأسه يدق كناقوس يمنعه من الهروب •• قصته ان الأخ المهندس فى جلسة له مع مجموعة من الشيوعيين ، أحضر معه شجرة صغيرة من نباتات الصحراء ، ولبث يشرح عليها مراحل الانتاج فى هذا المصنع الصغير منذ دخول المواد الخــام من الأنابيب التى نسميها الجذور الى أفران الصهر الى غرف التغليف والتعليب ، ونجح هذا الأخ بقدرته العلمية فى جعلهم ينسون تماما انهم أمام عود من النبات واستهواهم شرحه وعلمه ، ولأول مرة يفطنون انهم بالفعل أمام مصنع دقيق صامت يضج بالحركة وبالسرعــة فى الانتاج وتفاعلت شحنتا العلم والاخــلاص فى نفس المحاضر ، فخرجت عباراته من القلــب واخترقت حائل الألف والاعتيــاد وزرعت الاندهاش فى النفوس ، وفجأة دوى صوته العميق •• هذا مصنع كامل تدب فيه الحركة والانتظام ، فأين المدير ؟! ومن يومها وهذا السؤال يطارده كالشبح وخاصة كلما رأى شجرة ••

فبعث الله دودة :

* أترك هذا المشهد لأعود مسرعا الى حيث كنا فى الزمان والمكان اللذين لم يستنفدا دورهما القدرى بعد ، لكى أقدم مشهدا آخر فيه شىء جديد ،

يمتد أثره فى نفسى حتى اليوم والى ما شاء الله وكنا نحن والشيوعيين معا فى هذا المشهد نشترك فى التتلمذ على معلم عجيب ..

ففى يوم قائظ الحر — والصيف سريع المجىء فى الصحراء — دوت صفارات العودة من العمل وتوافد الجميع من كل صوب الى مكان التجمع .. لكن شيئا جديدا تحمله بعض الأيدى .. انه أعواد من نبات السكران ذى الورق العريض يستظل بها صاحبها تارة أو يسلو بخضرتها تارة أخرى .. ولم يفطن أحد أنها تحمل معها نفعا آخر وسرا أكبر الا بعد أن جلسنا فى أرض الطابور .. طالت جلسة الانتظار فوق نصف الساعة .. وفى هـذا اليوم على غير المعتاد اختل نظام الجلوس بسبب تحلق اعداد من الأخوة والشيوعيين حول أعواد السكران هنا وهناك .. لقد اكتشفوا فيها شيئا جديدا مدهشا راحوا فى متابعته .. أنها دودة سمراء فى حجم دودة القز تتدلى بأعـداد كثيرة من أوراق النبات بواسطة خيوط حريرية دقيقة .. والأنظار تنتقل من دودة لأخـرى كأنهم يتابعون أروع الاستعراضـات الرياضية .. الملامح واحدة والعيون محدقة والأنفاس لاهثة . يتصايحون تارة ويصمتون تارة أخرى كأن على رؤوسهم الطير .. لا فرق فى هذا المقام بين أبيض وأحمر فالكل فى معمل الصحراء والتلمذة سواء .. وسيدة الموقف هى الـدودة التى تغير جلدها بما فيه من رأس وصدر وأرجل فى دقيقة أو أقل ، وبعد عدة تقلصات تتخلص من الجلد بعد أن تتكور محتوياتها الداخلية وتأخـذ شكل قنديل أخضر اللون فى حجم حبة العنب يظل معلقـا بالورقة بنفس خيط الدودة الأم .. وفى نفس لحظة سقوط الجلد وخروج القنديل ، تقوم كل مجموعة بشق القنديل على الفور ، فان جاء الشق قبل انفصال الجلد بلحظة نزل على الأيدى سائل أزرق اللون ، وان تأخرت عملية الشق لحظة أخرى حتى يسقط الجلد ، نزلت على الأيدى حورية جميلـة خلابة المنظر (أى حشرة صغيرة) تهتز أجنحتها المغطاة بشعر خفيف وتختلج اختلاجة مولود جديد يستقبل الحياة .. ولكنها شىء أغرب من كونها مولودا لأن تكوينها كله تم فى لحظة .. ان يدا سحرية قد صنعتها على التو من هذا السائل العجيب .. يالها من لحظة واحدة بين حالة السيولة والخلق الجديد .

وتبارت المجموعات فى محاولات الامساك بلحظة التحـول هذه وتوالت عمليات الشق .. الكل يريد أن يمسك بيد هذا الشيء العجيب الذى يحاورنا بل ويتحدانا .. ولم تنجح مجموعة واحدة فى ذلك .. ولم يسار أحد فى أن شيئا عجيبا كان يعمل بسرعة البرق من عملية الشق ، ويعمل بقوة ودقـة لا تتناهى وبابداع ليس بعده ابداع .. شيء أقرب مما تتصور .. والكل يردد كلمة واحدة : « شيء عجيب » ؟!

* وقام الطابور فى اتجاه مبنى السجن ؛ ولم يكن لنا حـديث على مدى الطريق الا هذا الموضوع ولم يكن بأيدينا غير أدوات العمل والا أعواد النبات تشرئب اليها الأعناق وترنو الأبصار ؛ مما أربك حركة الطابور .

* عشت هذه اللحظات بطريقتى الخاصـة ؛ أسرح الطرف فى الصحـراء والآفاق الممتدة من حولى ، وأسرح بالخاطر بعيدا الى صحراء أخرى كانت محضنا لأول بيت وضع للناس ومهبطا لخاتم الرسـالات ، والى صحراء أخرى كلم الله فيها موسى تكليما ؛ والى صحراء أخرى كانت مهوى لأفئدة الصدر الأول ، يعلمون فى مرابعها أبناءهم الفروسية والفصاحة .. انها الصحراء دائما ، فأى سر فيها ؟!

*وأدخل فى خاطر آخر أعجب وأوقع فى النفس من سابقه ، حين أتذكر أن القرآن الكريم يعلمنا « ألف باء » الايمان حين يخاطبنا بنفس الكلمة التى نطقت بها شفاهنا جميعا ؛ حين تجردنا من ضغط المصالح والأهواء وقلنا معا شيء عجيب .. ويرضى القرآن منا هذا المدخل البسيط ، وأن نفهم أن هناك شيئا عجيبا يقوم بعملية الانشاء فى كل كائن حى ، وعلينا أن نترقى خطوة أخرى بالبحث فى خصائص هذا الشيء .. ويا له من اعجاز يملأ النفس حين تنطق الآية الشريفة بنفس الحروف : « أم خلقـوا من غير شيء أم هـم الخالقون » .

* ويوم أن يترقى وعينا بهذا الشيء سنعلم أنه ليس كمثله شيء وهـو السميع البصير .

الجواب الأخير • بنفس الأسلوب العلمي في المعرفة :

من كل ما سبق تبلور لدينا فى النهاية قدرة جديدة على تناول هذه القضية بثقة عميقة وبأسلوب علمى لا محل فيه للظنون ولا مطعن عليه من أحد • وما وجدنا عليه اعتراضا أكثر من الصمت الذى فسرناه بالموافقة الخفية ، أو الوعد باعادة البحث مع المختصين الذى فسرناه بالخلوة مع النفس للمراجعة • وفيما يلى مجمل ما قيل فى أكثر من مقام :

* فى جميع أوجه نشاطنا الانسانى ألفنا أن نتعامل مع جانب ظاهر من الحقيقة ، فى الوقت الذى يغيب عن حواسنا الجانب الآخر منهما • وقد استطعنا علميا معرفة هذا القدر المغيب بدراسة الجانب الظاهر المرتبط به والذى يعتبر امتدادا له •

فقد وقفنا باستخدام قوانين الكتلة والطاقة على سر تركيب الذرة غير المنظورة وعلى وظائفها ، ثم أيدت القنبلة الذرية الأولى ما وصل اليه العلماء من نظريات ، وعرفنا نظرية التيار الكهربائى بنفس الطريقة ، واكتشفنا عنصر الهليوم فى الشمس قبل أن نعثر عليه فى الأرض بدراسة اشعاعاته • وحدد العالم الفلكى الفرنسى Leverier (١٨١١ — ١٨٧٧) بالحسابات الفلكية حجم ومدار الكوكب نبتون ثم رصدته المناظير فيما بعد •

لقد صار أمرا مألوفا فى كل فرع من فروع العلم ، أن نتعامل مع الجانب المغيب من الحقيقة من خلال الجانب الظاهر منها ، لقد أفضى بعضها الى بعض •

* فاذا استخدمنا نفس الأسلوب للكشف عن المستوى العلمى للانسان من خلال منتجاته وآثاره استطعنا أن نقف من خلال دراسة أى أثر له (ولتكن الطائرة مثلا) على مستوى من أنتجوا طائرة سنة ١٩٤٠ . ومن أنتجوا طائرة سنة ١٩٥٠ ، ومن أنتجوا طائرة ١٩٦٠ وهكذا •

وحرب التجسس القائمة بين المعسكرين تعتمد على الحصول على أى معلومات مكتوبة أو مصورة أو مسموعة ، ليقوم الطرف الآخر بتحليلها والوقوف على المستوى العلمى لخصمه الكامن وراءها •• كل هذا من غير أن

تقع أبصارنا على أشخاص العلماء الذين صنعوا هذا الشيء محل الاهتمام ، بل ومن خلال تحفظ الدول الشديد عليهم .

فماذا نعنى بعبارة « المستوى العلمى » عند دراستنا لطائرة وقعت فى أيدينا .. كما حدث أن أغوت اسرائيل أحد الطيارين بالفرار بطائرته اليها قبل المعركة .

نعنى بالمستوى العلمى مجموعة الصفات المشتركة فى اخراج المواد الأولية الى عالم جديد هو عالم الطائرات المصنوعة ، فكل عالم اشترك فى انتاج هذه الطائرة قد أسهم باضافة صفة من صفاته هو اليها ، بل انه قد بث فيها أبرز صفاته وهى مواهبه .. فالعقلية الميكانيكية متضافرة مع الكهربية ، متضافرة مع الرياضية ، متضافرة مع الكيماوية الى غير ذلك من مختلف التخصصات العلمية ، كلها قد اشتركت من خلال تخصصاتها ، أى من خلال صفاتها لتخرج لنا الى عالم الوجود طائرة معينة .

ونستطيع أن نتابع الفرق بين تخصصات أو صفات منتجى طائرة سنة ١٩٤٠ ، سنة ١٩٥٠ ، سنة ١٩٦٠ وهكذا .. أى تتابع التقدم العلمى . ونستطيع ونحن فى أى عام أن نعطى تقريرا ضافيا عن جميع النظريات العلمية والمستويات التى أنتجت ما سلف من طائرات ، حتى لكأننا نرى اليوم بأعيننا ما كان عليه علماء الأمس ، حتى بعد أن واراهم التراب وأصبحوا فى عالم الغيب ما داموا قد تركوا وراءهم شيئا فى عالم الشهادة .

اذن فنحن نستخدم نفس الأسلوب العلمى فى اعتمادنا على الجانب الظاهر من الحقيقة — وهو هنا الطائرة — لمعرفة الجانب المغيب منها وهو هنا المستوى العلمى للذين انتجوها أى لصفاتهم .

* ولعل ظاهرة انتشار المعارض الصناعية فى عصرنا الحاضر تعطينا مفتاح هذه الحقيقة ، فيكفى رؤية المستوى الفنى فى معرض للصناعة لنقف على ما عليه الدولة من تقدم علمى وعلى مستوى صفات علمائها .

* وفى معرض للطيران تقف في آخرطابور العرض طائرة صغيرة (ترانزستور)

تحتوى على كل ما تحتويه الطائرات ، وتزيد عليها أشياء لم يصل الى مستواها الفنى كلا المعسكرين المتنافسين في الاختراع ، وتكشف عن وجود معسكر ثالث أقوى ٠

أولى مميزات هذه الطائرة هو دقة حجمها ورقة المواد المصنوعة منها ، ثم عدم صدور أى ضجيج عن محركاتها ، ويسر حركة اجنحتها وقدرتها على الطيران لساعات طويلة بأقل وقود ، ثم تزودها بمعدل طائر لانتاج المواد الغذائية ثم اشتمال كل طائرتين من الأسراب الصغيرة على مصنع كامل لانتاج نفس النوع من الطائرات بمعدل انتاجى كبير •• الى آخر قائمة المقارنة بين هذه الطائرة الصغيرة التى لم يصنعها أى من المعسكرين ••

هذه الطائرة الصغيرة هى « النحلة » •• ولكننا ألفنا تسميتها بالنحلة ، فأذهب الألف عنا روعة الأحساس بحقيقة كونها طائرة يلزمنا معرفة جميع التخصصات أو الصفات المتعاونة فى انتاجها ورعايتها ••

مقام اليقظة

ولو تمرسنا على مقام اليقظة ، وهو رؤية الأشياء بغير العين التى ألفنا رؤية الأشياء بها ، لكان ذلك كافيا لجعلنا نقف من هذه الموجودات وقفة جديدة وأمينة ، باعتبارها مصنوعات تريد أن تقف في المعرض الصناعى ، ولاتطالب بأكثر من وضع تقرير أمين عن المستوى العلمى الكامن وراءها وعن صفات مخترعها •• وان حكمة الله تعالى قائمة فى اختلاف الاشكال والألوان والأحجام ، من قارة الى قارة ، ومن بيئة الى بيئة ، لايقاظ النفس الانسانية التى ألفت رؤية الأشياء فى بيئتها •• ولو أنها رأت نفس النحلة فى بيئة أخرى بشكل جديد وحجم ولون جديدين ، لظنتها لأول وهلة مصنوعا بشريا لا مخلوقا ربانيا ، مثلما ظن أهل المدينة الفيل من مصنوعات الفرس عندما رأوه لأول مرة ، ولكان هذا الاندهاش نفسه هو المدخل القلبى والفكرى الى الاهتمام بهذا الموضوع اهتماما علميا بعد أن ندخله بأمانة فى معرضنا لصناعى ، ولأمر ما حثنا الله على السير فى الأرض •• ولأمر ما جعل الله من كل شىء خلقه شبيها له مما صنعه الانسان ، فعالم الطيور والحشرات له شبيه من

الطائرات ، وعالم الحيتان والأسماك له شبيه من الغواصات ، وعالم الدواب والزواحف له شبيه من السيارات ، وعالم الشجر له شبيه من المصانع .. والمطلوب اقامة المعارض الأمينة لمعرفة أى المستويات العلمية أكثر تقدما وأدق تخصصا وأوفى تعاونا بين مختلف الصفات ..

* وحيث أن الشىء المصنوع ما هو الا حصيلة تفاعل عديد من الصفات مع مواد الطبيعة ، وحيث أنه يلزمنا عمل قائمة بجميع الصفات التى دخلت فى انتاج النحلة وحيث يتضح مقدار تفوقها كما وكيفا على الصفات الانسانية التى انتجت الطائرة .. فاننا نخرج لذلك بنتيجة بسيطة لها أهميتها وخطرها وهى أن المستوى العلمى لصانع النحلة أرقى منه عند صانعى الطائرة .. هـذا المستوى العلمى ان هو الا عديد الصفات المتعاونة أى التى تجمع بينها ادارة مشتركة .. أى أنها لذات واحدة ..

مجرد الخروج من عملية المقارنة بهذا الاطمئنان الفكرى الذى يتلخص فى أن النحلة أرقى من الطائرة ، والحوت أرقى من الغواصـة ، والشجرة أرقى من المصنع ، والذى يفيد أن هناك ذاتا واحدة تجمع هـذه الصفات الفاعلة فى الوجود هى نقطة البـدء الصحيحة فى قضية الايمان .. لأن الانسان ليس فى مقدور كل وسائله العملية الا الوصول الى أنه توجـد ذات علية ، لها صفات كمال بطريقة تجريدية ، ونحن بالانتقال بالصفة من دائرة المصنوع الواحد الى كافة المصنوعات ومركز الصلة بينها جميعـا ، نقف على عمومية كل صفة وشمولها وثباتها ، وهذا هو سبيل البشر عامـة الى معرفة الله عز وجل عن طريق صفاته وأسمائه الحسنى بما لها من كمال ودوام وفعل ..

* ومجرد الوصول الى هذه الحقيقة يمنحنا الاطمئنان الفكرى المجرد الى وجود خالق لهذا الخلق .. وهذه القضـية المجردة هى قضية الانسـانية جميعا .. وهى التى نشترك فيها مع أمم الأرض فى كل العصور ، والتى قال عنها الفقهاء : بأن الايمان بالله مقدم على الايمان بالرسل ، والتى ما جاء نبى الى قومه الا ووجدهم على علم مسـبق بها : « ولئن سألهم من خلق

السماوات والأرض ليقولن الله » . ولكنهم كابروا وكذبوا الرسل ..
* والوحى هو الذى يكمل العلم البشرى ويصير هذه القضية الانسانية قضية اسلامية مبرأة من الشرك ومن التعطيل .

* نخرج من ذلك بأن المادة ليست هى الوجود الوحيد ، الأمر الذى بنى عليه الماركسيون عقيدة المادية الجدلية .. وانما هى بكل عناصرها خلق من خلق الله تعالى وفى مركز أدنى من غيرها من المخلوقات .. وان الله تعالى هو مصدر كل الوجود .. « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل » .

الحلقة العاشرة

ضرورة التفريق بين :

المنهج العلمي .. " للانسان "
والمنهج العلمي .. "للاشياء "

من العقل .. الا يتجاوز « العقل » دائرة عمله !
تنوعت الأسباب .. والايمان واحد !
جمهرة من العلماء .. توضح اسباب ايمانها بالله .
الوحى طريق المعرفة المغيبة عن حواسنا .

بنظرة جديدة من قلب يقظ فى الكائنات المحيطة بنا ، نجد أن كل ظاهرة ان هى الا ملتقى العديد من الصفات الربانية ، ويتميز الانســان عن جميع الكائنات بتكريم الله له فى الخلق ، وبالتالى فى فعل تسعة وتسعين اسما من أسماء الله الحسنى فى حيــاته ، وهل تكون صفة الغفور والتواب الا لهذا الانسان الذى يخطىء ويصيب ويذنب ثم يتوب ويستغفر الله فيغفر الله له .. فكل ظاهرة على قدر مركزها فى سلم التفضيل ، ما هى الا تسبيحة كبيرة للخالق جل شأنه تدل عليه على غرار ما شاهدنا فى الحلقة السابقة : « وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

فكل حركة هى آية ناطقة بجلال الله تعالى ، وكل فرع من فروع العلم هو نافذة جديدة على هذه الحقيقة الكبرى . ومن ثم فان أسباب الشك التى انتشرت فى القرن التاسع عشر فى أوروبا قد فقدت قوتها أمام تقدم العلم فى القرن العشرين ، بل انها أصبحت اليوم كما يقول الأستاذ العقاد فى « عقائد المفكرين » : من أسباب الشك فى الانكار بعد أن كانت مصوبة كل قوتها الى

الشك فى الايمان ، وان الروح التى تسود علماء آوروبا فى القرن العشرين تختلف كلية عن الروح التى سادت القرن التاسع عشر الذى فيه ماركس • وان المقيم على الفكر المادى اليوم انما يعيش فى القرن العشرين بعقلية أوروبا فى القرن التاسع عشر ، وما أسهل دعوى التقدمية باللسان •

* وفى النصف الثانى من القرن العشرين تقدم الأستاذ جون كلوفر منسما بسؤال واحد الى طائفة من العلماء المتخصصين فى سائر فروع العلم ، من الكيمياء الى الطبيعة الى الأحياء الى الفلك الى الرياضيات الى الطب ، وقد أجاب هؤلاء العلماء على السؤال مبينين الأسباب العلمية التى تدعوهم الى الايمان بالله •• هذا السؤال هو :

هل تعتقد بوجود الله ؟ وكيف دلتك دراستك وبحوثك عليه ؟

وقد أجاب كل منهم من خلال تخصصه اجابة شافية ، وقد تضمن كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » هذه النماذج القيمة من الأجوبة من رجال على أعلى درجة من التخصص •

* وقد رأينا فى الحلقة السابقة كيف أن عظمة هذه القضية تتجلى فى كونها ليست وقفا على المتخصصين ، بل انها كالبحر الكبير يستطيع كل فرد أن ينهل منه حسب قدراته الفكرية والقلبية ، حتى ولو كان لا يملك الا كفيه يعترف بهما •• وقد يسبق العامل بعمله العالم بعلمه ، وأن الاعرابى الذى سجل التاريخ قولته البسيطة المعبرة : « الأثر يدل على المسير والبعرة تدل على البعير ، فكيف بأرض ذات فجاج وسماء ذات أبراج •• ألا يدل ذلك على العليم الخبير » ، ليعطينا المثل على عظمة هذه القضية التى تغنى كل المستويات وتروى كل ظامىء • وعندما تتقوى فطرتنا بالمجاهدات على الأهواء ، وبالعلم على الظنون ، فانها تكون أفقا صالحا لاشراق هـذه الحقيقة الخـالدة فى سمائها •

وقد كشفت لنا الحلقة السابقة عن كيفية الاستفادة من المنهج القرآنى بالنظر فى ملكوت السماوات والأرض ، وعن سهولة التعرف على صفات الله

تعالى بتتبع آثارها فى خلقه .. وأن الأمر أظهر من الشمس وأقرب من حبل الوريد .. وأن من قال : ومتى غاب حتى يستدل عليه ، كان على حق .. ومن قال : « أفى الله شك فاطر السماوات والأرض » كان سليم القلب نقى الفطرة واسع العلم .. وأن مشكلة البشر الدائمة هى فى أنفسهم وليست فى الحقيقة ذاتها ..« ولكن الناس أنفسهم يظلسون »و« ان الشرك لظلم عظيم» .

القضية المنطقية

والآن .. وقد تحقق الغرض وأصبح حقيقة علمية لا غموض فيها .. حقيقة تزداد بالبحث جلاء لا غموضا ... وبتقدم العلم يقينا لا شكا .. وبالنظر الأمين قربا من أنفسنا وحياتنا لا بعدا ، فماذا يكون موقف من كان ينكرها ، أو يقف، منها موقف اللامبالاة على أحسن الفروض ؟

لقد قلنا لهم فى حلقة سابقة « فماذا لو فرضنا ان الحياة أوجدها خالق.. خذوها كفرض .. ولا نطالبكم بمنطقنا فهى عندنا اعتقاد له حججه وبراهينه.. فماذا يدخل على منهجكم من تغيير لو صح هذا الفرض ؟ وكيف سيكون مركز فلسفتكم المادية وما تفرع عليها ؟. وقلنا للزميل الذى حاول التهرب من الاجابة : « اننا نعجب كيف لا تأخذ الأمور مأخذا كاملا دون تهيب .. ثم ماذا يكون موقفك لو علمت أن ما نطالبك بفرضه هو حقيقة علمية ؟ ! » .

وعند هذا الحد من الحوار انبرى الزميل (ع . ط .) الذى اشتهر بيننا بصراحته وقال :

ـ اسمحوا لى أن أجيب .. (وعلت الابتسامات الشفاه ، ولم يخب ظننا حين انطلق قائلا :) .

ـ « اذا صح هذا الفرض سنضطر قطعا الى التوقف .. لنراجع أنفسنا كثيرا .. اذن وراء الحياة قصد ؟ . لن تصير المادة هى أصل كل شىء .. سيخلو الطريق للقول بالفكر الأعظم .. ستتغير قطعا النظرة الى الانسان ودوره فى الحياة .. سيصبح كونه مكلفا أمرا معقولا بل ضروريا حتى ولو كان أصله قردا فعلا .. ستنقلب فلسفتنا المادية وما تفرع عنها رأسا على

عقب .. سيكون سهلا على نفسى أن أصدق بالكتب السماوية وبالرسل والرسالات .. وبعقيدة البعث والجزاء .. سأضع فى اعتبارى أمر الجنة والنار وما يتطلبان من الائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر .. كل القيم فى الحياة ستتبدل .. سأقول بنفسى للناس : لقد كنت أجهل أمرا جللا والآن اليكم الطريق القويم ..

وعن نفسى ، فانها لأمنية غالية أن أطمئن الى أننى سأبعث لأحيا حياة أبدية فى جنات النعيم .. فعندئذ يهون على أن أقضى هذه الحياة بطولها أو قصرها على أى وضع مضحيا فى هذا الطريق الجديد بنفس القوة التى أضحى بها فى طريقى هذا حتى ولو عشت طيلة عمرى أضرب بالنعال » .. وانفجرنا ضاحكين وشكرنا له صراحته .. وقلنا فى ختام الجلسة : « لا نطالب بأكثر من النتائج التى رتبها الزميل بلسانه » .

* ولم أكن أقل اندهاشا من اخوانى لهذا التسلسل المنطقى الذى نطقت به فطرة الزميل فى لحظة من لحظات الصدق مع النفس التى لا يخلو منها انسان فى حياته ، والتى تكون فى الوقت نفسه حجة الله عليه يوم أن يلقاه ، بل اننى كلما رجعت الى هذه الكلمات بين الحين والحين ، كلما اكتشفت فيها جديدا يدهشنى لاستيعابها متعلقات قضية التوحيد من قضايا أو منهج ، وكان أحد الأخوة معذورا عندما كتب معقبا على هذه الجلسة : « أحب أن تتحققوا من كل كلمة قيلت فى هذه الجلسات فلا يسرح بكم الخيال حتى يأمن الناس جانبنا فى النقل . وأنا لا أتهم بعدم التحقيق ولكن أحب أن أطمئن عليكم مستقبلا أمام من نقلتم عنهم »[1] .

وعقبت على كلمته يومها كتابة : « تكاد تكون الجلسة حرفية وقد سجلت فى أعقابها مباشرة ولا حيلة فى أن تكون الحقيقة أبلغ » .. كل هذه العبارات أنقلها اليوم من مذكرات مضى عليها سنوات .

* اذن فقضية وجود الله تعالى هى قضية علمية قد رأينا سهولة الاستدلال

---

(١) هو الاخ محمود حامد .

عليها ، وهى قضية انسانية يستطيع العلمــاء فى كل عصر تقــديم مختلف الاستدلالات العلمية على صحتها . وكان الفقهاء على حق فى قولهم : ان الايمان بالله مقدم على الايمان بالرسل .. اذ لم تكن الرسل تبعث الى أقوام يجهلون هذه الحقيقة .. « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله » ولكنهم كذبوا الرسل .

ولم تعد المشكلة فى محاولة اثبات ذلك .. بل تنبت المشكلة الحقيقية فى كيفية الامساك بكل النقاط التى نطقت بها فطرة الزميل .. وخاصة عندما يتقدم هذا الزميل خطرة أخرى ويقتنع فكريا بصحة القضية ويبدأ على اعتاب الاطمئنان القلبى وتطالبه فطرته بالمزيد .

والفطرة السليمة لا تكف عن البحث عن وسيلة للصلة بذات الله تعالى الذى تحققت من وجوده فكريا ولم ترتو بعد وجدانيا . انها تريد أن تسمع منه هو سبحانه الاجابة على كل ذلك . وهذه الفطرة السليمة تستهجن عدم قيام هذه الصلة بالله الذى خلقها ثم دلها عليه ، بل انها لتتعلق به أن يفعل هو ذلك .

والمنطقى أن تتم هذه الصلة بين موجودين وجودا علميا كل منهما يعرف الآخر واذا لم تتم هذه الصلة فانها تكون اذن قطيعة غير مفهومة ولا مقبولة .. اننا نستهجن هذه القطيعة ممن نعرفه فكيف نصبر عليها ممن عرفنا ربوبيته لنا ؟

فالصلة قضية منطقية مبنية على أصل علمى .

* ويلبى الله تعالى أشواق هذه الفطرة الى منطقية هذه الصلة فى قوله تعالى « وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء » وفى قوله تعالى : « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » .. ويستهجن مواقف المكذبين فى قوله تعالى : « أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم » .

فعن طريق الوحى ــ صلة الله تعالى بخلقه ــ تتم معرفة جميع حلقات

المعرفة المغيبة عن حواسنا وتتم القدرة على التعامل معها وبالتالى تتم الحركة الصحيحة للانسان •

فالتدليل على وجود الله تعالى قضية انسانية •• وبتكملتها بالوحى تصير قضية اسلامية •

ومن عجيب أمر هذا الوحى أنه يخبر عن كل ما ليس فى طاقة البشر معرفته بوسائلهم العلمية التى اقتضت حكمة الله أن يجعلها موصلة الى حقيقة الحقائق وهى الذات الالهية ولا يجعلها موصلة الى ما عـداها من أمر الروح والملائكة والبعث والحساب •

ومن هذا اتجه البحث لدى الأقوام قديما اتجاها منطقيا حول التحقق من صدق الرسول المبعوث ، واتجه الرسل بدورهم الى تأكيد صدقهم ، كما كانوا دائما قمة أقوامهم فى العلم والخلق وفعل الخيرات ، وبعد بعثة الرسول كانت المعجزات أسلوبا مطلوبا لنقل مركز الثقة اليهم ريثما يتم تحريك العقول تحريكا ذاتيا •

* نخلص من ذلك الى أن سبيل الأمان فى قضية التوحيد: هو فى أن للعقل دوره فى الاستدلال على الله تعالى فقط على غرار ما رأينا فى الحلقة التاسعة •• دون أن يتجاوز هذه المنطقة والا دخل فى دائرة الظنون والتخمينات وتعود للفلسفات المثالية سيرتها الأولى ••

كما أن للوحى دوره فى تكملة المعرفة بصفات الله تعـالى وما يجب وما يستحيل فى حقه وما يلزم معرفته من جميع حقائق العقيدة والتزاماتهـا التشريعية وآدابها الربانية ••

* ولم يتميز المنهج العلمى للانسان عن المنهج العلمى لكل الكائنات الأخرى الا بهذا الوحى الذى يصلح دنياه وآخرته •

(١) وعند اطلاق عبارة المنهج العلمى للانسان يكون الوحى السماوى هو ركنها الأول ، والاكتشافات لكافة فروع العلم هو ركنهـا الثانى •

(ب) وعند اطلاق المنهج العلمى للأشياء يكون كل ما وصل اليه الانسان من قوانين واكتشافات فى كل فرع من فروع الحياة هو مقصودنا بهذه العبارة .

* والخطورة الكبرى تكمن فى طمس هذه الحقيقة .. فلا تتضح التفرقة بين المنهج العلمى للانسان والمنهج العلمى للأشياء .

بل وأشد من ذلك خطرا على حياة الانسان ومستقبله قصر مفهوم المنهج العلمى على ما وصل اليه الانسان من اكتشافات فى كل فرع فقط وتنحية الوحى من حياته .. وهذه هى المناهج العلمانية التى تلتقى مع المادية فى النظر الى الانسان نظرة ظالمة تدمر حياته وآخرته .. وهى أخطر ما تعرضت له أمتنا فى معركة الغزو الفكرى ، والاستعمار الثقافى ، من خلال شعارات الاشتراكية العلمية .. أو العلم والتكنولوجيا .. أو العلمانية أو الدولة العصرية ، حيث عملت جميعها على تسوية الانسان بالأشياء وسلبته ما كرمه الله به وفضله على كثير من خلقه .

* ويأتى الآن موقفنا من قوانين الجدل وهى آخر ما تبقى من المادية الجدلية ، قبل أن ندخل على بقية أجزاء الماركسية فى ضوء المنهج العلمى للأشياء والمنهج العلمى للانسان .

الحلقة الحادية عشر

شيوعي يسأل :

كيف احتفظتم بروحكم العالية .. وتفاؤلكم ؟

- **الايمان يبتسم للصعاب .. ويمرح فى وجه الأهوال !**
- **الظروف واحدة .. والفروق هائلة بين سكينة المؤمن .. وقلق الشيوعى !**
- **تجريدة « قوانين الجدل » من الهالة الشيوعية .. وردها الى مكانها الطبيعى !**
- **وللفنان مجاله فى التقاط المشاهد : وربط أجزاء الصورة .**

كان ليوم الجمعة فى السجن وضعه المتميز ، فهو يوم الراحة الأسبوعية من العمل ، وفيه يسمح باخراج « النظام » أى البطاطين والابراش لتنظيفها فى الفناء الواقع بين عنبرنا وعنبر الشيوعيين .. وبجوار عملية التنظيف نظفر بطابور شمس نقضيه فى السير أو فى الألعاب الخفيفة حتى تحين صلاة الظهر .. فتدوى صفارة الدخول الى الزنازين مباشرة ، لأنه لا يسمح لنا بصلاة الجمعة باعتبارها مظهرا جماعيا يلزم تفتيته فى نفوسنا .

وكان هذا الطابور الصباحى الأسبوعى هو فرصتنا لاسترجاع أحداث الأسبوع والتندر بما جرى بيننا وبين رجال الادارة ، وما قد يكون فيه من جديد فى ندوتنا مع الشيوعيين وهو كثير دائما .. فكان يوم الجمعة موعد تنظيف عام وتنسيق لكل شىء ابتداء من البطاطين والابراش حتى المواضيع والأفكار ..

وكان ليوم الجمعة أيضا سحره الخاص فى حياتنا ، فهو المحطة الأسبوعية المضيئة التى يقف عندها قطار الزمن الذى يسير بنا وسط الأهوال الى غاية واضحة فى نفوسنا .. احدى الحسنيين .. النصر أو الشهادة ، وكل يوم يمر علينا وسط هذا الجوى الاستفزازى المشحون بالتوتر والارهاب ، كنا نحمد الله على مروره بسلام ، وكانت أسعد لحظاتنا هى ساعة « التأمين » أى قفل أبواب الزنازين فى المساء حتى اذا كان يوم الجمعة تضاعفت فرحتنا بمحطة النصر الكبيرة على أحداث أسبوع حافل بالطغيان . وبعد لقاءاتنا مع الشيوعيين تضخمت قيمة هذه المحطة المضيئة ، اذ صارت محطة نصر فكرى وعقائدى أيضا ..

كنا ونحن فى بطن عربات قطار الزمن فى أحسن الأحوال النفسية .. حتى أن الليل كان يحمل على أجنحته أصداء ضحكاتنا وسمرنا الى فيافى الصحراء المحيطة بنا . ولم نكن نتكلف هذه الحال ، بل كنا على العكس نوالى التوصيات بالتخفيف من المرح . لما يجلبه علينا فى الصباح من مضاعفات ، لأن هدف التكديرات المستمرة هو جعلنا فى جو نفسى كئيب يشيع اليأس فى نفوسنا ، والسخط على مبادئنا ، والتنصل من أخوتنا ، مما ييسر مهمة مساومتنا على حريتنا ويضمن عدم انبعاث مثل حركتنا مستقبلا.
* وينفلت الزميل « فوزى » من طابور عنبر الشيوعيين وينبث فى طابور عنبرنا ، وفى نفسه سؤال حائر سأله لأكثر من واحد من الأخوة حتى جاء دورى فيه :

ـ يا أخى كيف استطعتم الاحتفاظ بروحكم العالية طوال هذه السنوات الخمس[1] ، حتى أننا لنعجب للضحكات المنبعثة من عنبركم بالليل ، وكأنكم فى حفلة ساهرة ، فى الوقت الذى يخيم الصمت على عنبرنا ، فلا تكاد تغلق أبواب الزنازين حتى يعيش كل منا فى واديه ، ولا نجد ما يكون مادة لحديث مشترك طويل .. صدقنى اذا قلت لك أن صبر كثير منا قد نفد على مدار

هذين العامين اللذين مرا علينا .. لقد أنشدنا فى بدايتهما كل الأناشيد الحماسية حتى مللناها . ثم عقدنا الندوات السياسية حتى سئمناها .. والآن كرهنا حتى الكلام العادى ، والأيام تضغط علينا ككابوس ثقيل .. وأصبحت أخشى على نفسى الجنون ، صدقنى .. لولا بقية علاقة معكم لفقدت صوابى ، وأرجو أن تجيبنى على سؤالى :

ـ أنت تحيرنى يا زميل بسؤالك هذا ، لأنى كنت أظن اجابته بديهية عندكم ، ولو لم توافقونا عليها . فأنتم معذورون فيما وصل اليه حالكم ونحن طبيعيون فى حياتنا ، ومفتاح الاجابة هو فى قضية الربح والخسارة .. من يربح يفرح ، ومن يخسر يحزن .. فكل يوم يمر علينا تقتضيه مسئولية الجهاد نعتبره غنما يضاف الى رصيد حسناتنا أمام الله الذى سيتولى حسابنا فى دار أخرى بعد هذا الدار . ويعزينا فى هذا المقام ايماننا بالله واليوم الآخر ، حتى ينتهى هذا العمر القليل حيث نعوضَ عن كل نصب فيه .

ويعزينا قول لرسولنا الكريم : « كل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية » .

ليس معنى هذا أننا لا نتألم فنحن بشر ، ولكن الرجاء فى الله يخفف الألم فلا نصل الى الصورة التى تمرون بها .

فهل ترانى بهذا قد أجبتك ؟ .

الزميل : المهم أنكم متصالحون مع أنفسكم .

ـ عبارتك هذه ذكرتنى بمعنى كنت أكتمه فى نفسى .. والآن حانت فرصته ، وهو حول من يتصالح مع نفسه ومن يعيش فى تناقضات ، اننى واخوانى كثيرا ما نرى لكم تصرفات تتناقض مع معتقداتكم ، ولعل هذا أحد أسباب الصراع النفسى . فأنتم برغم ادعاءاتكم المادية تأتون على غير وعى منكم بتصرفات عقائدية تكشف عن بذرة القيم الفطرية فى النفوس ، وأن هذه الأخلاق الفطرية أغلب من مجادلات اللسان ومن محاولات خنق الفطرة فيكم .

الزميل : لا أفهم قصدك .. أوضح .

ـ أعنى أن المادى المثالى هو من يجعل اشباع رغباته وتحقيق مصالحه فوق كل اعتبار أخلاقى .. وأنتم لا تثبتون على حال ، فالأخلاق عندكم متغيرة ونسبية فى مواجهة الغير كأفراد وكحزب . أما ما يطالبكم به الحزب من انضباط وتضحية فان تنفيذه من جانب أى فرد منكم نعتبره عملا غير مادى فى حق من يقوم به ، وبهذا يتناقض مع كل قيم الفلسفة المادية .. لأنه قبل التضحية المادية فى سبيل شىء مثالى ، وهو مصلحة الحزب ، وهو اعتراف ضمنى بأن هناك ما هو أولى من الرغبات المادية بالعمل من أجله بصرف النظر عن كنه هذا الشىء .. حزبا عندكم أو الها عندنا . ولم يعد تعريف السعادة هو اشباع الرغبات المادية بل قد يكون فى التضحية بها ، ولا تعريف الحرية هو تحقيق الضروريات بل قد يكون التضحية بها .

* وعندما وقفتم طابورا طويلا لعناق وتقبيل الزميلة التى حضرت لزيارة زوجها ، حتى لينتزع الواحد منها انتزاعا أثار اشمئزاز الجميع حتى السجانة والنزلاء العاديين ، كنتم فى هذا الحال ماديين فعلا ، ولكن عندما وقفتم عند حدود معينة مراعاة لاعتبارات أخلاقية خاصة بالظروف كنتم بهذا فطريين ولستم ماديين . وكذلك عندما يتحرق الواحد منكم شوقا الى ابنه أو زوجته فانما يكون بفطرته متناقضا مع كل ما تدعون اليه من مشاعية جنسية مستشهدين بزوال هذه الروابط الأسرية فى فجر التاريخ ، وان كان الهجوم المتواصل عليكم جعلكم تغلفونها فى عبارة جديدة لا تلفت الأنظار هى المعاشرة الاختيارية .. ومقتضى هذه العبارة أو تلك ، ألا يكون لك تعلق بواحدة بعينها ولا بابن بعينه حتى لا ينحدر حب الملكية الخاصة فى نفسك باعتبارها رجسا اجتماعيا واقتصاديا .

* وكذلك عندما تكلم ماركس وانجلز عن المشاعية الجنسية كان كل منهما ماديا حقا .. ولكن عندما يظل كل منهما أبا وزوجا لآخر يوم فى حياته ، فانه يكون فى هذه الحالة خاضعا لمنطق فطرى أقوى من كل مؤلفاته .. ألست ترى معى أن هذا التناقض بين النظرية والتطبيق هو من جهة دليل على عدم

صحتها ، ومن جهة أخرى سبب قوى من أسباب الصراع النفسى الذى تتحدث عنه . ألا يكفى برهانا على صحة الاسلام خلو المؤمنين به من هذا التناقض فى حياتهم ، وأنه لذلك دين الفطرة حقا .. يا زميل فوزى .. اننى لا أتعمد الهجوم ، ولكنى شأن غيرى نراقب ونحلل ، ولا نبخسكم مع هذا حقكم فى أنكم من العناصر المتميزة عن غيرها من فئات الشعب التى لا تبالى، فلا شك أن شيئا فيكم جعلكم لا ترضون بالواقع الخاطىء ، ولكنكم أيضا أخطأتم الطريق ..

* ويمضى الزميل فوزى الحاصل على ليسانس الآداب قسم فلسفة غارقا فى أفكاره وهمومه .. وندرك أكثر من أى وقت مضى قيمة كنوز الايمان فى قلوبنا ، بل فى قلب الأمى منا .. ومرة أخرى أقول أن الحكم هنا على انتشار الظاهرة لا على الحالات الفردية هنا أو هناك .

● **عين الفنان تكشف عن الحوار الكبير :**

* وألمح من بعيد الفنان ابراهيم أبو العيش ، قابعا كالقط بجوار سور السجن العتيد الذى يرتفع شاهقا مزهوا بأبراج الحراسة من فوقه ، وقد بنى هذا السور فى أعقاب محاولة هرب من أحد النزلاء العاديين باءت بالفشل وانتهت بجلده فى ساحة السجن ثم بالتضييق علينا .

اتجهت الى « أبى العيش » برغبة قوية فى أن أفضى اليه بالحديث الذى كان بينى وبين فوزى ، وبرغبة أقوى فى مزيد من العتاب لعدم مشاركته حتى اليوم لاخوانه فى هذه الجولات الفكرية . ولكنه بادرنى بقوله :

ـ لقد جئت فى الوقت المناسب ، وكنت أترقب أحد أعضاء الندوة بفارغ الصبر .. تعال أقدم اليك بعين الفنان شيئا جيدا .. دراسة من الخارج ، لا تقل قيمه عن دراستكم لأفكارهم وأنظمتهم من الداخل .

قلت : أتتهرب من هجومى المنتظر ، وهل مثلك يفتقد فى هذه الجلسات. ان أسلوبك الفنى جدير بأن يعبر عن قضايا الاسلام ، لا من موقع الموهبة فقط ، بل من موقع الداعية أولا ، الداعية المتبصر بجميع قضايا العصر ما لها وما عليها .

قال : ما غاب عنى شيء من ذلك ، ولكنى اخترت الثغرة التى أقف عليها ، ومعايشتى مع الرسامين منهم تكفينى ، واعتبر أن نشاطكم فرض كفاية ، اذا قام به البعض سقط عن الآخرين ، وبعد فراغكم من هذه الجولات سأقرؤها حرفا حرفا لألحق بكم مثلما تلحقون يومها بما تسجله عين الفنان .. اننى معكم فى الميدان بطريقتى الخاصة التى أرى لها الأولوية عندى ، قبل أن تتغير الظروف الى الأحسن فنحرم هذه الفرصة .

لا تضيع وقتا واجلس معى لتشاركنى ما أرى ، وستجد أننى أقوم بعملية تقييم للماركسية بطريقة جديدة نابعة من جميع الفروق بين مجتمعين على الطبيعة لم يتكلفا مظهرا دعائيا ولا خدعا سياسية ، من خلال طابور الشيوعيين وطابورنا ، وضع فى حسابك أيضا أنهما ليسا فى ظروف واحدة ، فأحدهما مضى عليه سنتان ، والآخر خمس وهم مجرد معتقلين ، وطابورنا محكوم عليه بمدد طويلة ..

أدركت أن أبا العيش قد نجح فى اشغالى بملاحظاته المبتكرة كشأنه دائما فى عمل الغرائب .. ولم نلبث أن انخراطنا معا فى التسجيل من برج المراقبة الدقيق بجواز السور الذى يتيح لنا رؤية الطابورين بصورة واضحة . وأخذت أستمع اليه وهو يقول :

— اليوم موعد النظافة الأسبوعى بالسجن .. طابورنا كله تقريبا قد أخرج النظام وملابس مغسولة منشورة هنا وهناك . أما فى طابورهم فلا تجد أثرا لذلك ، وتمر عدة أسابيع قبل أن تضطر احدى الزنازين الى القيام بعملية تنظيف واحدة .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : هنا أناقة المظهر ونظافة الملابس ملفتتان للنظر ، وهناك لا تخطىء العين ملابسهم المغبرة وشعورهم الشعثة ، أليس أن نظافة الظاهر من نظافة الباطن ..

قلت : هذه لها سبب عقائدى عندهم .. وقد لفت نظر بعضهم اليها ،

فأخبرني أن الشخص الحركي هو الذى تشغله قضايا الطبقة الكادحة عن الاهتمام بشئون نفسه .. وبهذا فهم يتسابقون لا شعوريا على صفة الحركية والجماهيرية ، ويخشى النظيف منهم أن يتهم بالميول البرجوازية والتطلعات الطبقية . (وهنا استغرقنا معا في ضحك طويل لما جرنا اليه الحديث من تعليقات متناثرة) .. هات ما عندك يا فنان ؟ .

قال : هنا يسير الطابور فى مجموعات تتحدث وتناقش وتضحك .. وخطاهم سريعة .. وهناك يفتقرون الى هذا النشاط ، فأغلبهم جلوس بجوار الحوائط الا القليل فيسير فرادى ، ولا تقع عيناك على أكثر من اثنين يمشيان معا مشية جنائزية .

قلت : هذه لك .

قال : انظر الى رؤوسهم المطرقة والى كثرة المدخنين عندهم وندرتهم عندنا (وتذكرت عند هذه الملاحظة قصة السجائر معهم وطافت بذهنى مشاهد كثيرة عن حالتهم البائسة التى كانت تدعوهم الى التنقيب الجماعى عن الأعقاب المتخلفة من سجائر السجانة .. وكيف فوجئنا مرة بمجموعة منهم خرجت من أرض الطابور ، وانقضت كالطيور الجارحة على فريسة تكوموا فوق بعضهم محدثين غبرة شديدة .. والسبب عقب سيجار ألقى به أحد السجانة وكانوا يترقبون لحظة القائه .. وتذكرت كيف كان يتسابق بعضهم على العمل نوباتجيا أمام باب ضابط العنبر من أجل عيون أعقاب السجائر ، وكيف كان بعضهم يجد متنفسا لأزمته الدخانية فى نباتات الصحراء البرية وخاصة نبات السكران ، وكيف كان الحاحهم الشديد علينا يجعلنا نشفق عليهم فنحضرها على مضض لمن تفصح ملامح وجهه وعيناه المغرورقتان عن المعاناة الشديدة .. وكيف كان الأخ البنان يعقد مسابقة فى القصة القصيرة الفورية بالعربية الفصحى لمجموعة من الصحفيين منهم يكون نصيب الفائز سيجارة واحدة تكون عنده كنزا ثمينا .. وتحققت لأول مرة فى حياتى أن السجائر تذل النفوس الى هذا الحد .. واليوم يدخنون باطمئنان بعد أن سمح لهم بالمقصف) .

أخرجنى أبو العيش من خواطرى قائلا : لماذا سكت ..

قلت : لا شيء .. هات ما عندك .

قال : أتذكر أن الادارة أعطت جائزة النظافة لجاويش عنبرنا فى الوقت الذى تأففت اللجنة المشرفة على النظافة من رائحة عنبرهم ورجعت من منتصف الطريق .. وانه لذلك كلما أعلنت الادارة عن جائزة يتسابق السجانة على استلام عنبرنا لضمان الحصول عليها ..

قلت : صدقت .. وقد ذكرتنى ملاحظتك الفنية بما هو أهم .

قال : ما هو ؟

قلت : هو أن ادارة السجن برغم محاربتها المستمرة لنا ، الا أنها تأمن لوضع مرافق السجن فى أيدينا من مطبخ ومخازن وكانتين ومخبز وورش . وتعترف لنا بالكفاءة والأمانة والقدرة على عدالة التوزيع بين فئات السجن المختلفة .. ولا تأمن لوضع شيء من ذلك فى أيدى الشيوعيين .

قال : اذن فأنا على حق فى جلستى هذه .. ألست ترى لذلك قيمة أخرى خلاف قيمة النظرية ومناقشتها .. أليست عين الفنان قادرة على كشف الزبد من الجوهر من أقصر طريق ..

قلت : لقد نبهتنى الى شيء جديد .. هو أن الحوار يجرى فى الواقع بين حياتنا كلها وحياتهم كلها ، لا بين مجرد مجموعة من الأفراد .. وهو لا شك حوار صامت وعميق وكبير ، وكم أتمنى لو أتيح لكل من تبهرهم الماركسية فى الكتب والمقالات أن يروها واقعا مجسما على الطبيعة فى أشخاص متهالكين فى كل شيء ، الا من القدرة على الكلام .. ولا أطالبك بعد الآن بشيء يا أبا العيش طيلة هذا اليوم .. فقد كسبت هذه الجولة ..

مع « قوانين الجدل » فى الحوار الصغير :

عدنا فى مطلع الأسبوع الى الحوار الصغير .. حوار الأفكار مع الأفكار ، بعد أن شد أبو العيش اهتمامى الى الحوار الكبير .. حوار المجتمع النموذج من المجتمع النموذج أكثر من أى وقت مضى .

وكان تقريرنا بأن للانسان منهجا علميا يختلف عن المنهج العلمى للأشياء قد أدى الى توضيح أكثر لمدلول كلمة العلم بحسب موقعها من الاستعمال ، وألا تؤخذ على اطلاقها فى كل حال .

فعندما يمتد مدلولها الى الوحى السماوى يكون المقصود بها العلم الشرعى أو النقلى الذى بلغته الرسل عن الله ، وعندما يقتصر مدلولها على ما اكتشفه الانسان يكون معناها العلم العقلى الذى حصله الانسان عن طريق التجربة والعقل فى مجال الطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات وخصائص المجتمعات وكل ما يقدم العمران .. بل أنه فى داخل العلم الشرعى نفسه تقسيم آخر يبين أن العلم علمان : علم فى القلب وعلم على اللسان ، وهو يخرج عن نطاق بحثنا ويدخل فى مجالات التربية الخلقية ..

والعلم بكل مدلولاته يسير دائما فى ظل هداية المدلول الأولى ..

* بهذه النظرة العلمية بأصدق معانى العلم نعالج كل قضايا الوجود ما يكون منها خاصا بالانسان ، وما يكون منها خاصا بما سخره الله للانسان فى السماوات والأرض ، ونحن مطمئنون بأن معنا الميزان ومعنا النور .. ومن كان معه ذلك سار على صراط مستقيم ..

* وقوانين الجدل لا تتطلب لتقييمها أكثر من العلم بمدلوله الثانى أى من خلال المنهج العلمى للأشياء .. مثلما كان هذا المنهج كافيا لتفنيد ما سبق من قضايا المادية الجدلية ولا تحتج بالعلم بمدلوله الأول ، الا على الذين يؤمنون بالرسلات السماوية حيث يكون بيننا وبينهم أكثر من سبب يجعلهم أقرب الينا ، ويدعونا الى عملية التصحيح فى مناهجهم التى هى فى الأصل ذات المنهج العلمى للانسان ..

أما هؤلاء الماديون فحسبهم فى مواجهة فكرهم أن ننضى سلاح العلم بالمدلول الثانى وهو نقطة التقاء بيننا وبين البشر عامة .. ومن عجيب أن العلم بمدلوله الثانى فقط كاف، لدحض ما توهموه علما من جميع قوانين المادة والجدل ، وكاف أيضا لتوصيلنا الى العلم الصحيح بمعناه الشرعى النقلى .

وبنفس المنهج العلمى للأشياء دون احتياج الى أى منهج فوقه ، كان تناولنا لقوانين الجدل التى ضخموها فى نفوسنا فى البداية على غير أساس يستحق هذا التضخيم •• وانتهى الحوار حولها الى سلبها صفة التقديس التى يخلعونها عليها ، فبعضها بديهى وبعضها — بل والذى يعتبر أهملها فى الوقت نفسه — أكثرها خطأ من الناحية العلمية •• وفى أكثر من جلسة مع أكثر من زميل يسير نفس الحوار •

— الزميل : قانون الترابط يعنى أن جميع الظواهر المادية مترابطة يؤثر الكل فى الجزء والجزء فى الكل ••

* الأخ : هذه بديهية غير انكم تقصرون التصور على المادة فقط ، ولنا تصور اشمل وأوضح تدرجا مستمد من عقيدتنا •

— الزميل : قانون الحركة : يعنى أن كل شىء متحرك ••

* الأخ : قانون الحركة يعنى أن كل شىء متحرك •• وماذا أيضا •

— الزميل : قانون التغيير : الحركة تكون نتيجة صراع المتناقضات ••

واذا ما أضيف شرط خارجى الىالحركة تبدأ ظاهرة التراكمات الكمية أو ما يسمى بالتغير الكمى الى أن يتكون ما يسمى بالكم الثورى ، وعند لحظة الصفر يحدث التغير المفاجىء فنحصل على حالة من التغير الكيفى تسمى التطور •• وهكذا ••

* الأخ : مدلولات التغير ، التطور ، والتحول وأسبابها العلمية فى جميع الظواهر المادية جديرة بالدراسة •• وهل لم يكن لهذه الألفاظ وجود قبل الماركسية •

— الزميل : قانون التناقض : يفيد أن ظاهرة وجود الشىء ونقيضه فى وحدة واحدة تسمى وحدة أضداد •• وهذان النقيضان يتصارعان ••

* الأخ : قف •• هذا الكلام غير علمى على الاطلاق •• واليك أكثر من سبب علمى •

كانت الأحاديث تسير على هذا المنوال . هنا وهناك . وكانت البديهيات والاكتشافات العلمية البسطية كافية لدينا لتبديد سراب ما توهموه منهجا جدليا .. حتى وجدنا أنفسنا مرة أخرى أمام القوانين النوعية لكل فرع من فروع العلم على حدة دون تصنع هذه النظرة العقائدية التى عاشوا فى وهمها حتى اليوم نظريا ..

ولكن لم يكن الأمر يقتصر على ذلك ، بل أخذنا فى توضيح مدلولات هذه الألفاظ من خلال المنهج العلمى للانسان باعتبارها مفاهيم علمية . فألقينا الضوء على مفهوم الترابط والحركة والتغير والتناقض بصورة بسيطة غير معقدة منبنية على أصولنا العقائدية وطبيعة منهجنا .. وفيما بعد عندما أتيحت لنا رؤية علمية أوسع وجدنا ما زاد معلوماتنا توضيحا وتأكيدا على نفس ما أقمنا عليه حججنا ، ومن حصيلة ذلك نمر مرورا سريعا على هذه المفاهيم .

الترابط والشمول :

* أما عن القول بالترابط بين كل الظواهر المادية فهو قول بديهى أدركه الانسان من يوم أن أدرك السبب والمسبب والمقدمات والنتيجة والعلة والمعلول..ولم تخل فلسفة من الفلسفات ولا عقيدة من العقائد من توضيح ما بين الوجود من ترابط ..

وفى ضوء المنهج اللعمى للانسان (العلم الشرعى) الذى كشف عن حقيقة تكوين الانسان ومركزه فى الوجود ، نرى أن القول بالترابط بين جميع الظواهر المادية هو قنطرة الى ادراك لون أرقى درجة كامن فى علاقة الانسان بالكون المادى ، حيث يكون فى مقام السيد الذى سخرت له كل هذه الأشياء التى يقف منها موقف الفاعل المؤثر فى ترابطها بالتعديل والتغيير والتطوير .. ومن هنا يهتز المعنى الضيق للترابط أمام الانسان المزود بهذه القدرات . ولم يعط ذلك من خالقه عبثا وانما ليتم بها أمانة التكليف ومفهوم الاستخلاف . وينفرد الانسان بعنصر جديد يميزه على سائر المخلوقات الحية هو ما أودعه الله فيه من سر أو ما بث فيه من روح مدركة جعلته أهلا لحمل أمانة التكليف .. وبهذا التركيب الفريد تظهر حاجاته المادية مرتبطة بحاجاته

الروحية كل منهما يتأثر ويؤثر فى الآخر وان ظلت الروح فى مركز القيادة .

* ثم تأتى درجة أكبر يكون فيها الانسان والكون كله فى مقام العبودية لله الذى تفضل بالخلق وشمل بالعناية والرحمة جميع خلقه ، والذى كرم الانسان وأعطاه قانونه بيده لمن شاء أن يتقدم أو يتأخر .

وتعمل الهداية الربانية على جمع ذلك كله فى دائرة الحب ، لا فى دائرة التسلط والجبروت .. وبذلك تشيع العاطفة بين جميع جوانب الوجود : انسه وجنه ، حيوانه ونباته وجماده ، وتوجه كل ذلك لله بالحمد والتسبيح .. وما الصلاة فى حياة المؤمنين الا صلة مستمرة بواهب النعم ومعراج لأرواحهم الى موئلها .. ومن كان كذلك قويت العاطفة بينه وبين ما بثه المنعم فى الكون ، حتى أن رابطته بها لتستضىء هى الأخرى من صلته بمن فطره وفطرها ، فهى اما أن تكون له خيرا وبركة واما أن تكون عليه وبالا .. وقد أدرك المؤمنون بقلوبهم من عمق هذه العلاقة ما صار مضرب الأمثال : فهذا أحد الصالحين يقول : ما عصيت الله الا وجدت أثر ذلك على دابتى .. وهذه امرأة تعذب فى هرة ، وهذا رجل يغفر له لسقيه كلبا يلهث ، وتلك نملة تقول : « يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم .. » ، وهذا هدهد يدرك قصة قوم على غير سبيل المؤمنين .. وعندما مر الرسول عليه الصلاة والسلام بأحد قال : هذا جبل يحبنا ونحبه .. فهذا لا شك أمر عجيب ، ولكنه أمر طبيعى فى حياة المؤمن الذى آمن بالمصدر وبرب الخلائق جميعا ، فتشكلت من ثم نظرته للأشياء وتكيفت علاقته بها بالحب .. « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو .. ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » .. وحول هذا المعنى كتب الشهيد سيد قطب تحت عنوان الشمول فى « خصائص التصور » يقول : « تتمثل خاصية الشمول التى يتسم بها هذا التصور فى صور شتى : احدى هذه الصور وأكبرها رد هذا الوجود كله بنشأته ابتداء ، وحركته بعد نشأته ، وكل انبثاقه فيه ، وكل تحور وكل تغير وكل تطور والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه وتنسيقه ، الى ارادة الذات الالهية السرمدية الأزلية الأبدية المطلقة . هذه الذات المريدة القادرة ، المطلقة المشيئة ، المبدعة

لهذا الكون ، ولكل شيء فيه ، ولكل حي ، ولكل حركة ، وكل انبثاقة ، وكل تحور وكل تغير وكل تطور ، بقدر خاص وبمجرد توجه الارادة • وهذه هي حقيقة التوحيد الكبيرة التي هي المقوم الأول للتصور الاسلامي ، الى أن يقول عليه رحمة الله : « ان التصور الاسلامي عن طريق هذه الخاصية في صورتها هذه يمنح القلب والعقل راحة وطمأنينة ، واتصالا بحقيقة المؤثرات الفاعلة في هذا الوجود ، كما هي في علم الحقيقة والواقع — ويعفي الفكر البشري من الضرب في التيه بلا دليل ، ومن الاحالة على أسباب غير مضبوطة وأحيانا غير موجودة كالاحالة على الطبيعة ، أو الاحالة على العقل ، أو الاحالة على كائنات أسطورية ، كالتي تصورتها الوثنيات وتلبست بها الفلسفات على مدار التاريخ ••• » • وما أعظم هذا الشمول في قوله تعالى : « ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم •• » •

الحَلقة الثانيَة عشَر

الامتحَان بالرّخَاء .. وَالابتلاء بالشدّة !
الانضبَاط الحزبيّ ..

اذكر قبل استئناف الحلقات بملاحظتين :

الأولى : انه ابتداء من الحلقة الحادية عشر دخل عنصر جديد فى حجتنا على الشيوعيين ترتب على اثبات قضية الالوهية وهو : « المنهج العلمى للانسان » الذى يكون الوحى السماوى (العلم الشرعى أو النقلى) ركنا أساسيا فيه ، ويكون العلم العقلى الذى حصله الانسان عن طريق التجربة والعقل فى مجال الطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات وخصائص المجتمعات وكل ما يقدم العمران ركنا ثانيا فيه •• ويسير العلم بمدلوله الثانى فى هداية العلم بمدلوله الأول •• وعلى الداعى الموفق أن يراعى المسافة النفسية بين « يأيها الناس » و « يأيها الذين آمنوا » من خلال اطمئنانه أنه أصبح مزودا بقدرتين لا قدرة واحدة •• فهو وان كان مطالبا بالتفوق وبيان الحجة فى العلم العقلى ، الا أنه لا ينفك عن هداية العلم الشرعى ، فان احتج « وقال الله » و « قال الرسول » كانت حجته بحقها بالهيمنة على جميع المناهج •• وهذا ما دعانا ابتداء من الحلقة السابقة الى تقصى كل ما جاء به العلم فى ضوء ما جاء به الوحى •• وأصبح ردنا مزيجا منهما معا وليس على حساب أحدهما ••

الثانية : أننا نقدم للحوار الصغير ــ حوار الفكر مع الفكر ــ •• بمشهد من الحوار الكبير ــ حوار المجتمع النموذج مع المجتمع النموذج ــ الذى يجرى صامتا ولكن دلالته كبيرة •• وليكون ذلك أشوق للقارىء بمعايشته فى مناخ الحوار فيسهل عليه متابعتنا •

* اذا كنا فيما سبق قد رأينا حالهم فى وقت الشدة فان رؤيتهم اليوم فى حال الرخاء النسبى مما يكشف عن الوجه الآخر من الصورة .. فالرخاء والشدة هما المختبران لكل دعوى كلامية أو أمان نظرية .. وهو أمر يصدق على الأفراد والحكومات والمذاهب وحتى المؤمنين بالله أنفسهم ، فان الله لا يرضى منهم هذا الايمان القولى حتى يختبرهم فيه : « أحسب النـاس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنـا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

ولقد رأيناهم فى حالين من الرخاء احداهما ، أكبر من اختها ، الأولى وهم فى داخل السجن ، ولها أسباب سنوضحها ، والثانية بعد الافراج عنهم جميعا فى أوائل مايو سنة ١٩٦٤ حيث جرت احتفالات السد العالى فى ١٥ مايو بحضور خروشوف الذى كان يزور مصر لأول مرة .

واذا كان من السهل أن نسجل ما أصابهم من تغير فى أعقاب موجـة الرخاء النسبى داخل الاسوار ، فان من أصعب الأشياء أن نسجل ما اقترفوه فى حق كل المبادىء الانسانية ، وفى حق الحرية اثر تبوئهم لأجهزة الاعلام فى مصر حتى صنعوا الهزيمة فى نفوس الأمة قبل أن تصبح واقعا على الأرض مما يحتاج كشفه لجهود كبيرة .. وخير ما قرأته من تعقيب على ما نزل باليسار المصرى مؤخرا ، هو : « أن اليسار المصرى يحصد ما زرع » .. ولقد زرع الكثير من الأشواك التى أدمت قلوب الأمة وحطمت مقوماتها الأخلاقيـة والاجتماعية والاقتصادية .. مما يحتاج لزمن طويل لتلافى آثاره .. ويحتاج لما هو أكثر وأبقى من كل أنواع الاجراءات . الى الحرية الحقيقية .. .. حيث يختنقون فيها كما يختنق الظلام فى النور ..

* حسبنا اليوم تسجيل حالة الرخاء النسبى داخل الأسوار .. وقد جاءت فى أعقاب عدة حوادث حرنا بادىء الأمر فى تفسيرها . فصـل اللواء زكى شكرى مدير السجون ، وفصل اللواء همت وكيل المصلحة ، وفصل العقيد البشلاوى وغيره من الضباط .. ولم تلبث حيرتنا أن تبددت بعد أن عرفنا السبب الذى أودى بهؤلاء والذى أدى الى ورود خطاب لادارة السـجن

بالواحات بتخفيف المعاملة .. انه وفاة الشيوعى شهدى عطية بضربة عصا من أحد السجانة بمعتقل « أبو زعبل » ، وكان « الراحل » يومهـا فى زيارة ليوغوسلافيا . وتم مجازاة المسئولين قبل عودته الى أرض الوطن .. وبدأت ظلال هذه المعاملة الجديدة تمتد علينا أيضا .. وها هم أولاء الشيوعيون وقد تقمصتهم روح جديدة وغشاهم الأمل بعد علمهم بتفاصيل هذه القصة .. وها هو ذا نوع جديد من التلطف فى المعاملة من نفس الضباط الذين كانوا بالأمس غلاظا شـدادا .. اذ سـمح لهم بالتعامل مع الكانتين ، وبطلب أمانات .. وبتسلم الأشياء المصادرة من علب مأكولات وسجائر وملابس .. وبالجملة فقد بدأت محنة الرخاء وبدأنا نرقب مرة أخرى .

ـ البعض يحمل الينا الهدايا الرمزية تعبيرا عن الامتنـان .. وكان لقبولنا لها بعد الحاح فرحة حقيقية فى عيونهم أشعرتنا أن حاجات الفطرة الى بذل الوفاء أحب اليها من كل مال .

ـ والبعض حمل الينا نوعا جديدا من المشاكل اشتركنا معهم فى حلها ..

ـ وسمعنا أيضا عن قصص مفيدة ..

الانضباط الحزبى :

* ومن قبيل الافتخار بالانضباط الحزبى أخـذ كل منهم يبين دوره فى حادث الأمس ونحن نقوم بتنظيم الحديث فيما بينهم .

ـ من فضلكم دعوا الزميل حامد يتكلم أولا ، فهو أكثركم حيادا .

* حامد : يعلم الأخ فرح عنى أننى مستقل التفكير . ومنذ أن قابلته أول مرة بسجن مصر والى اليوم وأنا لم ألتق به ، ولم أخف عدم اقتنـاعى بالماركسية ، وان كان ذلك لا يمنعنى من معرفة ما لدى الجميع .. وقـد وضعتنى الظروف وسط الزملاء وارتضوا التعامل معى على هذا الوضع . ولأول مرة يشعرون بفائدتى بالأمس حيث شكلوا لجنة : فى أعقاب استلام الزملاء للأشياء المصادرة ـ ولم يجدوا أصلح منى لرئاستها ضمانا لحيادها

لحصر الأشياء واعادة توزيعها ، ومن القيام بتفتيش كل زميل على حدة .

* أخ : وما الداعى لقيام هذه اللجنة بالتفتيش ، ألا يكفى مطالبة الزملاء برد ما استلموه ؟ .

* هذا ما حدث فى البداية . ولكن تبين أن كثيرا من الزملاء تظاهروا بتسليم ما لديهم فى الوقت الذى احتفظوا فيه لأنفسهم بأشياء أخرى . فكان لابد من المسارعة بتشكيل لجنة سرا تقوم باغلاق جميع أبواب الزنازين على حين غرة حتى لا يتبين الجميع الهدف ، ثم تقوم اللجنة بمفاجأة كل زنزانة على حدة ، وأجراء تفتيش دقيق لكل زميل على حدة ، وقد أثمرت هذه الخطة فى الحصول على كل المخبآت .

* الأخوة : يا له من انضباط لا يخطر على بالنا أبدا أن نفعله !! لأن بيننا من الثقة والايثار ما يغنينا عن ذلك .. حتى على مستوى الدولة ، فان الزكاة فى ديننا تقوم على أساس الثقة فى دين من يؤديها وفى صدقه ، واشتق لها اسم الصدقات من تبادل الصدق بين من يؤديها ويسمى مصدق ، ومن يحصلها من قبل الحاكم ويسمى مصدق .. فكيف بكم وأنتم بين جدران أربعة تتعاملون على أساس من فقدان الثقة فى أشياء تافهة .. معذرة يا زملاء ، فهذه القصة لا تشرفكم .

لكل كوب شاى .. ام لكل حسب حاجته :

ومن أطرف ما عرض علينا من اشكالات ما وقع داخل أحد الأحزاب بسبب الدخان والشاى ، وتعقدت المشكلة بينهم ، ولم تفلح الاجتماعات الحزبية الموسعة فى حلها ، وأخيرا ارتضوا تحكيمنا فيها .. فحكمنا بالعدل . ولم يعجب الحكم قيادة الحزب ..

* قامت قيادة الحزب بتوزيع جدول احصاء على جميع الأعضاء لحصر من يدخن السجائر ومن يشرب الشاى .

* أدلى الأعضاء بالبيانات كاملة لأن الأمر ليس الا من قبيل الاحصاء فى ظنهم . .

فاجأتهم قيادة الحزب بتوزيع مقررات الشاى والدخان عليهم حسب ما جاء فى جداول الاحصاء باعتباره مبينا لحاجة كل فرد الحقيقية .. فصرف للبعض كوب شاى فقط فى اليوم ، وللبعض الآخر ثلاث سجائر علاوة على كوب الشاى .. فاحتج الذين لا يدخنون أولا : على خدعة الاحصاء لأنهم لم يفهموا أنه سيعتبر أساسا فى التوزيع . ثانيا : أن التوزيع قد جرى حسب قاعدة لكل حسب حاجته .. وقد كشف الاحصاء عن حاجتهم الحقيقيـة واستحكم الخلاف .. وأصر الزملاء ، ورفضت القيادة .. وعرضوا علينا هذا الاشكال ، فحكمنا فيه بكوب شاى آخر لمن لا يدخنـون . ورضى الزملاء بهذا الحكم ورفضته القيادة .. فما كان من الأعضاء الا أن أصروا على مساواتهم بزملائهم بأى طريقة ، فاما أن يقتصر الجميع على الشاى ، أو يشترك الجميع فى الشاى والدخان معا . وانتهى الأمر بأن اضطر الباقون الى التدخين أيضا .

* وقد أثار هذا الحل تعليقاتنا ، ونعينا عليهم فهمهم للجماعية بهذا الأسلوب الضيق ، وأن خيرا من هذا التسلط تسليم كل زميل نصيبه الشهرى من المال ليوجهه باختياره فيما يرى بلا وصاية من خلال خلق التعاون بين الأفراد والتوجيه والاشراف من السلطة ، وبهذا يتم الجمع بين الحسنيين . وكان هذا التغيير الذى بدأ يظهر فى كثير من تصرفاتهم مثار تندرنا بل وسمرنا فى جلساتنا الخاصة .

* هناك ما هو أطرف من ذلك ، لقـد أودع بعضهم مبـالغ لدى بعض الاخوان ، لكى يأتونهم فى السر ويشترون ما يطيب لهم بعيـدا عن أعين الحزب . وهم يتصرفون بحيث لا تصلهم الأمانات بالطريق الرسمى .

* طبعا عندما يعود الزميل من عندنا يكون أكثر حماسـا وثورية وتباكيا على حقوق الطبقة المهضومة .

* وبدين الاستغلال وجميع التطلعات البرجوازية ..

* أنسيتم يوم كنا فى سجن جناح وكانت خيامنا محاطة بجميع أصـناف الخضروات ، ولم يكن حول خيامهم الا شـجر الخروع وعيدان الذرة .. والسبب أن كل محاولاتهم فى الزراعة فشلت لأن السطو الليلى قضى عليها فى مهدها فاكتفوا بالخروع وعيدان الذرة .

* هذا فضلا عن فقدانهم للعقلية المبتكرة ، فكل مشاريعنا فى الزراعة أو فى الورش أو تغيير حياة السجن ، كنا نحن الرواد فيها وهم ناقلون عنا بعد مسافة زمنية .

* لقد ذكرنى التفتيش الذى قاموا به لكل زميل بكثير من قصص الايثار عندنا التى نعتبرها شيئا عاديا ، أنا شخصيا أعلم قطعة شيكولاته تداولت بين سبعة من الأخوة رجعت لصاحبها الأول الذى آثر أخاه بها .

* على كل حال .. نرجو ألا تشـغلنا هـذه الظواهر عن الانتهاء من جلساتنا .. فهى متوقعة ونتيجة طبيعية لعقيدتهم .. انهم الآن ماديون فعلا ..

الحوار الصغير :

ونعود الى المرور على بقية قوانين الجدل من خلال التذكير بأن ما قلناه يومها كان كافيا لتنفيذها ونضيف عليه اليوم ما هو جديد فى بابه .

أما عن قانون الحركة :

تقوم المادية الجدلية على افتراض الحركة من داخل المادة بفعل صراع المتناقضات فيها وتفضى هذه الحركة الى احداث التغييرات والتطورات الى غير غاية أبعد من مجرد حدوث التطور باعتباره قيمة تقدمية مطلقة .. وهذا مجمل تعريف لينين لها فى « الكراسات الفلسفية » ان وحدة الأضداد شرطية زمانية متحولة نسبية ، وصراع الأضـداد الطارد بعضها بعضا بالتبـادل مطلقة » .

وسواء أكانت الحركة من داخل المادة أو من خارجها فان ذلك لا ينفى فعل القدرة الالهية فى تدبيرها وقصدها .. تلك كانت عقلية أوروبا فى القرن

التاسع عشر .. عقلية أوروبا الهاربة من الكنيسة والتى كانت تحت عقدة الهرب هذه تسارع من غير روية فى اتخاذ الاكتشافات العلمية مبررا نفسيا — لا علميا — فى الجحود والانكار .. تظهر هذه العقلية فى اجابة علامة الفلك « لابلاس » عندما وجه اليه نابليون فى مطلع القرن التاسع عشر سؤالا عن عمل القدرة الالهية فى تنظيم الأفلاك السماوية . وكان ذلك السؤال بسبب ظهور كتابه عن علم الحركة العلوية أو (الميكانيكا السماوية) وفيه يشرح حركة الفلك ويعللها بالقوانين الآلية — فقال علامة الفلك مجيبا نابليون على سؤاله « اننى لم أجد فى نظام السماء ضرورة للقول بتدبير اله » .

* وأهم ما يؤخذ على الفكر المادى أنه جعل صراع المتناقضات هو علة الحركة فى كل شىء . وسنرى عند تناولنا لقانون التناقض ان هذا الغرض تحكمى ولا أساس له من العلم .. وأن التوازن الحادث فى الأشياء هو علة الحركة .. وفى هذا يقول الشهيد سيد قطب فى الخصائص « ان الحركة هى قانون من قوانين الكون وهى كذلك قانون الحياة البشرية بوصفها قطاعا من الحياة الكونية ولكنها ليست حركة مطلقة من كل قيد وليست حركة بغير ضابط ولا نظام فلكل نجم ولكل كوكب فلكه ومداره وله كذلك محوره الذى يدور عليه فى هذا المدار .. وكذلك الحياة البشرية لابد لها من محور ثابت ، ولابد لها من فلك تدور فيه والا انتهت الى الفوضى والى الدمار كما لو انفلت نجم من مداره أو ظل يغير محوره بلا ضابط ولا نظام .. ومن ثم كان هذا التصور الربانى ثابتا لتدور الحياة البشرية حوله وتتحرك فى اطاره ، وهو مصنوع بحيث يسعها دائما ويشدها دائما وهى تنمو وترتقى وهى تتطور وتتحرك الى الأمام » .

والآيات القرآنية تكشف عن عمل القدرة الالهية فى حركة الكون وتوازنه قال تعالى : « ان الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا » وقال جل شأنه : « ويمسك السماء أن تقع على الأرض الا باذنه » وقال تعالى « والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون .. »

أما غايــة الحركة عند الماركسيين فهى حــدوث التطور وهكذا الى ما لا نهاية وسنعالج ذلك بدراسة مفهومهم للتطور من خلال منهجنا العلمى للانسان •

قانون التغير :

غاية الحركة فى فهمهم هى حدوث التغير فالتطور •• لأن التغير عبارة عن حركة الى أعلى فى ظل ظروف معينة جدلية تجعل الظاهرة المادية ذات كيف جديد يعتبر تطورا •• والانتقال من طور الى طور يحــدث فى نظر الماركسيين بطريقة فجائية أى بانقلاب فجائى ثورى عند اللحظة الحاسمة •• وليس وراء التطور غاية أبعد باعتباره قيمة تقدمية ••

* وشيوع فكرة التطور كان من تأثير نظرية دارون التى زاد الافتتان بها حتى انها أحدثت تغييرا تاما فى كل نواحى البحث العلمى شمل تفسير كل العلوم من الفلك الى التاريخ الى الأحافير الى علم النفس وعلم الأجنة الى الدين كما ذكر « وست » فيما كتبه عن كتاب أصل الأنواع •

وفضلا عن ذلك فقد نشــأت تطبيقات لهذه النظريــة استغلت فيها استغلالا سيئا لتبرير التصرفات والأوضاع الخاطئة •• فقد اتخذت الفاشية نظرية الانتخاب الطبيعى والبقاء للأصلح مبررا للقضاء على بعض الأجناس البشرية ، وكذلك استغلها تجار الحروب فى تبريرهم الحرب بأنها تقضى على العناصر الضعيفة وتستبقى القوية •• كذلك اتخذتها الشركات الكبرى ذريعة للقضاء على الشركات التجارية الصغيرة ••

كذلك استغلتها الماركسية فى تبرير صراع الطبقات وانتقال المجتمــع من طور الى طور آخر •

ونلاحظ على ذلك ما يأتى : —

١ — أن نظرية دارون التى اتخــذت سندا علميا للفكر المــاركسى فى التطور •• تحتاج لدراسة خاصة لتقييمها من الناحية العلمية •• وقد ظهر العديد من الدراسات فى هذا الشأن ولم يعد لها اليوم صــورتها الأولى

وتجاوزها المستوى العلمى الحالى الى آراء جديدة لا تحقق للشيوعيين ما كانت تحققه لهم النظرية القديمة .. وهذا هو وجه تمسكهم بها حتى اليوم كمغالطة علمية وقد تتبع الأستاذ العقاد الفكرى الأوروبى فى القرن العشرين تجاه هذه القضية وضمنه كتابه القيم « الانسان فى القرآن الكريم » ولبعض العلماء المعاصرين دراسات قيمة فى ذلك ومنذ شهر تقريبا تناول الدكتور زغلول النجارفى عدد من المحاضرات وفى الاذاعة والتليفزيون هذه القضية التى لم تعد تصلح للاستغلال من جانب الماركسيين .. وهذا ميدان خاص من الدراسة المتخصصة .

٢ — ان كل ما قد يصدق على بعض ظواهر المادة أو صور الحياة من تغير أو تحول أو تطور فانه يجب أن ننأى به (١) عن ذات الله تعالى لأنه ليس كمثله شيء وهو الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . (٢) كما ننأى به عن القيم الثابتة التى جعلها الله معراج التعامل بينه وبين أكرم مخلوقاته وهو الانسان ..

هذا الثبات فى عقيدتنا فى الله ، وهذا الثبات فى قيم تعاملنا معه يمثل المحور الذى يدور عليه السلوك البشرى وتلتئم معه الأفكار وتتوحد المشاعر من خلال كل الظروف المادية والاجتماعية فى تغيرها أو تطورها .. ومن ثم تتكافأ الأجيال فى أعباء التكليف وفى فرص الاختبار ويصبح للكينونة البشرية كلها فى جميع أزمانها وأطوارها أصلا ثابتا تترقى حياتها فى مداره وتنمو وتتقدم .

وهذا فى الوقت نفسه ما يبذل الشيوعيون كل جهدهم فكريا لهدمه وخاصة فى مجال القيم والعقائد والتشريعات بدعوى أنها قضايا نسبية .. وكثيرا ما حاولوا من خلال أجهزة الاعلام عمل فجوة بين الأجيال لكى ينفصل الجيل الجديد عن كل ما سبق بدعوى التقدم والتطور .. وكثيرا ما يتناول بعض القضايا العلمية بأسلوب يطبع فى النفس التمرد على كل شيء سبق ومجال تفصيل ذلك فى كل مجال مما يطول شرحه .. وقد ذكر الشهيد سيد قطب بهذا الخطر فى خصائص التطور فى قوله « فكرة التطور

المطلق لكل الأوضاع ولكل القيم ولأصل التصور الذى ترجع اليه القيم فكرة تناقض الأصل الواضح فى بناء الكون وفى بناء الفطرة ومن ثم ينشأ عنها الفساد الذى لا عاصم منه •• انها تمنح حق الوجود مجرد الوجود لكل تصور ولكل قيمة ولكل وضع ولكل نظام ما دام تاليا فى الوجود الزمنى ونحن نعرف أن الفكر الأوروبى فى هروبه من الكنيسة ورغبته الخفيية والظاهرة فى خلع نيرها قد مال الى نفى فكرة الثبات — على الاطلاق — واستعاض عنها فكرة التطور — على الاطلاق — لم يستثن منها أصل العقيدة والشريعة بل لقد كانت فكرة ثبات مقومات العقيدة والشريعة بالذات هى التى يريد التفلت منها والتملص والخلاص •• »

وسلوك الفكر الغربى هذا المسلك مفهوم لنا جيدا من خلال الاستعراض السابق — له ما يفسره وان لم يكن له ما يبرره على اطلاقه •• ان دارون وهو يقرر مذهب التطور فى خط سير الحياة ، لم يكن بحثه يتناول الا جزئية سطحية من جزئيات هذا الكون تبدأ بعد وجود الحياة ولا تمتد الى مصدر الحياة ولا الى الارادة التى صدرت عنها الحياة » •

٣ — يرى الماركسيون أن غاية الحركة هى حدوث التطور باعتباره قيمة عليا — وهذا الى ما لا نهاية يريدون بذلك أن يتفادوا وجود الثبات فى أى شىء فالأمر لا يخرج عن الصراع فالحركة فالتطور •• ويخشون من أى فكر أو قول علمى يهز هذه الصورة المقدسة لديهم ونرى مجافاة هذه النظرة لمنطلق العلم فى القرن العشرين •• العلم الذى بين أن الحركة هى الجانب المحيط بجميع صور التغير أو التطور •• حتى صارت الغاية هى الوصول الى حركة أعلى ••

ففى مجال المادة نشاهد ثبات حركة الذرات ولكنها عندما تدخل فى تفاعلات تظهر فى مركبات جديدة •• وزوال هذا الثبات فى صورة تفتيت الذرة له نتيجة واحدة هى الانفجار ••

وفى مجال الكون نشاهد ثبات حركة الأفلاك • وزوال هذا الثبات له نتيجة واحدة هو الدمار ويوضح الجدول التالى هذه الحقيقة علميا :

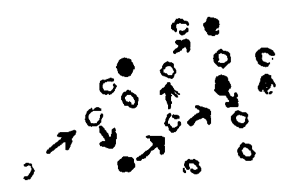
نوع القذيفة	حالة النواة بعد التقاف القذيفة مباشرة	الجسيمات المنبعثة من النواة	حالة النواة بعد ابتعاث الجسيمات منها	الجسيمات المنبثقة من النواة الجديدة	الحالة النهائية للنواة
بروتون	غير مستقرة	بوزوترون	(مستقرة)	—	—
بروتون	نواة مركبة	جسيم الفا	(مستقرة)		
بروتون	نواة مركبة	نيوترون	غير مستقرة	بوزترون	(مستقرة)
ديوترون	نواة مركبة	بروتون	غير مستقره	الكترون	(مستقرة)
ديوترون	نواة مركبة	جسيم الفا	(مستقرة)	—	—
ديوترون	نواة مركبة	نيوترون	غير مستقرة	بوزترون	(مستقرة)
جسيم الفا	نواة مركبة	بروتون	(مستقرة)	—	—
جسيم الفا	نواة مركبة	نيوترون	غير مستقرة	بوزترون	(مستقرة)
نيوترون	غير مستقرة	الكترون	(مستقرة)	—	—
نيوترون	نواة مركبة	بروتون	غير مستقرة	الكترون	(مستقرة)
نيوترون	نواة مركبة	جسيم الفا	غير مستقرة	الكترون	(مستقرة)

(جدول بأهم التفاعلات النووية التى تحدث عندما تتعرض النواة المستقرة لقذيفة خارجية — بروتون أو ديوترون أو جسيم ألفا أو نيوترون — وكيف تظل النواة قلقة حتى تتخلص مما يفسد عليها استقرارها)

أما شرح هذه التفاعلات فقد بينه بوهر حين فرض أن القذيفة النووية اذا أصابت نواة تستقر فيها فتضيف القذيفة الى النواة وتوزع هذه الطاقة على أفراد النواة فاذا كانت النواة خفيفة وليست مكتظة بالنيوكلونات فان القذيفة النووية يحتمل أن تنفذ خلال النواة كما ينفذ الضوء خلال الزجاج دون أن يعترض مرورها شيء • أما اذا كانت النواة تحتوى عددا أكبر من النيوكلونات فهناك احتمال التصادم بينها وبين القذيفة وعندئذ توزع الطاقة

القذيفة على النيوكلونات بسرعة كبيرة ثم على النواة كلها ويطلق على النواة حينئذ اسم النواة المركبة ..

ويوضح الشكل صورة نواة يتقدم نحوها نيوترون يرمز له دائرة بيضاء .. فى حين يرمز للبروتين بدائرة سوداء .. وكما يتضح من الأسهم



● بروتون
○ نيوترون

فأن جميع الجسيمات النووية داخل النواة تتلقى دفعة من النيوترون القريب الساقط عليها من الخارج ، وعندما يسقط النيوترون على النــواة وتوزع طاقته على النواة كلها يقال للنواة انها أصبحت ساخنة ويشبــه ذلك اطلاق رصاصة على كومة من الرمل فتسخن بعد انطلاق الرصاصة عليها .. ولنأخذ ذلك مثلا .. جسما طاقته ٨ مليون أليكترون فولــت أطلق على نواة ما فبمقارنة ذلك بقوانين الحركة للغازات نجد أن درجة الحرارة لهذه النواة تصبح ١٠ر٠٠٠ مليون درجة .. وهى درجة عالية ولكنها تؤثر فقط فى الجــزء الصغير الذى تسقط عليه .. وبمقارنة النواة بقطرة الماء نجد أن النــواة يجب أن تتبخر عند درجات الحرارة العالية كما تتبخر قطرة الماء .. ومعنى ذلك أن جسيما أو أكثر من داخل النواة يجب أن ينبعــث منها . والنواة المركبة نواة غير مستقرة يجب أن تتخلص من جزء من طاقتها حتى تصــبح نواة مستقرة ..

ويكون التخلص من الطاقة الزائدة على هيئة أشعة جاما أو بقــذف جسيم معين كما هو واضح بالجدول وتحدث منافسة بين الطرق المختلفــة للتخلص من الطاقة الزائدة وأيهما أسرع فى تقديم الخدمة للنواة المركبــة يحمل العبء الأكبر ... حتى تعود مرة أخرى الى نواة مستقرة .

* وفى ميدان الاجتماع تتطور حركة الانسان من محيطه الفردى الى محيط الأسرة الى محيط المجتمع كلها صور حركية تنتهى دائما بوحدة حركية أكبر .. والخروج من مجال الحركة الصحيحة فى كل ذلك له نتيجة واحدة هى الظلم فى حق النفس أو الجريمة فى حق الأسرة أو فى حق المجتمع .. ومن « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » .. « تلك حدود الله فلا تعتدوها » .

وفى مجال العبودية الصحيحة لله يتم الدوران حول حقائق العقيدة وغايتها الكبرى .. ولعل فى مناسك الحج اشارة الى بلوغ الهدف بالدوران حول محور ثابت .. وما دام التوجه بالعبودية الى الله من كافة الخلائق تعنى التوجه الى ذات عليا لها وجودها الأبدى وكمالها المطلق مما يعطى لمفهوم التوحيد معنى ثابتا مستقرا .. فمن الطبيعى اذن أن يصير كل الوجود الى بارئه فى ترقيه أى انه فى سعى وشوق دائمين لبلوغ الاستقرار والسكينة التى تأتى كلما اقتربنا من ذات الله تعالى علما وحالا وكلما انتظمت المخلوقات على سننها ..

من هنا نستطيع أن نقول أن هدف التطور هو الوصول الى حركة أرقى متوازنة وليس هدف الحركة هو التطور لأن المعنى الأخير يلقى بالانسان والأشياء فى متاهة اللانهاية والمفهوم الأول يشرق على الانسان بأمل الوصول والاستقرار والاطمئنان .. « يأيها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية » .

الحلقة الثالثة عشر

ليس هناك .. قاعدة نلتقي عليها .. أنتم ونحن

صراع ام تزاوج ؟

هل الطبيعة جدلية ؟

لقد انتعشت أحلام الشيوعيين بعد علمهم بتفاصيل قصة الخطاب الذى أدى الى تخفيف المعاملة فى السجن •• والى فصل عدد من ضباط المصلحة •• واطمأنوا الى أن الأوضاع لن تبلغ من السوء حدا يخشونه بعد ذلك ، وأحست ادارة السجن بدورها بهذه الحقيقة فسارعت الى ممالأتهم وظهر أثره واضحا فى أسلوب تعاملهم مع الادارة بصفة خاصة •• بل تعدوا الادارة الى من هم أعلى سلطة منها •• فعندما حضر اثنان من كبار ضباط الأمن لمقابلتهم أحدهما برتبة لواء كالوا لهما الشتائم وشيعوهما باللعنات ••

وكان من الطبيعى أن تنفتح آمال الشيوعيين فى المستقبل الذى داعبهم ، وأن يبلغ بهم الطموح حدا بعيدا يدعوهم الى مفاتحتنا فى عمل جبهة وطنية •• وأخذوا يدورون حول الموضوع ثم أسفروا عن مقصدهم بعد ذلك واضحا •• ودخل الزميل فى الموضوع حين قال :

ـ لقد كشف التطور السياسى لشعبنا فى هذه الفترة المرحلية عن القوى الوطنية القادرة على احداث التغيير الاجتماعى •• ولكن هذه القوى الوطنية مختلفة مع بعضها أمام العدو المشترك ••

قلنا : تكلموا بصراحة أكثر ؟ •

ـ قالو : نقصد أن فى البلد الآن قوتين وطنيتين ، نحن وأنتم ، كل قوة منها لها نظريتها فى التغيير الاجتماعى •• أمامهما عدو مشترك هو البورجوازية العسكرية التى تخدم مصالح الامبريالية العالمية •• وتفكك

القوى الوطنية أتاح للعدو المشترك أن يوجه اليها ضربة قاضية .. فما الذى يمنع من دفع هذا الخطر المشترك عن طريقنا .. ألا تتفق مصلحتنا فى هذا السجن أحيانا حين نقوم بالضغط على الادارة لتحسين وسائل الحياة ، فما الذى يمنع من خطوة مماثلة على الصعيد القومى لدفع خطر مشترك عن الوطن كله ..

قلنا : وبعد أن نقضى على الخطر المشترك .. كيف تعمل الجبهة الوطنية بعد ذلك ؟

قالوا : فى هذا الوقت تبدأ مرحلة جديدة يكون فيها الصراع بين طرفى التحالف .. ويكون البقاء للأصلح .

قلنا : البلد مليئة بطوائف كثيرة بعضها أكثر منكم عددا .. فما هو معيار وطنيتكم الذى دعاكم الى افراد أنفسكم بالوطنية دون هذه الطوائف جميعا ؟ !

قالوا : هو أننا نحمل نظرية تقدمية .. ولنا تاريخ فى الكفاح السياسى ،

(فابتسمنا عند ذكر هذه العبارة)

قلنا : واذا افترضنا أن الصراع قد انتهى لمصلحتكم محليا .. كيف تسيرون فى سياستكم الخارجية ؟

قالوا : نشارك فى كل حركات التحرر الوطنى بمساندة قوى التقدم العالمية حتى يتم القضاء على قوى الاستعمار والامبريالية العالمية وتتحقق الثورة الشاملة .

قلنا : يعنى — بعبارة أبسط — ترتبطون بروسيا وتعطونها الولاء والقيادة ؟!

قالوا : ليس باعتبارها قوة استعمارية بل باعتبارها التجربة الرائدة فى هذا الميدان .. ميدان التقدم .

قلنا : اذن فاسمعوا رأينا القاطع فى هذا الموضوع ..

أنتم منطقيون مع نظريتكم وصرحـاء مع أنفسكم ، فى كل خطـوة تكتيكية سمعناها اليوم أو علمناها قبل اليوم لأنها صدى لأصـولكم العقائدية التى ان تغيرت تغير وراءها كل أسلوب وكل تكتيك (كنا نشير بما علمناه قبل اليوم الى أقوال وتصرفات سابقة .. من ذلك ما قالوه من أنهم لن يقوموا بالغاء أى أثر للاسلام فى يوم وليلـة ، بل سيستخدمون أجهزة الاعلام فى تغيير كل مظاهر الحياة بالتـدرج تحت دعاوى التقـدم والأفكار الجريئة والمودات الجديدة دون الاصطدام المباشر بمعتقدات الأمة وقيمها ، الى أن يصبح الناس فى مناخ جديد يختلف عن الأول تماما بحيث يخجل المصلى من نفسه اذا فكر فى الذهاب الى المسجد ... وقولهم بروح رياضية بأن الدقائق الأولى ستكون مخصصة للقضاء علينا ... أو بروح فكاهية لأحد الأخوة .. أما أنت يا اسماعيل فستعين وزيرا للشئون الدينية .. يعنى لتصفية الشئون الدينية ؟!

وكنا نشير بقولنا السابق أيضا الى ما هو معروف لنا ولهم عن مجلس قيادة الثورة الذى شكلوه من قبل الاعتقال ، لتولى مقاليد الأمور ويتكون من ستة اشخاص أغلبهم من اليهود والمسيحيين .. اشهروا اسلامهم رسميا ، وتسمى أحد اليهود باسم أحمد صادق ، كما أعطوا أبناءهم أسماء تبعد الشبه عنهم مثل هشام وطارق وياسر .. ولكن الاعتقال المفاجىء عطل خطتهم .. أما ما دعانا الى الابتسام عند ذكر تاريخ كفاحهم السياسى فهو ما نعلمه أكثر من غيرنا عن بطولاتهم فى هذا الميدان .. فهم قد يصدرون فى احدى المناسبات الوطنية منشورا محدود التوزيع جدا .. ولكن فائدته تكمن فى الاشـارة اليه بعد ذلك فى مجال التعرض للتاريخ الوطنى ، فيقال أن الحزب قد أغرق البلاد بمنشورات ثورية تدعو الى كذا ويستشهدون بعبـارات المنشور النارية التى تجعل القارىء يتوهم أنه لم يكن فى الميدان غيرهم بمثل هذه الجرأة والفدائية .. وشىء آخر عجيب هو سرق البطولات .. بمعنى قدرتهم على تبنى « شخص وطنى » مات فى أحد المواقف ونسبته اليهم والتباكى على ثورته وضربه ، نموذجا للجيل الصاعد والمرحوم لا صلة له بهم اطلاقا .. والشىء الذى بلغ حد الطرافة فى احدى الجلسات الخاصة بأحد الأحزاب

أنهم قصوا علينا تاريخهم البطولى فى حرب القناة وما قاموا به من عمليات فدائية أمام نفس الأخوة الفدائيين الذين أشرفوا على تنفيذ هذه العمليات بالذات ، والأخوة يأخذهم العجب للحماس والانفعال البادى على المتحدثين عن هذه العملية وقدرتهم على الأجابة على الأسئلة التى توجه اليهم دون توقف ...

كان ذلك كله وراء استعدادنا للرد على كل ما جاء فى حديثهم ووراء قولنا القاطع لهم :

ـ « يا زملاء .. اننا بموازيننا العقائدية نعتبركم تحملون مجرد شعارات سياسية لا أصالة لها من الناحية العلمية .. وهى شعارات تلقى ـ فى تقديرنا ـ بالبشرية فى أسوأ ما عرفه تاريخها من تخلف .. وأقصى ما يحدث بيننا فى يوم من الأيام هو عقد الندوات الفكرية للبحث عن الحقيقة ، أما فكرة العمل السياسى فهى مستبعدة تماما لأننا بمعيار الوطنية الذى وضعتموه لا نعتبر أن نظريتكم لها صفة التقدمية بل لا توجد نظرية على الاطلاق ، وخير لكم ولكل مذهب آخر على وجه الأرض أن يعيش فى كنف الاسلام حتى يبرأ من علله ويعود أصحابه الى الطريق الصحيح .. ولن يجدوا غير الاسلام حاضنا لآلام البشر حتى يثوبوا الى الرشد .. والأقليات كانت تنعم فى ظل الاسلام بما لا تتمتع به فى ظل دول أخرى لها نفس عقيدتها .. واليوم فقط فهمنا أن انتشار الملل وحياتها بجوار الاسلام على مدار القرون هو شهادة على سمو وسماحة هذا الدين الذى وسع غيره من المعتقدات ، واعتبر بعضهم أهل ذمة حين لم تكن قوة على الأرض تحول دون ابادتهم جميعا بمنطق الغرائز البشرية ، وهو ما فعل بالأقليات المسلمة على يد محاكم التفتيش فى أوروبا ، وهو ما يفعل حتى اليوم بالفرد الضعيف الذى يخالف معتقدات أى حزب من الأحزاب التقدمية حيث تسد أبواب الحياة والمناصب والأمل فى وجهه .. والطامة الكبرى لو كان معه غيره على معتقداته .. ووجودنا خير شاهد على ذلك .. فما بالكم لو كنا فى روسيا .. ربما لم نظفر بمثل هذا الاجتماع فى سيبيريا .. نحن يا زملاء لا نرتضى أن تتحرر مصر من نير الاستعمار لتقع فى براثن استعمار جديد أشد وأنكى .. ونحن نعتبر

أن أضعف التكوينات السياسية أو الدينية أقرب الى قضايا الانسان منكم وبالتالى أكثر وطنية .. وخير لنا أن نموت جميعا على يد أى حاكم مهما كان خلافنا معه عن الدخول فى جبهة معكم .

بقى أن تعلموا أن هذا المنطق لم يستلزم التوقف عن الادلاء به ، ريثما يبحث فى القيادة العليا ثم ينزل الى القاعدة كما نلمس بينكم من خنق القدرات الفردية عن التفكير بل هو نابع من فهم عدد من الشباب لاسلامهم لا أكثر ولا أقل ، ولا يمثلون به حزبا أو جماعة لأنه من وحى فهمنا للاسلام لا من تكتيك السياسة .. »

وحرصنا تماما على ألا نخوض فى مثل هذا الحديث بعد ذلك ، وأدركوا جدية ذلك لدينا ولم يتورطوا فى طرق هذا الموضوع مرة أخرى وبقيت بيننا مجالات الفكر مفتوحة بلا حرج ..

قانون التناقض :

وجاء دور قانون التناقض . ذلك القانون الأساسى الذى تصدر عنه بقية القوانين العامة الأخرى التى أتينا عليها وأبقينا رأسها لخاتمة المطاف .. وقال لينين فى الكراسات الفلسفية : « ان المعنى الدقيق للجدلية هو دراسة التناقضات داخل ذات جوهر الأشياء » .. ومن عجيب الأقدار أن يكون هذا القانون هو أهم القوانين عندهم ويكون فى الوقت نفسه أكثرها تهافتا ... بل وأبعدها عن منطق العلم .. وهم يستخدمون فيه أسلوب المغالطة التى تخفى على الكثير ، أو على حد تعبير كاريوهانت : « يتعنتون فى اختيار أى ظاهرتين غير متشابهتين تتناسب مع أغراضهم زاعمين أنهما متناقضان أو متعارضان ويسمونهما الفكرة ونقيضها ويحولونها الى ظاهرة ثالثة يصونها بتآلف النقيضين ويطلقون على العملية كلها ـ الجدلية ـ .

وقياسا على الظواهر المادية قالوا : بأن المجتمع البشرى باعتباره ظاهرة مادية ، به طبقتان متناقضتان بسبب الملكية الفردية لوسائل الانتاج ، ويدور بينهما الصراع الذى سينتهى بانتصار الطبقة الأكثر عددا والأسوأ حالا .

وقبل أن تتناول هذا الكلام فى ضوء العلم فى القرن العشرين ، وصمت الشيوعيين أمام الحقائق صمت مطبق ، يلزم الاشارة أولا الى نبذة تاريخية عن فكرة الجدل ومبدأ النقيض .

نبذة تاريخية :

* كلمة الجدلية معناها البحث أو المناقشة للوصول الى الحقيقة بالكشف عن المتناقضات التى تنطوى على حجج المتنازعين .

وكلمة النقيض ليست سوى مقولة عقلية مجردة ، ابتدعتها الفلسفة لتفسير الظواهر المختلفة .. وقد استخدم سقراط الجدلية فى محاورات افلاطون .. وعندما وضع افلاطون نظريته المشهورة : بأن الأفكار وحدها هى الحقيقة ، وأن الظواهر هى مجرد انعكاس لها ، أطلق اسم الجدلية على العلم الذى يصل الى معرفة طبيعة الأفكار .

* وقد استخدم الفيلسوف الألمانى المثالى « مبدأ النقيض » للتدليل على أصالة العقل الانسانى واسبقيته فى الوجود ، وأنه الوجود الحقيقى الذى لا يتوقف وجوده على غيره ، وأن له القدرة على الخلق ، وأن حريته مطلقة لا يحدها شاهد ولا حس ولا وحى ، وان المجتمع الانسانى والقانون والدولة والخلقية من آثاره ، وأن هدفه الأخير اقامة الروابط الأخوية بين الناس فى ظل دولة عالمية ..

وكان هدف « فيشته » هو التخلص من اله الكنيسة فأقام العقل الها لا سدنة له ولا كهنة ولا كرادلة ولا باباوات .. وهو الأمر الذى هدف اليه التيار الثانى للفلسفة المثالية الذى نادى بسيادة العقل على النص والطبيعة معا ، على ما سبق ذكره فى فصل « أسباب انتشار التفكير المادى فى أوروبا » .

* واستخدم نفس المبدأ الفيلسوف الألمانى المثالى « هيجل » فى توضيح قيمة العقل الانسانى وقيمة فكرة الألوهية ، وذلك على اعتبار أن الله عقل ..

واذا كانت الجدلية هى فكرة ونقيضها ثم تآلف النقيضين الذى

يحتضن ما هو حقيقى فى الفكرة ونقيضها فان هيجل قد استخدمها فى توضيح علاقة الخالق بالطبيعة .. ونلاحظ أن التفكير المثالى دائما فى شطط ، لأن الوحى السماوى هو العاصم فى هذه القضية بالذات على ما سبق توضيحه ، وسيظهر ذلك واضحا فى فكر هيجل أكبر الفلاسفة المثاليين .. حيث تصور أن هناك فكرة مطلقة أسماها « العقل المطلق » ولهذا العقل المطلق وجود ذاتى أزلى قبل خلق الطبيعة ، وقبل خلق العقل المحدد .. هذا العقل المطلق هو الله ، ومنه تنبثق الطبيعة وهى تغـايره تماما اذ أنها مقيدة محـددة ومتفرقة بينما العقل المطلق واحد وحدة مطلقة عن كل قيد .

وبوجود الطبيعة ظهرت أو انتقلت الفكرة التى فى العقل المطلق غير المحدد فيما وجوده مقيد محدد ، فالطبيعة هى خروج الفكرة من دائرتها الأولى وتعتبر لهذا مقابلا ونقيضا للفكرة فى العقل المطلق .. ولكن الفكرة فى الطبيعة تسعى من جديد لتكسب الوحدة الأولى التى كانت فى العقل المطلق ،بعد أن افتقدتها فى تفرق الكائنات فيها وتسعى لتحصيلها وتحقيقها ثانيا وتحصيلها عندئذ هو « العقل المجرد » ، واذا ما رمزنا للعقل المطلق بالدعوى ، فالطبيعة عندئذ تكون مقابل الدعوى ، و « العقل المجرد » هو جامع « الدعوى ومقابل الدعوى » .

فالفكرة فى نظر هيجل انتقلت من ذاتها كعقل مطلق الى نقيضها وهو الطبيعة كعقل مقيد ، ثم انتقلت من النقيض الى جامع يلتقى فيـه الشىء ونقيضه وهو العقل المجرد الذى يكون فى صورة اتصال العالم بعضه ببعض ، سواء ما يأخذ منه طريقه الى الظهور أو ما يظهر بالفعل .

وهذا العقل المجرد يتمثل فى القانون والأخلاق والفن والدين والدولة والجماعة والفلسفة .

واذن فالعقل المجرد الذى يتحقق فى أى واحد من هذه القيم العامة المذكورة جامع للمتقابلين ، جامع للفكرة فى العقل المطلق وهو الله ، وللفكرة فى العقل المقيد وهو الطبيعة ، اذ ليس له اطلاق العقل المطلق ولا تحـديد عقل الطبيعة ، بل فيه اطلاق بالنسبة الى الطبيعة ، وفيه تقييد بالنسبة الى

العقل المطلق • ولذا يعتبر جامع الدعــوى أو مقابل الدعــوى •• ففكرة الألوهية ظهرت وتجلت فى الطبيعة المفرقة المحددة واجتمعت من جديد فى العقل المجرد ، وبقدر ما تبعد الطبيعة عن الله بقدر ما يقترب العقل المجرد منه ، فالعقل المجرد اذن يمثل الله أكثر مما تمثله الطبيعة •

وأراد هيجل باستخدام مبدأ النقيض هذا ألا يجعل الطبيعة غاية أخيرة للانسان ، اذ هى ستنتقل الى العقل المجرد الذى يتمثل فى القانون والأخلاق والدولة ، وكلها تعتبر موجودات الهية على الأرض •• ولذا يتحــدث عن الدولة كصورة من صور العقل المجرد بأنها : الارادة العاقلة الالهية ، وبأنها الاله على الأرض • ويرى لذلك أن لها مطلق الحق قبــل الأفراد ، وأن على الأفراد بطريق الالزام المطلق أن يكونوا أعضاء فى الدولة وأن يطيعوها طاعة عمياء •• وبهذا دعم هيجــل حكم الامبراطور المطلق ، ولذلك كان يسمى بفيلسوف البلاط •

وأراد هيجل باستخدام مبدأ النقيض كذلك بل فى الدرجة الأولى أن يؤكد سيادة العقل على الطبيعة لا على الدين ، وهذا هو الفرق بينه وبين « فيتشه » ••

* ورغم المآخذ الكبيرة على هذا اللون من التفكير الفلسفى المثالى سواء عند فيتشه أو عند هيجل ، الا أن الذى يعنينا فى هذا المقام هو مقدار تأثر ماركس بفلسفة هيجل ، وكيف انه استخدمها فى مجال المادة ، وفى هذا يقول ماركس : « اذا كان الفكر جدليا فذلك لأن الواقع جدلى » • ويقول « ليست طريقتى الجدلية مختلفــة فحسب عن طريقة هيجــل وانما هى نقيضها المباشر ، فهيجل يرى أن عملية التفكير هى « الخالق » للعــالم الحقيقى والعالم الحقيقى ليس الا المظهر الخارجى « للفكرة » ، أما أنا فأرى من ناحيــة أخرى ان المثل الأعلى ما هو الا العالم المادى الذى يعكسه العقل البشرى وتترجمه عبارات التفكير » •

* من كل ذلك نرى ان اصطلاح الجدلية يطلق على عملية التنازع والتوفيق التى تجرى ضمن الواقع ذاته وداخل الفكر البشرى بشأن الواقع ، ويرى

فيها أدمون ذلك المثلث السحرى الذى أثر فى الماركسية تأثير الخرافات والأساطير الدينية لأنها كما يقول ولسون تركز عقد المجتمع فى تأييد ومعارضة ظاهرتين ، وهى بتأكيدها النتيجة النهائية للنضال ترمز الى الثورة المتكررة التى تقوم بها القوى الشابة المطردة النمو ضد القوى الهرمة ٠٠ »

* وهكذا نرى أن جميع الماركسيين ملزمون بتطبيق الجدلية على أية مشكلة قد يعالجونها وان كانت النتائج غالبا ما تكون مضللة ، والانتقاد الشائع لأى مشروع يفشل ، هو القول بأن أصحاب المشروع عجزوا عن القيام مقدما بتحليل جدلى صحيح « لأن قوتها مستمدة من أنها تمكن الحزب من الاهتداء الى التوجيه الصحيح لأى موقف ، وفهم العلاقة الداخلية للأحداث الجارية والتكهن بمجراها وادراك الاتجاه الذى تتجه اليه فى الحاضر وكيف ستتجه اليه فى المستقبل » ٠

والجدلية أصبحت فلسفة تدرس فى جميع مراكز التعليم الشيوعى تحت عنوان « التدريب على فن التفكير » ٠

بعد هذه المقدمة التاريخية نبدأ فى دراسة التناقض وصراع التناقضات علميا وهل هو موجود فى الطبيعة فعلا ؟! أم ماذا ؟٠٠

الحَلقة الرّابعَة عَشر

مَقولة قانون التّناقض .. خَطأ عِلميّ .. يَطبَع السّلوك بالتّمزّق

العلاقات في الوجود ٠٠قائمة علي التوازن ٠٠ والتزاوج والاتساق
طالب الثانوى اليوم ٠٠يعلم أكثر مما كان يعلمه هيجل وماركس

القول بقانون التناقض وصراع الأضداد خطأ من الناحية العلمية ، لأن ظواهر الوجود قائمة على التوازن الناتج من الحركة حول مخور ثابت ، فالتوازن هو الأصل والصراع يحدث عند الاخلال بهذا التوازن . ومن ثم كان الصراع معطلا للحركة ومعوقا للتقدم ، وليس عاملا فى الحركة وباعثا على التقدم .. واشتداد الصراع قد ينجم عنه التدمير الكامل للظاهرة محل الصراع .. هذا المفهوم البسيط الذى تدعمه حقائق العلم كان غائبا عن الماركسيين أمام سيطرة الرغبة العارمة والهوى الجامح فى سبيل البحث عن فلسفة مادية تكون بديلا للمذاهب المثالية ، واذا كانت الفلسفة المادية هى رد فعل الفلسفة المثالية وتعبير عن أزمتها ، فهى أيضا وفى الوقت نفسه تعبير عن أزمة مؤسسها النفسية لأنه تحت سيطرة هذه الرغبة القوية غابت عنه الحقائق البسيطة .. واذا التمسنا له عذرا لقسوة الظروف المحيطة به وسوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وتخلف المستوى العلمى ، فأى عذر نلتمسه لمن يردد نفس الآراء فى الربع الأخير من القرن العشرين متناسيا كل ما أتى به العلم من جديد فى هذا الموضوع . أم أنها طبيعة البشر فى كل زمان ومكان ، وفى كل دين وفى كل مذهب أن يوجد دائما فريق من المتعصبين يستعصون على كل فهم سليم ، ويفسدون فى الأرض ولايصلحون .

*** عندما وضع ماركس « الجدلية المادية » ، أى طبق قوانين هيجل فى الجدل على المادة منذ قرن ، لم تكن المادة معروفة وقتها تماما ، اذ كان العلماء القدامى على عهد هيجل وماركس وانجلز يعتقدون أن الطبيعة**

مركبة من ٩٢ عنصرا ، وأن كل عنصر مكون من جزيئات هى « الذرات » ، وكانت الذرة معتبرة وحدة الكون كله وان كانت غير معروفة الا بخواصها .. فكان لديهم ٩٢ نوعا من الذرات مختلفا « كيفا » أى مختلفة فى الخواص .

وسمح هذا التعدد واختلاف تأثير المواد بعضها فى بعض بأن يقال أن ثمة تناقضا فى الطبيعة أو المادة ..

أما الآن فأى طالب ثانوى يعلم ما لم يكن يعلمه هيجل ولا ماركس ولا انجلز من أن الذرة مركبة من نواة يحيط بها عدد من الالكترونات ، وهى كهارب ذات شحنة سالبة تتحرك بسرعة هائلة ، وأن النواة تتكون من بروتونات ونيوترونات .. والبروتونات كهارب ذات شحنة موجبة ، والنيوترونات متعادلة ، وقوام النيوترون هو بروتون وألكترون ملتصقان .

وعرفنا أن الاختلاف فى الظواهر التى نراها فى المادة وتركيباتها راجع الى خلاف فى عدد وترتيب الالكترونات فى ذرات تلك المواد . .

فاذا كانت الذرة تحوى ألكترونا واحدا فالمادة أيدروجين ، واذا كانت تحوى ثمانية فهى أوكسجين ، ان كانت ٣٦ فهى حديد ، أو ٩٢ فهى يورانيوم ، وتتعدد وتختلف الخواص الكيماوية باختلاف وتعدد هذه التكوينات .

وعرفنا حقيقة أخرى ذات أهمية لم يكن يعرفها ماركس ، وهى أن عدد الالكترونات فى أية ذرة يساوى تماما عدد البروتونات ، أى أن الشحنة السالبة فى أى ذرة تساوى تماما الشحنة الموجبة . ولذلك فالذرة من أية مادة فى حالتها العادية وحدة متزنة مستقرة خالية من التناقض الباطنى والصراع .

* وقد كان مظنونا طبقا لقانون كولومب أن أى جسم بين شيئين لهما شحنتان كهربائيتان اما أن يتنافرا ان كانا من نوع واحد أى موجبتين أو سالبتين ، واما أن يتجاذبا ان كانتا مختلفتين ، لذلك كان السالب يعتبر

نقيضا للموجب • الى أن أثبت العلم فى القرن العشرين أن هناك مسافة يبطل عندها قانون كولومب هى جزء من ثلاثين مليون جزء من السنتيمتر وهو ما يعادل ١ قطر أكبر ذرة • وبذلك ثبت أن ليس داخل الذرة جذب وتنافر وأنه خلو من هذا التناقض •

* ولمدة ثلاثة قرون كانت الحركة تفسر على ضوء قوانين نيوتن •• بأن كل جسم يستمر فى حالة السكون أو فى حالة حركية فى خط مستقيم ما لم تؤثر فيه قوة تغير هذه الحالة •

ولما كانت الأشياء تلقى فى الفضاء فتسقط الى الأرض ، فقد كان لابد من قانون الجاذبيــة لتفسير هذا الســقوط ــ ولم يشــك أحد فى قانون الجاذبية ، ولا يزال متداولا فى الكتابات وعلى الألسن كأن شيئا لم يحدث فى العلم ــ واعتبر القصور الذاتى ، أى مضمون القانون الأول نقيضا للجاذبية مضمون القانون الثانى ••

وعندما يقول الماديون الجدليون ان فى كل شيء قوة جذب وقوة طرد وبذلك يجتمع في باطنه نقيضين ، يستندون ضمنا الى قوانين نيوتن التى جعلت من القصور الذاتى نقيضا متصارعا مع الجاذبية •

ولكن قوانين نيوتن قد تعدلت عندما أثبت أينشتين أن الجاذبيــة ليست قوة ، وأن الفكرة التى تقول أن كل جسمين ماديين يتجاذبان نوع من الخداع غير المطابق للحقيقة فى تصوير الحركة •• فالجاذبية لم تعد نقيض القصور ، ولكن القصور والجاذبية وحده واحــدة ، وكل الظواهر التى فسرتها قوانين نيوتن فسرتها نظرية النسبية ، بل أمكن بها تفسير ما لم يمكن تفســيره بقوانين نيوتن مثل حــركة عطارد الفريــدة التى يتنقل فيها فى مداره ••

وكان العلماء يعتقدون أن الطبيعة قائمــة على عنصرين هامين هما : الطاقة والمادة ، واعتبروا المادة شيئا خاملا ملموسا يمكن تمييزه بشيء اسمه الكتلة ، واعتبروا الطاقة شيئا نشيطا بدون كتلة •• وبذلك أصبح السكون نقيض الحركة ، والمادة نقيض الطاقة ، ثم أثبت العلــم فى القرن العشرين

وحدة الطاقة والمادة . وأن المادة ليست الا طاقة مركزة ، وأن الطاقة ليست الا مادة تسير بسرعة الضوء ، وبذلك زال ما كنا نتصوره تناقضا .

وكان السائل يعتبر نقيض الجامد ، والأبيض نقيض الأسود ، والحار نقيض البارد ، وما يطفيء النار نقيض ما يذكيها . ثم جاء العلم فى القرن العشرين وأثبت أن المادة تتحول من السائل الى الجامد وبالعكس ، وأن كل نوع من المادة يتحول الى نوع ثان ولا يتطلب هذا أكثر من تعديل وترتيب عدد عناصر الذرة من ألكترونات وبروتونات .. وقد أمكن بالفعل تحويل ذرات بعض العناصر الى ذرات عناصر أخرى .

واذ أثبت العلم أن الذرة خالية من التناقض الباطنى وأن الطبيعة فى كل أشكالها عبارة عن ذرات نكون قد عرفنا ـ علميا ـ أن الطبيعة أو المادة لا تنطوى فى باطنها على تناقضات ولا يدور داخلها صراع .

وبذلك لم يعد من الممكن القول بأن حركة المادة جدلية ..

ولم نعد فى حاجة الى الجدلية لتفسير تحول المادة من نوع الى نوع لأن العلم أثبت أن تحول المادة الى تركيبات مختلفة يتم عن طريق اندماج الذرات .. ويتطلب ذرتين على الأقل تكون درجة تشبعهما مختلفة لتدمجا فتصبح الذرتان ذرة واحدة من نوع ثالث . ولابد من هذا التأثير الخارجى ، أى تأثير ذرة على ذرة لتتم عملية التحول ، وهذا لا يتفق مع قانون الجدل الذى يقوم على أساس التحول من الباطن أساسا باضافة شرط خارجى .

فاذا انتقلنا من عالم الذرة الى مركباتها فاننا نكون قد انتقلنا الى عالم الأنواع حيث تقسم المادة الى تعميمات حسب خصائصها وتأثيرها وتأثرها بغيرها .

فتقسم الطبيعة من حيث اللون الى سبعة ألوان أساسية ، ومن حيث الصلابة الى جامد وسائل وغاز ، ومن حيث الكتلة الى مادة وطاقة ، كما تقسم الى جماد ونبات وحيوان .. ثم نرى الأنواع قد اختلفت وتباعدت فى خصائصها وبدت غريبة بعضها عن بعض ، فنظن أن ثمة تناقضات بين

نوع ونوع وأن فى كل شىء تناقضا باطنيا .. الى حد أن أنجلز قال فى كتابه « جدل الطبيعة » : « أن ثمة أشعة ضوء سوداء تكون نقيضا لأشعة الضوء البيضاء » .. ثم نعتسف القول بأن فى كل شىء صراعا داخليا ، وأن كل شىء جدلى ، ونذهب الى بناء فلسفات على هذا الأساس الغير علمى . وننسى فى ذلك كله أن نقطة الانطلاق وهى الذرة التى هى وحدة الطبيعة ليس فيها تناقض ولا صراع ، وأن كل الأنواع قد تكونت نتيجة اندماج الذرات وتأثرها وتأثيرها وتحولها فى حركتها الدائمة ، وأن ناتج هذا التأثير المتبادل هو التغاير ..

صراع ام تزاوج ؟

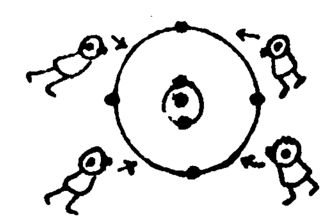
ويصور الدكتور عبد المحسن صالح عملية التكوينات بأسلوبه الرشيق فى كتيبه القيم « دورات الحياة » فيقول :

« فالذى يجمع بين الذرات أو يفرق بينها هو قوانين الذرات نفسها ، أو قوانين الألكترونات الخارجية ، وهى أروع وأدق من قوانين الزواج والطلاق عند الشعوب ، وحتى الذرات اذا تقابلت قد يصحب لقاءها ارتفاع فى درجة الحرارة ، كما ترتفع نبضات قلب المحب وحرارته . وقد تنخفض درجة الحرارة ، وكأن هناك فتورا فى اللقيا ، ولا يتم اللقاء كما يجب الا اذا رفعنا لهما درجة الحرارة لنعطيهما فرصة تنشيط فى الأليكترونات ، وهنا يرتبطان !! وكان لابد للأليكترون أن يدور حتى يتحول المجتمع الذرى الى صورة مهذبة وحتى تفقد بعض العناصر ضراوتها وتدميرها اذا ما اجتمعت فى اتحاد ! ولأضرب مثلا ومثلا : فملح الطعام الذى تتناوله فى طعامك كل يوم أصله ذرتان واجتمعتا ، ولولا اجتماعهما فى جزىء واحد لأصبح كل منهما شريرا مدمرا مخربا فى أجسام الأحياء .. ولكن تعال لنفرق بينهما بامرار تيار كهربائى مثلا ، هنا سيظهر كل على حقيقته وضراوته ، وينشق كلوريد الصوديوم أو « ملح الطعام » الى شقين ويعود كل منهما الى حالته الذرية ، فيصبح الكلوريد غاز كلور اذا استنشقه الانسان أو أى كائن حى مات ، ويصبح الصوديوم عنصرا رخوا لو لامس الماء لارتفعت منه ألسنة

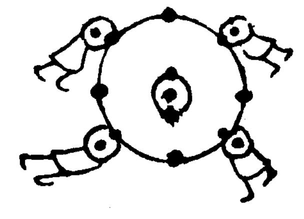
الدخان واللهيب وأحرق فى هذه الحالة الكائن الحى الذى يحويه ! ولكن اذا التقى هذا السام وهذا الحارق أخذ السام من الحارق أليكترونيا أو قل أنه قبلة سحرية ، وترتفع درجة الحرارة عند اللقيا ، ويتحولان الى جزىء من ملح الطعام لا هو حارق ولا هو سام .

والماء — كل ماء — يتكون من ثلاث ذرات متحدة ، ولو جئت بماء زلال وأردت أن تفصل ذراته يخرج لك منه ماردان أو غازان ، أحدهما يحترق بلهب أزرق ، (الأيدروجين) والثانى يساعد على اشتعال النيران أو على الاحتراق داخل أجسام الأحياء (الأوكسيجين) ، ولكن اذا تقابل المحترق والحارق (يد ، أ) أعنى ذرتين بذرة أعطت كل ذرة من الأيدروجين اليكترونا للاوكسيجين ، ويتحول الثلاثة الى جزىء ماء .. لا هو حارق ولا هو محترق !!

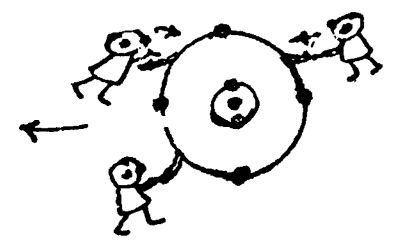
واذا كان قانون المسلمين يبيح للرجل أن يرتبط بزوجة ومثنى وثلاث ورباع ، فكذلك الحال فى قانون ارتباط الذرات ، فالكلوريد يرتبط



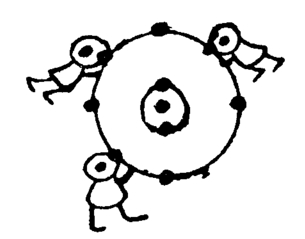
اربعة ذرات ايدروجين تحيط بذرة من الكربون



وعندما تتزوج الكربون بالاربعة يصبح على هيئة جزىء غاز المستنقعات



فى الوسط ذرة من النيتروجين تبيح لها شريعتها الاليكترونية الارتباط بثلاث ذرات من الايدروجين



فترتبط بها عن طريق اليكترون ويتحول الجميع الى نشادر

بالصوديوم فى جزىء .. ذرة بذرة ليعطينا ملح الطعـام ، والأوكسيجين يرتبط بذرتين من الأيدروجين ليعطيك ماء ، والنيتروجين يرتبط بثلاث ذرات من الايدروجين ليعطيك النشادر « الأمونيا » ، والكربون « الفحم » يرتبط بأربع ذرات من الايدروجين ليعطيك غاز الميتان «غاز المستنقعات».

وقد تصـادق الذرة ذرة من بنى جنسهـا لتكون جزئيا ، فنجد أن النيتروجين يرتبط بذرة من النيتروجين ليعطينا جزيئا منه ، والايدروجين بالايدروجين ليعطينا جزيئا منه ، والأوكسيجين بالأوكسيجين وهكذا .

وقد ترتبط ذرة بذرة أو بعدة ذرات ، وقد تهجرها اذا لاح لها فى أفق التفاعلات شق جديد فتترك ما ارتبطت به من قبل لترتبط بهذا ارتباطا أكثر وثوقا من سابقه .. وهناك بعض العناصر تعيش ذراتها فرادى ، ولا يمكن أن تجتمع فى مثنى أو ثـلاث أو ربـاع أو أكثر ، ومنها غـاز النيـون والراردون .

وهكذا تجتمع معظم الصور التى تحكم مجتمعاتنا فى عالم الـذرات والجزيئات ، من ميل وتنافر ، حب وبغض ، وارتبـاط وهجران ، وأفراد لا تجتمع ، وأفراد أو ذرات لابد أن تجتمع » .

وفى الفلك ايضا نجد سنة التزاوج :

ان أجمل ما فى الكون وأملأها للقلب روعة ، على حلاوة ، ما يـراه الرائى بالمنظار من نقطتين مضيئتين مقتربتين فى السماء أشد الاقتراب ، واحدة زرقاء ، والأخـرى برتقالية أو حمراء ، هما نجمان يشـد بعضهما بعضا ، ويدور بعض على بعض كطفل وطفلة فى فناء مدرسة ، وقد تشـابك ذراعاهما الأيمنان وأخذا يدوران ، ان رابطة الجاذبيـة تربطهما ، تربط النجمين فلا يستطيعان فكاكا ، وأنت حيثما وجهت المنظـار الى السماء وجدت أزواجا انها ألوف .. انها الثنائيات النجمية ومداراتها أهليلجية ذات تفرطح عظيم ، وقد وجب أن تكون هكذا ، فبهذا قضت الوحدة ، وحدة الخلق ، وحدة القوانين .

ومن أشهر هذه الأزواج الشعرى اليمانية وصاحبتها ، بل وصاحبها .. انك تنظر الى الشعرى اليمانية فى أوسط السماء ، شتاء ، قرب كوكبة الجبار فلا ترى منها الا نجما واحدا لامعا أشد اللمعان ، وهكذا ترى الأزواج من الكواكب رأى العين ، شيئا واحدا ، حتى تفصل المناظير القوية بينهما ، وقد نظر اليها صانع المناظير يجرب منظارا قطره ١٨ بوصة فرأى صاحبها أول مرة .. كان هذا عام ١٨٦٢م .

ويدرس العلماء الشعرى وصاحبها فيكشفان عن مدار أهليلجى لهما ، شديد التفرطح ، وهما يقطعانه فى خمسين عاما .

والجاذبية قد تجمع بين أكثر من نجمين ، ومن طريف هذا الجمع النجمة القطبية ذاتها ، انها ثلاثة نجوم فى واحد .. زوجان يدوران ، بعض حول بعض فى نحو أربعة أيام وهما يدوران حول نجم ثالث فى أكثر من عشرين عاما ، وأنت لاترى منهما فى السماء الا شيئا واحدا .

ومجموعة أخرى من أربعة نجوم ، انه « رأس التوأم المؤخر » ، وقد عرف أنه ثنائى ، أى يتألف من زوج واحد من النجوم ، واتضح أنه يتألف من زوج وزوج .. ثنائيان ، اثنان فى كل منهما .. كل ثنائى يدور أحد نجميه حول صاحبه ، ودورة الثنائى الأول ثلاثة أيام ، ودورة الثنائى الثانى تسعة أيام ، ولكن الزوج الثنائى يدور كذلك حول أخيه الزوج الثنائى مرة فى حدود ٣٠٠ عام (*) وصدق الله العظيم فى قوله الحق : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ، وقوله : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسكم ومما لا يعلمون » .

هل الطبيعة جدلية ؟

مما سبق هل يمكن القول بأن ما هو موجود فى الظواهر متناقضات أولا وأنها فى حالة صراع ثانيا ، بهدف أن يقضى كل نقيض على نقيضه .. هل يستقيم هذا الكلام مع المنطق العلمى اليوم . يقول مؤلف(*) « أسس

الاشتراكية العربية » : لقد قامت الجدلية المادية على فرضيــة لفظية هى : « أن الطبيعة جدلية » ، وليس معنى ذلك أنه قد ثبت ذلك علميا • ولكنها ضرورة لتفسير حركة المادة غير المعروفة ، أو لعل هذا قد وضع لتبرير تطبيق القوانين الهيجلية على المادة •• ولســت أرى مبررا للتمسك بقانون الجدل ـ القانون الرابع ـ وارغــام المادة على قبوله بعد أن فسر العلم حــركة المادة •

لقد كان ماركس وانجلز معذورين عندما قالا ان المادة جدلية ، فقد كان الجهل بالحركة الداخلية للذرة يسمح لهما بهذا الافتراض الذى يسهل لهما تبنى القوانين التى وضعها هيجل •• أما أن يقول به واحد ، بعد منصف القرن العشرين ، فهو أمر لايدل الا على أنه كان نائما وقد آن الأوان ليستيقظ النيام ولو حتى على هدير الصواريخ ، فى عهد الذرة •

ثم يقول : « لقد جاءنا دليل اليقظة من بلد الذرة والصواريخ ، ولننظر ماذا يقول مؤلفو أسس الماركسية ـ اللينينية » ، ويتبين من عرض ما قاله مؤلفو أسس الماركسية ـ اللينينية ما يأتى :

١ ـ أنهم قالوا : ان المــادة فى عالم المرئيــات وعالم غير المرئيــات ـ الذرى ـ لا يحركها ولا يحدد مستقبلها التناقض الجدلى فى ذاتها ، أى أن المادة فى العالمين غير جدليــة •• قالوا ذلك فى الطبعــة الأولى باللغة الانجليزية من كتاب ـ أسس الماركسية ـ اللينينية ، التى لا تحمل تاريخ نشر ص ٨١ ـ ٨٢ ، تحت عنوان : الحتمية والعلم الحديث ••

٢ ـ أما الطبعة الثانية من الكتاب ، سنة ١٩٦٣، وما تلاها من طبعات سنة ١٩٦٤ ، فقد جاء الحديث تحت نفس العنوان خلوا من العبارات التى وجدت فى الطبعة الأولى أو من بديل لها فى صفحة ٦٩ ـ ٧٠ •

واليكم نص عبارات الطبعة الأولى عن :

(أ) عالم المرئيات (الماكروكوزم) •

(ب) عالم غير المرئيات •

(أ) كان علم الطبيعة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - أى على عهد ماركس وأنجلز - المقصور على دراسة عالم المرئيات ، أى عالم الأجسام الكبيرة نسبيا وجزئياتها ، والمؤسس بشكل رئيسى على ميكانيكا نيوتن تسوده الحتمية الميكانيكية . وكان مميزه الذى هو فى الوقت ذاته عيبه انه يجعل من كل سبب سببا ميكانيكيا ، ومثال علاقة السببية الميكانيكية حركة كرة البلياردو عند دفعها بالعصا .. فقوة الاندفاع فى الكرة مساوية للقوة المنقولة اليها من العصا . والقول بألا شىء فى الأثر يتجاوز السبب يمثل نموذجا للحتمية الميكانيكية . وترتب على هذا أننا اذا عرفنا حالة جسم أو - مجموعة - من الأجسام فى أى وقت أمكننا عن طريق قوانين الميكانيكا التقليدية ، « ميكانيكا نيوتن » أن نحدد مقدما حالتها فى أى وقت فى المستقبل . وقد تأيد هذا المبدأ أو تأكد بدراسة الحركة والتأثير الميكانيكى المتبادل فى الأجرام السماوية ، وكذلك فى الأجسام المرئية فى الأرض والجزئيات . ففى عالم المرئيات تتميز حالة الجسم المتحرك بموقعه فى المكان وسرعته فى وقت معين ، ويمكن تحديد هذه الخصائص تحديدا دقيقا ، وبمجرد معرفتها نستطيع أن نحدد بدون أى لبس حالته فى أى وقت فى المستقبل على أساس قوانين الميكانيكا الكلاسيكية .

(ب) أما فى العالم غير المرئى (الميكروكوزم) ، فنظرا للمميزات الخاصة لظواهره نجد أن حركة المادة فيه أكثر تعقيدا ، ويبدو هذا ، على وجه خاص من أننا نستطيع أن نحدد بأية درجة مطلوبة من الدقة ، اما وضع الجسم واما سرعته . ولكن قوانين الميكانيكا الكلاسيكية غير كافية عند تطبيقها فى العالم غير المرئى ، اذ لا نستطيع بها أن نحدد مقدما كلا من موضع وسرعة جسم غير مرئى .. ومع ذلك فبمعرفة قوانين الميكانيكا الكوانطية (أى قواعد الميكانيكا الخاصة بحركة غير المرئيات) يمكن تحديد وضعها المحتمل فى أى وقت فى المستقبل .

* بهاتين الفقرتين كان مؤلفو « أسس الماركسية - اللينينية » وعددهم ٣٩ عالما قد استبعدوا الحركة على أساس قانون التناقض الجدلى من عالم المادة

مرئية أو غير مرئية ، وانتهوا الى أن حركة المادة يمكن تحديدها مقدما على على وجه الاحتمال فى عالم الذرة طبقاً لقواعد الميكانيكا الكوانطية .. وبهذا وضعوا النهاية الحاسمة للادعاء بأن المادة جدلية . ولكن هاتين الفقرتين حذفتا من الطبعة الثانية سنة ١٩٦٣ وما تلاها من طبعات . وكل ما نرجوه ألا يكون وراء الحذف قصة اضطهاد للعلماء كالتى حدثت لكبار علماء الوراثة سنة ١٩٣٢ حيث قرر المؤتمر العام للعلمـاء الروس فى تلك السـنة : « ان علم الناسلات وتربية النبات يجب أن يطابق المادية الماركسـية » ، وعلى هذا رفضت تجارب مندل فى الوراثة لفترة طويلة لأنها تخالف قاعـدة التفسير الشامل ، ولم يقتصر الأمر على مجرد الرفض ، بل وصل الأمر الى اعدام عدد من كبار العلماء وهروب البعض الآخر .. (يقرأ فى هذا ما جاء بكتاب الشيوعيـة والانسـانية للعقاد ، وما جـاء بملحق جريـدة الأهرام فى ٣٠/٦/١٩٦١) ، وبهذا يعيد الى أذهاننا باباوات المادية قصـــة باباوات الكنيسة فى عصور الظلام يوم كانت تعشى من نور العلم وتقف من الحقائق الجديدة موقفا متحجراً للحفاظ على مصالحها ، والسـلطة فى هذه البلاد التى تدعى التقدمية غير مبرأة اليوم من هذه التهمة ..

الحساب الختامى :

المادية الجدلية نبتت فى ظروف تاريخية ، وهى اليوم نظرة غير فاحصة وغير علمية الى عالم الأشياء ، فكيف بمن يريد أن يجعل منها عقيدة لتفسير الوجود بأسره ومنهجا لتغيير حياة الانسان ، وهى باختصار صـورة من صور التفكير المثالى فى القرن التاسع عشر ، ولكنها مثالية مادية تمييزا لها عن المثاليات التى كانت تنطلق من قاعدة الاعتقاد فى الله ، وجميعها تشترك فى الاغراق فى الخيال والبعد عن الصواب وعن النهج العلمى الأمين . ومن عجب أن تنشر جريدة الأهرام عام ١٩٦٤ قوانين الجدل الأربعة فى صفحة الرأى فى أربعة أسابيع متتالية ، تحت عنوان : « قوانيننا العلمية » .

ومن حقنا بعد هذا ألا نؤخذ بأضخم ما يختاره الفلاسفة من عبارات ، فانها تنتهى الى مقررات بسيطة . بهذه العبـارة العميقة ، عقب الدكتـور

عصمت سيف الدولة ، مؤلف « أسس الاشتراكية العربية » على قضايا المادية وعلل تمسك الماركسيين بها حتى اليوم بقوله : « لو قبل الجدليون الماديون هذا لفقدوا التعصب لنظريتهم ، والتعصب كان لازما لخدمة أغراض ثورية تقتضى انفعال الجماهير بها الى أقصى حد ممكن . لذلك ركز الجدليون الماديون على النظرية عن طريق المطاعن القاتلة التى وجهوها للمثالية .. وعندما يقال أن ليس ثمة غير نظريتين : المادية والمثالية ، ثم تنهار المثالية ، فان المادية تكون قد انتصرت دون أن تتعرض هى ذاتها للاختبار ، وهى طريقة يفسرها السباب والشتائم المجردة من الموضوعية التى يكيلها بعض الماديين لغيرهم ، وأول سبة أن يتهموهم بأنهم مثاليون ، أى ينسبونهم الى نظرية لا يمكن الدفاع عنها ، غير أنه من الواضح أن أسلوبا مثل هذا لا يجدى ، فلكى نستطيع أن نقتنع بالمادية لا يكفى أن نكفر بالمثالية ، بل على المادية نفسها أن تصل الى أفكارنا عن طريق الاقناع المنطقى والعلمى .

* وتنتهى الجدلية بعد هذا المشوار الطويل وراء السراب الى ما كنا قد افتقدنا رؤيته فى غمار المعمعة السابقة ، الى القوانين النوعية لكل فرع من فروع العلم .. للنبات والحيوان والطبيعة ، والكيمياء ، وقد أصبح لكل نوع ولكل فرع من نوع ، قوانينه وعلمه الخاص به ، وهذا هو المنهج العلمى للأشياء . ولكن الماركسية تفسد على العلماء هذا المنهج حين تزج بقضاياها الظنية اليه ، مثلما يفسده السياسيون والزعماء حين يجعلون منه منهجا علميا للانسان باسم « الممارسة الفعلية » ، أو « التجربة والخطأ » ، فتكون نتيجته افساد المجتمع كذلك ..

الحلقة الخامسة عشر

الماركسية تقهر العلم وتسخره لتبرير أحكام مسبقة وجاهزة .

- **أثر الدولة الكبرى النفسى .**
- **الستار الحديدى العلمى .**
- **نظام الأسرة .**

الآن وقد فرغنا من قضايا « المادية الجدلية » نكون أمام بعض القضايا العلمية التى تعمل كخلايا بيتية فى نسيج الماركسية . والتى يحسن الشيوعيون استغلالها لاسباغ صفة العلمية على كل ما اعتقدوه مسبقا .. وهم لذلك يطوعونها لمنطقهم فى مادية الوجود .. ومادية الانسان .. ومادية التاريخ .. ولو على حساب الأمانة العلمية ..

من هذه القضايا ما يتناول : نشأة الحياة .. نظام الأسرة .. نشأة الأديان .. سلطات الدولة .. نظرية النشوء والارتقاء .. دور الفرد فى التاريخ .. الأخلاق والآداب ..

* واذا كانت ظروف أوروبا فى القرن التاسع عشر بكل مساوىء الكنيسة والاقطاع تعطى عذرا لهذا الموقف الانتقائى من جانب ماركس لكل النظريات التى تخدم عقيدته المسبقة مهما كان تهافتها من الناحية العلمية .. فأى عذر لمن يعيش فى القرن العشرين بعد قرن كامل من هذه الظروف ومن تقدم العلوم ..

* لكن المحزن أن الأمر لم يقف عند حدود الانتقاء بل تعداه الى التطويع والقسر لكل الاكتشافات العلمية لتظل سندا لقضايا الماركسية .. حتى ولو اضطروا فى سبيل ذلك الى اضطهاد العلماء كما رأينا فى الحلقة السابقة .

* وحمل الينا مؤلفو « أسس الماركسية اللينينية » نغمة جديدة هى « الممارسة الفعلية » التى بدأت تخلف النظريات التى انفصلت تماما عن

ميدان التطبيق وعن التقدم العلمى •• وأصبح الالتزام العقائدى بها التزاما لنوع من التفكير المثالى المادى أشد رجعية وجمودا من كل فلسفات سبقت ، ولكن ذلك الالتزام ما زال مقيدا للأمانى القومية للدول التى تدين بها ، اذ يعطيها وجها انسانيا يستر أغراضها الاستعمارية •• ومن هيا فهى حريصة على اطالة عمر النظرية خارج حدودها فى الوقت الذى ماتت فيه تماما على أرضها ودفنت فى تابوت الممارسة الفعلية والتجربة والخطأ •• ولكن بقاءها على قيد الحياة فى مجال الدعاية ما زال مفيدا •• بل ويلزم له بقاء النظرية على علاتها بكل قضاياها العلمية المتخلفة التى تحفظ لها تماسكها ومنطقيتها لدى متوسطى الثقافة وضحايا الصراع الطبقى والمراهقين من الزعماء الثوريين •

ـ اثر الدولة الكبرى النفسى

* ومن أطرف ما لمسناه أن وجود دولة كبرى تدين بالمـــاركسية يقوم بعملية التعويض العلمى فى نفوس المؤمنين بالماركسية ، وخاصة زعماء الأحزاب حين يعجزون عن مواجهة صوت المعارضة •• فقيادات هذه الأحزاب تظن أن جوانب الماركسية لا يتطرق اليها الشك علميا لا بسبب من قدرتهم العلمية على التحقق من ذلك بل بســبب من ثقتهم فى قيــام دولة كبرى على هذه العقيدة •• ويشغلهم ما هم فيه من منازلات سياسية عن ادراك ما تعانيــه الدولة الكبرى نفسها من مرض الانفصام وهم بذلك يعيدون تمثيل دور الأفراد الذين كانوا عندما يعجزون علميا يرجئون الاجابة علينا ريثما يعودون الى المختصين •• ولقيادات الأحزاب الشيوعية هى الأخرى دورها فى العودة الى المختصين فى الأحزاب العليا وهذه بدورها تصعد الى المختص الأوحد •

ـ الستار الحديدى العلمى

* ولن يدرك من هم داخل الستار الحديدى العلمى أنهم كانوا يجرون وراء شعارات سياسية لا حقائق علمية ، وانهم كانوا يخدمون أمانى غيرهم القومية ، وليست الأمانى الانسانية ، الا عندما يكبرون علميا وتكون لهم الشخصية المستقلة ويتخلصون من قبضــة الاســتغلال العلمى •• أحــدث أنواع الاستغلال •• وعند ذلك سيحاربون من أدعياء العلمية كما حورب جارودى وجيلاس وباسترناك وجلال كشك ومصطفى محمود وغيرهم ••

ولا يتسع المقام هنا لبيان أسلوب الشيوعيين فى استغلال هذه القضايا العلمية .. وخاصة عندما سنحت لهم فرصة السيطرة على أجهزة الاعلام فى مصر عقب الافراج عنهم سنة ١٩٦٤ بمناسبة حضور خروشـوف احتفالات السـد العـالى وزيارته مصر لأول مرة .. وكيف ظلوا يلعبون بالعقول ويحطمون كل القيم باسم العلم حتى تيقظ الاتحاد الاشتراكى أخيرا لاخطارهم فعمل على ابعادهم عن هذا الميدان ..

* وشاهدنا هذه المأساة من وراء القضبان .. مأساة تبوئهم لمنابر التوجيه فى الأمة بين يوم وليلة ، وجرأتهم على ادعاء صفة العلمية لكل ما يفعلون ، وقدرتهم على تغليف فكرهم الماركسى بعباراب من الميثاق ومن أقوال الرئيس الراحل ومن لبس مسوح الناصرية أو غرس القيم الاشتراكية .. حتى وقع كثير من المثقفين دون قصد فى براثن مناهجهم فى التفكير والمغالطة .

وكان يأخذنا العجب ويقتلنا الألم والمرارة لرؤيتنا أمتنا وهى تسرق فى معتقداتها أمام أعيننا ، ونحن عاجزون عن أن نمد لها يد العون وننقذها ممن نفهمهم أكثر من غيرنا .. وأشد من ذلك اضطرارنا فى نفس الوقت لدفع الأذى المنصب علينا صباحا ومساء ممن لا يفهمون أننا سفينة انقاذهم قبل هؤلاء الذين تسلقوا شراعها ليمزقوه على أنهم ملاحوها ..

* وطالما خضنا جدلا طويلا حول هذه القضايا داخل السـجون .. ولولا خشية تشعب الموضوعات لاستعرضناها واحدا واحدا .. ليرى القراء معنا نصيب ما يقولونه من العلم وحقيقة ما يستهدفونه من ورائها ..

نظام الأسرة

* وحسبنا أن نشير اليوم الى بعض قضايا متفرقة لنبين خطهم العـام فى تناولها ونشير الى مصادر الصواب فيها .. ولنأخذ نظام الأسرة مثلا .

يقولون أن الأبحاث التاريخية والجغرافية كشفت عن أن البشرية عاشت فى حالة مشاعية جنسية فى عصورها الأولى ، وأنها لم تعرف نظام الأسرة الا تحت تأثير الظروف الاقتصادية ، اذ أن ظهور فكرة الملـكية الفردية

لوسائل الانتاج سواء فى الأرض أو فى أدوات الحرفة هو الذى دفع الى الحياة الأسرية ، باعتبار الأسرة وحدة اجتماعية تعين على حسن استغلال وسيلة الانتاج المملوكة .. ومن ثم فقد وقعت المرأة فى قبضة الاستغلال من جانب الرجل .. ويوم أن تعود فكرة الملكية الجماعية وتتغير كل الأشكال الاجتماعية الطبقية ، ستتغير أيضا طبيعة هذه العلاقة الأسرية ، حيث تتحرر المرأة وتعود اليها شخصيتها وتقوم علاقتها بالرجل على أساس من المعاشرة الاختيارية وهو التعبير المهذب لفكرة المشاعية الجنسية ، ويسندون هذا القول بما ورد فى كتاب أصل العائلة لانجلز الذى استمد بدوره سندا علميا لرأيه من كتابات علماء الأتنوجرافيا فى عصره مثل مورجان وباخوفيه أى العلماء الذين يبحثون فى النظم الاجتماعية للشعوب البدائية .

فقد قال انجلز عن مورجان « هو أول شخص ذو معرفة صحيحة حاول أن يقدم تقسيما دقيقا لمراحل حياة الانسان فيما قبل التاريخ .. فهو يتحدث عن العلاقات الأسرية فى هذا العصر فيقول : كان أساس الجماعة الأولى التى تم عن طريقها الانتقال من الحيوان الى الانسان هو التحرر من الغيرة والتسامح المتبادل بين الذكور : فالشكل القديم جدا للعائلة الانسانية البدائية وهو الشكل الذى توجد عليه دلائل لا تنكر ويمكن الى اليوم مشاهدته بين قبائل بدائية عدة فى أماكن مختلفة .. هذا الشكل هو الزواج الجماعى الذى فيه جماعات بأسرها من الرجال وجماعات بأسرها من النساء فى علاقات جنسية مشتركة وهو ما لا يترك الا مكانا ضئيلا للغيرة .

ويسمح انجلز لنفسه على ضوء ما قاله مورجان أن يحدثنا هو الآخر فى « أصل العائلة » عن مستقبل العلاقات الأسرية بعد زوال الملكية الخاصة وتصفية علاقات الانتاج الرأسمالى فيقول : « وما نستطيع استنتاجه حاليا عن تنظيم العلاقات الجنسية بعد تصفية علاقات الانتاج الرأسمالى يعتبر استنتاجا ذا طابع سلبى يحدد ما سيختفى من الزواج ، ولكن ما الذى سيزيد على الزواج ، هذا هو ما سيستقر بعد نمو جيل جديد . جيل من الرجال لم تسنح الفرص أن يشترى استسلام امرأة سواء بالمال أو بأية وسيلة

أخرى من وسائل السيطرة الاجتماعية ، وجيل من النساء لم يضطرون أبدا للاستسلام لأى رجل لأى سبب سوى الحب الحقيقى ، ولن تخاف المرأة حينئذ أن تمنح نفسها لمن تحب خشية النتائج الاجتماعية ، وعندما يظهر هذا الجيل فانه لن يهتم أبدا بما نعتقد اليوم أنه يجب عليه عمله فسيتبع طريقه الخاص وسيكون له رأيه الخاص بدون اكتراث بما نعتقد » (*) .

* لا يسمح الماركسيون حتى اليوم لفكرهم أن يخترق حاجز هذه النصوص التى تعتبر مقدسة عندهم ، والتى ظهر أثرها واضحا فى كل ما كتبوه أو ألقوه من محاضرات وندوات عقب الافراج عنهم .. وسنعالج هذه النصوص بعقلية القرن العشرين .. ولكن تلزم الاشارة الى أن عقلية القرن التاسع عشر تلك هى التى أظلت سماء الفكر والقيم على يد هؤلاء الذين مزقوا كل الروابط الأسرية والقيم العائلية فى الفترة السابقة تحت عناوين براقة من تحرر المرأة .. وشخصية المرأة العاملة .. وبكافة الأساليب الاعلامية الرامية الى هذا الهدف البعيد من خلال غطاء القيم الاشتراكية وبعض استشهادات لعبارات من الميثاق أو غيره ..

* وقد شاهدنا ونحن وراء القضبان برنامجا تليفزيونيا ألقى فيه أحد زملاء الأمس محاضرة على ما يقرب من مائة فتاة .. أمهات الغد .. تحت عنوان برىء هو « نظام الأسرة على مدار التاريخ » ، ضمنه كل مفاهيمه الماركسية وكل أهدافه البعيدة أيضا دون أن يشير من قريب أو بعيد الى أنه يعرض مفهوما ماركسيا صرفا .

وقد لا يعلم الجميع أن أول جريدة نبهت الى ظهور مودة المينى جيب كانت جريدة « الجمهورية » ، وكانت يومها تحت سيطرة الشيوعيين بصورة كاملة وان تخفوا فى أثواب ناصرية . وكنا يومها فى المعتقلات وتتابع جميع الصحف ، وما يفعله زملاء الأمس ، وقد واتتهم الفرصة لتغيير المناخ ولمعرفتنا بأساليبهم فقد علقنا على هذا الخبر بل تنبأنا بالخطوة التالية بعد أسبوع وهى اصطناع تحقيق صحفى مصور ينبه الى انتشار هذا الزى فى مصر ، ثم

(*) أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة لانجلز ترجمة احمد عز العرب ص٧٩ .

التباكي على ذلك ومتابعة صاحباته بأسئلة تتفاوت الأجوبة عليها .. وقد صح ما توقعناه بعد أسبوع تماما بظهور تحقيق مصور شمل صفحة كاملة خاص بظهور الزى بين طلبات الجامعـة وردهن على الأسئلة بأن ذلك من الحـرية الشخصية ونحن نعلم بترتيب كل ذلك مقدما .. ثم يعقبه تمثيلية هنا وفيلم هناك ترتدى بطلاته الزى دون كلام ولا سلام ، ليحدث الايحاء اللازم فى فتيات الأمة . ومثل هذا الأسلوب يتبع مع الشباب لاشاعة ما يروق لهم فيه .

من حق الأمة ان تعرف :

* أقول هذا لأن من حق الأمة العربية والاسلامية أن تعرف ما يجرى على أرضها وتعيد تقييم أسلوب حياتها . وهـذا نموذج لما يجرى فى غير ذلك من القضايا العلمية التى تستغل لخدمة أهداف غير انسانية . واذا ما أردنا مصداق ذلك ، وعرضنا هذا المفهوم الماركسى الذى سمم الأفكار على العلم فى القرن العشرين نجد ما عليه أصحابه من مغالطة وتخلف .

ما يقوله القرن العشرون :

* يقول الدكتور على عبد الواحد وافى ، فى كتاب الأسرة والمجتمع : « نظام الشيوعية المطلقة لم نعثر عليه فى أى مجتمع من المجتمعات الانسـانية ، سواء فى ذلك البدائى منها والمتحضر ، فليس من بين المجتمعـات الحاضرة والغابرة التى وقفنا على نظمها عن طريق ملاحظتها أو ملاحظة ما خلفته من آثار ، أو عن طريق ما كتبه المؤرخون أو الرحالة ، أو علماء الاتنوجرافيـا أو القانون .. ليس من بين هذه المجتمعات أى مجتمع أخذ بنظام الشيوعية المطلقة فى علاقة الرجال بالنسـاء ، فكان جميع نسائه حقا مشـاعا لجميع رجاله .

صحيح أن بعض المنشئين للمـدن الفاضلة Utopistes قد أراد أن تسير مدنه على هذا النظام السائد فى فجر الانسانية . ولكن هؤلاء وأولئك قد تجنبوا جادة الصواب ، ولم تعبر آرائهم عن الواقع فى شيء .. أما منشئو المدن الفاضلة الذين رأوا أن تسير مدنهم الخيالية على هذا النظام كأفلاطون

فى جمهوريته ، وكامبانلا فى « مدينة الشمس » ، فيدلنا التاريخ على أن آراءهم بهذا الصدد كان نصيبها الاخفاق المهين ، فلم تلق أى نجاح فى مجتمعاتهم ولا فى غير مجتمعاتهم ، ويدلنا التاريخ كذلك على أنهم لم يستمدوها من نظم اجتماعية كانت موجودة فى عصورهم أو انتهى اليهم العلم بها عن طريق التاريخ ، وانما استمدوها من خيالهم وآرائهم الشخصية فيما ينبغى أن يكون عليه المجتمع وتكون عليه نظم الاجتماع .. هذا الى أن معظمهم قد اضطر تحت تأثير النظم الواقعية ، التى كانت تسير عليها مجتمعاتهم الى أن يقيد هذه الشيوعية التى نصح بها ، فأفلاطون مثلا لم يرد السير عليها الا فى طبقة خاصة من طبقات المجتمع ، وهى الجنود .. فقد أراد أن يجرد هؤلاء من كل عاطفة غير العاطفة الوطنية حتى يخلصوا لخدمة المجتمع ولا تكون لهم صلة الا به ، فلا يشغلهم عن ذلك ارتباطات بأسرة أو بنين . هذا الى أنه أراد أن تكون هذه الشيوعية منظمة من عدة وجوه .

وكامبانلا نفسه الذى ذهب الى أبعد مما ذهب اليه أفلاطون ، اذ آثر أن تكون الشيوعية عامة فى جميع الطبقات ، فتكون جميع النساء حقا مشاعا لجميع الرجال .. رأى فى روايته أن الحاجة ماسة فى مدينة كهذه الى انشاء وزارة للشئون الاجتماعية ، وهى « وزارة الوزير مور ، يعهد اليها بالاشراف على تنظيم الأمور الجنسية حتى لا تؤدى الشيوعية الى الفوضى .. » .

مورجان وباخوفيه :

أما الذين يذهبون الى أن الشيوعية الجنسية كانت النظام السائد فى فجر الانسانية فعلى رأسهم باخوفيه السويسرى من علماء القانون ومورجان الأمريكى من علماء الأتنوجرافيا ، وقد ذهب أولهما الى ذلك فى كتابه « حق الأم » الذى ظهر فى أواخر القرن التاسع عشر سنة ١٨٦١ .. وذهب ثانيهما الى هذا الرأى فى كتابه « الجماعة القديمة » الذى ظهر سنة ١٨٧٧ أى فى نفس العصر الذى ظهر فيه كتاب زميله غير أن أولهما قد استمد هذا الرأى من دراسة النظم القضائية والاجتماعية للأمم الأوروبية فى أقدم عصورها ، بينما استمده ثانيهما من دراسته للنظم السائدة فى العشائر البدائية بأمريكا ..

فقد ظهر لباخوفيه من دراسته لتاريخ النظم الاجتماعية الأوروبيـة أن النظام الأمى وهى الذى تعتمد القرابة على الأم لا على الأب هو أقدم نظام سارت عليه القرابة فى المجتمعات كما سبق ذلك .. وظن أن هذا النظام لابد أن يكون نتيجة لشيوعية جنسية كانت تسود علاقات الرجال بالنسـاء فى الشعوب الانسانية الأولى . وذلك أنه لما كانت هذه الشيوعية تحول دون معرفة الآباء اضطرت المجتمعات الانسانية فى هذا العهد الى أن تلحق الأولاد بأمهاتهم فحسب .. وتجعل الأم وحدها هى محور القرابة ..

* وما ذهب اليه باخوفيه بصـدد أقدمية النظـام الأمى واسـبقيته فى التاريخ لما عداه من نظم القرابة يتفق مع آراء كثير من البـاحثين .. أما ما ذهب اليه من أن هـذا النظام لابد وأن يكون نتيجة لشيوعية جنسـية كانت تسود العلاقات بين الرجال والنساء فى فجر الانسانية ، فاستنتاج فاسد كل الفساد ، وذلك أن النظام الأمى ليس له أى علاقة بمعرفة الأب أو الجهل به ، بل هو أحد النظم التى ارتضتها بعض المجتمعات فى تحديد القرابة كمـا ارتضى بعضها النظام الأبوى ، وهو الذى يلحق نسب الولد بأبيه وحده فتكون الأم وأفراد أسرتها أجانب عنه لا تربطه بهم أية رابطة من روابط القرابة ، بدون أن يـكون سبب ذلك الجهل بالأم اذ لا يعقل أن يكون تعيين الأم موضع شك .. واليك مثلا العشائر الاسترالية التى يسير معظمها على النظام الأمى ، والتى تمثل أقدم مرحلة فى النظم الانسانية ، فأننا لم نعثر فى هذه العشائر على أى أثر للشيوعية الجنسية أو صعوبة تعيين الآباء كما يزعم باخوفيه .. فقد كان الولد معروف الأب ، ومع ذلك ما كان يلتحق نسبه فى معظم هذه العشائر الا بأمه ..

* أما الأدلة التى اعتمد عليها مورجان فهى تختلف فى نوعهـا عن أدلة باخوفيه .. ولكنها لا تقل عنها تهافتا وفسادا ، فقد عثر فى بعض الشعوب البدائية على نظم رغم أنها آثار لشيوعية قديمة ، كانت تسير عليها الانسانية فى أقدم عهودها ، مع أن الأمثلة التى ذكرها يرجع معظمها الى نظام تعـدد الأزواج لزوجة واحدة ، وبعضها الى نظام تعدد الأزواج والزوجات معا ،

وليس منها ما يرجع الى الشيوعية المطلقة أو ما ينم على رواسب أو آثار لهذا النظام » .

سببان :

* مما سبق يتبين لنا أن الفهم المـاركسى عن الأسرة ومستقبلهـا يرجع الى سببين :

١ ــ سبب عقائدى يصدر عنه الشيوعيون مسبقا فى كل تفكيرهم وهو المادية الجدلية .. وهو ما سبق تفنيده .

٢ ــ سبب من الاكتشافات العلمية التى ظنوها تخدم اتجاههم العقائدى أول الأمر .. ثم تطور الظن حتى صـار تعصبا على حساب الأمانة العلمية آخر الأمر .. وقد وضح لنا أن آراء مورجان وباخوفيه لا تسند منطقهم .

* وقد مارسوا تطبيق هذا الموقف العقائدى عمليا بعـد قيـام الثورة فى روسيا حتى عام ١٩٣٥ حيث تقرر الغاء ما أطلق عليه فى تلك الفترة اسـم المعاشرة الاختيارية وتسليم الانتاج من الأبناء للدولة .. بعد اتضاح المساوىء الاجتماعية من كثرة الاجهاض وانتشار الأمراض السارية مما هدد سير عجلة الانتاج واضطرهم الى اعادة تقييد اجراءات الزواج والطـلاق بدعوى أن الانسان لم تتطور داخلياته بعد الى الحد الذى يصلح لممارسـة هذه القيم الجديدة ، وأنه لذلك يلزم ارجاء التطبيق الحرفى لهذا الاعتقاد ضمن ما أرجىء من قضايا على مدار مرحلة الاشتراكية ريثما يحين عصر التطبيق الـكامل للشيوعية .. وقد حوى كتاب « مشروعات السنوات الخمس » ترجمـة الدكتور راشد الرواى تفاصيل ما جرى فى هذه الفترة ..

والخلاصـة : أن نظام الأسرة نظام فطرى موجود حتى فى الطيور والحيوانات الراقية بغير سبب من الملكية ، وهو فى الانسـان له قدسيته الخاصة ويمثل وحدة حركية انسانية ذات قيم ثابتة وذات دور كبير فى تنمية كل قدرات الانسان .. ولم يستطيعوا هم أن يتخلصوا منه فى حياتهم برغم كل انحراف ..

وصدق الله العظيم « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة •• ان فى ذلك لايات لقوم يتفكرون » •

قضايا تلاقى نفس المصير :

ماذكرناه عن الأسرة نموذج لما يفعله الشيوعيون مع القضايا الأخرى التى سبقت الاشارة اليها ، وفى كل منها تقابلنا نفس المحنة ونفس الاستغلال بما يتفق وطبيعة الموضوع ونأمل أن يتسع المستقبل ان شاء الله لتناولها على حدة حتى لا نحيد عن الهدف ••

وبعد مرورنا على « الأدلة الجدلية » وبعد الاشارة الى بعض القضايا العلمية التى تستغل حولها •• نكون قد وصلنا الى الكلام عن « الانسان» •• قانونه •• وقضاياه ••

الحلقة السادسة عشر

المنهج العلمي للإنسان :

قضايا الانسان في منهج الله منبثقة عن قانون ثابت لا يختلف

ذكرنا فى بداية حلقات الحوار أن الماركسية تتضمن ثلاث قضايا رئيسية : المادية الجدلية ، والتفسير المادى للتاريخ ، وفائض القيمة ..

وبنهاية الحلقة الخامسة عشرة نكون قد فرغنا من القضية الأولى مصدر غيرها من القضايا .

* ويمثل الكلام عن الانسان بصفة مستقلة منطقة وصل هامة بين قضية العقيدة وقضية التشريع فى أى مذهب أو دين ، ولذلك لم ينفك الماركسيون عن كلام فيه كثير مبنى على أساسهم العقيدى ومبرر لأساليبهم المنهجية .. وكان لنا بدورنا فى كل ذلك تأصيل وتوضيح لمفهومات التكوين والحرية والسعادة مبنى على أساسنا العقيدى وموصل لمنهج الانسان الربانى فى الحياة .. ويشمل ذلك تلقائيا موضوع فائض القيمة باعتباره قضية محورية فى الماركسية يدعم الموقف العقيدى من الملكية .

* قالوا عن الانسان انه مجرد ظاهرة مادية على قمة سلسلة النشوء والارتقاء .. فكرة عملية مادية حصيلة محزون التجارب المنعكسه من الوسط المادى الذى يحيط به .

وان حريته هى فى تحقيق ضروريات حياته من مأكل ومشرب وملبس ، من أسر الطبيعة بالعلم ، ومن قبضة المستغلين بادراك قوانين التطور الاجتماعى . وأن سعادته فى اشباع رغباته المادية .. وأن مشاعره وعواطفه تعبير عن حاجات مادية يتوق الانسان الى اشباعها : فأنت تحب ابنك اليوم

لما ترجوه من نفع مادى عن طريقه فى المستقبل ، فأنت فى الواقع تحب وثيقة تأمين على الحياة تدب على قدمين .

وأن الأخلاق والقيم متغيرة ونسبية ، جوهرها الفردى فى تحقيق اللذة الحسية ، وجوهرها الاجتماعى هو التعبير عن المصالح الطبقية .

وأن التناقضات التى تظهر لنا بين أقوالهم وأفعالهم مردها الى أغلبية رواسب المجتمع البرجوازى الذى نشأوا فيه ، وأن انسان المستقبل سيختلف عنهم كثيرا .. فى كل شىء خلقا وخلقا . وقلنا لهم فى الانسان وقضايا الانسان قولا آخر منبثقا من عقيدة أخرى ومنهج آخر ، قلنا : فى صلة الله تعالى بخلقه ، نشاهد أنه قد فطر كل شىء فى عالم الجماد والنبات والحيوان على قانون ثابت لا يتخلف .

الكائن الارادى :

فتركيب ذرة كل عنصر وخواصه ثابتة لا يملك العنصر لها بديلا ولا تعطيلا ، ودور العلم يقف عند حدود الكشف والوصف دون العلل والغايات ، فهو لا يعلل عدد الالكترونات فى ذرة الذهب ، ولا سر الصفرة فى اللون ولا لماذا ينصهر عند درجة حرارة معينة دون غيرها من الدرجات ، الى آخر ما له وما لكل عنصر من خواص يسجلها العلم ويتابع التغييرات التى يحدثها الانسان فيها على وعى بقوانينها .

كذلك الأمر بالنسبة لشجرة الفاكهة مثلا فانها هى الأخرى مفطورة على قانون ثابت لا تملك له تبديلا ولا تعطيلا ، فهى تمتص من التربة عناصر معينة بنسب محددة تمر فى داخلها بمراحل مختلفة لتعطينا فى النهاية ثمرة ذات أوصاف مميزة ، والعلم دوره فى الكشف والوصف ..

* فلو تصورنا أن عنصر الذهب ، أو شجرة الفاكهة منحت القدرة على التصرف فى قانونها بالتحقيق أو بالتعطيل ، وخيرت فى ذلك على أساس أن تكرم اذا اختارت اتجاه قانونها ، فلم تعطله ، ومن ثم يطلق الذهب خصائصه وتعطى الشجرة ثمرتها ويحقق كل منهما رسالة وجوده .. وعلى أساس أن

يستأهل العقاب بالافناء ، أو تستأهل الشجرة العقاب بالقطع ، اذا أساءت الاختيار ، لكانت الشجرة هى الانسان تماما .

ذلك أن الانسان له قانونه المفطور عليه ، ولكنه كائن ارادى ، بل هو الكائن الارادى الوحيد الذى ان شاء حقق قانونه وآتى ثمرته ، وحقق رسالة وجوده ، وان شاء عطله ، فيستحق الجزاء .. فما هو قانونه .

قانون الانسان :

من غير دخول فى مسلمات ايمانية حول خلق الانسان وما بث فيه من روح الله ، وحول ثنائية تركيبه من روح وجسد ، وحول خطيئة آدم عليه السلام ، التى أهبطته الى الأرض .. فان تتبع آثار الانسان على الأرض يفتح الطريق الى الايمان بذلك كله لمن يحمل بين جنبيه قلبا سليما .

* فمن المشاهد خلال تجارب القرون أن نفس الانسان ترتاح وتطمئن بالحب وتأسى وتضيق بالكراهية ، وهكذا الرحمة فى مقابل القوة ، والشجاعة فى مقابل الجهل ، أى فى نفس كل انسان مهما كان اعتقاده ومهما كان زمانه ومكانه بذرة خاصة ، هى النفخة الالهية ، ترتاح وتنمو بكل ما هو خير وحق ، وتذبل حتى تموت بكل ما هو شر وباطل .. هذه هى فطرة الانسان » . وهذا هو قانونه الثابت .

* والانسان الذى يصل من خلال حركته وتحصيله للخير والحق الى الله تعالى علما وحالا باعتباره سبحانه وتعالى منتهى كل حق وغاية كل خير ، هو الانسان المسلم الذى حقق رسالة وجوده ، وآتى ثمرته ووجد محوره الثابت الذى يدور حوله ، أما ذلك الذى تقطعت أوصاله وانتكست حركته فان نفسه لا تصل الى أى اطمئنان أو راحة على كثرة ما يحصل من متاع الدنيا .

* والارادة الانسانية التى تستهدى بنور الرسالة السماوية مكلفة أن تصل بحركتها الى الله تعالى لتحقق قانون الانسان وحياته الحقة ووجوده الربانى الصحيح .. وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .. وعلى هذا يكون

الجزاء بعد أن هيأ الله للبشر أرضا تفيض بالخيرات لتكون مضرب ارادتهم، وأنزل التشريعات مصبوغة بالاختيار ليستطيع الانسان الذى أسلم لله فى اختياراته للخير والحق أن يحسن الوصول بهما وأن يعرج عليهما الى الله تعالى بعد التحرر من قيود الشر والباطل .

* ومن هنا كان الاختيار هو الصبغة الأساسية للشريعة الاسلامية ، شريعة الأنبياء جميعا ، لأن الاختيار هو شرط المسئولية والتكليف ، أما ما قد يتطلبه الأمر من الزام وفرض فان الله وحده هو الذى يضعه فى حياة النـاس لمصلحة هدف الاختيار فالتحرر أو اختيار التحرر .

مفهوم الحرية :

الانسان مكلف — وفقا لما يتزود به من ارادة دون غيره من الكائنات — أن يوجه ارادته الى فك جميع القيود وازاحة جميع العقبات التى تعطل حركته حول محوره أو تبطىء منها .

فعليه أولا أن يحقق التوازن بين جميع احتياجاته الأساسية من مطالب جسمية وروحية ، والحاجات المادية بطبيعتها دورية ومحدودة وتخضـع لقانون تناقص المنفعة . أما الحاجات الروحية فهى تستمد من الروح طلاقتها وانفساحها .. وهى التى بها تتحقق صفة الانسان .

فصاحب الارادة السوية مكلف أن يفك قيد الجهل لينطلق فى مدار العلم، وأن يفك قيد الشح لينطلق فى مدار البذل والكرم ، وأن يفك قيود الجبن والقسوة والكذب لينطلق فى مدارات الشجاعة والرحمة والصدق ؛ وأن يزيح ثقل الكراهية والبغضاء والحقد والحسـد لينطلق فى مدارات المحبة والاحسان .

وبالجملة يفك كل قيود الباطل لينطلق فى مدار الحق ، وكل قيود الشر لينطلق فى مدار الخير .. فالحق والخير هما مداراه الأصليان .

وعندما يضع الانسان المكلف جميع الأغلال ويزيح جميع الأثقال عن نفسه ، فانه يتحرر من كل أسر وعبودية لغير الله تعالى ، لتصير نفسه بحق

نفسا حرة لأنها لم تعبّد للشر والباطل ، بل تحررت منهما لتعبّد للحق والخير وحدهما أى لتلتزم مداريهما حتى يتحقق كمالها-بعبـادة الله وحده دون غيره من أسباب الأرض .. وفى هذا يقول سلفنا الصالح : « فى العبوديـة لله تمام الحرية وفى الحرية تمام العبودية » . ومن هنا كانت رسالة الرسل جميعا تضع عن الناس اصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

ولابن تيمية كلام قيم فى هذا المعنى فى رسالة « العبودية » ، حيث يفرق بين الحقيقة الكونية والحقيقة الدينية ، فمن زاوية الحقيقة الكونيه تعتبر جميع الكائنات ومنها الانسان فى مقام العبودية لله ، وذلك من زاوية خضوعها للقوانين التى فطرها الله عليها ، ويستشهد فى ذلك بقوله تعالى : « وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعا وكرها » . لأنها عملية لا خيار فيها . أما من زاوية الحقيقة الدينية ، فيعتبر الانســان فى مقام العبودية بمقتضى التكليف ، ولذلك يراه فى الحالة الأولى فى مقام العبودية بمعنى أنه معبد . أما فى حالة الحقيقة الدينية ، فالعبودية بمعنى أنه عابد . وفى هذا يفارق جميع الكائنات ، فتكون عبوديته طوعا ، وعبوديتها كرها . فالحرية تتمثل فى التحرر من جميع المعوقات عن الله ، وفى صدق الايمان به تعالى والتزام مدارات شريعته .

فهى من ثم نفس قانون الحركة المتوازنة حول محور ثابت ، غير أنها حركة ارادية ، هى قانون الارادة .

وفى هذا الاطار يتحرك الانسان فى جميع ميادين التعامل بين العديد من الحقوق والواجبات ليزاول أثناء مباشرته حقوقه استخلاص صفات الحق والخير فيها .. يستهدفهما دائما، وازالة صفات الشر والباطل عنها .. يستبعدهما دائما .. ونفس الأمر بالنسبة لمباشرته أداء واجباته وكأنه فى ذلك كله كالزارع يسقى النفخة الالهية فيه ويمدها بسرحياتها مصداق تشبيه الايمان فى قلب المؤمن بالبقلة تنمو حتى تصبح شجرة طيبة .

خطأ المفهوم الماركسى :

من ذلك يتضح خطأ وقصور مفهوم الحرية عند الماركسيين اذ اعتبروها مجرد تحرير الضروريات من أسر الطبيعة بالعلم ، أو من قبضة المستغلين ، وهو مفهوم ضيق مبنى على فهمهم المادى للوجود والانسان . وعندما وقف الرئيس الراحل بحلوان يندد بالطلبة والعمال الذين تظاهروا فى فبراير ١٩٦٨ مطالبين بالحرية ، وتساءل عن مضمون الحرية التى ينادى بها هؤلاء بعد أن وفر العمل للعامل والدراسة للطالب انما كان يصدر عن هذا الفهم المحدود للحرية . ومن قبل جرت مناقشة سطحية عن تعريف الحرية فى مباحثات الوحدة التى جرت فى القاهرة بحضور ميشيل عفلق يلزم مراجعتها على ضوء المفهوم الصحيح لأن من حق الأمة أن تعرف .

خطأ المفهوم الغربى :

كما يتضح أيضا خطأ وقصور مفهومها عند الرأسماليين أو المعسكر الغربى عامة ، حيث يطلقون كلمة حرية على كل انفلات من مدار الحق والخير ما دام يخدم رغباتهم ومصالحهم المادية ، ولو كان ذلك على حساب اظلام نفس الانسان وتدمير الجانب الربانى فيها ، طالما أن الفرد لا يسبب ضررا للآخرين ؟ ! .

وهو فهم خاطىء مصيره الى تدمير النفس وتدمير الآخرين كذلك لأن الخلية المريضة لا يقتصر مرضها عليها ، فشرب الخمر فى مفهومهم حرية ، والزنا مع البالغة برضاها حرية ، والاستغلال حرية .. الى آخر سلسلة التفلتات ..

وخطأ الفهم هذا قد جر الى خطأ الاستعمال ..

* وفى ضوء المفهوم الصحيح يلزم استعمال كلمة ــ حق العقيدة ــ بل حرية العقيدة وحق التعبير بدل حرية التعبير ، وحق الاجتماع بدل حرية الاجتماع ، وحق التنقل بدل حرية التنقل .. وهكذا فاذا أحسن الانسان مباشرة هذه الحقوق واستهدف الحق والخير فيها بموازين الرسالات

السماوية وغايتها ، صار حرا ، والا ظل عبدا لغيره من الأشياء والأشخاص والأوضاع .

* فالرسالات السماوية وحدها هى التى تحقق الحرية الحقيقية للناس جميعا بتخليصهم من عبادة العباد الى عبادة الله ؛ ومن جور الحكام الى عدل الاسلام ، ومن ضيق الدنيا الى سعة الآخرة ، كما قال خالد بن الوليد فى رسالته الى ملوك الفرس ..

من الحر ؟

* ومن ثم فالمسلم هو صاحب الحق الوحيد فى وصفه بالحر ، ولو كان فى سجن حرم فيه بعض الحقوق ؛ وغير المسلم هو العبد ولو كان خارج الأسوار فى متناوله جميع الحقوق والواجبات ، لأن الأول يحسن ادارة واستخدام ما تبقى له من حقوق وما فى مكنته من واجبات فى داخل الأسوار ؛ والثانى أعجز عن استخلاص الحق والخير الموصلين الى الله تعالى فى حركته المنتكسة لأنه أسير القيود أو الشهوات ، فلا تنتهى اضطراباته ولا تتحقق سعادته برغم اتساع الفرص أمامه من حقوق وواجبات .

وتترجم أبيات الشهيد القاضى محمد محمود الزبيرى هذه الحقيقة فى قوله :

خذوا كل دنياكم واتركوا — فؤادى حرا وحيدا غريبا
فانى أعظمكم دولة — وان خلتمونى طريدا سليبا

وتكمن عظمة الشهادة فى سبيل الله فى أنها تتوج سلسلة الاختيار الراشد فى حياة المؤمن باختياره للموت كذلك .. وكانت الفطرة السليمة لدى العرب تنفر من الموت على الفراش ويعتبرونه موتا فيه ارغام ، وليس فيه اختيار ، ولذلك يقول شاعرهم — وما مات منا سيد حتف أنفه — فكيف وقد جعل الاسلام لهذا الاختيار مستوى جديدا ايمانيا ...

مفهوم السعادة :

بما سبق يتضح أن السعادة ليست فى اشباع الرغبات وان كان تحقيقها واجبا ومسلما لغيرها من الاحتياجات الانسانية . تلك الاحتياجات التى تبدأ باحتياجات الجسم وتكتمل باحتياجات الروح المتمثلة فى الدوران فى مداره الحق والخير الموصلين الى الله تعالى ، حيث تسكن النفس البشرية وتخلو من القلق والصراع المتخلف من ضياع مركز التوازن حين تجد الفطرة فاطرها وتعرف هذه الجزيرة الصغيرة ـ كما يقول اقبال ـ أنها موصولة بحياة أوسع .. وقد أصاب الامام الجليل ابن القيم فى تصوير هذه الخاتمة النفسية فى قوله : « ففى القلب شعث لا يلمه الا الاقبال على الله ، وفيه وحشة لا يزيلها الا الأنس به فى خلوته ، وفيه حزن لا يذهبه الا السرور بمعرفته وصدق معاملته ، وفيه قلق لا يسكنه الا الاجتماع عليه والفرار منه اليه ، وفيه نيران حسرات لا يطفئها الا الرضى بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك الى وقت لقائه .. وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه .. وفيه فاقة لا يسدها الا محبته والأنابة اليه ودوام ذكره وصدق الاخلاص له ، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الخلة أبدا ... فالتفرق يوقع وحشة الحجاب ، وألمه أشد من ألم العذاب » (١)

وأن يكون للسعادة مفهوم بعد ذلك الكلام القيم فهى فى ازالة الشعث وازالة الوحشة ونفى الحزن ونفى القلق واطفاء نيران الحسرات وسد الفاقة ... وقد أرجع ابن القيم سبب ذلك كله الى وقوع التفرق أى البعد عن الله وفى عبارة بسيطة نقول : ان السعادة هى فى تحقيق الانسان لقانونه حيث يبلغ عندئذ الاستقرار وتصبح نفسه بحق نفسا مطمئنة .

بيئة الاختيار :

لقد بان لنا ضرورة أن تكون بيئة الرسالات السماوية هى بيئة الاختيار فى جميع ميادين التعامل ، حتى يستطيع الانسان المكلف أن يسأل وهو يزاول حقوقه وواجباته عن اختيار مدارات الحق والخير فيها ، فيحقق قانونه ويكرم

---

(١) مدارج السالكين جـ٣ ص١٦٤ .

ذاته ، أو يسأل عن اختيارات مدارات الشر والباطل فيها فيستوجب العقاب . وهل استطاع العروج الى الله تعالى علما وحالا من خلال حركته أم تفرقت به السبل ...

وكانت الشريعة الاسلامية هى ثوب هذه البيئة القشيب ، وكان من أهم خصائصها أنها شريعة الاختيار فاستوعبت بذلك فطرة الله التى فطر الناس عليها ..

* ولكن كيف نضمن دوام توافر الاختيار على مدار الشريعة فيما جعل الله الخيرة فيه ؟ !

أين مركز الضمان الظاهر والمعول عليه ـ بعد الايمان ـ فى ثبات صبغة الاختيار فى جميع ميادين التعامل ؟ !

أين الأداة الرئيسية التى تعتبر مسؤولة عن بقاء الاختيار أو زواله ؟ !

هذا ما نستوضحه فى الحلقة القادمة ان شاء الله .

الحلقة السابعة عشر

أداة الاختيار " الملكية "

لكى يتمكن المسلم الراشد من الاختيار الراشد يلزمه أولا أن يكون على قيد الحياة ، وذلك بأن تتوفر له ضروريات الحياة .. ولم يتفق العلماء على تحديد هذه الضروريات ، وقد تعرض الدكتور عيسى عبده فى محاضراته التى ألقاها بمعهد الدراسات الاسلامية لنماذج من محاولات العلماء المتكررة التى لم تسفر عن اجماع .. ولكن هدى الكتاب والسنة قد أعاننا على هذا التحديد بأن حصراها فى أربعة : المأكل والملبس ، والمشرب والمأوى .. وذلك فى قوله تعالى : « ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » .. وفى السنة عندما جاء ذكر قوله تعالى : « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » فى مجلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه أبو بكر وعمر وأبى عسيب قالوا : يارسول الله عن أى نعيم نسأل ؟ وانما هما الأسودان الماء والتمر ، وسيوفنا على رقابنا والعدو حاضر .. وفى رواية أئنا لمسؤلون عن هذا يوم القيامة ، قال : « نعم الا من ثلاثة : خرقة لف بها الرجل عورته ، أو كسرة سد بها جوعته ، أو جحر يدخل فيه من الحر والقر » .

* فما السبيل بعد هذا التحديد الى الحصول على هذه الضروريات قبل أى نعيم ؟؟

* السبيل الى ذلك هو الحصول على نصيب من الثروة القومية ..

* ولنفرض لسهولة التحليل أن الفرد حصل على نصيبه فى صورة عينية أى حصل على قدر من الحبوب واللحوم والأقطان والثمار .. فكيف يتصرف فيها ؟ !

وما هى التصرفات التى تسبق غيرها أو تتقدمها فى سبيل اشباع حاجاته الضرورية جميعها ، ثم فى الانتقال من دائرة الضروريات الى دوائر النعيم حيث مجال المسؤوليات أوسع وحيث مجال التفاضل أكبر ..

* لا يخرج نشاط الفرد على هــذا النصيب من الثروة عن ثلاثة أمور متتالية سميت لذلك ثلاثة حقوق ..

الحق الأول : حق الاستعمال :

وهو حق مالى ترتبط به علاقات اجتماعية كثيرة .. فان كان الفرد مختارا فى الاستعمال كان قادرا على الاختيار فى كل ما يتعلق بهذا الاستعمال من مدارات انسانية .. وان كان ثمة قيد على الاستعمال فيجب أن يكون من الله وحده الذى يحل ويحرم ، ولا يترك تقدير هذه الأمــور للبشر ، والا غلبتهم أهواءهم وجهالاتهم ، فيحرمون زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، أو يقولون هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، أو يقولون ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء ، أو يأتونه بأى شكل حديث من اشكال القيود والتحريمات من نتاج العصر فى أى شكل من أشكال الاستعمال لأى نوع من أنواع الثروة يؤدى بدوره الى القيود والفوارق الاجتماعية وقد ذكر ابن تيميــة .. فى كتــاب : « عقيــدة أهل السنة » أن أنواع المحرمات فى بنى اسرائيل قد تجاوزت المائة ..

وبهذا تبهت صيغة الاختيار فى هــذا النوع من الحقوق ، وتتعثر ارادة الانسان وتصطدم أو تستسلم فتفسح الطريق أمام الأغلال والأثقال التى تقطع حياة الناس من بارئهم ..

ثانيا : حق التصرف :

وهو نتيجة طبيعيــة للحق الأول لأن كل فرد لا يحسن بالفعل جميع الاستعمالات ، فزيد من الناس مثلا لا يستطيع بمفرده أن يقوم بغزل القطن وصنع الثوب وصبغه ، ولا يمكنه طحن الغلال وخبزها ولا القيام بأعمــال

الجزارة .. والمرأة بفطرتها أقدر على أنواع معينة من الأعمال .. لذلك فقد اقتضت حكمة الله توزيع المواهب والاستعدادات لكى تحدث الصلة بين الناس ابتداء من الأسرة وانتهاء بمؤسسات الدولة ، لأنه لو تساوت مواهب الناس جميعا وتكافأت استعداداتهم واتسع الوقت والجهد أمام كل فرد لاشباع حاجاته بنفسه ـ على فرض خلو النفوس من الأهواء ـ لاستغنى كل انسان عن أخيه ، ولتقطعت الروابط ، ولبطلت مع هذه الحال حكمة الاختيار ، ولتغير نطاق التكليف ..

فأنا أعطى نصيبى من القطن لمن يتخصص فى صناعة الغزل والنسيج ، وأقوم أنا بعمل ما أحسنه من أعمال الزراعة أو النجارة مثلا ، ويبدأ تداول المنافع بالبيع والشراء الذى هدفه النهائى تسهيل دور الاستعمال ..

وعمليات تبادل المنافع هذه تسمى بحق التصرف ، أى التصرف فى جزء من نصيبى من الثروة بالبيع أو الشراء أو الهبة أو الوصية ..

* ومن هنا فقد عرفت البشرية ظاهرة تقسيم الأعمال منذ بدء الخليقة .

* ويلزم فى مزاولة هذا الحق ، وفى حل وتحريم التصرفات التنبيه الى أن الله تعالى هو وحده الذى يرشدنا الى الحلال والحرام فيها بواسطة رسله ، والا غلبت علينا أهواؤنا وجهالاتنا على كافة مستويات المسئولية ، من مسئول عن أسرة الى مسئول عن أمة فتملأ حياتنا بالأغلال والقيود .. وما صور جميع البيوع الربوية ولا صور جميع التشريعات الطبقية ولا صور الاستغلال الرأسمالية منا ببعيد .

* ويلزم كذلك أن تظل صبغة الاختيار ملازمة لهذا الحق ، لأنها تدفع الى القدرة على الاختيار فيما يتعلق به من علاقات اجتماعية ، ثم الى القدرة على الاختيار فى حق الاستعمال وتوابعه الاجتماعية أيضا .

ثالثا : حق الاستثمار أو التنمية :

وهو حصيلة الحق الثانى ونتاج طبيعى له ، اذ هو الثمرة الجديدة لحالة النمو التى حصلت بالفعل من خلال حركة التصرف .

* ولكننا هنا أمام حالة جديدة وحق من نوع خاص ، فالانسان بتقرير حقه فى الثمار يصير صاحب سلطة جديدة يملك مفتاحها .. فكلما زادت ثمرات النمو كلما اتسعت مدارات حركته وتقدمت فى مجالات التصرف والاستعمال ، وبالتالى فيما يحيط بهما من نشاطات انسانية ..

وحيث أن بيئة الرسالات السماوية هى بيئة التنافس فى الخيرات والمسابقة والمسارعة فى الخير : « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » . « وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » ... « والسابقون السابقون ، أولئك المقربون » .

وحيث أن بيئة الرسالات السماوية هى بيئة تكريم الفرد بتحقيق عبوديته لله وتحريره من كل قيود الشر والباطل ... « فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » لذلك وجب تمكين الفرد بل كل فرد من حق الاستثمار ، يعنى تمكينه من سلطة تسهل له خوض ميدان التنافس وتوسع له من ارتياداته بحيث يصير كل فرد خلية حية أو وحدة متحركة على طريق مفتوح ليس فيه الا اشارات المرور ، وله وحدة قيادة حركته أو مسؤولية قيادته التى يملك مفتاح سرعتها ..

والمهم هو ضبط هذه الحركة ، أى ضبط حركة كل الوحدات المتنافسة المتسابقة حتى لا تتصادم ، وحتى لا يطغى بعضها على بعض .. والتسابق فى هذا اللون الفريد من البيئات هو تسابق أخلاقى فى الدرجة الأولى من خلال الأطر المادية ، مما قد يعطى التضحية المادية فى بعض المواقف قيمة أخلاقية متفوقة . فحاجة الوحدات المتحركة فقط هى الى منظم للحركة لا متسلط عليها .

حاجتها الى شرطى مرور متحكم ، حاجتها الى قاسم لا يعطى ولا يمنع وانما يضع حيث أمر الله كما أعلمنا رسول الهدى .

مفهوم الملكية ودورها :

* اذن لابد من تمتع كل فرد بهذه الحقوق الثلاثة على نصيبه من الثروة القومية لتتم صبغة الاختيار فى جميع ميادين التعامل .. هذه الحقوق الثلاثة .. حق الاستعمال ، حق التصرف ، حق الاستثمار هى عناصر الملكية الخاصة .. فالملكية بهذا المفهوم أساسية فى توفير الاختيار على مدار النشاط المالى ، وبالتالى على مدار الحياة الاجتماعية .. فهى من ثم أداة الاختيار ولو شئنا لقلنا أنها بهذا المفهوم تمثل الارادة المادية فى مواجهة الظروف الخارجية ، وهى أولا وأخيرا فى قبضة الارادة النفسية التى ينبتها ويحركها الايمان السليم .. ولا ثمر فى فروع الشجر المنتشرة فى الهواء اذا بترت عن جذورها .. أليس ان الصلاة مقرونة بالزكاة دائما بل ومتقدمة عليها ..

وعلى هذا الضوء اذا كان فى جيبك جنيه واحد ولكن لك عليه الحقوق الثلاثة فأنت تملك أداة الاختيار .. واذا كان معك مائة جنيه ليس لك عليها حق من هذه الحقوق الثلاثة فأنت مجرد حامل لمبلغ من المال لا يوفر لك القدرة على الاختيار ، مثلك مثل محفظة الصراف تماما أو مثل الخزانة الحديدية على أحسن الفروض ..

واذا كان لك على هذا المال بعض الحقوق كالاستعمال أو التصرف فأنت محدود فى اختياراتك بسلطة من له حق الاستثمار أو التنمية لأنه يملك مفتاح الزيادة والنقصان بل والمنع ان شاء كهذين الحقين ..

واذا كان لك حق الاستثمار أو التنمية كان لك تلقائيا الحقان الآخران ، ولذلك يسمى حق الاستثمار بحق الرقبة لأنه مفتاح التضييق والتوسعة بل والخنق للحقين الآخرين ..

* لذلك كله وجب تمكين كل فرد من هذه الحقوق الثلاثة على أى نصيب له من الثروة فى صور من صور الدخل ان أردنا أن نحتفظ للأفراد بمسؤوليتهم كاملة ونجعلهم على مستوى التكليف ، اللهم الا من لا يكون لهم سوى بعض الحقوق بحكم ظروفهم الواقعية أو القانونية كالأطفال

والمجانين الذين لا يملكون الا حق الاستعمال ·· والوكيل والوصى والقيم الذين لا يملكون الا حق التصرف ··

أما الذى يملك حق الاستثمار فهو يملك تلقائيا الحقين الآخرين وهو مستوى كمال السلطة ·

الاقطاع الحديث :

* أما اذا أخذت الحكومة على عاتقها أمر هذه التنمية أو الاستثمار خروجا على دورها الوظيفى المنضبط الذى سنبينه بعد ، مدعية أنها فى ذلك تنوب عن المجتمع فى الانتاج وفى توزيع الأنصبة من الثروة على الأفراد فى صورة عينية أو نقدية ، كلما نفدت عادوا اليها لتعطيهم من جديد ، محرمة عليهم مجالات الحركة الا فى مجال الاستهلاك كما هو واقع البلاد الاشتراكية الماركسية ، اذا فعلت الحكومة ذلك فانها تقضى بذلك على صبغة الاختيار فى المجتمع بكل نتائجه الانسانية ؛ لأن الحكومة أصبحت هى المختار الوحيد الذى ينشر الجبر والاضطرار فى حياة الناس لمصلحة اختيارها هى فقط أى لمصلحة قلة من الأفراد مهما صدقت نواياهم ·· ومن ثم فان ما يتسلمه الفرد من الثروة لا يعطيه صفة المالك مهما كبرت قيمته ، وهى صور شبيهة بما كان يحدث فى عصور الاقطاع بأوروبا حيث كان الرقيق والعبيد يمنحون من أسيادهم قدرا من الثروة يقيم حياتهم من خلال أنواع كثيرة من القيود الاجتماعية ، وهل كانت علة هذه النظم العبودية الا أنها أعطت فريقا من الأسياد سلطة التحكم فى أرزاق وحريات الآخرين ·· ولن يغير من هذه العبودية أن يرتفع نصيب الفرد من الثروة التى لا يملك سوى استخدامها فى الاستهلاك ··

خداع الألفاظ :

* ومن التعبيرات الخاطئة والخادعة القول بأن الاشتراكية أى المشاركة فى الثروة هى الحرية الاجتماعية ·· وواضح مما ذكرنا آنفا ان الاشتراك فى الثروة هو مفهوم العدالة على أحسن الفروض ·· ولكن العدالة

المادية لا تعنى الحرية بمعنى القدرة على الاختيار الراشد وانما سبيل ذلك هو التشريع الذى يحيط بهذا النصيب من الثروة بحيث يكون لكل فرد على نصيبه الحقوق الثلاثة : حق الاستعمال ، وحق التصرف ، وحق الاستثمار ، من خلال ضوابط الحل والتحريم والاختيار حتى لا يعبّد الانسان لأى سلطة الا الله وحده ، ومن ثم فان ما يسمى فى تلك البلاد القهرية « بالملكية » كمزرعة الفلاح الخاصة الملحقة بالمزارع الجماعية ، أو كمبلغ العامل المدخر بالبنوك لا يعتبر فى جوهره ملكية بالمعنى الصحيح لأنها عاجزة عن منح حائزها مجالاته الحيوية من الاختيار والتى تجعله على نفس مستوى التكليف مع كل فرد فى الأمة ، ومن ثم فهو لم يتخلص من ربقة العبودية للسلطة الحاكمة وتسمية هذه الحيازات بالملكية مجرد خداع لفظى .

انواع السلطة :

* يعيب الشيوعيون على الملكية أنها نفوذ اجتماعى تسبب الاستغلال فمن يملك يستغل ، ومن هنا كانت مطالبتهم بالغاء كل صور الملكية الخاصة ووضع هذا النفوذ الاجتماعى فى يد المجتمع وسحبه من الأفراد .

وهم معذورون من وجه ومخطئون من وجه آخر ، ذلك أن كل صور الملكية الاقطاعية والرأسمالية التى عرفوها تقوم على أبشع صور الاستغلال فعلا ، ولكن الخطأ أن يخرجوا من ذلك بحكم عاطفى غير مبنى على عقيدة سليمة ولا فهم سليم للانسان ، ولا شمول فى استقراء التاريخ . فكان هذا الموقف الانتقائى كما سبق أن أشرنا .

والسوء لا يكمن فى الملكية من حيث هى سلطة مادية ، بل فى طريقة استخدامها فى غيبة التشريعات الحكيمة التى تحقق مركز التوازن فى الحركة.

ومن الأفضل استعمال كلمة السلطة بدل النفوذ ، وقد وردت هذه الكلمة ومشتقاتها فى ٣٨ آية من القرآن الكريم للدلالة على كل أنواع القدرة المالية ، والعلمية والادارية ، والبيانية .. الخ . فتطالعنا الآيات

الكريمة باستعمالات شتى فى قوله تعالى : « ولو شاء الله لسلطهم عليكم .. » ، وقوله : « ان عندكم من سلطان بهذا » ، وقوله : « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » ، وقوله « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما » ، « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا » . وهكذا ..

* فليست الملكية أو بمعنى أقرب ، فليس المال هو مجال السلطة الوحيد ، بل ان مجالات السلطة كثيرة ، وكلها تمكن صاحبها من استغلال الآخرين اذا انحرف بها عن مدارها السليم .

فالمال سلطة ، والعلم أخطر أنواع السلطة ، والمركز الاجتماعى سلطة ، والموهبة سلطة ، والعائلة سلطة ، والجمال سلطة (قصة يوسف عليه السلام) ، والبلاغة سلطة ، والدين سلطة ، وما أكثر ما شهدت الأرض من صراعات بسبب سوء استخدام أنواع هذه السلطات ، والمهم كيف توضع الضوابط الأخلاقية والتشريعية لحركة هذه السلطات حتى لا يعيش المجتمع فى عذاب كل صور الاستغلال ، وما المال الا واحدة منها .. وما أكثر ما عانت شعوب من استغلال وقهر على يد أناس لا يملكون الا سلطة مراكزهم .

أين يكمن الخطر :

* واذا كان الخطر ليس فى مبدأ تملك أى نوع من أنواع السلطة ، وانما هو فى سوء استخدامه ، فكذلك لا يكمن الخطر فى مآل الملكية الخاصة الى الملكية العامة ، أى ملكية الدولة نيابة عن المجتمع فى الحالات الاستثنائية اذا ما كانت هذه السلطة الضخمة فى اطار الرسالة السماوية تربية وتشريعا ، مثلما حدث فى تاريخ الأرض الخراجية الذى سنوضحة فيما بعد .

فالانسان فى ظل الهدى السماوى قادر دائما على حسن مباشرة هذه السلطات سواء أكانت المباشرة من جانب الأفراد ، أو من جانب الحكومة من خلال ما هو أصل وما هو استثناء بشروطه ، أما عندما يحرم الانسان

من هذه الهداية فان الواقع المادى هو الذى يشكل تصرفاته التى لا تسلم من الضعف والانحراف •

كذلك كان سحرة فرعون قبل الايمان بموسى أذلة يرجون أجرا وقربا من فرعون ، فلما آمنوا انقلبوا الى شيء غريب أعظم من كل ما على وجه الأرض من اغراء أو تهديد •

* ومن تم فالملكية بكل عناصرها الثلاثة من استعمال وتصرف واستثمار هى أداة الاختيار فى ظل مجتمع توفر فيه عنصر التربية الربانية والهدى الربانى فى التشريع ، واذا حدث انفصام بين هذين الأمرين ، العقيدة والتشريع ضعف الانسان أو طغى بالسلطات التى وفرها له التشريع ، وفى الحالين تزول عن تصرفاته صبغة الاختيار الرشيد •

تبريرات ضعيفة :

* فالملكية اذن بمفهومها السليم وبضمان حركتها هى أداة الاختيار ، وهى العمود الفقرى لأغلب التشريعات الاجتماعية والسياسية •

أما تبرير أهمية الملكية بأنها حافز على الانتاج ، أو بأنها انصياع لغريزة حب التملك ، فهى تبريرات على ما فيها من صواب ضعيفة ، ولا تعتبر سببا مقنعا ، ولكن كيف نوفر أداة الاختيار للشيخ والمريض والمرأة وطالب العلم ليظلوا على نفس مستوى التكليف ؟ !

الحَلقة الثامِنة عَشَر

أنواع الـثروة " صوَر الدّخوَل"

* لقد بان لنا الدور الذى تؤديه الملكية بمفهومها الصحيح فى توفير صبغة الاختيار على مدار المجتمع ، وأنهـا هى أداة كل فرد فى مبـاشرته لهذا الاختيار .

* وبان لنا أن أبرز صور الدخول هى : (١) عائد العمل (٢) عائد رأس المال (الربح) فالانسان ينمى ثروته بعمله المباشر فيها أو عن طريق المشاركة بها مع عمـل الغير ، وفى هذه الحالة يكون له الحق فى عائد رأسماله فى المشاركة ..

فهل هناك ضرورة اجتماعية لاباحة هذا اللون الأخير من الدخل الذى لا ينتج من العمل مباشرة ؟

وهل هو عائد مشروع أم سرقة واغتصاب كما يراه الماركسيون من خلال تحليلات ماركس للقيمة ؟

ضرورة اباحة الربح :

* نعم : هناك ضرورة اجتماعية لاباحة الربح .. ضرورة يوجبها مفهوم التكليف ومداه فى بيئة الرسالات السماوية ..

آية ذلك أن هناك حالات يتقلب فيها الناس جميعا ، ولا يخلو منها كل بيت .. ان لم يكن كل فرد .. فطالب العلم ، والشيخ ، والمريض ، والمرأة والطفل حتى يكبر والمتفرغ لهدف أو رسالة انسانية ومن على هذا الشكل

ممن لا يكون العمل فى مقدورهم بصفة مؤقتة اختيارا أو اضطرارا ..
أو لا يكون فى مقدورهم بصفة دائمة اضطرارا ..

* كيف نجعل هؤلاء لا يقعون فى قبضة انسان آخر أو فى أسر سلطانه حتى يعبروا ظروفهم ؟!

* كيف يظلون فى حماية الشريعة وحدها قادرين على الاختيار دائما على نفس مستوى التكليف الذى عليه القادر أو الراغب فى العمل المنتج ؟!

* ومن ثم كيف يلزم مواجهة هذه الضرورات الاجتماعية مواجهة تتسم بالحكمة بدوام ابقائهم على نفس مستوى التكليف وعلى نفس مستوى القدرة على خوض ميدان المنافسة والاختيار ؟!

* ان الاسلام لم يرفع التكليف عن طالب العلم حتى يتعلم اذا لم يترك له تحصيل العلم وقتا للعمل ، والاسلام لم يرفع التكليف عن المرأة لأنه حبب اليها العمل فى البيت اذا أشغلتها رعاية الأسرة فلم تترك لها وقتا للعمل بالخارج .. ولم يرفع الاسلام التكليف عن الفرد اذا هرم وضعف عن العمل بيده ، ولا عن المريض حتى يشفى من مرضه ، ولا عن القائم برسالة من تعليم وقضاء وجهاد اذا صرفتهم هذه الأعمال عن العمل بأيديهم .. وهكذا .. فوجب اذن تسليح هؤلاء وهؤلاء بنفس السلطة التى تكون فى يد القادر على العمل المباشر حتى يتساووا معهم فى المسئولية عن التكليف ..

لذلك فقد أباح الشارع الحكيم الدخول عن طريق عائد رأس المال (الربح) ليستطيع صاحب رأس المال أن يشارك فى الانتاج وأن ينميه بطريق المشاركة ليستخدم عائده فى توسيع مجالات التصرف والاستعمال من خلال صبغة الاختيار ، فيظل له نفس القدرة على الاختيار ويظل سيد ظروفه وآماله .

الدخول تتفاضل :

* لا شك فى أن الدخل عن طريق الربح حالة أدنى من صورة الدخل عن طريق العمل الذى حبب فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وزكاه ..

ولكنها الضرورات الاجتماعية التى يجب مواجهتها بمنطق الاختيار .. ثم ان هذه الظروف تمر علينا جميعا فى مراحل حياتنا المختلفة .. الأمر الذى لا يخلو منه كل بيت ان لم يكن كل فرد ..

* ولو دققنا لوجدنا أن هناك كثيرا من التجاوز فى النظر الى أصحاب هذه الظروف نظرة ارتياب الى انتاجية عملهم ، فعملهم فى ميدان الخدمات أو فى ميدان العلم هو فى حقيقته عمل منتج على نفس مستوى العمل المباشر .. وقد عدلت روسيا أخيرا عن التفرقة الجائرة بين النوعين من العمل وساوت فى النظر بين جميع عمال المشروع الانتاجى من عمال وموظفين ..

ويبقى جانب تربوى هام — برغم كل ما يقال عن الضرورات الاجتماعية ومواجهتها — يستمده الانسان من عمل يده برغم حقه فى عائد رأسماله .. ولذلك كان سيدنا سلمان الفارسى عليه رضوان الله وهو أمير « المدائن » ينفق كل عطائه ويفضل عليه ما يأتيه من عمل يده فى صناعة الخوص .. وقد فطنت بعض الأحزاب الشيوعية الى مغزى العمل النفسى ، فألزمت أعضاءها بترك العمل السياسى والانخراط فى سلك العمل الزراعى أو الصناعى ومعايشة الواقع مدة لا تقل عن سنتين حتى لا ينفصلوا شعوريا عن واقع مجتمعهم .

وبهذا تنضبط نظرتنا الى الربح كصورة من صور الدخول ، له وظيفة اجتماعية فى الدرجة الأولى قبل أى اعتبارات اقتصادية .

الكسب الحلال :

* ومن هنا كانت حكمة الاسلام فى اباحة صور أخرى من الدخول أدنى من صورتى عائد العمل وعائد رأس المال ، لم يشترك الفرد فى جلبها بعمل ذاته (عضليا أو ذهنيا) أو بعمل رأسماله : مثل الميراث والوصية، والوقف، والهبة والزكاة والصدقات والكنوز ، وأعطى لها وللدخول السابقة عنوانا عاما هو الكسب الحلال .

* والمشكلة - بعد اتضاح الضرورة الاجتماعية فى اباحة الربح - تكمن فى كيفية ضبط عائد رأس المال حتى يكون تقديره عادلا ومشروعا ، وليس سرقة ولا اغتصابا ، كما هو واقع الاستغلال الرأسمالى .

وهذا يجعل لنا تحليلنا الخاص للقيمة ، بعيدا عن المواقف المسبقة التى كانت وراء تحليل ماركس المعتسف تبريرا لوقفه العقيدى من الملكية .

قيمة التحليل :

* أما ما سبق أن أوضحناه فى الحلقة السابقة من مفهوم الملكية ودورها الصحيح فى بيئة الرسالات السماوية .. بيئة التكليف وشرطه الاختيار ، فيلزم تدعيمه بتحليل موضوع القيمة تحليلا أمينا لنرى مشروعية الربح من عدمه .. كما يلزم ضبط حركة المال بعد التحليل بجميع موازين الحركة فى الشريعة الاسلامية حتى يظل عائد العمل حلالا وعائد رأس المال حلالا ، فلا تختلط صورة الملكية الاسلامية بصورة الملكية الرأسمالية أو الاقطاعية من قريب أو بعيد على ما سنبين ..

* مع الاشارة السريعة الى أن الملكية الخاصة الاسلامية كأصل لا تمنع من قيام الملكية العامة كاستثناء ، وكحل من حلول الضرورة المنضبطة بالموازين الاسلامية التى تبعدها عن أى تشابه مع الماركسية فى النتائج كما سنبين ذلك أيضا .

نظرية الربح :

قبل عرضنا للتحليلات التى تؤكد مشروعية الربح بالضمانات اللازمة ، يلزم التعرض لما قاله ماركس أولا لتقييمه علميا لنرى هل تحققت حتمياته ؟ وما دلالة عدم تحققها ؟ وثانيا لنبرهن على عدم صحة المقدمات التى بنى عليها .

ماركس يرى أن للسلعة قيمتين : قيمة تبادلية ، وقيمة استعمالية ، وأن التبادل هو الذى يجعل العملية مربحة من حيث الكيف ، وان كانت متساوية من حيث الكم .. والكم هو مقدار وقت العمل الذى بذل فى انتاج

السلعة ، والعمل المنتج الذى يعتبره ماركس أساس القيمة ليس هو العمل الحقيقى ، أى ليس هو عدد ساعات العمل المبذولة ، لأنه بذلك يواجه اشكالا ، اذ تكون السلعة التى بذل فيها جهد ومشقة يلزم بالضرورة بيعها بثمن أكبر من السلعة التى أنتجت بالوسائل الفنية فى وقت أقل ، ولذلك يرى ماركس أن القيمة لا تعتمد على المجهود الذى يقاس بالوقت بل يقيسها فى حدود ما يسميه « بالعمل اللازم اجتماعيا » أى اللازم فى الظروف التكنيكية العادية للانتاج فى فترة معينة طبقا لمتوسط مهارة وجهد المنتج . فاذا قدر للاختراعات أن تخفض من هذا المعدل الزمنى فانه لابد أن تهبط القيمة بالتالى .

والفرق بين الجهد الفنى وغير الفنى ، والعقلى منه واليدوى ، فرق كمى لا كيفى مرجعه ما سبق أن أنفق من قوة العمل فى سبيل احالة الجهد الى فن . ولذلك فمن الممكن القول بأن العمل غير الفنى يمثل وحدة واحدة ، والعمل الفنى يمثل أكثر من وحدة ، وبهذا يمكن قياس ما فى الجهد الانسانى من قوة عاملة .

* ويعتبر ماركس أن عمل العامل هو وحده العمل المنتج ، وهو وحده أساس القيمة ، ويطلق عليه اصطلاح رأس المال المتغير ، أما رأس المال الثابت المتمثل فى الآلات والمبانى والمواد الخام فلا يدخل فى تكوين القيمة ، فهو لذلك يعتبر دور الرأسمالى والتاجر والمقرض كلها أدوار طفيلية لا تقوم بأى عمل منتج ، وبالتالى فهم يحصلون على دخول استغلالية كالربح والفائدة والريع . أما الدخل الوحيد المشروع عنده فهو دخل العامل الذى جاء مقابل عمله المنتج والمتمثل فيما يحصل عليه مقابل بيع السلع بمقدار ما بذل فيها من عمل .. ولكنه يرى أن الرأسمالى لا يعطى العامل قيمة عمله كاملا وانما يعطيه جزءا منه فى صورة أجر ويحتجز لنفسه بقية القيمة ، وهى التى يسميها « فائض القيمة » ويعتبرها اغتصابا . وهذه العملية الانتاجية الرأسمالية ستؤدى فى نظره الى ثلاثة قوانين حتمية فى تقويض النظام الرأسمالى ، هى :

١ ــ قانون تجميع رأس المال : يرى أن زيادة رأس المال الثابت ونقص رأس المال المتغير يؤدى الى نقص نسبة الربح ، لأن العمل أى « رأس المال المتغير » هو مصدر القيمة الوحيد عنده . والمنافسة القائمة تؤدى الى زيادة تشغيل الآلات التى توفر العمل ليضمن فائض قيمة نسبيا ، وبالتالى مزيدا من الربح ..

ويدلل ماركس رياضيا على أن رأس المال المتغير هو وحده أساس القيمة ، حتى أنه اذا حدثت ابتكارات أدت الى توفير العمل ، فان ذلك سيكون له نتيجة واحدة هى انخفاض فائض القيمة التى يحصل عليها الرأسمالى .. وكل ما هنالك أن المنتج الذى استخدم الابتكارات لأول مرة تكون لزيادة التركيب العضوى لرأس المال بالنسبة له نتائج تختلف عن آثارها فيما يتعلق بطبقة المنتجين عموما .. فهو ينتج كمية أكبر من السلع بنفقات أقل من متوسط النفقات السائد فى السوق ، ويبيعها بالثمن الذى ينبنى على نفقات المنتجين الآخرين ، ولهذا يحصل المنتج على دخل احتكارى يضاف الى فائض القيمة المستغل أولا .

ولكن سرعان ما تعمل المنافسة على تعميم وسيلة الانتاج الجديدة ، ومعنى ذلك أن تنخفض النفقات عموما لدى جميع المنتجين ويصبح كل منتج فى نفس حالة المنتج الأول فتنخفض الأسعار الى الحد الذى تباع فيه السلع بقيمة ما بذل فيها من عمل أى من رأس مال متغير .. ورأس المال المتغير قد نقص على مدار المجتمع لأن الاختراعات الجديدة وفرت القوة العاملة ، ومعنى ذلك لديه أن فائض القيمة الذى سيحصل عليه المنتجون سيقل .. ولذلك يقرر ماركس وجود قانون تميل نسبة الأرباح تبعا له الى الانخفاض نتيجة لزيادة التركيب العضوى لرأس المال وتنافس المشروعات والتقدم الفنى ..

٢ ــ قانون تركيز رأس المال : يرى ماركس أن المنافسة ستقضى على المنتج الصغير الى أن تتركز رؤوس الأموال فى أيدى قليل من المنتجين ، ويتحول هؤلاء المنتجون الصغار الذين قضت عليهم المنافسة الى اجراء ،

وهـذا مما يعمق الصراع بين طبقتى العمـال والرأسماليين ولذلك يقول ماركس : « ان رأسماليا واحدا يقتل كثيرين » .

٣ ـ قانون زيادة البؤس : والنتيجة أن البؤس يأخذ فى الازديـاد المستمر ، فكلما زاد رأس المال الثابت ، أى كلما زاد التركيب العضوى لرأس المال كلما كان ذلك على حساب طرد عدد جديد من العمال يضـافون الى « جيش الاحتياط الصناعى » ، وهذا يمكن صاحب العمل من زيـادة تخفيض الأجور ليحصـل على فائض قيمـة أكبر ، كما يلجأ الى مختلف وسـائل الاستغلال من نحو تشغيل العمـال ساعات أكثر أو استخـدام الصبيان والنساء ، أو البحث عن ابتكار جديد لتعـود نفس الكرة ، فكلما هبطت أرباحه نتيجة زيادة التركيب العضوى كلما لجأ الى مختلف الوسائل الاستغلالية والاحتكارية لتعويض هذا الهبوط ، والنتيجة مزيد من الثراء لطبقة الرأسماليين ، ومزيد من البؤس لطبقة العمال .

أما احتمال تجمع العمال فى نقابات تدافع عن حقوقهم وتوفر لهم شروطاً أفضل فى العمل . فلم ير ماركس أن ذلك سيكون له نتـائج جدية ، وانما هى محاولات يائسة ستتغلب عليها رغبة الرأسماليين النهمة فى الربح .. كما أن سلطات الدولة لن تكون الا فى جانب هؤلاء الرأسماليين ضد طبقة العمال ومحاولاتها . ولهـذا يقول ماركس : « ان التنـاقص المستمر فى عـدد الرأسماليين الذين يستغلون ويحتكرون جميع مميزات عملية التحويل هذه يقوم الى جانبه نمو فى البؤس الجماعى والاضطهاد والاستعبـاد والتحقير والاستغلال ، ولكن تنمو معه أيضا ثورة الطبقة العاملة ، وهى طبقة تتكاثر فى العدد على الدوام وينظمها ويوحدها النظام الآلى لعملية الانتاج الرأسمالى نفسه .

ويتكلم عن العامل ، فيقول انهم يعملون على تشويه العامل حتى يصير شبحا لانسان ويهبطون بسكانته الى مستوى تابع حقير للآلات ويقضون على ما تبقى له من لذة يشعر بها فى عمله ويحيلون حياته الى كد متواصل كريه الى نفسه .

ويتكلم عن الآلة باعتبارها عدوا للعامل ، فيقول : « ان الآلة أعظم سلاح لقمع اضراب العمال ، والاضراب أحد مظاهر الاحتجاج الذى يعلنه العمال بين آن وآخر ضد سيطرة الرأسماليين وأنها من بدء استعمالها خصم عنيد للعمال استطاع بها الرأسماليون أن يطأوا بأقدامهم كل مطلب من مطالب العمال التى تهدد بايجاد أزمة .

ويتكلم عن الملكية الرأسمالية فى الجزء الثانى من كتاب رأس المال ، ص ٢٢٣ — ص ٢٢٥ ، يقول : « ان الملكية الخاصة الرأسمالية المتولدة عن طريقة الانتاج الرأسمالية هى السلب الأول للملكية الخاصة القائمة على أساس العمل الفردى ، ولكن الانتاج الرأسمالى يلد بقوة القانون الطبيعى الذى لا يتغير القوة التى تسلبه أى تنفيه ، وهذا سلب السلب (نفى النفى) هذا السلب الثانى لا يؤدى الى عودة الملكية الخاصة ، ولكن يعيدها على أساس التعاون ، والملكية المشتركة للأرض وأدوات الانتاج التى ينتجها العمل نفسه . ان تحول الملكية الخاصة المبعثرة القائمة على العمل الفردى الى ملكية رأسمالية عملية أطول أمدا وأشد عنفا وأكثر صعوبة من تحويل الملكية الخاصة الرأسمالية الى ملكية اجتماعية .. كان الأمر فى الحالة الأولى متعلقا باستيلاء البعض على ملكية جمهور الناس . أما فى الحالة الأخيرة فالذى يعنينا هو الاستيلاء على تملك نفر قليل بواسطة جمهور الناس .. » .

نبذة تاريخية :

* هذه هى نظرية القيمة بكل متعلقاتها ونتائجها لدى ماركس .. وقبل التعرض لجوانبها نقدم للموضوع بنبذة تاريخية لهذه النظرية ليكون القارىء ملما بظروف نشأتها ..

* لقد شاعت نظرية « العمل أساس القيمة » فى مطلع القرن التاسع عشر فى كتابات رواد علم الاقتصاد الأوائل حيث قال بها آدم سميث فى كتابه ثروة الأمم ، وكان لوك أول من وضع الخطوط العريضة لهذه النظرية ، ومن بعدهما جاء ريكاردو الذى تأثر به ماركس ، وكانت هذه النظرية تجد مبررها

من طبيعة اقتصاديات هذه الفترة حيث كانت تسود حالة المنتج المستقل سواء فى الزراعة أم فى الصناعة وهو يعمل بنفسه ثم يبيع انتاجه فى السوق مباشرة ، ومن هنا نجد ان الاقتصاديين التقليديين وفى مقدمتهم آدم سميث وريكاردو قد بنوا تحليلاتهم على أساس الافتراض بأن التنافس بين المنتجين شيء صحيح ، وأن الاحتكار غير قائم حيث تسود المساواة التامة بين المتعاملين بحيث أن ما تحصل عليه كل طبقة هو ما تستحقه من أجر فعلا ، لأن السلع تميل الى أن تباع بقيمة ما بذل فيها من عمل .

ولقد نشر ريكاردو كتابه المبادىء سنة ١٨١٧ وبين أن تبادل السلع يتم على أساس كمية العمل المبذول فى انتاج السلع ، أى على أساس ساعات العمل التى استغرقها اعداد السلع ، ولما كان العمل نفسه سلعة فان ثمنه يقدر على أساس عدد ساعات العمل اللازمة لاعالة العامل والابقاء على نسله دون زيادة أو نقص ، وهو ما يسمى بحد الكفاف ، أما تحديد نوع الغذاء الكافى لاعالة العامل خلال الساعات التى تكفى لتوفيرها له فيرى ريكاردو أن العرف والعادة يساعدان على تحديد ما هو ضرورى فى ذلك ، ولكن العرف والعادة متغيران وليسا ثابتين ، فما يكفى العامل اليوم قد لا يكفيه فىظروف أخرى ، ومن هنا قصرت النظرية عن اعطاء الاجابة على مدار المدة الطويلة لأن تغير العرف والعادة يعدل المستوى اللازم للاعالة أى أن حد الكفاف نسبى ومتطور ، الا أن ريكاردو لم يكن يهتم بهذا التغيير لأنه كان ينظر الى أن قانون السكان أى الميل المستمر الى التكاثر يؤدى دائما الى الضغط على مستوى المعيشة الى أن يصل الى أدنى مستوى للحياة حتى لو سجل مستوى الأجور صعودا فى فترة ما فانه لن يلبث أن يتراجع . والعمل المنتج من وجهة نظر ريكاردو هو العمل المباشر كعمل العامل ، وغير المباشر كالتاجر والرأسمالى والمقرض ، أما مالك الأرض فلا يراه يقوم بأى عمل منتج بل يعتبر ملاك الأرض عناصر سالبة لأنها تستهلك دخلها فى الانفاق على الترف والملذات وقلما تتجه به الى الانتاج ، ولذلك نراه يحمل على ريع الأرض ويعتبره دخلا غير مشروع يحصل عليه مالك الأرض دون مقابل ، بينما نراه يعتبر أجر العامل وربح الرأسمالى وفائدة المقرض دخولا

مشروعة مقابل عمل منتج .. فريكاردو قد نظر الى المشكلة من زاوية الانتاج ، بينما نظر اليها ماركس من زاوية التوزيع ، فنجده يرفض الربح والريع والفائدة ويعتبرها جميعا دخولا استغلالية تكونت نتيجة عدم العدالة فى توزيع القيمة التى أنتجها العامل والتى هى من حقه وحده ، ولكن هذه العناصر المستغلة تقاسمتها معه ..

* بعد هذه النبذة التاريخية نأتى على دراسة الواقع لنرى هل صدقت تنبؤات ماركس وهل تحققت حتمياته مما يفتح لنا الطريق أمام دراسة أساس القيمة من زاوية جديدة ، تعطينا أساسا مشروعا لنظرية الربح مغايرا لأسلوب الاستغلال الرأسمالى ولرد فعله الماركسى الذى أنكر الربح كلية مما نأى بالطرفين عن الصواب ..

الحلقة التاسعة عشر

حتميات ماركس تنهار أمام الواقع والتجربة

متى يصبح الربح حقا لا سرقة واغتصابا ؟ .

١ ــ أما عن قانون تجميع رأس المال الذى دلل به ماركس على أن رأس المال المتغير (العمل) هو وحده أساس القيمة وأن نقصه نتيجة الابتكارات الجديدة يؤدى الى نقص نسبة الربح على مدار المجتمع ، فتظهر مختلف الطرق الاستغلالية لتعويض نقص الأرباح ، فيشتد الصراع ويسرع المجتمع الى نهايته المحتومة .. هذا الاستنتاج منبثق من تصور سلبية الارادة الانسانية وسيادة الظروف المادية امتدادا لعقيدة المادية الجدلية التى جهلت قدرات الانسان .. وقد كان الانسان بواقعه الحالى قادرا على تفادى النهايات الحتمية التى تنبأ بها ماركس ، فعندما خيم شبحها على بعض المجتمعات نشطت الارادة الانسانية لوضع شروط أفضل للعمل ولسن مختلف التشريعات الاقتصادية والاجتماعية ، وأصبحنا نرى أمثلة لدول بلغت شأوا بعيدا فى تجميع رأس المال مثل ألمانيا ودول اسكندناوه ومع ذلك لم يتحقق ظهور الأشباح التى أكد ماركس ملازمتها لهذا التجميع من نحو انخفاض الأرباح وطرد العمال ، بل ان حاجة هذه البلاد الى الأيادى العاملة ما زال قائما ، والاقتصاد الألمانى بحاجة الى ٢ مليون عامل وهى ظاهرة لها دلالتها وليست ضائعة الأثر مهما تذرعنا بظروف هذه البلاد الخاصة ، الا أنها مؤشر لامكانية ظهور واقع جديد خارج عن نطاق الحتمية التى يراها ماركس ، ويبقى على الارادة الانسانية أن تضع أفضل الظروف الاجتماعية والسياسية لهذا النموذج الاقتصادى وهى لن تبلغ هدايتها الا فى ظل الرسالة السماوية ..

* والأمر لا يتعلق بايجابية الارادة وحدها بل يرجع من زاوية أخرى الى خطأ فى تقدير ماركس للقيمة واعتبارها متعلقة بعمل العامل وحده متجاهلا (عقائديا) كل أثر لرأس المال ، فكان أن أبطل الواقع العملى حججه وعطل حتمياته .. آية ذلك أن العائد يرتبط بكمية السلعة وأوصافها ، والعامل لا يقوم بذلك وحده بل ان الآلات كانت ذات أثر فعال فى وصول السلع الى هذا ، فكل ما يستعين به الانسان فى عمله توفيرا للوقت والجهد ابتداء من العصا الى أنفأس الى الآلة الى الذرة ذات أثر كبير فى عملية الانتاج أى فى كمية وأوصاف السلع المنتجة .

* وقد أدرك ماركس هذه الحقيقة عندما لم يستطع أن يسند الى العمل وحده القيام بالعملية الانتاجية وبالتالى فلا يكون هو وحده أساس القيمة ، لكنه لم يفصح عن ذلك صراحة والا هدم أسس نظريته ، غير أن تفسيره « للعمل أساس القيمة » بأن العمل المقصود ليس هو عدد ساعات العمل وانما هو « العمل اللازم اجتماعيا » قد أفاد تقديره لدور المستوى الفنى فى العملية الذى هو بدوره صفة لما يكون عليه رأس المال المستخدم حتى أنه لو فصل هذا المستوى الفنى لعاد بالتعريف الى نفس الظروف التى عاصرت ريكاردو عندما نظر الى القيمة بمقياس ساعات العمل .. وهو مقياس لا يكون الا فى ظل ظروف اجتماعية (فنية) متخلفة يكون معها للجهد الانسان الدور الأول والأخير فى العملية الانتاجية وهو ما تقوم به الآلة اليوم توفيرا للوقت والجهد .

٢ ــ أما عن قانون تركيز رأس المال : فقد ظهرت بالفعل مشكلة الاحتكارات الكبرى بكل آثارها السيئة ، وما زالت تخيم بأشباحها على الصناعة وعلى سوق المال حتى اليوم ، الا أنها برغم ما آلت اليه من تسلط كانت قادرة على تفادى حتميات ماركس . ومرة أخرى تظهر الارادة الانسانية .. حتى ولو كانت شريرة متفوقة على الظروف المادية ، وهو أمر له دلالته ، وهو أن الانسان عندما يريد فانه لا ينهزم أمام المادة ولا يقف أمام ظروفه ككتلة صماء تسيرها الضرورة القاسية على حد تعبير ماركس .. وان كان ذلك لا يعنى أن الانسان قد اهتدى سواء السبيل وذهبت حيرته .. فقد

أصدر التشريعات التى تحـارب الاحتكار وان لم يقض عليه ، الا أنه أدرك امكانية ذلك .. وابتكر نظام الشركات المساهمة وهى أكبر ضربة وجهت الى فكرة تركيز رأس المال فى أيدى ملاك قليلين والتى كان يعتبرها ماركس قانونا حتميا ولم يكن بوسعه فى زمانه أن يتنبأ بحدوث ذلك ..

وبظهور الشركات المساهمة وظهور العديد من الملاك انفصلت الملكية عن الادارة وصارت الادارة للأكفاء ولو لم يكونوا ملاكا .. وتمكنت الحكومات لذلك من مباشرة توجيهها للانتاج وظهرت فى الطريق أمثلة أكثر تطورا فى معنى المساهمة فشركة فولكس فاجن قد وزعت أسهمها على ما يزيد عن المليون ونصف من الملاك .. وفى أمريكا قلعة الاحتكـارات بدأت ضغوط الواقع تعطينا مؤشرات جديدة لها دلالتها وان لم تصل الى مستوى تغيير ملامح الحياة الاقتصادية الرأسـمالية لكنها فى الوقت نفســه كشفت عن امكان تفادى حتميات ماركس وأن ما قاله ليس قانونا ..

فنجد أن شركة التليفونات والتلغراف الاميركية يقدر حملة اسهمها بنحو ١ر٩ مليون شخص وهم فى تزايد مستمر .. وسبق أن أشـار الاهـرام الاقتصادى الى أن حكومة واشنطن تنفيذا لقانون منع الاحتكارات ستقوم بتجزئة شركة جنرال الكتريك وهى من أكبر الشركات الاميركية ..

وفى احصاء عن عدد المساهمين فى الولايات المتحدة نشرته الاهـرام الاقتصادى جاء فيه « أن عدد المساهمين فى الولايات المتحدة يرتفع باطراد حيث دلت الاحصاءات الأخيرة أن عدد المساهمين فى السنوات العشر الماضية قد تجاوز الثلثين ــ ٩٥٢ ــ ٩٦٢ ــ .. اذ كان عددهم فى عام ٩٥٢ : ٦ر٩ مليون مساهم ارتفع تدريجيا الى ٨ر٧ مليون مساهم سنة ١٩٥٣ فالى ١٢ر٥ مليون مساهم سنة ١٩٥٩ ووصل الرقم الى ١٧ مليون عام ١٩٦٢ بمتوسط زيادة سنوية تربو على ١ر٥ مليون مساهم ، ومعنى ذلك أن اميركيا من كل ستة أميركيين بالغين يمتلك اسهما مقابل ١ : ١٦ عام ٩٥٢ ، ١ : ١٢ عام ٩٥٦ ، ١ : ٨ عام ١٩٥٨ .. (ولا نعلم كم وصلت اليه النسب اليوم فى سنة ٩٧٣) » .

* واذا كان هذا هو دور الانسان فى تعطيل حتميات ماركس فان الظروف الطبيعية تسهم هى الأخرى بنصيب ، فتوالى المخترعات أدى الى ظهور كثير من المشاريع المتوسطة والصغيرة التى لا يصلح لها الا المنتجون الصغار ، مثل ورش اصلاح السيارات والبطاريات والراديو والتلفزيون والأدوات الكهربائية والأحذية والملابس واصلاح المنازل وهذا مالم يكن فى مصلحة قانون التركيز.

٣ ــ أما عن قانون زيادة البؤس ، فقد اتخذت الحوداث على العموم طريقا مغايرا لنبوءة ماركس اذ كان يظن أن الازدياد الهائل للآلات الموفرة للعمل قمين بأن يترك كل الصالحين للعمل متعطلين ، ومن ثم يقتصر الأمر على تشغيل القلة الضئيلة من العمال المهرة ، وفيما عدا هؤلاء فان الآلة ستنزع المهارة من العامل بحكم أنها تقوم بالأعمال الدقيقة بطريقة اتوماتيكية وبسرعة كبيرة ، واما بتقسيمها عمل الصانع الماهر الى اجزاء عديدة مبسطة .. فكانت هذه الآثار التى ترتبت على التقدم الفنى هى التى أقلقت ماركس فظن أن النتيجة الحتمية هى استبدال العمال المهرة بآخرين أدنى فى الكفاءة ومن ثم استبدال هؤلاء بدورهم بالنساء والأطفال اليافعين، وقد حدث ذلك فعلا فى وقت اختراع الآلة التى حلت محل الصناعات اليدوية وحولتها الى صناعات آلية ، وكان دور الانتقال هذا بمشاكله العديدة هو الذى حمل ماركس على أن يتنبأ بنشوء ما أسماه جيش احتياطى صناعى .. جيش يزداد عدده على الدوام مما يزيد الأجور انخفاضا والعمال تعاسة ، ولم يجد ماركس مجالا لهؤلاء الا الخدمة فى منازل الأغنياء ..

* ولكن هل ترك الأمر لقانون الضرورة القاسية التى لا مفر منها كما يقول ماركس ، أم أن الارادة الانسانية بدأت تزاول سيادتها على الظروف المادية فى صورة تشريعات اقتصادية واجتماعية وحركات عمالية .. ولا يعنى ذلك أن المشكلة قد حلت ، وأن البؤس قد زال ، ولكن تصويره على أنه قانون حتمى لا فكاك منه الا بقيام الثورة أمر مجاف للحقائق وداخل فى دائرة الأمانى ..

البؤس ظاهرة مرضية ولا شك وقد تصل فى بعض المجتمعات الى حد الانفجار ، ولكن ذلك مجرد احتمال .

* وتطالعنا الظروف الطبيعية مـرة أخـرى بأسهامها فى تعطيل ما تنبأ به ماركس ، حيث جد من المهن ما يحتاج الى مهارة من نوع جديد وأحيـانا أكثر من سابقتها •• وكثير منها ليس داخل المصنع بل فى المكتب ، أو العمل الفنى اللازم لتركيب وادارة وملاحظة الآلات المعقدة ، أو المهندسين اللازمين لهذه الآلات وتركيبها ، وهناك ما تستخدمه المصانع فى معامل البحث من مهندسين وكيماويين وعلماء طبيعة ، وغيرهم من الاخصائيين وعلماء النفس وموظفو العلاقات العامة ، والرسامون وكلهم لم يكن أحد يتصور وجودهم قبل سنة ١٨٥٠ ••

* ومجمل القول ، أنه لا يختفى مجال للعمل حتى يظهر بعده مجالات أكثر ، وان اختلفت الطبيعة ، الأمر الذى لم يكن فى صالح نبوءة ماركس ••

دلالة الواقع :

* فهل لهذا الواقع الذى لم تتحقق فيه تنبؤات ماركس دلالة ؟ •

نعم •• له دلالة واحدة هى عـدم صحة المقدمات •• وأن الذى قاله ماركس مجرد تنبؤات وليست قوانين ••

شاهد من روسيا :

برغم أن سيطرة الشيوعيين على روسيا لم تكن بفعل القوانين الحتمية التى قال بها ماركس ، بل كانت بفعل ارادة انسانية اختارت بيئة أقل تطورا من الناحية الاقتصادية ، ولكنها أصلح سياسيا •• بيئة أبعد عن تحقـق الشروط الموضوعية لقيام الثورة • الا أنه كان المظنون أن يستطيع الماركسيون تأكيد فاعلية نظرية القيمة عند تقدير الأثمان ، ولكن كشف التطبيق عن عجزها حتى عن القيام بدور المؤشر فى ذلك •• وظهر أمثال ليبرمان وغيره من المفكرين الذين تنادوا بآراء جديدة لدفع عجلة الاقتصاد القومى دون التقيد بحرفية النظرية بل على حسابها •

وقد ضمن الدكتور أحمد جامع كتابه القيم « الاقتصاد الاشتراكى » أهم ما يعانيه الاقتصاد السوفييتى من انفصـام بين النظـرية والتطبيق ،

مستشهدا بالعديد من القرارات المتضاربة والمتراجعة وبأقوال الاقتصاديين المتحدثين ، وكان معاصرا عن قرب كل هذا التغيير ، حيث قضى عشر سنوات بالاتحاد السوفييتى حصل خلالها على الدرجة العلمية .. فكان ما جاء فى كتابه كبير الفائدة فى هذا الموضوع .

أهمية المحاولة ، والقيمة المشروعة :

... ومع هذا فلم تكن محاولات ماركس عديمة الجدوى ، لأنها كانت تتصل بالاعتقاد الذى ساد فى أيامه واستمر بعده عهدا طويلا بأن النظرية الاقتصادية تنطوى على نظرية منفصلة للقيمة يجب أن تسبق نظرية الأسعار ، وما زال الشعور مستمرا بالحاجة الى نظرية من قبيل نظرية « القيمة الحقيقية » أى القيمة المنفصلة عن الأسعار ..

وأما الاستحالة العملية لتقييم العمل الانسانى من جهة ، ثم للنظر اليه منفصلا عن رأس المال من جهة أخرى ، فقد انصب الاهتمام على التقييم الواضح للعناصر المشتركة فى الانتاج ، ثم على توزيع العائد توزيعا عادلا بنسبة اشتراك كل عنصر فى العملية مع ملاحظة أن يتكون هذا العائد فى ظل ظروف طبيعية خالية من كل صور الاستغلال والاحتكار ، بحيث يتكون الطلب الحقيقى .

وهنا سنجد أنفسنا أمام ما يسمى بالقيمة المشروعة التى تباع بها السلع فى ظل ظروف مشروعة يتم تقدير عناصر الانتاج المشتركة على ضوء ثمن تكلفتها ، وفى ظل سوق حر يكون الطلب عليها حقيقيا .

وتكمن قيمة عناصر الانتاج فى أنها أسباب اشتركت فى تهيئة السلع فى صورة بعينها وكونت جانب العرض ، وهذه الأسباب هى صاحبة الحق فى العائد من بيع هذه السلع بنسبة اشتراكها فى العملية ، سواء كان هذا العائد يفوق ثمن التكلفة محققا ربحا ، أو كان هذا العائد أقل من ثمن التكلفة محققا خسارة .

بهذا الاتجاه العلمى نحقق العمل بمقياس ظاهر منضبط ، ونتفادى

الأبحاث المتكلفة فى الفلسفة ، حتى اضطر الباحثون الاقتصاديون آخر الأمر الى نفض أيديهم من محاولة البحث عن القيمة الحقيقية بعد أن أعياهم البحث، مكتفين بالبحث فى الأثمان ، أو فى القيمة المشروعة ..

متى يصبح الربح حقا ، لا سرقة واغتصابا ؟ :

فهل حقيقة الربح ـ بعد هذا ـ هو أنه سرقة واغتصاب ؟ . ومن ثم لا يتكون رأس المال الا من حصيلة السرقات ؟ ! ثم لا يؤدى بدوره الا دورا استغلاليا ؟ !

(أ) من الممكن أن يتكون رأس المال ابتداء عن طريق الادخار ، وبذلك يعتبر عملا مخزونا لا مسروقا . فاذا كان لدينا عامل مستقل ينفق فى صناعة كرسى من الخشب ٥ ساعات ، يبيعه فى ظروف طبيعية بمبلغ ١٠٠ قرش هى قيمة عمله .. يكفيه ٨٠ قرشا لتوفير وسائل المعيشة وتجديد قدرته على العمل ، لأن العمل الانسانى له خصيصة أنه ينشىء قيمة أكبر من قيمة سلعة قوة العمل كما لاحظ ذلك ماركس . فاذا ادخر العامل ٢٠ قرشا يوميا حتى يصل مجموع ادخاره الى ٥٠ جنيها ، كان هذا المبلغ عبارة عن عمل مخزون قدره ٢٥٠ ساعة عمل وقيمته ٥٠ جنيها .

(ب) اذا أتفق صاحب هذا العمل المخزون ، أى صاحب رأس المال ، أى المالك الجديد ، هذا المبلغ فى اصلاح أرض موات حتى أصبحت مهيأة للزراعة فان قيمة هذه الأرض تكون ٥٠ جنيها ، واذا استزرع المالك هذه الأرض بواسطة شخص آخر يقدم خمس ساعات عمل يوميا لمدة ٥٠ يوما ، فمعنى هذا أنه اشترك بعمل حى قدره ٢٥٠ ساعة وقيمته ٥٠ جنيها كذلك .

فالعمل المخزون فى هذا المثل يكافىء العمل الحى تماما .. ومع هذا فنحن نجد أن المحصول الناتج تكون قيمته المشروعة أى ثمنه الذى يباع به من خلال أحسن الظروف الطبيعية الخالية من كل استغلال هو ١٥٠ جنيها .

اذن هناك عنصر ثالث دخل فى العملية الانتاجية بين أطراف العلاقة الانتاجية المباشرين (العمل + رأس المال) .. هذا العنصر هو مصدر الزيادة على ثمن تكلفة عنصرى الانتاج .

والواقع أن هذا العنصر الجديد ذو شقين :

١ - يرجع شق منه الى جانب العرض ، اذ أن الخصائص التى أودعها الله فى التربة وما أحاطها من مناخ ، تسببت فى مضاعفة مكيال القمح المبذور فصيرته أضعافا كثيرة . وينبهنا الله تعالى الى حقيقة الدور البشرى ومحدوديته وانحصاره فى مجرد الأخذ بالأسباب ، وأن الدور القدرى هو الفاعل على الحقيقة فى قوله تعالى : « أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون » . فقد وكل سبحانه الحرث الينا وأسند الزرع والانبات اليه .. « ما كان لكم أن تنبتوا شجرها » ، « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم » . وقوله تعالى : « أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون .. أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون » .. ومن هذا الهدى استقر فى أعماق المؤمنين من قديم : « انهم يبذرون الحب ويرجون الرب » .

ويقابلنا هذا المعنى فى كتب الأولين : ففى رسالة بولس : « اذا ليس الغارس شيئا ولا الساقى بل الله الذى ينمى ، والغارس والساقى هما واحد ولكن كل واحد سيأخذ اجرته بحسب تعبه » .

٢ - ويرجع الشق الآخر الى ظروف الطلب المستمر على الانتاج ، وما يؤثر فى الطلب من عوامل متحركة متجددة نامية .

فالطلب يلتقى مع العرض لتتحدد القيمة المشروعة فى أحسن الظروف الصحيحة حتى يطابق السعر عادة دون أن يتذبذب ارتفاعا أو انخفاضا بعيدا عنها .

وعلى ذلك فاذا عدنا الى المثال المتقدم تذكرنا أن نفقة الانتاج الكلية ١٠٠ جنيه :

٥٠ شارك بها العمل الحى المبذول .

٥٠ شارك بها العمل الحى المخزون .

ولكننا أمام انتاج قيمته ١٥٠ ج . بزيادة قدرها ٥٠ ج . عن نفقة

الانتاج الكلية ولا يستطيع أن يدعى أى من الطرفين (العمل ورأس المال) أنه صاحب هذه الزيادة الوحيد ، وان كان له الحق فى الادعاء بأنه أحد أسباب توالدها ؛ ومن حقه أن يتقاسم هذا الفىء مع الطرف الشريك بنسبة اشتراكه فى العملية الانتاجية ..

وفى المثال المتقدم يكون عائد العمل ٧٥ ج . ويكون عائد رأس المال ٧٥ ج .

ويكون مبلغ الـ ٢٥ ج . هى ناتج العمل الصافى .

والـ ٢٥ ج . هى ناتج رأس المال الصافى أى « الربح » فأين السارق والمسروق ؟ !

وعلى مستوى الصناعة :

ومن الممكن أخذ المثال السابق على مستوى الصناعة ، فنراعى تقييم الآلة على أنها عمل مخزون ، ونراعى ما بثه الله فيها من خصائص نبتت بتركيبها على شكل معين وتشغيلها بأسلوب فنى معين أصبحت تعلو به على مجرد كونها عملا مخزونا .. وعندما هدى الله الانسان الى ذلك اطلقت خصائصها التى لا دخل لأحد فى فعلها ذى الأثر الكبير فى كمية السلع المنتجة وأوصافها .. وهذا العنصر القدرى الذى يقوم بدوره فى جانب العرض اذا أضفنا اليه العنصر القدرى الذى يؤدى دوره فى جانب الطلب فيزيده باستمرار ، كان القياس كاملا على الزراعة .

اين المشكلة ؟

هى فى الأسلوب الأقطاعى أو الرأسمالى فى الانتاج الذى يقوم على استغلال طرف لطرف مما جعل ماركس على حق فى تشريحه والهجوم عليه ، لأنه لا يعطى رأس المال مقابل مساهمته فى الانتاج باعتباره عملا مخزونا بل يحدد نصيب العمل الحى فى صورة أجور محددة ثم يطلق المالك لنفسه العنان فى نهب بقية القيمة تحت عنوان « الربح » مما شوه معنى الربح أى يأخذ فى المثال المتقدم ١١٠ ج . منها ٥٠ ج . نفقـة عنصر رأس المال — على فرض

استهلاكه كله فى عملية انتاجية واحدة ـ والباقى وقدره ٦٠ ج • تحت اسم الربح ، والا يترك للعمل الحى الا ٤٠ ج • هى القدر الضرورى لتوفير أسباب المعيشة ولتجديد قوة العمل على مدار العملية الانتاجية •

وهذا هو الاستغلال حقا وصدقا •

أما اذا أقمنا العلاقة الانتاجية على أساس :

(أ) تقييم العمل الحى وتقييم رأس المال على أنه عمل مخزون •

(ب) وعلى أساس المشاركة بين عناصر الانتاج فى الزراعة والتجارة والصناعة : فسيكون عائد العمل مشروعا وعائد رأس المال (الربح) مشروعا لاشتراكهما دائما فى الغنم والغرم •

وهذا ما ليس له وجود فى ظل الانتاج العبودى أو الاقطاعى أو الرأسمالى الذى يقوم على السرقة والاستغلال لا على الادخار والمشاركة •• وسوف نرى مصداق ذلك فيما [illegible] به النصوص الشرعية عند تناولنا الملكية فى ظل الاسلام فى موضعه من البحث •

وفى الحساب الختامى هذا الموضوع اذكر بما يأتى :

١ ـ كشف لنا التحليل عن الصورة المشروعة للربح ، وهى تغاير ما عليه حال النظام الرأسمالى من استغلال يعطيه أصحابه خداعا وصف الربح ، ولم يوجه ماركس حملته أو تحليلاته ضد صور الاستغلال فقط ، بل اعتبر الربح كله استغلالا ، وهى نظرة متطرفة أملتها عليه عقيدته المسبقة التى راح يلتمس لها التحليلات الاقتصادية •

٢ ـ كما كشفت لنا الدراسة عن الدور الاجتماعى الذى يؤديه الربح فى تدعيم مبدأ الملكية الخاصة باعتبارها أداة الاختيار فى المجتمع ، وفى تزويد أصحاب الضرورات الاجتماعية بقدرة على الاختيار على نفس مستوى التكليف مع الأفراد الآخرين • والا وقع أصحاب هذه الضرورات جميعا تحت تسلط الدولة وفقدوا مجالات حركتهم مهما سترت الدولة تسلطها بلافتات براقة ••

فالدولة فى غياب الربح تجعل العمل فرضا على الجميع فى الزمان وفى المكان اللذين يروقان لها •

وتجعله فرضا على المرأة بلا خيار لها بين البيت وخارجه ، والا عجزت عن العثور على مصدر آخر للدخل وتنتزع الأبناء جميعا لتربيتهم فى مدارس الحضانة بقوة القانون ، لأن الوالدين فى عمل اجبارى ، وتجد الدولة نفسها مجبرة منطقيا على المساواة بين الجنسين فى الميراث لتساويهما عمليا فى الأعباء • وتجد الدولة نفسها مجبرة منطقيا على تجريم أفعال جديدة وجعلها جنايات كالامتناع عن العمل أو الاتجار •• وينتهى اجتماعيا مبرر الترابط الأسرى بين الأجداد والأحفاد لأن مكان المسنين الطبيعى ، وبأمر القانون ، سيكون فى ملاجىء العجزة يقضون فيها بقية أعمارهم •• وقد وقف خروشوف فى الاجتماع الواحد والعشرين للحزب يبشرهم بقرب تعميم هذه المؤسسات على كل من يحال على المعاش بعد أن فقدوا صلاحيتهم الانتاجية ••

ويكون التناقض عندما يستثنى زعماء الحزب أنفسهم من هذه الخاتمة التعيسة •• ولذلك نلاحظ ظاهرة شيخوخة القيادة فى جميع البلاد الماركسية وكانت هذه الظاهرة أوضح ما تكون فى زعماء الحزب الشيوعى الصينى فى استقبالهم لنيكسون عند زيارته للصين حيث ذكرت الصحف أن نسبة كبيرة منهم كانت حول الثمانين ، وأن ثلاثة كانوا يتوكأون على العصى ، فأين هذا من نظام يتيح لأفراده الاحساس بكونهم نافعين منتجين مختارين حتى آخر يوم فى حياتهم وأنهم والحكام على درجة سواء ••

٣ — فى بداية الحوار كنا نفتقر الى الاحصاءات والبيانات الكافية ، وكان كلامنا يدور حول عناصر الانتاج من عمل ورأس مال ، حتى اذا ما توفر لدينا ما ندعم به منطقنا لم نجد لديهم ردا مقنعا • وقد وفرت على القارىء هذه الرحلة الطويلة وسقت اليه الموضوع مبلورا •

وكنا لا نسل البحث عن لديه اجابة مقنعة فى أن رأس المال ليس له أى دور فى العملية الانتاجية ، وأن عائده استغلال ، ولم تتوقف حتى داخل جدران المعتقل بين الزملاء الجدد الذين وجدنا فيهم تعقلا واعتدالا ، فاق

ما كنا نلمسه فى زملاء السجون ، ربما تكون التجربة التى عاشتها البلاد قد أقنعت الجادين بمراجعة النفس فى ظل ظروف أهدأ وعواطف أقل وفكر أكثر .. فكان أفضل ما سمعناه ممن لهم اعتبار ووزن مثل الزميل (ع . ش) .

ــ أنا لست ماركسيا تقليديا ، وكل ما أبحث عنه هو النظام الخالى من الاستغلال ، سواء قام على الملكية الخاصة أم الملكية العامة ..

٤ ــ انتهينا بختام هذه الحلقة من كل ما يتعلق بالانسان كفرد ، وسنتابع دور الانسان كمجتمع من خلال حركة التاريخ فى الحلقة القادمة ان شاء الله .

الحلقة العشرون

النظرة الاسلامية للتاريخ

● **فى كل رسالة سماوية شقان .**
شق العقيدة وشق الشريعة .
● **عوامل الحركة فى التاريخ .**
● **بين التوحيد والشرك**
● **مع التفسير المادى للتاريخ .**

بعد تفنيد كل الأسس التى قامت عليها الماركسية نبتت لدينا الرغبة القوية فى معرفة ما عسى أن يكون عليه الشيوعيون من شيء عن صلة الاسلام بالاستغلال أو بالأسلوب الرأسمالى عموما ، سواء أكان ذلك فى فهمهم للنصوص أو من استقرائهم لواقع التاريخ ، لأننا طالما سمعنا تجنيهم على الاسلام بهذه العبارات فى بداية تعرفنا عليهم ..

والآن ، وقد تبينوا خلو كل قضايا الماركسية من الأصالة العلمية أصبحنا نحب أن نراهم من خلال اختبار جديد .. اختبار معرفتهم بالتاريخ ، ونعنى به تاريخ العالم الاسلامى على وجه الخصوص ، بل تاريخ تطبيق الشريعة الاسلامية على الأخص .. لنرى سويا سلامة منظار التفسير المادي للتاريخ من عدمه ، لأنهم وجدوا لهذا المنظار مادة خصبة في تاريخ أوروبا المظلم وفى تاريخ المجتمعات البدائية وتحاشوا عمدا أو جهلا هذه المساحة العريضة من العالم الاسلامى فى الزمان والمكان حتى يظل اعتقادهم فى حركة التاريخ على حاله لا يهتز أمام أى حقائق جديدة .. وكان لنا سؤال واحد نوجهه للزملاء فرادى أو مجتمعين :

— نود أن يعطينا الزميل نصا اسلاميا من القرآن أو السنة يشتم منه رائحة الاستغلال .

الزميل : معذرة لأنه لم يكن لى سابق اهتمام بهذه الكتب المقدسة ، وهناك زملاء مختصون فى دراسة الأديان •

الأخ : اذن فأنت على الأقل قد درست كتب الفقه بما فيها من آراء فقهية واستجابة للقضايا العلمية المتغيرة ، وموجود منها آلاف الكتب والمراجع ، ويسهل عليك أن تضع أيدينا على رأى فقهى يظهر منه أى محاباة لنظام الاقطاع أو يدعم فكرة الاستغلال ، خصوصا وانكم ترون أن كل الشرائع والقوانين ما وضعت الا لخدمة الاقطاع وتأمين الاستغلال •

الزميل : للأسف، لم تسمح ظروفنا بهذه الدراسة عن الاسلام بالذات ••

الأخ : حسنا اذن فمن السهل أن تقرأ التاريخ فهو أسهل من الفقه ، وتاريخ الاسلام ملىء بالفترات المضيئة التى حظيت بتطبيق الرسالة السماوية وبفترات الانتكاس والانحراف كذلك. فهل تستطيع أن تدلنا فى تاريخ هذه الرقعة العريضة على صور الاقطاع بالشكل الذى نجحتم فى تصوير بشاعته على مدار تاريخ أوروبا ، وتعطينا مثلا ولو من فترة الانتكاس •

الزميل : أنا حقيقة مقصر فى دراسة الاسلام كنصوص وكتاريخ ، وأعدكم بأن أتلافى هذا النقص . وان كنا نعتبر أن الاقطاع فى البلاد الاسلامية لم يأخذ الشكل المعروف فى أوروبا اذ ظهر فى شكل أمراء المماليك والسلاطين •

الأخوة : نوصيكم يا زملاء بدراسة الاسلام من جديد دراسة فهم أو نقد أو ما شاء لكم الغرض ، فالمهم أن تحتكوا به عن قرب ، وسيعرف الاسلام كيف يجذبكم اليه ويعيدكم الى حظيرته •

* أما نحن فلنا فى التاريخ نظرة منبنية على عقيدتنا فى الوجود وعلى فهمنا لنصوص الاسلام واستقرائنا لتاريخ العالم أجمع ••

* فبمنظار عقيدة التوحيد يكون تفسيرنا للتاريخ كاملا لا اهمال فيه لعامل من العوامل •• أي العوامل له الدور الرئيسي في حركته ــ ومدركين غير

غافلين عن فترات الانتكاس ـ دون أن نجعل من الانحرافات أسسا مشروعة تفسر بمنطقها فترات الاعتدال .

تاريخ الرسالات السماوية :

* تاريخ العالم هو تاريخ الرسالات السماوية ، التى أعطتنا المفهوم الصحيح عن الانسان وقضاياه وعلاقته بحقائق الوجود من حوله وأعانته على السير مهتديا بها .. ولا يقول بغير ذلك انسان يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ وينظر الى وقائع التاريخ بأمانة . فلم ينقطع حبل الله بينه وبين عباده منذ درج أول انسان على وجه الأرض وهو آدم عليه السلام ، وقد عرفت البشرية طريق الايمان بالله وتوحيده منذ أن كان للانسان تاريخ على ظهر الأرض .. والرسالات السماوية من مهدها الأول كانت واضحة المعالم ، فهى دائما تخص شقا منها بأمور العقيدة والشق الثانى للشريعة .

(أ) فشق العقيدة : تتناول ما يدعو اليه كل رسول من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . فحقائق العقيدة ثابتة فى كل الرسالات وفى كل الأزمان والأماكن ، لها وجودها الواقعى لا تقبل النسخ ولا تتغير ولا يسوغ أن تكون محلا للاجتهاد .. ودور الرسالة هو فى الكشف عنها والتدليل عليها والاقناع بها وتوضيح الصلة بينها وما هى الغايات من ورائها ..

(ب) شق الشريعة : وتشمل العبادات والمعاملات .. والعبادات شعائر ومناسك برسومها وهيئاتها الخاصة ، وكذلك يقول أهل الشريعة : « لا يعبد الله الا بما شرع به » .. أما المعاملات فتنظيم التعامل بين البشر بما يحقق العدالة ويوفر صبغة الاختيار فى جميع الميادين . والشريعة تخضع لسنة التغير والتطور ، أى للنسخ ، ومن ثم فقد قيل أن الشرائع ـ لا العقائد ـ ينسخ بعضها بعضا ، والاسلام نسخ ما قبله من الشرائع .

وما هو الا حين من الدهر حتى غمرت الأرض بالشعوب والقبائل .. وفى كل البقاع والظروف كانت تلازمها رحمة الله ورعايته : « وان من قرية

الا خلا فيها نذير » و « كذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا » .. وكانت حركة التاريخ تتحدد دائما بعاملين :

العامل الأول : الانسان المكلف :

باسترشاده الرسالةالسماوية تتم دوائر الحركة الصحيحة فى جميع المجالات فيتقدم الانسان وتتقدم الحياة أيضا ، ويطول شرح كيف ان الرسالات هى التى قدمت الانسان عمرانيا .. ولا يمكن أن يغيب عن الانسان المكلف أنه سيد هذه الحياة ، وأن الله سخر له ما فى السماوات وما فى الأرض ، وأنه مستخلف عن الله فيها ، وأنه هو المقصود الأول .. وهو المخاطب الوحيد .. ومن واجبه أن يظل فى مكانه المرتفع فوق كل مادة رغم كر الأيام وتغير الظروف ، وأن يظل ممسكا بدفة التاريخ فلا تحيد مركبته عن طريق الهدى الى الضلال فتجنح الى الطغيان الفردى أو الجماعى أو المادى أو المعنوى على حساب التوازن السليم بين هذه الحقائق جميعا .. فأى تكريم للانسان بعد هذا .. ومهما حملت ظروف الزمان والمكان من جديد من عصر العصى الى عصر الذرة ، فالانسان هو الانسان جوهره ثابت .. قيمه ثابتة .. رسالته خالدة .. دوره واضح وعليه أن يحقق حريته الحقيقية بعبوديته لله وبسيادته على مقدرات الأرض فلا يستعبده ظرف أو هوى ولا يهزمه زمان أو مكان .

* ويرشدنا القرآن الكريم الى هذا المنهج الصحيح فى فهم التاريخ ، أى بالنظر اليه على أنه تاريخ الرسالات السماوية ، لا تاريخ الصراع الطبقى كما تراه الماركسية ، ولا تاريخ الأجناس والملوك والرؤساء والبطولات الفردية كما تراه النظرة الغربية .. كما يرشدنا الى أولوية دور الفرد المسلم فى دفع حركته الى الامام .. وباستعراض القصص القرآنى يظهر الاهتمام واضحا بالرسل فى المقام الأول باعتبار أن الرسول هو النموذج الانسانى الكامل الذى حقق السيادة على ظروفه الأرضية وعلى ظروف قومه ، واستخدمها فى سبيل غايات أسمى وأبقى ، فنقرأ قوله تعالى : « نتلو عليك من نبأ موسى فرعون .. » فموسى عليه السلام هو المقصود الأول وهو مناط التغيير فى

مجتمع فرعون المنتكس ، وهو بؤرة الضوء التى ستبدد ظلام النفوس والأوضاع : أما فرعون وماذا يكون اسمه وما عساه أن يكون عليه من قوة أو ما أشاد من عمران فهو فى المحل الثانى أو الثالث . على نفس النهج نقرأ قوله تعالى : « ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك .. » فابراهيم عليه السلام أولا ، أما الذى حاجه وما كان عليه من ملك فلا يهم ماذا يكون اسمه ويكفيه « الذى » : « والى ثمود أخاهم صالحا » ولا يعنينا من هو حاكم ثمود ولا مجالسهم التنفيذية ، فصالح عليه السلام أولا .. وهكذا وعلى هذا الهدى سار المؤرخون الاسلاميون رضى الله عنهم قبل أن تغزونا مناهج الشرق والغرب ، وتفرض على أجيالنا فى التعليم ، ففى كتاب « البداية والنهاية » لابن كثير يدخل قصة التاريخ من باب العقيدة فيحدثنا فى الفصول الأولى من الكتاب عن الله تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى ، وعن قصة الخلق وعالم الغيب من ملائكة أو جن ، ثم يتدرج فى الكلام عن آدم عليه السلام فالأنبياء من بعده وتسلسلهم فى التاريخ حتى يصل الى موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام .. وبعد هذه السلسلة الذهبية فى التاريخ يظهر لنا حرص المؤرخين المسلمين على تناول الأحداث وخاصة ما بعد السيرة النبوية من خلال تبويب السنين الهجرية فهم يسردون أحداث سنة بعينها ثم السنة التى تليها : فنرى فيما كتبه الطبرى وابن الأثير وابن مسكويه وابن خلدون وابن كثير ذلك المنهاج واضحا جليا .. حتى يصل المؤرخ الى عصره ثم يختم ابن كثير كتابه بالكلام عن الموت والبرزخ والبعث والحساب ، وبهذا تتم الدورة الكبرى ويسير التاريخ البشرى على نفس السنن الكونية فى الحركة ..

العامل الثانى : ظروف الزمان والمكان :

لهذه الظروف وزنها من خلال تفاعل الانسان معها ، ولكن ليست لها الأولوية .. فالمجتمع البشرى يزداد عدده وتتنوع حاجاته وتتشابك علاقاته وتتعدد مشاكله ، وكلما تقدم الزمن ازدادت تجاربه ونما أسلوب تفكيره ، فهذا ابن آدم يحار كيف يدفن أخاه فيبعث الله غرابا يعلمه .. ومن الطبيعى

أن تتجدد الحاجة الى تغير التشريع والى تطور الأسلوب المستخدم فى تبصير الناس بحقائق العقيدة ..

* وفى ظل تطبيق سليم للرسالة السماوية ، وفى ظل تفاعل سليم بين الانسان المكلف صاحب الأولوية فى الفعل والسيادة على الأرض يتحرر كل فرد من جميع القيود الخارجية والداخلية ويتساوى الناس أمام الحقوق والواجبات لمن شاء أن يتقدم أو يتأخر .. كما تتكافأ المجتمعات من الناحية الانسانية المكرمة مهما تفاوتت ظروفها المادية أو اختلفت فى العمران ، فهى دائما فى مستوى حضارى واحد وتوصف جميعها من زاوية صلتها بالله بأنها مجتمعات مسلمة ابتداء من آدم عليه السلام حتى خاتم المرسلين حتى ما شاء الله لدينه أن يظهر فى الأرض .. وقد تردد هذا الوصف على مدار القرآن الكريم مثلما تردد وصفها بالأمة الواحدة فى قوله تعالى : « وان هذه أمتكم أمة واحدة » ، وقوله : « ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل » ، وقوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ، وقوله تعالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » .

أما عندما توصف المجتمعات من زاوية علاقتها بالأرض فى حالة انتكاسها فسمها ما شئت ، اقطاعية أو رأسمالية أو اشتراكية أو شيوعية ، فهى فى ذلك كله قد ارتدت على أدبارها وعكست وجهة الانسان .

بين التوحيد والشرك :
حالة الانتكاس :

لعلنا فى غير حاجة الى التذكير بأن التغير أو الانتكاس انما يصيب النفوس أول ما يصيب ، ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وبعدها يتغير المجتمع أو ينتكس : « كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » ،

وهنا تمتد الأيدى الآثمة الى مواد هذا الدستور الخالد فتصيبه بالتبديل وبتحريف الكلم عن مواضعه فيقع المجتمع فريسة لألوان الصراع الاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية وينتقل الى داخل النفوس ويصير فيها شركاء متشاكسون .. وما يحدث بسبب الانتكاس يحدث أيضا فى حالة غيبة الرسالة لعجز الانسان عن تحقيق مركز التوازن بين جميع حقائق الوجود بنفسه ..

* من ذلك يتضح ان الصراع بسبب العوامل الاقتصادية ما هو فى حقيقته الا صراع جزئى داخل الصراع الكبير الذى يعيش فيه المجتمع فى كل جوانبه .. وهل كان وراء انتكاسه قوم لوط سبب اقتصادى ..

وما أصوب منطق المؤمنين حين يرون التاريخ سجالا بين الحق والباطل ، بين الهدى والضلال ، بين الاسلام والشرك فى دورات لا تتوقف .. حتى تحين فرصة تغيير المجتمع المنتكس الى الوضع الصحيح من خلال النفوس التى اهتدت أولا ، لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

الرسالة من جديد :

كان الله يمن على خلقه بالرسالة من جديد ليخرج المجتمع من ترديه فى الضلال ومن غرقه فى الصراعات ، وقد تظلل الأرض عدة رسالات فى وقت واحد ، وكانت الرسالة الجديدة تحوى نفس خصائص الرسالة السابقة فى شقى العقيدة والشريعة ، من خلال الواقع الجديد الذى تستوعبه الشريعة الجديدة والأسلوب الجديد فى عرض العقيدة ..

المقياس الحاضرى :

برسالة السماء تقاس عظمة الأمم .. الأمم التى كرمت الانسان وذخرت بالرجال لا أمم الأشباح .. ويوم يهزل الانسان وينتكب الطريق وتستعبده الظروف ويتضاءل فى نفسه فكل شىء بعده تافه هزيل ، لا يدعو الى تفاخر بل يستوجب العبرة والرثاء مهما خلف من قصور وسدود وآثار لا تبيد .. بهذا المقياس السليم يخبرنا الله فى أكثر من موضع فى القرآن

الكريم عن الأمم السابقة .. فقوم موسى لما تولوا عنه مدبرين تولت عنهم نعم الله كلها : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » . « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » ، لأن هذا الملك العريض لم يعد يساوى شيئا بعد اعراضهم عن الله لأنه ليس شاهد حضارتهم ورقيهم .. كذلك أخبرنا عن قوم عاد حين كفروا دمرت عليهم الريح كل شيء فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم ، وأخبرنا كيف خسف بقارون وبداره الأرض ، وكيف جعل أرض لوط عاليها سافلها ..

* وفى الصورة المقابلة كيف نجى نوحا عليه السلام وصالحا وهودا وابراهيم ولوطا ، هم والقلة الذين آمنوا معهم ، ليعلمنا ان الانسان المؤمن لا يعدله عند الله شيء ، وان السادرين فى الغى هم وعالم المادة سواء محياهم ومماتهم .

فى التاريخ نظرتان :

* اذا نظرنا الى التاريخ من زاوية حضارية نجد أن تاريخ العالم كان سجالا بين الحق والباطل ، بين الهدى والضلال ، بين الاسلام والشرك ، فى دورات لا تتوقف حتى انتهينا الى خاتم الرسالات السماوية بكل خصائصها العالمية الى يوم القيامة ..

* واذا نظرنا الى التاريخ من زواية عمرانية نجده قد انتقل من عصر الصيد والرعى الى عصر التجارة والزراعة الى عصر الصناعة الى عصر الفضاء .. وعلى امتداد هذا الخط المادى العمرانى تنتشر المجتمعات المرتقية المتحضرة والمجتمعات المرتكسة ، وعندما يرتفع مستوى الانسان الحضارى بالاسلام (أى بالرسالات السماوية لأن للرسالات جميعا صفة الاسلام) يتحقق التوازن فى جميع ميادين التعامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بما يحقق الحرية الحقة والعدالة والمساواة بين البشر ، وعندما ينخفض مستواه بالانتكاس تعود الى الظهور كل أشكال الصراع الاقتصادى والاجتماعى

والسياسى والنفسى .. ودخلت الأرض عصرها الصناعى وهى مزدحمة بالمجتمعات المنتكسة حضاريا ، فانتشر المرض برغم التقدم الكبير فى المستوى المادى .. وهنا تكمن المصاعب أمام الدعاة ويكمن معها عظم الدور الكبير للساعين الى الامساك بزمام حصان الصناعة الجموح لاعادة سيادة الانسان المكلف مرة أخرى ليعود للبشرية مقامها الكريم ..

النمو لا يتوقف :

تهاذى التاريخ فى موكبه الطويل حتى انتهى الى خير أمة أخرجت للناس ،ولم يكد حملة رسالة محمد عليه السلام يدخلون على الشعوب بهذا الدين العظيم على اختلاف ألسنتها وألوانها وعلى اختلاف درجة تقدمها العمرانى حتى حققت الرسالة الاسلامية على يدهم فى زمن وجيز أعظم انتصاراتها الحضارية ، فهيأت للجميع أكرم حياة وجعلتهم أسياد الظروف ، فلم يستعبدهم زمان ولا مكان وظلت هاماتهم الشامخة لا تنحنى الا لله وحده فى أخوة انسانية سامية .

وتنتظم الأمم جميعها فى هذا الموكب الفريد ، تسهم فى حركته وتتحمل نصيبها من المسئولية مثلما يتحمله كل فرد فيها الى ما شاء الله لهذا التيار أن يجرى .. فهذا عيسى عليه السلام يقول : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل ، فان الحق أقول لكم الى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل » .. ويعطينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا التوجيه الحكيم فى تصوير جديد .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة . فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ .. فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

فالتاريخ فى نموه وحركته لا يتوقف واضعا الأفراد والأمم أمام ابتلاءات جديدة ، ويكشف القرآن الكريم عن هذه الحقيقة الخالدة فى قوله تعالى :

« وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » •

١ ـ فظاهرة النمو المطرد فى قوله تعالى : « ومصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » •

٢ ـ وهذا يقتضى تغير البيئات مما جعل لكل منها شرعة ومنهاجا •

٣ ـ والحكمة دائمة واحدة : « ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات »

٤ ـ والجزاء هو النتيجة يوم يرجعون الى الله فينبئهم بما كانوا فيه يختلفون •

وهكذا كلما استمر التاريخ فى نموه وتقدمه العمرانى كلما كان حظ القادرين على الهيمنة على تياره وتسخيره من الكرامة عند الله كبير ومن الجزاء مضاعفا ، ولعل ذلك هو ضمن ما يكشفه المعنى العميق من قول حكيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه فى معرض الشوق الى اخوانه ، وأن ثواب الواحد منهم بعشرة •• « لأنكم تجدون على الحق أعوانا ، وهم لا يجدون » •

مع التفسير المادى للتاريخ :

(أ) نظريا :

❊ كل منا نظر الى التاريخ من خلال عقيدته فى الوجود ، فلم تلتق تبعا مناهج التفسير •• فمن خلال نظرتنا لم يكن التفسير المادى أكثر من تسجيل لفترات الانتكاس فى حياة الشعوب بما يستتبعه الانتكاس من صراعات على كل المستويات • وكان موقف الماركسيين من العامل الاقتصادى بالذات موقفا منحازا لا علميا •

❊ كان بريق التفسير المادى الوحيد هو فيما يقدمه من تحليلات عن الرأسالية بلغ الاعجاب بها حدا حمل على الاعتقاد بصحة التحليل على ما سبق فى التاريخ

من عصور ، وصحة ما سيؤول اليه فى المستقبل ؛ ولكن حتى هذه الرأسمالية التى أجاد الماركسيون تشريحهـا بحيث أصبحت موطن افتتانهم بجـدوى الماركسية ، حتى هذه سنرى فيما بعد حقيقة العوامل التى اشتركت فى اخراج المجتمعات الأوروبية من حياتها التقليدية الى صورتها الحالية ومركز الاقتصاد بينها ، وقد رأينا قبل ذلك عدم صحة تنبؤات ماركس عن المستقبل ..

* لقد أنصف انجلز حين كتب الى صديقه بلوخ سنة ١٨٩٠ قبل وفاته بخمس سنوات أنه هو وماركس قد بالغا فى تقدير أهمية الأسباب الاقتصادية . وفى رسالة أخرى لصاحبه ستارلنبرج كتب يقول : « ماركس وانجلز مسؤولان جزئيا عن حقيقة أنه فى بعض الأوقات قد أعطى أتباعنا أهمية للعامل الاقتصادى أكثر مما يستحق ، ولقد اضطررنا الى تأكيـد صـفته المركزية فى معارضتنا لخصومنا الذين كانوا ينكرونه ، ولم يكن هناك وقت ولا مكان ولا فرصة لانصاف العوامل الأخرى فى الحركة التاريخية » [1] .

* يقول الأستاذ العقاد فى « حقائق الاسلام وأباطيل خصومه » : « ويقرر لنا التاريخ أنه لم يكن لعامل من العوامل الانسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين ، وكل ما عداه من الحركات المؤثرة فى حركات الأمم فانما تتفـاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة فى التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة . هذه القوة لا تضارعها القوة العصبية ، ولا قوة الوطنية ، ولا قوة العرف ، ولا قوة الأخلاق ، ولا قوة الشرائع والقوانين ، اذا كانت هذه القوة انما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه ، أو العلاقة بينه وبين مجتمعه ، أو العلاقة بينه وبين نوعه على تعدد الأوطان والأقوام ، أما الدين فمرجعه الى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره ، وميدانه يتسع لكل ما فى الوجود من ظاهر وباطن ، ومن علانية وسر ، ومن ماض أو مصير ، الى غير نهاية من آزال لا تحصى فى القـدم وآباد لا تحصى فيما ينكشف عنـه عالم الغيوب .. وهذا على الأقل ميدان العقيدة الدينية فى مثلهـا الأعلى وغايتها القصوى ، وان لم تستوعبها ضمائر المتدينين فى جميع العصور » .

---

(١) الشيوعية نظريا وعمليا ، لكاريوهنت ، ص٦٤ .

(ب) واقعيا :

نجد من وقائع التاريخ ما يعتبر نقدا عمليا لمنطق الماركسية التى تجعل الغلبة دائما للظروف المادية التى تدفع الى تشكيل العلاقات الانتاجية والاجتماعية .

فاذا أخذنا مجتمعات تتفق فى الأساس المادى مثل الزراعة نجد وقائع التاريخ تبين لنا أن بعض هذه المجتمعات عاش فى ظل علاقات اسلامية خالية من الصراع لقرون طويلة ، وأكثر من هذا أن قامت هذه العلاقات تارة من خلال الملكية الخاصة وأحيانا كثيرة من خلال الملكية العامة (الأرض الخراجية)، كما عاشت بعض هذه المجتمعات الزراعية فى علاقات اقطاعية أو عبودية ، وبعضها عاش حياة مشاعية كمشاعية مزدك فى فارس قبل الاسلام .. فما الذى أوجد هذا التفاوت الاجتماعى بين مجتمعات أساسها المادى واحد ..

* ومن العصر الحديث نجد الأدلة التى تؤكد فوقية الارادة الانسانية على الظروف المادية ، فالارادة الانسانية عطلت حتميات ماركس داخل المجتمعات الرأسمالية حتى اليوم .

* وتحققت الشيوعية مرحليا فى مجتمع اقطاعى على يد لينين فى روسيا بارادة انسانية اختارت بيئة أقل تطورا من الناحية المادية وأكثر بعدا عن الشروط الموضوعية لقيام الثورة .

* **ورغم تساوى روسيا مع أمريكا فى المستوى الفنى اليوم ، الا أن الاختلاف واضح فى الشكلية الاجتماعية ، ولم توحد الآلة بينهما فكريا أو اجتماعيا .**

* ورغم الاتفاق المذهبى بين روسيا والصين فان الاعتبارات القومية باعدت بينهما مع أن المفروض حسب منطقهم المادى أن تزيدهما الأيام قربا لا بعدا .

* وقد نشطت الدراسات فى الوقت الحاضر لمعرفة نسبة اشتراك العوامل الانسانية والعوامل الاقتصادية فى احداث التغيير الاجتماعى، ودرست أوروبا بالتفصيل باعتبارها حقلا خصبا لهذه الدراسة ، وقد حوى كتاب « مراحل

النمو الاقتصادى » لروستو[1] أول رد علمى غربى على نظرية ماركس فى تفسير التاريخ ، وهو « يعتبر الانسان وحدة أكثر تعقيدا ، فهو لا يسعى للمصلحة الاقتصادية وحدها ، بل للسلطة ، والنهو ، والمغامرة .. وبكلمة مختصرة فان صافى السلوك الانسانى لا يعتبر فى نظرنا سعيا وراء شيء أقصى، بل موازنة بين أهداف انسانية بديلة ومتناقضة فى كثير من الأحيان ازاء مجالات الاختيار التى يرى البشر أنها مفتوحة أمامه » .

بهذا التقدير الذى يعطيه روستو لدور الانسان، ثم بدراسة واقع أوروبا يقسم روستو المجتمعات الى خمسة من ناحية أبعادها الاقتصادية : (١) المجتمع التقليدى . (٢) المجتمع الذى تحتقت له الشروط المؤهلة للانطلاق . (٣) المجتمع المنطلق . (٤) المجتمع السائر نحو النضوج . (٥) المجتمع الذى دخل عصر الاستهلاك لشعبى العالمى وبتطبيق نظريته على أوروبا يرى أن أول بلد تحقق فيها شروط الانطلاق وانتقلت من المجتمع التقليدى هى بريطانيا .

وقد قال سدنى هوك أحد مشاهير الكتاب الماركسيين : « اذا تطرق الشك الى نظرية صراع الطبقات فبان فسادها ، فان صرح النظريات الماركسية ينهار من أساسه » .

---

(١) استاذ التاريخ الاقتصادى فى مؤسسة ماساشوستس للتكنولوجيا .. وكان يعمل مستشارا سياسيا للرئيس كيندى ولجونسون من بعده .

الحَلقَة الإحدى والعشرون

نظـرة الاسـلام

وَسيلتنا للإقناع : الأدلـة العَقليـة الوَاضِحَة .. لا العاطفة المشبُوبَة .

كنت ومن معى من أعضاء الندوة ضـائقين على مدار هذه الجولات الفكرية بسلوك بعض الأخوة الذين بدأوا يتململون من عـدم رؤيتهم ثمرة سريعة لهذه الاتصالات ، فضلا عن تعمق العلاقة حتى أصبحت وفود الشيوعيين تترى على عنبرنا فى المناسبات المختلفة ، وكان الشهيد عبد الحميد البردينى رحمه الله يوفق بين رغبتنا فى استقبالهم وبين مشاعر بعض الأخوة المتململين ، فكان يعد لذلك حجرة خالية فى مدخل العنبر مفروشة بالبطاطين للاستقبال ، حتى لا يضطر الشيوعيون الى المرور على الزنازين ..

وكنا من جانبنا نبذل جهدا لترطيب قلوب الأخوة المتعجلين ، وتطورت محاولاتنا من الكلام الى العمل ، فعندما أغلظ الأخ حسن لنا النصيحة اتفقنا على اجراء تجربة عملية عليه تجعله يدرك بنفسه فائدة هذه الاتصـالات .. فقدمنا اليه كتاب « عقائد المفكرين » للعقاد ، ورجوناه أن يعيننا بقراءته ، فلبث عشرة أيام ثم أعاده الينا دون أن يتجـاوز الست صفحات بدعوى أنه صعب الفهم غير سلس العبارة ، وهـذا ما كنـا نتوقعه .. وكانت الخطوة الثانية حين دعوناه لاحدى الجلسات على أن يحتمل فى شجاعة ما يؤذى سمعه ووعد بذلك .. وتحت شجيرات الخروع التى تسور مزرعة السجن ، وفى حضرة أحد الأخوة الكبار هو السيد محمد حامد أبو النصر ، استعد الزميل الصريح الذى اخترناه لهذا الموقف أن يجيب على أسئلتنا بلا مواربة .

فقلنا له : لماذا لا تؤمن بوجود الله تعالى ؟ !

قال : لذلك قصة قديمة فى حياتى دعمتها دراسة للمادية الجدلية بعد ذلك •• فقد شاهدت تراما يفرم طفلا بريئا ، فثارت نفسى على عدالة السماء ، ثم بعد اعتناقى للماركسية فهمت أن نشوء العقائد على مدار التاريخ كان تعويضا عن الفهم العلمى السليم لأسرار الطبيعة •

وهنا انتفخت أوداج الأخ حسن وعلاه الغضب وتغيرت ملامحه ، فأشرنا اليه بالتزام الاتفاق وواصلنا سؤال الزميل •

وما قولك فى القرآن الكريم الذى أنزل على رسول الله ؟

قال : كان محمد رجلا عبقريا •• يؤلف آية لكل حادثة تقع ولم يتنزل عليه شىء •• ستقولون لى ان أحدا لم يأت بسورة من مثله ، وأنا أقول لكم وان أحدا لا يستطيع اليوم أن يأتى بمثل معلقات الجاهلية ، فهل يقوم ذلك دليلا على نزولها من السماء •• لعل محمدا كان سابقا لزمانه •

وهنا حانت لحظة انفجار الأخ حسن بعد أن فشلت تحذيراتنا ، وخاطب الزميل محتدا ، أتدرى ما حكم الاسلام عليك يا زميل ؟

ـ الزميل : وقد أخذته المفاجأة •• لا أدرى !!

ـ حسن : الاستتابة أو القتل •

ـ الزميل : مندهشا ، ان هذا اعتقادى فلم تحكم بذلك ؟

فتدخلنا على الفور قائلين للزميل ، دع لنا أخانا نكلمه ، وكن مطمئنا ، فظل ساكتا وهو يتابع حديثنا برضى •

قلنا : أليس علينا يا أخ حسن أن نقوم بواجبنا أولا نحو هذا الزميل ، ومن على شاكلته •• ممن راحوا ضحية غزو فكرى مشنون على الأمة بقوة السلطة التى تفتك أجهزتها الاعلامية بكل القيم ، وأجهزتها البوليسية بكل الأبرياء ، ففتحت الباب على مصراعيه للمعتقدات الغريبة ، وان رثاءنا للضحايا يلقى على عاتقنا مسئولية الرد على جميع الشبه التى تحيك فى صدر الزميل ، وأن نحسن بعد ذلك عرض ما نؤمن به بأدلة واضحة مقنعة •• ولا نعنى بذلك

أن تكون مقنعة له شخصيا ، بل تكون مقنعة لشهود أو مراقبين عدول ، لا مصلحة لهم فى الانكار ولا قيد على أفكارهم من جهل أو على قلوبهم من هوى يعصف باشراق الفطرة فى نفوسهم ، عندئذ يكون انتشار الاقتناع لدى ذوى العقول الراجحة والفطر المستقيمة كاشفا عن علة فى المنكر نفسه تجعله يقف هذا الموقف المعاند ربما علمه بفساد منطقه وسلامة منطق الحق .. وفى البشر يوجد هذا الصنف العجيب من الناس الذين وصفهم الله تعالى بقوله : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » ، وفى قوله : « فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ويحدثنا القرآن الكريم بأنهم لا يكتفون بذلك بل وينكلون بأهل الحق ليعيدوهم فى ملتهم .

عندئذ ، ومع هذا الصنف المراوغ الذى تحكمه العلل والمصالح ، من كبر أو حسد أو جهل أو مركز اجتماعى أو مركز مالى أو أى نفع يعود عليه من استمرار ما هو عليه من باطل ، فاننا بذلك نكون أمام خلية سرطانية فى جسم الانسانية تقتضى السلامة عزل سلوكها العدوانى ، ويحق على صاحبها قوله تعالى : « والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له ، حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد » .

أما قبل أن تؤدى دورنا الصحيح الذى يؤدى فى العادة الى كشف الصادقين مع أنفسهم من المتناقضين معها فقد تجنى بقصورنا على أناس لم يتبين لهم الطريق فنظلمهم .. وبهذا نخطىء سبيل الدعوة الصحيح .

ثم التفتنا الى الزميل قائلين : هل لديك ما تقوله يا زميل ؟ فابتسم ابتسامة الرضى وهو يقول :

هذا خير ما يقال ، وأنا ليس لدى ما أعقب به سوى أنكم مجموعة ممتازة ضد الاستغلاق غيرت الصورة المخيفة التى كانت فى نفوسنا عنكم قبل أن نلتقى بكم.

* وقد فوجىء أخونا بهذا الرد الذى تركه صامتا متحرجا ، وبعد عودتنا الى العنبر قال :

ـ أين كتاب « عقائد المفكرين » ، فقدمناه اليه بدون تعليق فالتهمه في يوم واحد دون أن تستوقفه أي صعوبة ، وأخذ يبحث عن غيره من الكتب حول الموضوع ، ووجدنا في حالة النشاط التي انتابته فرصتنا لتذكيره بأن منازلة العقائد الأخرى يعود علينا بالفائدة الكبرى ، فمن الظلام نعرف قيمة النور ، ومن الباطل نعرف قيمة الحق .

ومع أننا أمنا ثورة أخينا بهذه الحيلة ، الا أننا اعتبرنا ذلك منبها لنا ، وكنا بالفعل قد أشرفنا على النهاية في هذه الجولات بوصولنا الى النظر الى حركة التاريخ بمنظار الاسلام لا بمنظار التفسير المادي للتاريخ .. ثم بوصولنا في سرد التاريخ الى خاتم الرسالات السماوية .. وكنا نترقب وصولنا الى هذه الخاتمة بشغف كبير ، لأن جولاتنا السابقة قد أقنعتنا بسراب الماركسية مثلما أفادتنا في تدعيم حقائق الايمان وفي معرفة قضايا الانسان ، وادراك دور الرسالات السماوية في هداية البشر أكثر من أي وقت مضى .

ولكن يبقى وراء تلك النتائج الهامة التي زادتنا الجولات ايمانا بها قصد أخير لم يكتمل ، هو الذي يهم الشيوعيين في الدرجة الأولى ، وفقدانه يعطيهم مبررا في الالتفاف حول الاسلام بأسلوب حديث . هذا القصد الأخير عندنا هو القصد الأول عندهم ، وهو الذي حرك بيننا هذه البدايات العقائدية جميعها حتى أشرفنا عليه باعتباره قضية الساعة وأقدمنا على أرض ثابتة وباطمئنان كبير لم يكن ليتوفر لنا لو لم نخض كل تلك الجولات السابقة .

هذا القصد قد ترجمته أسئلتنا للشيوعيين في صور حلقة النظر الاسلامية للتاريخ حين كنا نطالبهم بوضع أيدينا على نص شرعي أو رأي فقهي أو واقعة تاريخية في فترات الالتزام تبين أن الاسلام ظهير لأي شكل من أشكال الاستغلال .

وكأننا في الحقيقة كنا نوجه الأسئلة الى أنفسنا ؟ ! فلم يعد يكفي كوننا نحمل في قلوبنا ايمانا مطلقا بأنهم لن يعثروا على شيء ؟ بل كنا نحن أيضا أشد ظمأ الى اشباع أنفسنا بهذه المعرفة ، وأشد سعيا للوصول الى جسم هذا الكنز الذي تعددت شواهده .

وقد كان .. وتفتحت شهيتنا لكل أثر حتى لكأنما نبتت لنـا حاسة سادسة تجعلنا نرى فى العبارة البسيطة فى أى مرجع شيئا هاما لا يلفت نظر البـاحث التقليدى حتى اكتملت تحت أيدينا ، أعظم صـورة لخير أمة فى التشريعات المالية بالذات . وكأننا كنا نكتشف، عالما جديدا ليس عالمنـا ، الذى شوهه الاستعمار فى نفوسنا وعزلنا عن مشارق النور فيه .

* وشعر الجسم السليم بمعاناة أحد أعضائه ، فاندفعت الدماء الحارة من القلب فى كل شريان تمد هذه المجموعة البسيطة التى يتكون معظمهـا من الطلبة بما نحتاج الى التزود به من العلم ، ولم يبخل علينـا أحـد بشىء . وابتسامة الحب على شفاء الآباء تقول : ان زغب القطا قد تعلموا الطير .

وكنا بدورنا لا نحجب عن الشيوعيين معرفة قد تعين من يتعامل بالصدق مع النفس فى رؤية عالمنا الجديد .

* وعندما انتهت بنا سلسلة التاريخ الذهبية الى الرسالة الاسلامية باعتبارها نموذجا لجميع الرسالات التى سبقتها ، لها نفس خصـائصها ، ولكن على المستوى العالمى الدائم الى يوم القيامة . جاءت فرصتنا لمعرفة منهج الاسلام الواضح فى التشريعات المالية من خلال النصوص وتصديق التطبيق العملى لها . ونقدم لذلك ببعض الملاحظات العامة :

١ ـ اقتضت حكمة الله أن يبلغ كل شق من الرسالة الاسلامية كماله بين أحضان احدى البلدتين الطيبتين : مكة ، والمدينة .

* ففى مكة المكرمة نزلت آيات العقيدة التى غرست الايمان فى القلوب ، وحررت النفوس من أغلال الشرك ، الذى ينبته الجهل والهوى .. وبلغ مقدار ما تنزل من القرآن الكريم ١٩ جزءا فى ثلاثة عشر عاما مليئة بالفتن والبلاء ، أخرجت لنا حوالى الثمانين صحابيا كان الواحد منهم بأمة . ولاعجب أن يحظى هذا الجانب بهذا المقدار الكبير من القرآن الكريم ، وأن ينتج هذا العدد القليل من المؤمنين ، لأن ميدانه النفوس ، ففيها تتكون اليقظـة وتصح الارادة ، التى بها تكون يقظة المجتمع كله وارادته ، وبعدها يصـير كل بناء فى الحياة سهلا .

* أما المدينة المنورة ، فكانت مهدا للشريعة التى تمت بهـا أركان المجتمع الاسلامى بما فيه من أمن واستقرار ، وفرص واسعة لكل فرد فى ابراز أهليته للأمانة التى استخلفه الله عليها .

وقد وضعت هذه الشريعة الربانية عن النـاس إصرهم والأغلال التى كانت عليهم كما بينت جميع مجالات الحركة المشروعة للمسلم مع واقع الحياة من حوله ، وصبغت له جميع ميادين التعامل بصبغة الاختيار ليسأل عما قدمت يداه ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، ليحيا من حى عن بينة ويهلك من هلك عن بينة .

* ومن مقتضيات التدبير الالهى ، أن تختص كل من البلدتين الطيبتين بشق من الرسالة ، ليظل ثابتا فى حس المسـلمين أنه لا كمال لحيـاتهم ، ولا نجاة فى آخرتهم الا بتلازم هذين الشقين معا ، العقيدة والشريعة .. حتى لا تنطمس هذه التفرقة العلمية فى قلب المبصر ، وهو يعمل فى حقل الدعوة الاسلامية ، مثلما أنه لا تنطمس هذه التفرقة المكانية بين مكة والمدينة فى عين البصير .

٢ — لقد أحسن المسلمون الدفاع عن عقيدتهم فى كل العصـور ، أو بمعنى أصح ، لقد دافعت هى نفسها ، فقضاياها الواضحة وحجتها البالغة ، كانت تذيب أمامهـا أغلال العقول ، وتفتح أقفـال القلوب . فمضت تغزو الشعوب بغير سيف ، حتى فى العصـور التى كان المسـلمون فيها فى غاية الضعف ، فان مدها لم يتوقف .

ولأن حقائق العقيدة ثابتة ، فهى لم تكلف المسلمين عنتا فى جلائها ، وتقدم العلوم يقوى من رصيد الحجة فى مواجهة خصومها .

ولكن الأمر الذى التبس على المسـلمين ، فى عصـور ضعفهم بصفة خاصة ، هو موضوع الشريعة ، وهو المكان الذى سـددت فيه الطعنة الى الاسلام باسم الاسلام دون أن يفطن المسلمون الى ذلك .. فقدمت اليهم النماذج الأرضية من الغرب والشرق ، على أنها تحقيق لجوهر الاسلام فى مقاصده التشريعية ..

ويستطيع المطلع على كتاب « الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته » من سلسلة الألف كتاب ، أن يقف على الدراسات الاستعمارية التى وضعت لعزل الاسلام كتشريع عن حياة المجتمعات المسلمة والمحافظة عليه داخل المسجد كعبادات فقط •• ليس يكفى أن نرفض الواقع ، بل وأن نفهم اسلامنا أولا وقبل أى رفض •

٣ ــ لا جدال فى أن التشريعات المـــالية ، هى العمود الفقرى لأغلب التشريعات الاجتماعية ، ولأمر ما ، فقد قرن الله تعالى الصلاة بالزكاة فى ٨٣ آية قرآنية •

وبتتبع التشريعات المالية تتضح لنا العقلية المنهجية الاسلامية المستقلة لما لها من مركز السيادة فى قضية من أهم قضـــايا العصر •• ورأس الحرية فى هذه التشريعات هو مبدأ الملكية •

الحلقة الثانية والعشرون

الملكية

الملكية .. من عائد العمل
الملكية .. من عائد رأس المال

لقد قامت حلقات الحوار السابقة بتفنيد كل قضايا الماركسية ، مثلما زادت من يقيننا بأن تقدم العلوم هو دائما فى مصلحة قضية الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وفى غير صالح سراب النظريات الذى يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا •

وليس سرا انه ازاء كل قضية علمية انسانية طرحت بيننا وبين الشيوعيين كان لنا أسلوبنا الخاص فى تناولها ، حيث كنا نلتمس الهداية فى كتاب الله وسنة رسوله أولا تمشيا مع المنهج العلمى للانسان فاذا هدينا فيها الى فهم عدنا الى ندوتنا أكثر اطمئنانا الى أن المنهج العلمى للأشياء الذى يقف عنده الشيوعيون بل ويلبسونه قسرا للانسان لن يكون ـ بالأمانة العلمية ـ الا متوافقا فى هذه الجزئية مع فهمنا فيها ••

وليس يعنى ذلك تسلحنا بموقف علمى مسبق والا وقعنا فى رذيلة التعصب والتقليد وانما كان فهمنا الايمانى يعمل كمؤشر الى الاتجاه السليم أو كضوء ينير لأبصارنا الطريق فلا نتحسس فى الظلام ••

وقد حظى موضوع الملكية بعناية خاصة وبتطبيق أكثر لهذا المنهج •• لأنه يتعلق بقضية انسانية يتصل أحد أطرافها بالسماء ويلتصق الطرف الآخر

بالأرض والا فكيف كنا سنهتدى الى دور الملكية فى مفهومها الصحيح كأداة اختيار فى الكثير من ميادين التعامل والى أن الربح المشروع يؤدى دورا اجتماعيا بالغ الأهمية لأصحاب الضرورات الاجتماعية فى بيئة التكليف ••• مما أضاء لنا طريق تحليل العلاقة بين العمل ورأس المال ••

* ••• كانت العقيدة بمؤشراتها وأضوائها قبل وبعد أى دراسة تحليلية تخص الانسان ••

راس الحربـة :

* وآن لنا أن نرى مصداق ذلك كله فيما نطقت به النصوص الشرعيـة وما كشف عنه التطبيق فى موضوع الملكية باعتباره رأس الحربة فى كافة التشريعات المالية •• وباعتباره كاشفا عن منهج الاسلام المتميز فى قضـية من أهم قضايا العصر ••

هدف الحلقات :

وليس سرا أن كل ما تقدم من حلقات الحوار هو تمهيد للوصول الى هذا الموضوع بالذات الذى سنختتم به هذه الدراسة ••

* ولا أستطيع لذلك أن أدخلها فى موضوعات الحوار ولا أن أفصـلها عنه لأنها من ثماره •• فهى الاجابة المعلقة فى أعناقنا عن الأسئلة التى سألناها للزملاء حين طالبناهم بوضع أيدينا على نص أو رأى فقهى أو واقعة تاريخية فى فترات الالتزام تكشف عن مظاهرة الاسلام لأى شـكل من أشـكال الاستغلال حتى فى أصغر صور التعامل •• وهى من زاوية أخرى مسؤوليتنا فى الكشف عن ثراء الاسلام بالحلول الاقتصادية التى تحقق حلم البشرية فى العدالة والكرامة والأخاء ••

وهذه الدراسة المنهجية التى جاءت متناثرة على طول الحوار نقدمها اليوم بطريقة متبلورة ومستقلة ••

مبدأ الملكية :

الملكية التى يرعاها الاسلام هى التى تعين على تحقيق مقاصده ..
وهى لذلك تلك التى تقوم قياما مشروعا وتتحرك حركة مشروعية .

١ ــ القيام المشروع

أى عن طريق عائد العمل وعائد رأس المال بصفة أساسية من خلال الموازين الاسلامية .. مع ملاحظة صبور الدخول الأخرى التى أباحها الاسلام كالوصية والميراث والهبة والصدقات باعتبارها كسبا حلالا وان كانت فى درجة أدنى من المصدرين الأولين .

أما الملكية الرأسمالية فتتكون من عوائد الأعمال المشروعة وغير المشروعة ومن الأرباح غير المشروعة التى لها بحق صفة الاستغلال ، ومن الربا ..

أما الماركسية فلا تعترف الا بعائد العمل فقط ..

ومفهوم ما وراء كل صورة من صور الدخل من نتائج اجتماعية متفاوتة ..

* ومن هنا كانت رعاية الاسلام شاملة لكل طرائق الكسب حتى تكون حلالا طيبا .. فنجده يحرم الربا [1] لأنه دخل استغلالى دون مقابل من عمل مشروع بل من قيم منحرفة لها أسوأ الأثر اقتصاديا واجتماعيا وخلقيا وتنطوى تحت هذا التحريم جميع البيوع الربوية والمشاركات الفاسدة لما فيها من غرر أو غبن يؤدى الى الضرر والجهالة فقد ورد النهى عن بيع الملامسة ، وبيع المنابذة ، وبيع الحصاة ، وبيع المصراة ، وبيع العينة ، وبيع حبل الحبلة وبيع المضامين والملاقيح ، وبيع المدلس ، وبيع ضربة القانص ، وبيعتين فى بيعة وبيع الحيوان الضال والشىء المعدوم أو المجهول والنجس والمحاقلة والمزابنة .. الى آخر ما يشتم منه الاستغلال أو الظلم لأن عامة

(١) يقرأ « الربا » للاستاذ المودودى .

ما نهى عنه الكتاب والسنة من المعاملات يعود — كما يقول ابن تيمية — « الى تحقيق العدل والنهى عن الظلم دقة وجله » .

* كما حرم الاسلام أكل أموال الناس بالباطل وهى صور أكثر سفورا من البيوع الربوية ، كالغصب والسرقة والميسر والرشوة والخمر ..

* وحرم استغلال الجهل بحال الأسواق والأسعار . فعن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ابتاع طعاما فلا يبعه حتى يستوفيه » .. وعنه قال : « رأيت الناس يضربون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. اذا اشتروا الطعام جزافا أن يبيعوه حتى يبلغه الرجل الى رحله » [1] .

وعنه قال : ابتعت زيتا فى السوق ، فلما استوجبته لقينى رجل فأعطانى به ربحا حسنا ، فأردت أن أضرب على يده فأخذ رجل من خلفى بذراعى ، فالتفت فاذا زيد بن ثابت ، فقال : « لا تبعه حيث ابتعته حتى تحرزه الى رحلك فان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أن تباع السلعة حيث تبتاع حتى يحرزها التجار الى رحالهم » [2] .. وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يبع بعضكم على بيع بعض ولا تلقوا السلع حتى يهبط بها الأسواق » [3] ..

وعن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن تلقى الجلب فان تلقاه متلق فاشتراه فصاحب السلعة بالخيار ، اذا وردت السوق » .. وعن طاووس عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تلقوا الركبان ، ولا يبع حاضر لباد » ، قلت لابن عباس ما قوله،ولا يبع حاضر لباد ، قال : لايكون له سمسارا »[4] .

* كما حرم احتكار ضروريات الناس للتحكم فى أسعارها ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الجانب مرزوق والمحتكر ملعون » ، وقال :

---

(١) البخارى ومسلم وأبو داود ٣٣٥ والنسائى .
(٢) رواه أبو داود فى اسناده محمد بن اسحاق .
(٣) البخارى ومسلم .
(٤) بلوغ المرام .

« لا يحتكر الا خاطىء » .. كل ذلك لتظل السوق حرة والأسعار معبرة عن القيمة المشروعة .

* كما حرم الاسلام استغلال نفوذ السلطان للحصول على المال ، وأجاز مصادرة الأموال التى تأتى من هذا الطريق لانفاقها فى مصالح الرعية ، وقد خطب الرسول صلى الله عليه وسلم فى الناس عندما أراد عاملاً على الصدقة ابن اللتبيه أن يقسم ما معه قسمين ، قائلا : هذا لكم وهذه هدية أهديت الى ، فقال عليه السلام : « أما بعد فانى استعمل رجالا منكم على أمور مما ولانى الله ، فيأتى أحدكم ويقول هذا لكم ، وهذه هدية أهديت الى ، فهلا جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه فنظر أيهد اليه أم لا ، والذى نفسى بيده لا يأخذ أحد منها شيئا الا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ان كان بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر » ، فترك ابن اللتبيه ما أهدى اليه ولم يمسه ..

* وطبق هذا المبدأ من بعده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكان يصادر ما يكسبه الولاة من أعمال لا يجوز لهم الاشتغال بها كالتجارة وما اليها ، وما كان يأتيهم من هدايا أو أموال بحكم مناصبهم ، وكذلك أنشأ المنصور الخليفة العباسى « بيت مال المظالم » خاص بالأموال من عماله التى جمعت ظلما بسبب نفوذهم فجعلها فى مصالح الأمة .

* حسبنا من هذه الشواهد دليلا على حرص الاسلام على قيام الملكية قياما مشروعا مبرأ من العلل التى تنتج صور الأنظمة الاستغلالية بكل مساوئها الاجتماعية ..

وآن لصاحب هذه الملكية الحلال ، التى تكونت من خلال هذه الضمانات التربوية والتشريعية أن يدخل بها ميدان النشاط الانتاجى والاجتماعى لتؤدى وظيفتها الاجتماعية ويحقق أهدافا انسانية فى كل حركتها المشروعة داخليا وخارجيا ..

٢ ـ الحركة المشروعة :

١ ـ الحركة الداخلية :

أى العلاقة الانتاجية بين العمل ورأس المال ، وهى فى الاسـلام علاقة مشاركة ، وفى الرأسمالية والاقطاع علاقة استغلال تدفع الى تحكم المالك فى الأرزاق والحريات ، وتدفع العمال من جهة أخرى الى أتون الصراع الطبقى .

وقد عمدت الشريعة الغراء الى حقوق المالك فى ملكيته فبينتها بحيث تحقق تكافؤ الفرص بين الناس ، وتحول دون السيطرة والاسـتغلال وتجعل الدخول مشروعة متـكافئة مع العمل المنتج سواء فى الزراعة أو التجـارة أو الصناعة .

* ولنأخذ زراعة الأرض مثلا :

فقد رأينا أن الأرض كوسيلة انتاج ، بل وسـيلة الانتـاج الأولى فى القرون الخالية كانت العلاقة الانتاجية بين مالكها والذين يعملون فيها علاقة منتكسة فى المجتمعات التى بعدت عن رسالة السماء ، فظهرت صور النظم العبودية والاقطاعية ، والأمر خلاف ذلك فى الاسلام .

* فملكية الأرض بعد أن يتحقق فيها شرط القيـام المشروع تقوم علاقة الانتاج عليهـا قياما يحدده الشرع الحكيم ، ولا يتركه لأهواء المالكين أو العاملين .. وقد بين الهدى النبوى جميع صور الزراعة على أفضل ما يكون عليه حق وعدل .. فمالك الأرض :

١ ـ اما أن يزرعها بنفسه ، ٢ ـ واما أن يمنحها أخاه ليزرعها دون مقابل ٣ ـ واما أن يشترك مع أخيه فى زرعها على مختلف صور المشاركة التى قد تكون بالعمل فقط ، أو باشتراك العـامل مع المـالك فى البذور والآلات والدواب ، أو تكون بتقديم العامل للبـذور والآلات والدواب ، ويشترك المالك بالأرض فقط .

* وفى كل هذه الصور من المشـاركة يتفق الطرفان على جزء مسمى من المحصول الخارج ، اما النصف أو الثلث أو الربع ، ويتم تعيينـه من خلال

مراعاة نسبة الاشتراك وطبيعة المحصول وكافة الظروف المحيطة ، على أن يتحمل الطرفان الخسارة ان حدثت عملا بقاعدة شرعية هى الغنم بالغرم .

وهذه الزراعة هى مشـــاركة أو مساهمة ، أو حسب التعريف الفقهى « الشركة فى العقد » ، أو « عقد على الزرع ببعض الخارج من الأرض » .

* وقد أجرها الرسول عليه الصلاة الســـلام مع يهود خيبر ، حيث أصبحت أرض خيبر بعد فتحها عنوة ملكا للمسلمين وقسمت عليهم أسهما ، ولما هم الرسول باخراج اليهود منها جاءوه وقالوا له : نحن أعلم بالأرض منـــكم ، دعونا نعمل فيها ونعمرها لكم بشطر ما يخرج منها ، فأقرهم النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « نقركم فيها على ذلك ما شئنا » .. وسار الأمر على هذا الحال الى أن أجلاهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وأعلن أن من كان له مال فى خيبر فليلحق به ، وخير أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، فمنهن من اختارت الأرض ، ومنهن من اختارت تعويضا عنها ، وكانت عائشـــة وحفصة رضى الله عنهما ممن اختار الأرض .

وقال قيس بن مسلم عن أبى جعفر أى محمد الباقر بن زين العابدين بن حسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه : « ما بالمدينـــة أهل بيت هجرة الا يزرعون على الثلث والربع » . وزاد البخارى بعد نقل هذا الأثر أنه زارع على سعد بن مالك ، وعبد الله بن مسعود ، وعمر بن عبد العزيز ، والقاسم وعروة ، وآل أبى بكر وآل عمر ، وآل على وابن عبد الرحمن بن يزيد ، وعامل عمر الناس على أن جاء عمر بالبذر من عنده فله الشطر ، وان جاءوا بالبذر فلهم كذا [١] .

وقال أبو جعفر : « كان أبو بكر يعطى الأرض على الشطر » [٢] .

وعن خالد عن مجاهد عن طاووس بن معاذ بن جبل أكرى الأرض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر وعمر وعثمان على الثلث والربع .

---

(١) نقل عبد الرزاق هذا الأثر عن القاسم بن أبى بكر بســـند كامل ، ونقل ابن ابى شيبة عن بقية الأربعة بسند كامل : البخارى بلم المزارعة بالشطر جـ٥ ص٨ ، ٩ ، ١٠ .

(٢) الطحاوى .

وكان عبد الله بن مسعود ، وسعد بن مالك يعطيان أرضهما التى أقطعهما عثمان بالثلث والربع [1] .

✻ وقد تكلم الفقه الاسلامى فى الزراعة بافاضة ولكل مذهب صوره التى يجيزها ، والتى لا يجيزها على اختلاف بينهم فى علة المنع الذى مرجعه الخشية من أن يكونّ هناك شبهة استغلال طرف لطرف . وما علمت حالة قل فيها نصيب الزارع عن الربع ، وهو قدر يكفى لتوفير دخل مجزىء .

فأين هذا من وضعية الرقيق الذين كانوا يفرض عليهم وضع ثابت اقتصادى واجتماعى لا يرتقون عنه أبدا .

ولكن الأعداء والأهواء والجهلاء يحجبون عنا هذه النماذج المشرقة فى البيئة الاسلامية ولا يرضون لأعيننا أن تفتح الا على ظلام الاقطاع فى أوروبا ولا يرضون لعقولنا أن تفهم الا أن العالم كله عاش كذلك فى كل بقعة عرفت الزراعة ..

✻ أما الاجارة فهى تختلف عن المزارعة ، حيث يكون فيها نصيب المالك معينا مضمونا ، ونصيب العامل معرضا للمخاطر . ومن هنا لم يجزها بعض الفقهاء لمنافاتها لروح العدالة فى الاسلام ولأنها أدخل فى المعاملات الربوية .. الا اذا لم تخرج عن جوهر المشاركة . ويقول ابن حزم فى المحلى : « لا تجوز اجارة الأرض أصلا .. لا للحرث فيها ولا للغرس فيها ، ولا للبناء فيها ، ولا لشىء من الأشياء أصلا لا لمدة مسماة مقيدة ولا طويلة ، ولا بعد فترة مسماة ولا بدنانير ودراهم ولا شىء أصلا ، فمن وقع فسخ أبدا . ولا يجوز فى الأرض الا المزارعة بجزء مما يخرج منها ، أو المغارسة كذلك فقط » .

وما ورد عن الرسول من نهى انما كان يتعلق بأشباه هذه الصور وقد قال لأحد الذين يتعاملون بذلك « لقد أربيتما » وأمره برد الأرض الى مالكها وحث ورغب فى نماذج أفضل من التعامل كقوله « من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه » وفهم البعض أن هذا يعنى تحريم المزارعة ، والواقع خلاف

---

(١) الخراج لأبى يوسف . باب القطائع .

ذلك .. وقد أجاب على بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر ، وسعيد بن المسيب ، ومحمد بن سيرين ، وعمر بن عبد العزيز ، وابن أبى يعلى ، وأبو يوسف ، ومحمد بن الحسن عن الأحاديث القاضية بالنهى عن المزارعة بأنها محمولة على التنزيه وقيل أنها محمولة على اذا ما اشترط صاحب الأرض ناحية منها معينة [١] ..

وفى التجارة والصناعة

* نجد أن العلاقة فى الأنظمة المتنكسة بين الرأسمالى والعمال شبيه بها بين مالك الأرض والرقيق فى ظل الاقطاع لولا دوام ما يحصل عليه العمال من حقوق وضمانات لها تأثيرها على تلطيف هذه الحقيقة المرة وان لم تصل بعد ولن تصل الى الانسانية المثلى من العدالة بين أطراف العلاقة الانتاجية .

.. ومن هنا كانت ملكية وسائل الانتاج فى هذا النوع من المجتمعات بحق أداة تحكم فى أرزاق الناس وحرياتهم حتى فى أحسن صورها التى وصلت اليها اليوم اذ تظل يحوطها عدم الاطمئنان على ثبات الدخل أو دوام العمل وهى عوامل نفسية لا تبعد فى جوهرها عن أسلوب التحكم المباشر فى الأرزاق والحريات فهل كانت العلاقة فى الاسلام فى هذه القطاعات كذلك ..

* الاسلام يقيم العلاقة الانتاجية فى التجارة والصناعة على أساس المضاربة أو المرابحة ، وهى مشاركة لا تختلف عن المزارعة غير أنها استمدت التسمية من قوله تعالى « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » .

فالمضاربة بهذا المعنى تخضع لما تخضع له المزارعة من وجوب اشتراك أطراف العلاقة التعاقدية في المغنم والمغرم بنسبة اشتراكهما في العملية ولا يجوز أن يكون نصيب أحد الطرفين معينا والآخر مغررا . وبسوى ابن القيم بين المزارعة والمضاربة فى قوله « انها المزارعة ليست من باب المؤاجرة فى شىء وانما هى من باب المشاركة وهى نظير المضاربة سواء .. من أباح المضاربة وحرم ذلك فقد فرق بين متماثلين» [٢] .

---

(١) ملكية الأرض فى الاسلام . الأستاذ ابو الأعلى المودودى .
(٢) زاد المعاد .

من كل ذلك نرى أن علاقة الانتاج المشروعة عبارة عن أنواع من العمل المشروع تتعاون دون غبن أو استغلال •• وتشترك فى الغنم والغرم •ولن يمضى وقت طويل حتى يتوفر لمن يقدم العمل دخل مجزىء •• الأمر الذى يقارب بين الثروات باستمرار وهو ما لم يظفر به رقيق الأرض أبدا ، وما لم يظفر به عامل فى علاقتــه بصــاحب العمل أبدا فى أى نظام آخر على وجه الأرض •• بل انه قد عاد بفريق منهم الزمن القهقرى الى عصر العبيد فى ظل الأنظمة الجماعية ووجد من يتحكم فى أرزاقهم وحرياتهم مرة أخرى بدعوى أنه حررهم من ســلطان المــالكين وحسبهم تحررا أنهم انتقلوا الى قبضة سلطان جديد ••

ولذلك كان جيلاس زميل تيتو فى الحركة الشيوعية والذى كان يلقب بالبروليتارى البار ، كان هذا الرجل على حق عندما أدرك فى لحظة صدق مع النفس أنهم لم يفعلوا فى النهاية شيئا سوى استبدال طبقة الرأسماليين التى تتحكم فى الأرزاق والحريات بطبقة رجال الحزب التى تتحكم فى الأرزاق والحريات أيضا ، فثار على هذه النهاية الشاذة وألف كتاب « الطبقة الجديدة » يعتذر فيه عن مشاركته فى أكبر خــدعة فى التاريخ وكان ذلك سببا للزج بالبروليتارى البار فى السجن عمرا طويلا فاق العشر سنوات لأنه لم يعد فى نظرهم بارا بالحزب ••

* وفى كتاب تاريخ أوروبا الاقتصادى للدكتور جمال سعيد يؤرخ للثورة الزراعية فى بريطانيا باليوم الذى سمح فيه الاقطاعيون بنظام ايجــار الأرض لبعض الفلاحين لأن ذلك على كل ما فيه من غبن قد تسبب فى التعجيل بالنظام الاقطاعى ، فما بالنا بالاسلام الذى نفر فقهاؤه من هذا اللون من الايجــار ، ولم يروا سوى المشــاركة تمشيا مع عــدل الاسلام •• أما حركة الملكية الخارجية فموعدنا معها فى الحلقة القادمة ، ان شاء الله •

الحلقَة الثالثة والعشرون

الحركة الخارجية

الحركة الخارجية :

أى العلاقة بين المالك والمجتمع ، ولها فى الاسلام ضابطان لا مقابل لهما فى الملكية والرأسمالية ..

١ ــ التزام حدود السير « الأوامر والنواهى » .

٢ ــ أداء حقوق السير « الزكاة » :

(أ) التزام حدود السير :

أى الالتزام بالأوامر والنواهى التشريعية التى تعمل على توزيع الثروة وعدم تركيزها والتى تجعل حق المالك على ملكه ليس مطلقا .

ولا يعنى ذلك الحد من نمو الثروات المشروع الى أكبر قدر ممكن بقدر ما يصيب أربابها من توفيق ما دامت لا تضيع حقا ولا تعطل حركة . وأهم الوسائل التى تعين على ذلك ما يلى :

* القيام المشروع :

لأن قيام الملكية قياما مشروعا على غرار ما رأينا فى الحلقة السابقة ، له أثره فى تنظيم حركة الملكية فى المجتمع ، وفى حفظ التعادل بين الثروات ، لأن القيام المشروع يحول دون تضخم الثروات تضخما سرطانيا ، بأساليب

استغلالية غير مشروعة ، ويحول أيضا دون تعطيل نمو الثروات نموا طبيعيا . فالربا مثلا يؤدى الى اضعاف حجم الاستثمار وحجم التوظيف ، ويخل بالتوازن بين العمل ورأس المال ، بما يسبب من دخل ثابت مضمون للمقرضين ، ومن تعريض العمل وحده للمخاطر ، والفائدة المركبة كثيرا ما أدت الى افلاس التجار وغير التجار ، مما حدا ببعض القوانين الى الغائها ، والبعض الآخر الى اجازتها بشروط .

* ما تقتضيه المصلحة العامة :

من نزع ملكية منزل أو قطعة أرض مع التعويض العادل ، أو من اخراج لبعض أشياء عن دائرة التعامل ، أو من تقرير حقوق الارتفاق ، أو حتى الشفعة ، أو عدم التعسف فى استعمال الحق أو عدم اضرار بالغير ، أو عدم الحجر فوق ثلاث ..

وهذه الضوابط التشريعية بعضها غير موجود بالمرة فى النظام الرأسمالى ، وبعضها يتوارى فى خضم الصراع الطبقى يلتزمه الضعيف دون القوى ..

وقد ترك لنا الهدى النبوى ، وهدى الخلفاء الراشدين آثارا فى كل ذلك ، فالرسول أمر مالك النخلة التى تقع فى دار غيره أن يبيعها له أو يقطعها حتى لا يؤذيه بتردده على داره .. وألزم عمر بن الخطاب رضى الله عنه مالك الأرض أن يجعل سبيلا للماء الى أرض جاره ، وأوعده أن يجرى الماء على بطنه ان لم يجد سوى ذلك (*) حلا . كما عوض الذين دخلت بيوتهم فى توسيع المسجد .

وهذه الحالات تعرض كثيرا فى الحياة اليومية ، ولا تكاد تتجاوز أطراف العلاقة الاجتماعية ، وهى من ثم تختلف عن حالات الضرورة

(*) روى مالك فى الموطا بأن الضحاك بن خليفة ساق خليجا له وأراد ان يمر به فى أرض محمد بن سلمة فمنعه ، فلما علم عمر استدعاه وقال له : لم تمنع أخاك ما ينفعه وهو لك نافع تسقى به أولا وآخرا وهو لا يضرك .. الخ .

الاجتماعية ، التى قد تصيب المجتمع بأسره من مجاعة أو حرب .. ولهذه الحالات مواجهة خاصة ستقابلنا فيما بعد .

* نظام الميراث :

لا يستمر نمو الثروة من الناحية العملية الى أبعد من حياة الفرد ، لأن الثروة النامية لا تلبث أن تتوزع من جديد بعد وفاة المالك .

وتقوم قواعد الميراث بتوزيع الثروة توزيعا عادلا بين أقرباء المتوفى مما يحول دون تركزها فى أيد قليلة . ومن المقررات الشرعية ألا يدخل شيء فى ملك الانسان جبرا عنه غير الميراث . ودائما يكون أبناء المتوفى هم أكثر الورثة حظا من الميراث ، ويشاركهم بعد ذلك أقربـاء المتوفى من أم وأب وزوجة وأخوة ، وفى الجملة ، لا يكون ما يستحقه الأبناء أقل من النصف فى أكثر الأحوال .

* فبفضل هذا النظام ، لا تلبث الملكيات الكبيرة التى يتفق تجمعهـا أن تتوزع من جيل لجيل فتشمل عددا كبيرا من الأنفس وتستحيل الى ملكيات أصغر ، وبذلك تتقارب مستويات الناس من آن لآن .

ولحرص الاسلام على هذا الهدف نراه يحظر كل تصرف يؤدى الى الاخلال بقواعد الميراث ، وفى هذا يقول الله تعالى : « تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم .. ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » .

ومن ثم ، فقد ذهب كثير من الفقهاء الى تحريم الوقف الأهلى لما فى ذلك من الاخلال بقواعد الميراث ، ومن هؤلاء ابن عباس ، والقاضى شريح ، والحنفية ، وقد اعتمد القانون المصرى رقم ١٨٠ لسنة ١٩٥٢ على هـذه المذاهب فى الغاء جميع أنواع الوقف الأهلى وحظره ، وقرر أن كل وقف من هذا القبيل يعد باطلا فى المستقبل .

كما حظر الاسلام على المالك أن يوصى لأحد ورثته بأكثر من حقـه

الشرعى بعد وفاته الا فى حدود الثلث بعد اجازة بقية الورثة ، لقوله صلى الله عليه وسلم « لا وصية لوارث » كما حظر عليه ألا يوصى لغير ورثته الا فى حدود الثلث ..

* كل ذلك فضلا عما ينطوى عليه من حكم اجتماعية ، فان فيه تقريبا للمستويات وتوزيعا للسلطات المالية بين أفراد المجتمع وتحفيزا للعزائم على مواصلة السعى والتنمية ، والقضاء على الطبقية فى المجتمع حتى لا يكون بين الناس الا الدرجات المفتوحة ، فكما أن حركة الملكية من الداخل المتمثلة فى العلاقة الانتاجية تدفع الثروات الى التقارب من أسفل من خلال المشاركة فى النماء ، فكذلك يعمل الميراث على تحقيق ذات التقارب بالضغط على الثروات التى بلغت غاية النمو من أعلى الى أسفل جريا على سنة التكاثر فى عالم الأحياء فكما أنجب المورث أبناء أو خلف ورثة كذلك أنجبت تركته ثروات بعدد الأبناء أو الورثة .

* ثورة اقتصادية :

اذا أدركنا ما تعانيه المجتمعات فى قواعد الميراث علمنا مقدار التقدم فيما حظر الاسلام ، ففى بعض المجتمعات يوصى المورث لمن يشاء بما يشاء حتى ولو أوصى بجميع ثروته لعدد من القطط والكلاب ، أو يكون له أن يضع شروطا لتقسيم التركة تقيد التصرف فيها لعدة أجيال ، أو تحرم المرأة من الميراث ، أو يقصر الميراث على أكبر أبناء المتوفى حتى يظل حجم الاقطاعيات ثابتا لا يطرأ عليها أى تفتيت .. وقد تجمعت من ذلك حفيظة الناس ونشبت بينهم العداوة والبغضاء على مستوى الأسرة وعلى مستوى المجتمع ، وظهرت محاولات التخلص من الوارث المحظوظ ليخلو الطريق للمحرومين من بعده .

* وفضلا عن كل هذه المساوىء الأخلاقية فان أكبر المساوىء الاجتماعية تكمن فى خدمة هذا النظام للوضع الطبقى وتعميقه ، حتى ضجت أقلام الكتاب والمفكرين فى أوروبا بالشكوى من نظام الميراث الجائر .. فهذا آدم سميث يقول : « لا يمكن أن تتصور قانونا يهدد حقوق أفراد الأسر

الكبيرة مثل هذا القانون الذى يفرض الحرمان والفقر على كل الافـراد ليوفر الثروة لوارث واحد » ويحض على الغاء قوانين الحبوس وقوانين عدم التقسـيم وجميع القيود التى تحرم حرية تداول الثروة وهبتها وبيعها والتنازل عنها بالوصية » (١) .

وفى فرنسا كان من أهم أهداف سان سيمون الاشتراكى وأتبـاعه فى أوائل القرن ١٩ هو القضاء على نظام الميراث الذى يشكل عقبة كئودا أمام أحلامهم فى اصلاح المجتمع ..

* ما تقتضيه الضرورة الاجتماعية :

من تدخل الحاكم لتحقيق التوازن بين الثروات أو بما يفرضـه على الملكيات من التزامات لا تتعارض مع روح الشريعة وأصولها ، وليست من قبيل الضرائب ، كما سنوضح فيما بعد ، لأن الضرائب نظام مالى ثابت له طبيعته الخاصة ..

ذلك أنه فى الظروف العادية تكون الشريعة قادرة على تحقيق التوازن بين الثروات وتوفير أفضل شروط النمو فيهـا من غير حاجـة الى تدخل الحاكم ، اللهم الا ما تقتضيه طبيعة مهنته من حراسة ورعاية وتوجيه .

لكن عندما تمر بالمجتمع ظروف غير طبيعية ، أى ظروف مرضية شأن كل كائن حى ، يصح ويمرض من حرب أو مجاعة ، أو كارثة طبيعية من فيضان أو آفة تزداد فى هذه الحالة دواعى تدخل الحاكم لمواجهة الموقف ، وتصحيح الأوضاع فى نطاق الأصول الشرعية لهذا التدخل .

* وقد جاءت السنة الشريفة بسابقة عمليـة ، لم يكن سببها الحرب أو المجاعة وانما كان سببها التفاوت بين الدخول الناشىء عن طبيعة المجتمع الوليد فى المدينة على أنقاض مجتمع جاهلى لم تنته ضغوطه بعد .. ولكى تتضح الصورة يلزم الاشارة الى الفترة السابقة على فعل الرسول لنرى فيها حكمة هذا الاجراء ، ولنظر فى احتمال وجوده مرة أخرى من عدمه .

---

(١) كتاب « العقل السليم » لتوماس بين ، ص٨٠ .

(أ) ففى مكة المكرمة التى تعرض فيها المسلمون لكثير من العنت فى أنفسهم وأموالهم نزلت أول آية تعالج الوضع المالى بين المؤمنين بهذا الدين الجديد ، وقد حثت على الانفاق بصفة عامة بدون تفصيل حسبما تستوجبه الأخوة فى الله فى قوله تعالى فى سورة المزمل : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله ان الله غفور رحيم » .

(ب) لم يتجاوز التنظيم المالى هذا النطاق الأخوى الايمانى فى العهد الملكى ، حتى اذا كانت الهجرة وأخرج المؤمنون من ديارهم وأموالهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ونزلوا على اخوانهم الأنصار بالمدينة قامت من جديد أعظم صور التآخى افاضة بالحب والأيثار استوجبت ثناء الله عليهم . وفضلا عن هذا الاخاء الذى قام بين كل اثنين من المهاجرين والأنصار ، فقد أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم درجة أكبر من التآخى بين القبائل والبطون من المؤمنين باعتبارهم أمة واحدة من دون الناس تتكافأ دماؤهم وأموالهم يفدون عانيهم [١] بالمعروف ولا يتركون بينهم مفرجا [٢] الا أعانوه ، ويتعاقلون[٣] معاقلهم الأولى . كما نظم التعامل بين هذه القبائل وبين اليهود الموجودين بالمدينة .. وقد حوى كتاب « الموادعة » نصوص هذه المعاهدة الفريدة التى لا غنى لداعية عن ادراك مراميها العظيمة .

(ج) ثم كانت السنة الثانية من الهجرة وفيها نزلت تشريعات الزكاة فكانت الدستور المالى الدائم ، الذى يلبى حاجة الأمة مهما اتسعت رقعتها فى الزمان والمكان ، وكانت تتويجا لكل ما سبقها .

(د) ومع كل ما سبق .. وبعد نزول تشريع الزكاة ، الا أن أوضاع المسلمين المالية لم تكن قد أخذت شكلها المستمر والطبيعى بعد ، وخاصة أوضاع المهاجرين على ما وسعهم اخوانهم الأنصار فى ديارهم وأموالهم ،

---

(١) أسيرهم .
(٢) مهموما بدين او حاجة .
(٣) يشتركون فى دفع الدية .

فكان أحدهم يقول لأخيه : أبق عليك مالك ، وليبارك لك الله فيه ودلنى على السوق ... وقد استمرت هذه الحال حتى فتح خيبر سنة ٦هـ ، ففى هذا التاريخ فقط « كان المسلمون قد استوفوا العاملين ، فكل مزارع له أرض ، وكل عامل له عمل » [١] .

(هـ) وهنا يمكننا فهم ما قام به الرسول عليه السلام من توزيع الفىء من غـزوة بنى النضير سنة ٤هـ على المهـاجرين فقط واثنين من فقراء الأنصار ، ليحقق بذلك تقاربا فى الثروات وتوازنا فى الملكيات بين هذين الفريقين اللذين يتألف منهما أول مجتمع اسلامى .. ففهم هذا الاجـراء يكمن فى استمرار الظروف غير الطبيعية التى سببت التفاوت المالى برغم نزول تشريعات الزكاة سنة ٢هـ ، وقد قال رسول الله صلوات الله عليـه للأنصار : « ان شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم هذه الغنيمة ، وان شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ، ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة » ، فقالت الأنصار بلغة الحب والايمان : « بل نقسم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها » ، فدعا لهم رسول الله بخير . وفى هذا نزل قوله تعالى فى سورة الحشر : « ما أفاء الله على رسـوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتـامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخـذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ، ان الله شديد العقاب ، للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأمـوالهم يبتغون فضلا من الله ورضـوانا وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

* وفيما عدا هذه الحالة ، لم نجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد لجأ الى مثل هذا الاجراء مرة أخرى حيث أثبتت تشريعات الزكاة فاعليتها

---

(١) بناء الاقتصاد الاسلامى لزيد ابو المكارم ص ١٤٧ .

بتوفير الطاقة لحركة الجسم السليم ، اللهم الا عندما تعرض هذا الجسم الفتى لامتحان جديد فى حروب الفتوحات . ووجد عمر بن الخطاب رضى الله عنه الهدى فى آيات سورة الحشر مرة أخرى لمواجهة الواقع المالى الجديد مما أوجد نظام الخراج على ما سنبينه فى موضعه ان شاء الله .

وقد انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى وبين أيدينا شريعة السماء العادلة التى لا يتولد عنها أى خلل فى حركة الثروات المشروعة لو التزمنا حدود الله فى حركتها ، ولو خلت الحياة من مواقف الفتن بالحروب والأقدار كالفيضانات والبراكين والآفات التى تخل بالتوازن فى بيئة من البيئات .. وعبء جديد أسهمنا فى وجوده ، هو ما خلفه الاستعمار على أرضنا من فقر وحرمان ومن تعطيل يكاد يكون كاملا للشريعة ..

* ولم تخل حياة المسلمين بعد حياة الرسول من أمثال هذه الأقدار كالمجاعة فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وحروب الفتوحات .. وقد كانوا يواجهون الأمر بروح الشريعة وأصولها .. وقد هيأت التربية الايمانية النفوس لتقبل التبعات فى مواجهة هذه الأقدار بما بثته فيها من أن المال مال الله وانه تعالى هو المالك على الحقيقة ، وكان هذا المعنى الايمانى ولا يلغيه كما قد يتوهم البعض ..ومن هنا ينفرد الاسلام بأنه النظام الشامل يحيط بالمعنى القانونى المحدود لمفهوم الملكية ولكنه لا يقلل من قيمته الوحيد الذى يثق فى الفرد ولا يطارده بل يحرك فيه دوافعه الذاتية .. وقد أتى المسلمون فى كل ذلك بالعجب ، وهى درجة من رقى الانسان لا تحلم البشرية بها بعيدا عن هداية السماء ، أما اثارة الأحقاد والضغائن فلا تخلف الا الآثار السيئة حتى فى نفوس المنتفعين من ورائها .. والنفس البشرية تأتى بالمعجزات لو حركها الايمان والحب يجهل ذلك من يجهل النفس البشرية ولا يثق بها .. ولا غرابة فى الأمر ففى عصرنا الحاضر نأخذ هذا الدرس من أحد الهنود .. « انه فنوبا زميل غاندى الذى مر على القرى بالهند واعتمد على قوة الاقناع من دفع الأغنياء الى التنازل عن جزء من أراضيهم حتى نجح فى توفير ١٢ مليونا من الأفدنة بهذا الأسلوب وكان

يسمى دعوته بهودان أى التنازل مختارا عما يزيد عن الحاجة »[1] .

فاذا علمنا ان قانون الاصلاح الزراعى فى مصر الذى أوقع البلاد فى صراعات وملأها بالمعتقلات طبق على نصف مليون فدان أدركنا مقدار جهل الانسان بمفاتيح الحلول ..

* ومع هذا فانى أرى فيما فعله الرسول عمقا آخر حيث لم ينم سوى العوامل الأخوية فى الفترة السابقة على غزوة بنى النضير ولم يتعرض فيها لمال أحد وانما اعتمد على مال الفىء الذى لم يوجف عليه أحد بخيل ولا ركاب فخصصه للمهاجرين واثنين من الفقراء من الأنصار .. ولو كان قد قسم أموال الأنصار بينهم وبين المهاجرين لما وجد منهم الا الترحيب ولكنه لم يفعل ولم يتوانوا بدورهم عن كل بذل .. والكسب من وراء ذلك كله انسانى ونفسانى فى الدرجة الأولى وان تأخر الكسب المادى حتى غزوة بنى النضير .

* هذا كله فيما يتعلق بمصادر التملك أما فيما يتعلق بالأعباء أو التكاليف التى تتحملها الملكيات علاوة على الزكاة المقررة شرعا لمواجهة هذه الضرورات الاجتماعية ريثما تندفع فلها هى الأخرى وجودها وموازينها التى تبعدها عن صورة الضرائب الدائمة وسيأتى الكلام عنها فى موضوع الزكاة .

(ب) اداء حقوق السير « الزكاة » :

وأخص ما تتمثل هذه الحقوق فى فريضة الزكاة التى تعرف شرعا بأنها « مقدار محدود من مال مخصوص يصرف لطوائف معينة من الناس » . وهى تقوم بدور كبير متعدد الآثار فى ميدان النفس والمجتمع والثروة .

* أما فى ميدان الثروة — وهى أول ما يهمنا فى تشريعات المال — فانها تبث فيها الحركة وتحد من تضخمها وتؤدى الى عدالة التوزيع مما يسبب دوام التنمية ويبعد شبح الأزمات .

---

(١) ملحق الأهرام ٢٨ — ٩ — ٦٢ .

* وقد أفصح التعريف اللغوى لها عن هذه الحقيقة : فالزكاة فى اللغة هى النماء والبركة وزيادة الخير ، وهى أيضا التطهير .. وهذا التعريف صورة وصفية للواقع وترجمة لما يؤول اليه حال المجتمع حين يلتزم تشريعها الحكيم ..

* فالزكاة فى عبارة موجزة طهرة للنفس والمال مصداق قوله تعالى « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » .

* والزكاة صدقة ، والصدقة زكاة ، يفترق الاسم ويتفق المسمى .. وهو مشتق من تبادل الصدق : فالذى يدفع الزكاة مصدق والذى يحصلها مصدق .

مقدارها : والزكاة تفرض على أربعة أنواع من الثروة :

١ — الزروع والثمار ٢ — الأنعام ٣ — الذهب والفضة (النقدين) ٤ — عروض التجارة .

* ونصاب الزكاة : فى الابل ٥ ، وفى البقر ٣٠ ، وفى الغنم ٤٠ ، وفى الزرع ٥ أوسق أى ٣٠٠ صاغ أى ما يوازى ٤ ١/٦ أردب ، وفى النقدين والتجارة ما يوازى ٥٣٠ جـ مقدرا بالعملة المصرية ..

* والحصة المفروضة على النصاب تبدأ من ٢٫٥٪ على الأموال وتصعد الى ٥٪ على الانتاج الزراعى الذى يتطلب جهدا فى ريه ، ثم ١٠٪ على الانتاج الزراعى الذى يروى بدون جهد ، ثم ٢٠٪ على الركاز الذى ينال من غير جهد . فالحصة تتناسب تناسبا عكسيا مع الجهد المبذول فى الانتاج ، وكلما زاد الجهد قلت الحصة المفروضة ، وكلما قل الجهد زادت الحصة المفروضة .

أما الحصة المفروضة على الثروة الحيوانية فهى ذات تصاعد معكوس ويلاحظ أن زكاة الزرع أكبر من مقدارها فى الأموال المنقولة لأنها فى الأخيرة تؤخذ من رأس المال والنماء ، أما فى الزروع فانها لا تؤخذ الا من

النماء .. ولا ثنى فى الزكاة لقول الرسول عليه الصلاة والسلام « لا ثنى فى الصدقة » .

* ولادائها يلزم توفر شروط :

١ ـ الملك التام .

٢ ـ القابلية للنماء .

٣ ـ النصاب المعين .

٤ ـ مضى الحول .

٥ ـ الفضل عن الحاجة الأصلية .

* ويكون المال قابلا للنماء بنفسه أو بالعمل فيه وليس الشرط أن ينمو فعلا ، وحيث أن علة الزكاة هى النماء ، فتقديرها فى « الخارج » بتحقق النماء بالحصاد ، وفى الأموال بحولان الحول واشتراط الحول سببه أن النمو يتحقق فيه غالبا فأقيم السبب الظاهر ـ وهو الحول ـ مقام المسبب وهو النمو .

* والزكاة حق المال تلزم صاحبه حال الحياة ولا تسقط بموته حيث تؤدى من تركة المتوفى كدين الآدمى ، ودين الله أحق بالأداء ، وعند الجمهور تجب من مال الصبى والمجنون .

* والأموال التى تفرض عليها الزكاة تنقسم الى أموال ظاهرة وأموال باطنة فالظاهرة هى ما لايمكن اخفاؤه كالزروع والثمار والأنعام .

والباطنة ما أمكن اخفاؤه كالنقدين وعروض التجارة .

الحلقة الرابعة والعشرون

مصارف الزكاة

لا يستطيع انسان أن يحيط بأسرار هذه الفريضة الربانية فى تزكية النفس والمجتمع وتطهيرهما فضلا عن تزكيتهما للمال وتطهيره •

* وكلما اكتشفنا بعدا انسانياً ، لاح لنا بعد انسانى آخر سواء فى داخل كل مصرف من مصارف الزكاة على حدة ، أو المصارف مجتمعة ، أو فى النسب المفروضة على الأموال ، أو فى أنواع الأموال المزكاة ، أو فى أسلوب التحصيل أو التوزيع ، أو فيما لا يندرج تحت عنوان بعينه • ففى كل ذلك يقابلنا لون جديد متميز من الحياة فريد فى علاقاته بين النـاس ، بعضهم ببعض ، وبينهم وبين الحاكم ، بل حتى بينهم وبين أشياء الأرض من حولهم

* وكثيرا ما ارتفع همس نفوسـنا الى تسـاؤلات مدهشـة ، أكان ذلك كذلك ؟ ! أم هـذه النصوص الحـكيمة ، وهـذا الفقـه العظيم كانا مجرد مثال لما يرق اليه الواقع بعد ؟؟ ويزداد بنا العجب عندما تتحقق من أن ذلك كان واقعا على هذه الأرض تشهد له هذه المجلدات الضخمة من الأحكام الفقهية التى تعالج دقائق الحياة العملية فى تاريخنا الاقتصادى •

* وأسفنا على حياة ضاعت أفهمنا فيها الزكاة على أنها مجرد احسان من ذوى المروءات والفضل يمكن أن تستر عورة الضرائب بعملهـا فى محيط التأمينات الاجتماعية ، ولم نفهمها على أنها نظام مالى اصيل متميز قائم بذاته بديل عن كل أنظمة الأرض المالية يحقق فى الثروة والنفس والمجتمع أغلى ما يحلم به مصلح ، بل لم يصل حلم انسان فى الحقيقة التى مثل هذا

النظام أبدا على كثرة ما قدمت قرائح الفلاسفة والحكماء من نماذج المدن الفاضلة •

* وحسبنا اليوم أن نطلق الفجر من عقال السواد ، وأن نرسل شمس الزكاة حرة فى سماها لتبعث فى نفوسنا دفء اليقين بعظمة هذا الدين وخلوده ولتبدد عن أفكارنا ضباب التشويه والضعف الذى أصاب كل شيء فى حياتنا حتى مدلولات الألفاظ ذاتها قبل أن تهب الحركات الاسلامية بهذا التصحيح • ولندخل الى الموضوع من مصارف الزكاة ، ثم نثنى بالتوزيع ، ثم هل فى المال حق سوى الزكاة ، ثم فيم تختلف الزكاة عن الضريبة ، وأخيرا معالم البيئة الجديدة ••

مصارف الزكاة :

قال تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » • وروى أبو داود عن زياد بن الحارث الصدائى ، قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته • وذكر حديثا طويلا ، فأتاه رجل فقال : اعطنى من الصدقة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقة حتى حكم هو فيها فجزأها ثمانية أجزاء فان كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك » •

(١) (٢) الفقراء والمساكين :

صنفان من الناس يجمعهما معنى الحاجة الى الكفاية على خلاف بين الفقهاء فى مدلول الفقير والمسكين ••

ومن الطبيعى اذا طبقت الزكاة لأول مرة فى أحد المجتمعات أن تهدف فى الدرجة الأولى الى أبرز آفاته وأشد علله ، وليس سوى الفقر والمسكنة أغلب آفة وأصل علة فى جميع المجتمعات الجاهلية المنتكسة ، ولكن بعد جولة وجولة من مصارف الزكاة تأخذ آفاتها فى الاختفاء وعللها فى البرء ،

وينفسح الطريق أمام الزكاة لتنشيط الأغراض الاجتماعية الأخرى ، فتأتى عليها واحدا بعد الآخــر ، تمشيا مع مقاصد الشرع الحنيــف فى تحقيق الضروريات فالحاجيات فالتحسينات فى المجتمع .

* وما كان ليغيب عن رسول الهدى ، وهو يوصى عماله على الزكاة بأن يأخذوا من الأغنياء ويردوا على الفقراء انهم سيقومون أيضا ببقية المصاريف الأخرى ، ولكنها الأولية فى الاهتمام ، والاعجاز فى اصابة الهدف ، وقد قال لمعاذ بن جبل حين وجهه الى اليمن : « اعلمهم ان الله افترض عليهم فى أموالهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فان هم أطاعوك لذلك فاياك وكرائم أموالهم ، واتق دعــوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب » (1) .

ولم يزل معاذ بن جبل بالجند حتى مات النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، ثم قدم على عمر فرده على ما كان عليه ، ولما بعث اليه معاذ بثلث زكاة الناس أنكر ذلك عمر وقال : لم أبعثك جابيا ولا آخذ جزية ، ولكن بعثتك لتأخذ من أغنياء الناس فترد على فقرائهم ، فقال معاذ : ما بعثت اليك بشىء وأنا أجد أحدا يأخذه منى ، فلما كان العام الثانى ، بعث اليه بشطر الزكاة فتراجعا بمثل ذلك ، فلما كان العام الثالث ، بعث اليه بها كلها فراجعه عمر بمثل ما راجعه قبل ذلك ، فقال ما وجــدت أحدا يأخذ منى شيئا .

ومن وحى هذا النور تطالعنا نفس الصورة فى شكلها الجديد ، بعد الفتوحات ، وفى عصر خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز ، الذى كان يستد حكمه من الصين الى الأندلس حين كتب الى واليه على العراق عبد الحميد بن عبد الرحمن « أن أخرج للناس أعطياتهم ، فكتب اليــه عبد الحميد : انى قد أخرجت للناس أعطياتهم ، وقــد بقى فى بيت مال المسلمين مال ، فكتب اليه : أنظر كل من أدان فى غير سفه ولا سرف فاقض عنه ، فكتب اليه . انى قد قضيت عنهم وبقى فى بيت مال المسلمين مال ،

---

(1) رواه الجماعة عن ابن عباس .

فكتب اليه أن أنظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فتزوجه وأصدق عنه ، فكتب اليه : انى قد زوجت كل من وجدت وقد بقى فى بيت مال المسلمين مال ، فكتب اليه بعد مخرج هذا أن انظر كل من كانت عليه جزية (من غير المسلمين) فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه فانا لا نريد لعام ولا لعامين ».ونفس المراجعة حدثت مع عامله على أفريقيا يحيى بن سعيد الذى يقول : « بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقيا فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد فقيرا ، ولم نجد من يأخذها منا » .

* نعود بعد هذا التذكير الى مدلول لفظى : الفقراء والمساكين ، فالفقير عند الحنفية هو من يملك شيئا دون النصاب الشرعى فى الزكاة ، أو يملك ما قيمته نصاب أو أكثر من الأثاث والأمتعة والثياب والكتب ونحوها مما هو محتاج اليه لاستعماله والانتفاع به فى حاجته الأصلية .

وعند الأئمة الثلاثة ، لا يدور الفقر والمسكنة على عدم ملك النصاب بل على عدم ملك الكفاية والمراد بالكفاية كفاية السنة عند المالكية والحنابلة .. أما عند الشافعية فالمراد كفاية العمر الغالب لأمثاله فى بلده فان كان العمر المعتاد لمثله ستين وهو ابن ثلاثين وكان عنده مال يكفيه لعشرين سنة كان من المستحقين للزكاة لحاجته الى كفاية عشر سنين(١) .

* وقد اتفق الفقهاء على معنى الغنى الموجب للزكاة فى الجملة ، وهو ملك النصاب من الأموال النامية المعروفة بشروط خاصة .

على حين اختلفوا فى حد الغنى المانع من قبولها على أقوال ..

فمنهم من اعتبره لمن يملك خمسين درهما .

ومنهم من يراه فى ملك نصاب زكوى من أى مال كان ، أو من يملك من الأموال التى تجب فيها الزكاة ما يفضل عن حاجته ويبلغ قيمة الفاضل مائتى درهم .

ومنهم من قال : « لا بأس أن يعطى من الزكاة من له مسكن

(١) يراجع تفصيل ذلك فى كتاب فقه الزكاة للدكتور يوسف القرضاوى .

وما يتأثث به فى منزله وخادم وفرش وسلاح وثياب البدن وكتب العلم ان كان من أهله فان كان له فضل عن ذلك ما يبلغ قيمته مائتى درهم حرم عليه أخذ الصدقة . لما روى عن الحسن البصرى أنه قال : « كـانوا يعطون الزكاة لمن يملك عشرة آلاف درهم من الفرس والسلاح والخدم والدار » ، وقوله كانوا : « كناية عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن هذه الأشياء من الحوائج اللازمة التى لابد للانسان منها ، فكان وجودها وعدمها سواء .. وقال الشافعى : قد يكون الرجل بالدرهم غنيا مع كسب ولا يغنيه الألف، مع ضعفه وكثرة عياله » .

* ويندرج المتفرغ للعلم تحت هذين السهمين اذا تعذر عليه الجمع بين الكسب وطلب العلم لأنه يقوم بفرض كفاية ولأن فائدة علمه ليست مقصورة عليه ، بل هى لمجموع الأمة فمن حقه أن يعان من مال الزكاة لأنها لأحد رجلين اما لمن يحتاج من المسلمين أو لمن يحتاج اليه المسلمون ، وطالب العلم قد جمع بين الأمرين [1]

* ولا يقر فقهاء الاسلام اعطاءها للمتفرغ للعبادة لأن مصلحة عبادته قاصرة عليه ، ولأنه مأمور بالعمل والسعى فى الأرض ، ولارهبانية فى الاســلام .

* أما عن المسكين ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان ، ولكن المســكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس » .

كم يعطى الفقير والمسكين من الزكاة :

اختلفت المذاهب الى اتجاهين :

الأول : يقول باعطائهما ما يكفيهما دون تحديد بمقدار من المال ، وفيه مذهبان :

١ ــ مذهب يقول باعطاء كفاية العمر .

(١) فقه الزكاة ــ القرضاوى ، ص٥٦٠ .

٢ — ومذهب يقول باعطاء كفاية السنة .

الثانى : يقول باعطائهما مقدارا محددا من المال يقل عند البعض ويكثر عند الآخرين ..

فمن قالوا بكفاية العمر يقولون : من يبيع البقل يعطى خمسة دراهم ، أو عشرة ، ومن حرفته بيع الجوهر يعطى عشرة آلاف درهم اذا لم يتأت له الكفاية بأقل منها ، ومن كان ذا حرفة أعطى ما يشترى به آلات حرفته قلت قيمة ذلك أو كثرت ، ومن كان من أهل الضياع (المزارع) يعطى ما يشترى به ضيعة أو حصة فى ضيعة تكفيه غلتها على الدوام [١] .

فان لم يكن محترفا ولم يحسن صنعة ، ولا تجارة ولا شيئا من أنواع الكسب أعطى كفاية العمر الغالب لأمثاله فى بلاده .

وكان عمر رضى الله عنه يقول : اذا أعطيتم فأغنوا ، وكان يوصى السعاة بقوله : « كرروا عليهم الصدقة وان راح على أحدهم مائة من الابل » [٢] ، وقال معلنا سياسته : « لأكررن عليهم الصدقة وان راح على أحدهم مائة من الابل » [٣] .

* أما مذهب من يرى الاقتصار على كفاية السنة فيرونها فى العادة أوسط ما يطلبه الفرد من ضمان العيش له ولأهله . وفى هدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك أسوة حسنة ، فقد صح أنه أدخر لأهله قوت سنة [٤] ، ولأن أموال الزكاة فى غالبها حولية ، فلا داعى لاعطاء كفاية العمر ، وفى كل عام تأتى حصيلة جديدة من موارد الزكاة ينفق منها على المستحقين .

* وأخص ما يخرج به الانسان من شعور أمام هذه المعاملة الفريدة هو وجود روح الاخاء فى المجتمع وليس مجرد عدالة الأرقام بين القلوب المتنافرة .وفى هذين المصرفين كلام فقهى كثير يرن صدى نغمته الأسرية والايمانية فى نفسك على الدوام .

---

(١) النووى ، جـ٦ ص ١٩٣ — ١٩٥ .
(٢) (٣) الأموال لأبى عبيد ، ص ٥٦٥ — ٥٦٦ .
(٤) متفق عليه .

حتى عندما تنتهى جميع أسباب الحاجة المادية ، فان الحاجة النفسية الى الحب المتبادل والايثار المعطاة لا تتوقف وتحل التطوعات محل القروض المالية ، والاحسانات محل الواجبات استجابة للنداء الخالد من رسول الهدى والرحمة « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » قال : فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل •

٣ ـ والعاملين عليها صنفان :

(أ) القائمون على أخذها ويسمون بالسعاة أو المصدقين •

(ب) القائمون على تقسيمها وتفريقها من أمين ومباشر وتابع ومتبوع •

حيث كان يبعث الامام أو نائبه عمال الزكاة للزروع والثمار وقت وجوبها وهو ادراك الجذاذ والحصاد لأنها لا تتعلق بالحول • أما الأنعام وغيرها من الأموال التى يعتبر فيها الحول فكان يعين شهر يأتونهم فيه وكانوا يستجمعون أن يكون ذلك هو شهر المحرم صيفا كان أم شتاء لأنه أول السنة الشرعية •

وكان من شروط العامل :

١ ـ أن يكون مسلما •

٢ ـ أن يكون مكلفا •

٣ ـ أن يكون عالما بأحكام الزكاة •

٤ ـ أن يكون أمينا •

٥ ـ أن يكون كفأ للعمل •

* وقد أتت السنة العملية بالتنظيم الدقيق لهذا العمل •

ففى الصحيحين عن أبى هريرة ، أن الرسول عليه السلام بعث عمر على الصدقة ، كما استعمل الرسول رجلا من الأزد يقال له ابن اللتبية •

كما بعث أبا سعود ساعيا ، وبعث أبا جهم متصدقا ، وبعث عقبة بن عامر ساعيا .

وفى الطبقات لابن سعد : أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث المصدقين الى العرب فى هلال المحرم سنة تسع وذكر ابن سعد اسماء المصدقين وأسماء القبائل التى بعثوا اليها .

وذكر ابن اسحق جماعة آخرين بعثهم النبى الى قبائل وأقاليم أخرى من جزيرة العرب .

وقال ابن حزم فى كتابه « جوامع السير » : كان كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصدقات الزبير بن العوام ، فان غاب أو اعتذر كتب جهم ابن الصلت وحذيفة بن اليمان .

* فبماذا كان هؤلاء السعاة أو المصدقون ؟؟

لم يكونوا يذهبون كمأمورى الضرائب معززين بالشرطة والمباحث السرية وبجيش من المحاسبين وبكل عوامل ضياع الثقة من أطنان الدفاتر ، ولم يكونوا يعودون الغنائم والأموال ، ولا حتى لخزانة الدولة ، فأى نوع من الرجال كانوا اذن ؟ . وفى أى نوع من أنواع المدن الفاضلة كانوا يعملون .. لقد كانوا يذهبون ويعودون بصفاتهم كسعاة ومصدقين لا جباة جبارين وأنعم بها من صفة تكون عصب الحركة المالية فى خير أمة أخرجت للناس ؟ .

فيقول ابن سعيد : كنا نخرج لنأخذ الصدقة فما نرجع الا بسياطنا .

وعن سعيد بن المسيب ، أن عمر بعث معاذا ساعيا على بنى كلاب ، أو على بنى سعد بن ذبيان فقسم فيهم حتى لم يدع شيئا حتى جاء بحلسه الذى خرج به على رقبته ، فقالت امرأته ، أين ما جئت به مما يأتى به العمال من عراضه أهليهم (أى من الهدايا) ، فقال : كان معى ضاغط (أى رقيب) فقالت : قد كنت أمينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبى بكر أفبعث عمر معك ضاغطا ؟ فقامت بذلك فى نسائها ، فاشتكت عمر ، فبلغ

ذلك عمر ، فدعا معاذا فقال : أنا بعثت معك ضاغطا ؟ فقال له لم أجد شيئا اعتذر به اليها الا ذلك ، فضحك عمر وأعطاه شيئا وقال أرضها به .

الادارة المحلية او اللامركزية :

لقد كان سهم العاملين عليها اذن هو المفتاح الأول فى توفير مبدأ الادارة المحلية التى يحلم بها علماء التنظيم الادارى ، كما كان مبدأ توزيع الزكاة فى محل جبايتها هو المفتاح الثانى ، وكان وراء اعطاء العاملين عليها بهمهم مباشرة من مال الزكاة حكمة بالغة فى تدعيم اللامركزية ، ومنع البيروقراطية ، لأن المحلية فى الزكاة وهى عصب الحياة المالية تدافع الى محلية كل شىء بعدها .

ويقول الماوردى [1]: « جعل الله أجورهم فى مال الزكاة لئلا يؤخذ أرباب الأموال سواها فيدفع اليهم من سهمهم قدر أجور أمثالهم ، فان كان سهمهم منها أكثر رد الفضل على باقى السهام وان كان أقل تممت أجورهم من مال الزكاة فى أحد الوجهين ومن مال المصالح فى الوجه الآخر » .

ويعطى العامل ولو كان غنيا . لأنه انما يأخذ أجرا عن عمل أداه لا معونة لحاجة أصابته ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] : « لا تحل الصدقة لغنى الا لخمسة : لغاز فى سبيل الله ، أو لعامل عليها أو لغارم أو لرجل اشتراها بماله أو لرجل كان له جار مسكين فتصدق الى المسكين فأهداها المسكين للغنى [3] .

بين النصيحة والحساب :

* وفوق اختيار العاملين من خلال أدق الشروط ، فقد كانوا يزودون بنصائح الرسول عليه الصلاة والسلام ، فعن عدى بن عميرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطا (ابرة خيط) فما فوقه كان غلولا يأتى به يوم القيامة فقام اليه رجل أسود من الأنصار كأنى أنظر اليه ، فقال : يا رسول الله أقبل عنى

---

(١) الأحكام السلطانية ، ص١٢٣ .
(٢) ، (٣) أبو داوود .

عملك قال : ومالك ؟ قال : سمعتك تقول كذا وكذا ، قال : وأنا أقوله الآن من استعملناه منكم على عمل فليجىء بقليله وكثيره فما أوتى منه أخذ وما نهى عنه انتهى » (١) .

عن عبادة بن الصامت ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه على الصدقة فقال : « يا أبا الوليد : اتق الله لا تأت يوم القيامة ببعير تحمله له رغاء أو بقرة لها خوار ، أو شاة لها ثغاء ، قال يا رسول الله : ان ذلك لكذلك ؟ قال أى والذى نفسى بيده ، قال ، والذى بعثك بالحق لا أعمل لك على شىء أبدا » (٢) .

وكان لا يكتفى الرسول بنصحهم حتى يحاسبهم كذلك ، وسبق أن ذكرنا قصة ابن اللتبيه الذى قال : هذا لكم وهذه هدية أهديت الى ، ولما سمع خطبة الرسول وما فيها من انكار لهذا التصرف رد ما كان قد أخذه .

وعن النعمان بن الزبير قال : استعمل محمد بن يوسف طاووسا على مخلاف فكان يأخذ الصدقة من الأغنياء فيضعها فى الفقراء ، فلما فرغ قال له : ارفع حسابك قال : ما لى حساب كنت آخذ من الغنى فأعطيه المسكين .

وبعد : فهل تحلم أمة أن يكون هذا هو حدود اختصاص القائمين على النظام المالى فيها ، وأن يكون هذا طبيعة عملهم وأن تكون هذه هى أخلاقهم ؟. بل وأسماؤهم ؟.

٤ - المؤلفة قلوبهم :

هم الذين يراد تأليف قلوبهم بالاستمالة الى الاسلام أو التثبيت عليه أو بكف شرهم عن المسلمين أو رجاء نفعهم فى الدفاع أو فى النصر على عدو وهو أمر لا يوكل الى الأفراد فى العادة ..

وقد قال القرطبى (٣) (المشركون ثلاثة أصناف : صنف يرجع عن

---

(١) مسلم وابو داوود وغيرهما .
(٢) الطبرانى فى الكبير واسناده صحيح .
(٣) تفسير القرطبى جـ٨ ص ١٧٩ .

كفره باقامة البرهان وصنف بالقهر والسنان وصنف بالعطاء والاحسان ، والامام الناظر للمسلمين يستعمل مع كل صنف ما يراه سببا لنجاته وتخليصه من الكفر) .

روى انه لما « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء المؤلفة قلوبهم أبا بكر وسألوه أن يكتب لهم خطا بسهامهم ، فأعطاهم ما سألوه ، ثم جاؤوا الى عمر وأخبروه بذلك فأخذ الخط من أيديهم ومزقه وقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطيكم ليؤلفكم على الاسلام فأما اليوم فقد أعز الله دينه فان ثبتم على الاسلام والا فليس بيننا وبينكم الا السيف فانصرفوا الى أبى بكر فأخبروه بما صنع عمر رضى الله عنهما وقالوا : أنت الخليفة أم عمر . قال : هو ان شاء ولم ينكر أبو بكر قوله وفعله ... وبلغ ذلك عامة الصحابة فلم ينكروا ..

* وما فعله عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليس نسخا للقرآن ولا تعطيلا للنص [1] لأن النسخ ابطال حكم شرعة الله وانما يملك الابطال من يملك التشريع وليس ذلك الا لله عز وجل ..

وانما جواز التأليف وتقدير الحاجة اليه مرجعه الى ولى الأمر من المسلمين كما نقل القرطبى عن القاضى عبد الوهاب من المالكية قال : ان احتيج اليهم فى بعض الأوقات أعطوا .. وقال القاضى ابن العربى : الذى عندى انه ان قوى الاسلام زالوا وان احتيج اليهم أعطوا سهمهم كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم .

ودواعى صرف هذا السهم اليوم مستمرة للترغيب والدعوة الى الاسلام وما كل انسان يحركه الاقتناع بالحق [2] بل هناك من تحركهم الرغبة ويقودهم الهوى ونحن نجذبه منهما الى ساحة الاسلام ريثما تنضج مقاييسه وتتطهر رغباته ويبرأ من علله ..

---

(١) تفسير القرطبى جـ٨ ص ١٧٩ .
(٢) فقه الزكاة للدكتور يوسف القرضاوى .

وما أخس ما تلجأ اليه النظم الأرضية من أساليب لا أخلاقية وغير انسانية لاجتذاب الأنصار والمؤيدين أقربها ما تغص به سجون الأنظمـة التقدمية ممن يرفضون تأييدها بكل صنوف القهر والاغـراء سنين عددا وما أنظف وسيلة الاسلام وما أنصعها وأكثرها رحمة وواقعيـة فى تأليف القلوب ولكننا نجهل ما بين أيدينا من كنوز ..

الحلقة الخامسة والعشرون

ووجوه أخرى في مصارف الزكاة

بعد فراغنا فى حلقة الأمس من مصارف « الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم » .

نأتى فى حلقة اليوم على مصارف « وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » .

وقد غايرت الآيات التى حصرت الزكاة فى الأصناف الثمانية بين المصارف الأربعة الأولى والمصارف الأربعة الأخيرة ، فالأولون جعلت الصدقات لهم والأخيرة جعلت الصدقات فيهم فما سر هذه المغايرة ؟ .. ولماذا عبر عن استحقاق الأولين باللام التى هى فى الأصل للتمليك . وعبر عن استحقاق الآخرين بحرف الفاء التى هى للظرفية ..

يقول الزمخشرى : بأن العدول عن اللام الى « فى » فى الأربعة الأخيرة للايذان بأنهم أرسخ فى استحقاق الزكاة من الأربعة الأولى لأن « فى » للوعاء فنبه على انهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا فطنة لهم ومصبا .

وعقب ابن المنير على الزمخشرى قال : وثم سر آخر هو أظهر وأقرب ، وذلك ان الأصناف الأربعة الأوائل ملاك لما عساه يدفع اليهم وانما يأخذونه ملكا فكان دخول اللام لائقا بهم وأما الأربعة الأواخر فانهم لا يملكون ما يصرف نحوهم بل ولا يصرف اليهم ولكن فى مصالح تتعلق بهم ..

* كل هذا العمق والالهام !! ومع ذلك فما زال للسر بقية لم تتوهج جذوته بعد ؟!

لعله يوجد فى الفرق بين ما يكون عليه جسم فى حالة المرض أو النمو وبين ما يصير اليه نفس الجسم من حال الصحة والاستواء .. فهو يعبر حالة الأولى ليستقر فى حالة الثانية حيث يفيض بالثمر والعطاء .. وقد رأينا برهان ذلك فى المجتمعات التى عرفت طريق الاسلام لأول مرة وكيف تخلصت بعد فترة وجيزة من حالات الفقر والمسكنة حتى لم يعد يعثر عامل اليمن ولا غيره فى عهد عمر بن الخطاب ولا عمال الأقاليم فى عهد عثمان ولا فى عهد عمر بن عبد العزيز ولا فى عهود أخرى على مستحق لزكاة ورأينا كيف لحق سهم المؤلفة قلوبهم بأخويه .. أما سهم العاملين عليها فقد تعرض هو الآخر فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه لمعاملة خاصة كان وراءها سر خاص — كذلك فقد ذكر الكاسانى رضى الله عنه فى البدائع « ان عثمان رضى الله عنه عندما كثرت الأموال فى زمانه رأى المصلحة فى أن يفوض الأداء الى أربابها باجماع الصحابة ، فصار أرباب الأموال كالوكلاء عن الامام .. ألا ترى انه قال : « من كان عليه دين فليؤده وليزك ما بقى من ماله » فهذا توكيل لأرباب الأموال اخراج الزكاة ولا يبطل حق الامام .. لهذا قال أصحابنا ان الامام اذا علم من أهل بلد أنهم يتركون اداء الزكاة فانه يطالبهم بها » .

* وانها لدرجة من الثقة فى دين الرعية بالغة السمو أثارت الكثير من الآراء الفقهية حول مجال الأخذ بها فى الأموال الظاهرة كالزروع والأنعام أو الأموال الباطنة كالنقود وعروض التجارة ..

ووجه العجب هو فى أن هذا المدى البعيد من أصغر صور اللامركزية وأوسع صور الاشتراك فى المسئولية ، قد حدث فعلا على وجه الأرض وفى ماذا ؟ .. ليس فى النقاش الأجوف الذى ينعت بالعمل السياسى وانما فى المال .. كيف يجمع ؟ وأين ينفق ؟ . وهل تطمح أمة على وجه الأرض أو يفكر حاكم مهما بلغ تساميه فى أن يجعل الفرائض المالية موكولة الى ضمائر الناس يعرفون تلقائيا الأموال الخاضعة لها والنسب المفروضة عليها وأوجه انفاقها ويكتفى هو بالرقابة من بعيد « فان علم من أهل بلد انهم يتركون اداء الزكاة فانه يطالبهم بها » .

* على كثرة ما قرأنا عن أحلام المدن الفاضلة فهل قابلنا حالم بمثل هذا اللون من العلاقات بين الحاكم والرعية أو حالم بمثل هذا المجتمع الذى يفيض رخاءودينا وحرية .. أليس تاريخنا ما زال مجهولا لنا ولم يقدم الينا كما ينبغى . أليست هذه مسئولية المثقفين قبل أى تسول على موائد العاجزين ..

* من الطبيعى أن نفهم أن هذه الدرجة الأخلاقية لم تخرج الزكاة عن كونها نظاما ماليا من مسؤوليات الامام الأولى حتى ولو حارب عليها كما حارب أبو بكر رضى الله عنه .. ولكنها مسئولية لم تسلبه حقه فى أن ينيب عنه متى شاء ما وجد من هم أهل لهذه الانابة الراشدة ولعمرى فهل يكون ذلك الا فى أمة من الأئمة .. وأن دوننا وعودة هذا اليوم فى حياتنا مرة أخرى أشواط كثيرة .

* أما مصارف : « فى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » فهى باقية ما بقى فى الحياة حركةوأسعار وجهاد وتسارع فى الخيرات وتعاون على البر والتقوى الى آخر خصائص الجسم السليم المكتمل النمو بملامحه الاسلامية المشرقة على الدوام واذا ما كان لكل مجتمع أمل فهو فى أن تزول أو تخف الحاجة الى الأربعة مصارف الأولى لتقوى دواعى الأربعة الباقية ..

* فالزكاة بمصارفها الثمانية تدخل أول ما تدخل على المجتمعات النامية أو المريضة فتهبها القوة والصحة حتى تصل الى كل خلية من خلاياها .. ثم هى تعمل بعد ذلك فى المجتمع وقد أصبح سليما وناضجا فتضاعف من نشاطه وحيويته وتفتح أمام النفوس مجالات الترقى لتتطهر بها وتعلو على المتاع القليل ، وهو أمر مطلوب من النفوس أن تزاوله دائما تحت أى ظرف ومطلوب من المجتمع المسلم أن يدرب أفراده عليه حتى من خلال أحسن الظروف المادية . بل ان ما تحققه الزكاة من أهداف مادية انما هو قاعدة ما ترجوه من أهداف أخلاقية فى الدرجة الأولى بما تعود عليه الانسان من بذل للمال فى سبيل ما هو أسمى من المال وعلى أن يظل مدركا ان فى الحياة

ما هو أجدر بالطلب من كل ما على ظهر الأرض .. وهذه من أهم درجات الصعود الى التوحيد الخالص .. « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

أما الذين ينقلبون عبيدا للمادة فانهم يبدلون خلق الله ويحرفون الفطرة فى نفوسهم ويبوءون بوعيد الرسول « تعس عبد الدرهم تعس عبد القطيفة » . فالبذل والانفاق فى كل أشكاله وفى كل الظروف حاجة ايمانية لا ينفك عنه مسلم وما أعظم تربية الرسول لنا فى قوله « على كل مسلم صدقة فقالوا : يانبى الله فان لم يجد ؟ قال يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق قالوا : فان لم يجد ؟ قال يعين ذا الحاجة الملهوف قالوا : فان لم يجد ؟ قال فليعمل بالمعروف، وليمسك عن الشر فانها له صدقة » .

بهذا التوضيح بين المجموعتين من المصارف ندخل الى المجموعة الثانية ..

٥ — وفى الرقاب :

لا زلت أذكر ذلك السؤال الماكر الذى أشفعه أحدالزملاء بابتسامة ذات مغزى عن موقف الاسلام من الرق .

وقد قلنا له يومها : دعنا نسألك أولا وقبل أن نجيب ، عن معاملة سرى الحرب فى عصرنا الحاضر هل تمارى فى انها خاضعة برغم بريق النصوص لقانون واحد هو قانون الغالب والمغلوب ؟ لا فرق فى ذلك بين دولة ودولة ونظام ونظام .. فالسخرة والاذلال وغسيل المخ والبقاء فى معسكرات الاعتقال سنين طويلة هى أهون ما يلقاه هؤلاء التعساء برغم احتجاجات دولهم ومساوماتها فكيف بهؤلاء الأسرى حين لا يكون وراءهم دولة تحميهم ..

دعنا نسألك مرة أخرى ألا يحدث مثل ذلك مع أبناء الوطن الواحد

تحت مبررات ثورية وتقدمية ثمنا لأى خلاف فى وجهة النظر مع السلطة ووجودنا هنا خير برهان على ذلك .

دعنا أيضا قبل أن تجيب على سؤالك نعرض عليك معاملة الاسلام للاسرى لأن ذلك له صلة قوية بسؤالك ..

* اعلم أن الأمة الاسلامية كانت صاحبة السلطان الأوحد فى العالم لحقبة طويلة من الزمان وكانت هى المنتصرة على الدوام فى حروبها مع الأمم الأخرى .

ومع هذا لم تنبت معاملتها للأسرى من موقع الغالب مع المغلوب بل من موقع فريد ليس من صنع بشر فيه كل الأخوة الانسانية وكل الرفق والرحمة والواقعية أيضا ..

كان فى شريعتها العادلة المن بلا مقابل ..

وكان فيها أيضا قبول الفداء ..

وكان فيها لمن يستبقون فى الأسر معاملة من نوع فريد .. ليست فيها سخرة ولا سجون ولا معسكرات اعتقال ولا غسيل مخ ..

بل كانت لا تفرق بين الرجل وزوجته من الأسرى ولا بين المرأة وابنها ومن انعدمت أزواجهن وصرن سبايا كانت حركتهن بقانون .

أما الرجال الأسرى فظلوا طليقين فى الحياة لكن تحت اشراف وحراسة يباشرون من خلالها آدميتهم كاملة من بيع وشراء ومعاملات وزواج والواحد منهم فى كل ذلك فى محضر أسرة اسلامية يخدمها لأنه أسير ويتشرب أخلاقها وقيمها عن قرب بلا الزام ولا اكراه فى الدين وله أثناء ذلك وحتى يتحرر من هذا الأسر معاملة خاصة توجبها التربية الاسلامية تارة ويفرضها التشريع تارة أخرى .

فبالتربية يتعلم المنتصرون ان هؤلاء الأسرى هم اخوانهم « فمن كان

أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه مالا يطيق فان كلفه فليعنه ولا يقل عبدى وأمتى بل فتاتى وفتاى » •

ويرى ان أعظم القربات فى دينه هى اكرام الأسرى « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » ••

* ولا يقف الأمر عند حدود المعاملة الطيبة بل وتستهدف الشريعة فى النهاية تحرير هؤلاء مرة أخرى •• فتبالغ فى ثواب الاعتاق وتجعله من أفضل الكفارات لكثير من الذنوب ••• وتتلمس له الأسباب فمن لطمه مولاه كانت اللطمة ثمن تحريره ومن يدخر مبلغا من المال ويريد أن يفدى نفسه به تلزم الشريعة مولاه بذلك عن طريق المكاتبة أمام القضاء « وكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » •

* وقبل كل هذا وبعد كل هذا يأتى النظام المالى للأمة ليخصص ١/٨ الزكاة لفك الرقاب كل عام ••

* هذا هو الرق فى الاسلام مصدره الوحيد المشروع أسرى الحرب فهل تراه رقا بالمعنى الذى تقصده من سؤالك ؟••

* ومن عجب ألا يكون هناك خلاف بين الفقهاء حول مصرف الزكاة المخصص لاعتاق هذا النوع من الأسرى ويكون بينهم الخلاف حول تخصيصه لفك الأسرى من المسلمين من أيدى الأعداء ، فالمروى فى مذهب الامام أحمد ان ذلك جائز لأن فيه فك رقبة من الأسر وقال القاضى ابن العربى المالكى اختلف العلماء فى ذلك فقال اصبغ لا يجوز وقال ابن حبيب يجوز ••

ويحدثنا التاريخ ان أسرى الفتوحات الاسلامية قد أخذوا يدخلون فى دين الله أفواجا بعد معاشرتهم فى فترة الأسر أو الرق لهذه البيئة الجديدة الفاضلة وانهم فضلوا بعد اسلامهم وتحررهم موالاة الأسر التى كانوا يعملون فيها فكان ذلك بداية نشأة الموالى فى التاريخ الاسلامى وتبوأ أبناء

الموالى هؤلاء أعلى المراكز بعد ذلك وكانوا أئمة الفقه والحديث واللغة وسائر العلوم فى الدولة الاسلامية .. وعندما أصاب الضعف حياة المسلمين أصاب معها مدلولات الألفاظ كذلك وبعد . أهذه الأخوة الانسانية والرحمة العميمة من صنع بشر ؟.

٦ ـ والغارمين :

هذا المصرف يعطى لصنفين من الناس ..

(أ) رجل أصابته جائحة : أى كل من نزلت به نازلة مالية من حرق أو هدم أو آفة على الزرع أو هلاك .. الخ ..

(ب) رجل تحمل حمالة : أى غرم غرما ماليا فى شكل الديون .... وقد فرق الفقهاء بين [1] من استدان فى مصالح نفسه كمن يستدين فى نفقة أو كسوة أو زواج أو علاج مرض أو بناء مسكن أو شراء أثاث أو تزويج ولد أو أتلف شيئا لغيره خطأ .. فهذا المستدين فى غير سرف ينبغى أن يدفع له مع الفقر دون الغنى .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفى وعليه دين فعلى قضاؤه » [2] أما المستدين فى مصالح المسلمين فيدفع اليه مع الفقر والغنى قدر دينه فقط ..

* بهذا العلاج الذاتى الاسلامى لا تنبت الحاجة الى الكثير من ترقيعات النظام الرأسمالى فى صور شركات التأمين ومؤسسات الضمان الاجتماعى والملاجىء وغير ذلك من ضحايا الصراع الطبقى وضياع الأمن وفقدان الأخوة بين الناس .

أكثر من هذا ان تخصيص جزء من هذا المصرف لكل من استدان من مصالح المسلمين يعتبر شيئا فريدا فى عالم المجتمعات وخصيصة من خصائص هذه الأمة الاسلامية . ويصرح الفقهاء بحق هذا الغارم . قام بالاصلاح بين جماعتين من أهل الذمة .

(١) فقه الزكاة ـ يوسف القرضاوى . ص ٦١٣ .
(٢) الاموال ص ٥٨٠ .

❋ ومن ثم فقد شاع فى حياة المسلمين أن يجدوا من الزكاة عونا لهم فى المهور والنفقات والديات .. كما ان المعنى العميق وراء تسديد دين من تحمل غرما ماليـا فى تفريج كربة أو تعزيز صلح انما هو فى انماء هـذه المسئولية الاجتماعية فى نفوس الأفراد وازدهار الحياة بجو التراحم والنجدة لا حياة اللامبالاة والأنانية والضياع ..

٧ - وفى سبيل الله :

اختلف الفقهاء فى تعيين المقصود من هذا المصرف .

مذهب الحنفية : عند أبى يوسف المراد الغزاة وعنـد محمد المراد الحجاج وقيل المراد طلبة العلم وقيل بل جميع القربات والطاعات ..

ومذهب المالكية : قال القاضى ابن العربى المراد الغزو والجهاد ..

مذهب الشافعية : المراد الغزاة المتطوعون للجهاد ..

فهناك اتفاق على أن الجهاد داخل فى سبيل الله واختلاف حول توسيع معنى فى سبيل الله بحيث يشمل كل ما يتعلق بسائر المصـالح والقربات وأعمال الخير والبر من اصلاح طرق وبناء مساجد ومدارس وانشاء قناطر وسدود ومصارف أخرى .

ويعمل هذا السهم على ربط الأقاليم جميعا ببعضها لأنه السهم الوحيد المسموح بنقله من اقليم لآخر لمصلحة أمن الأقاليم جميعا ويقول الماوردى : « لا ينقل سهم من عدم منهم فى جيران المال الا سهم سبيل الله فى الغزاة فانه ينقل اليهم » .

٨ - وابن السبيل هو المسافر :

وقد سبق أن رأينا كيف كشف مصرف « فى الرقاب » عن روح الأخوة الانسانية ..

أما مصرف ابن السبيل فانه يؤكد الأخوة الاسلامية فى ربوع العالم الاسلامى بصفة خاصة بحيث يشعر المسافر على الدوام أنه بين أهله وماله ،

وأن صفة دار الاسلام صفة حقيقية بكل ما تشمل عليه من مضمون السكن والأمان •

فمن هذا المصرف يعطى المسافر حسب كفايته اذا لم يكن سفر معصية سواء أكان المسافر مبتدئا بالسفر أم مجتازا •

وقال أبو حنيفة ، ادفعه الى المجتاز دون المبتدىء • وفى كتب الفقه تفصيل كبير حول طريقة العطاء ومداه ، وهل يقتصر على بلوغه هدفه أم يكفيه ذهابا وايابا •

وفى كتب التاريخ روائع عملية عن ظاهرة انتشار بيوت ابن السبيل فى مداخل المدن والقرى مجهزة بالمؤن والمال والعلف للدواب تستقبل المسافرين الذين انقطع بهم الطريق لتبلغهم مقاصدهم لا لكى تجرى معهم التحريات ، وتتحقق من تأشيرات الدخــول والخروج ، وغير ذلك مما ملأ حياتنا من أغلال ••

يروى ابن سعد ، أن عمر بن الخطاب اتخذ فى عهده دارا خاصة أطلق عليها « دار الدقيق » والسويق والتمر والزبيب وكل ما يحتاج اليــه يعين به المنقطع به والضيف ينزل بعمر ، ووضع عمر فى طريق السبل ما بين مكة والمدينة ما يصلح به المنقطع ويحمل من ماء الى ماء •

وفى عهد عمر بن عبد العزيز ، يحدثنا الامام أبو عبيد أنه أمر الامام ابن شهاب الزهرى أن يكتب له السنة فى مواضع الصــدقة ، فكتب كتابا مطولا قسمها فيه سهما سهما ، ومما جاء فى الكتاب عن ابن السبيل قوله : « وسهم ابن السبيل يقسم لكل طريق على قدر من يسلكها ويمر بها من الناس لكل رجل من ابن السبيل ليس له مأوى ولا أهل يأوى اليهم فيطعم حتى يجد منزلا أو يقضى حاجته ويجعل فى منازل معلومة على أيدى أمناء لا يمر بهم ابن السبيل له حاجة الا أووه وأطعموه وعلفوا دابته حتى ينفد ما بأيديهم ان شاء الله » [١] •

---

(١) الأموال ص ٨٥٠ •

وقد كانت هذه الروح وراء ما تميزت به الأمة الاسلامية من ظاهرة الترحال والتحول فى طلب العلم والرزق بطريقة لم تسبق فى أى أمة ، ويكفى مراجعة تاريخ أى عالم من سلفنا الصالح لنقف على ما كان يجوبه من البلاد والأمصار طولا وعرضا على زهدهم وقلة مالهم بما لا يستطيعه اليوم أصحاب الثراء . ولكن معرفتنا اليوم بما كانت توفره لهم شريعة السماء فى كل شبر على الأرض قد أذهب عنا العجب ، فقد كانوا حيثما حلوا أو ارتحلوا فى دارهم وبين أهلهم .

وهل تحلم أمة بأن يصير فى برنامجها المالى والانسانى مثل هذه الفنادق المجانية على مشارف المدن لكل قادم ، مثلما حدث ذلك فعلا فى تاريخنا المجهول لنا ..

* وكأنى بالمصرفين الأخيرين « فى سبيل الله وابن السبيل » وراء نوع خاص من الحركة والانطلاق فى الثروة والمجتمع هيأه لهما مصرفا « فى الرقاب والغارمين » بما أزالا عن الناس والحياة من قيود وأغلال ؟.

التوزيع وغاياته :

يقول الامام أبو عبيد : « ليس لولاة الأموال أن يقسموها بحسب أهوائهم كما يقسم المالك ملكه فانما هم أمناء ونواب ووكلاء وليسوا ملاكا ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « انى والله لا أعطى أحد ولا أمنع أحدا وانما أنا قاسم أضع حيث أمرت » .

وعن زياد بن حارث الصداقى قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته فأتى رجل فقال : اعطنى من الصدقة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى يحكم فيها هو فجزأها ثمانية أجزاء فان كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك » .

ويرى الشافعى التسوية بين الأصناف الموجودة ، فان وجد الثمانية أخذ كل صنف $\frac{1}{8}$ وان لم يوجد منهم فى البلد سوى ٤ أخذ كل منهم $\frac{1}{4}$

ما جمع •• وهذه التسوية غير مطلوبة بين أفراد الصنف الواحد حسب حاجة كل فرد •• وعن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : « لا بأس أن تعطى الصدقة فى صنف واحد » ؛ وهذا طبعا فى حالة انعدام الأصناف الأخرى ••

قال أبو عبيد : والعلماء مجمعون على أن أهل كل بلد من البلدان أو ماء من المياه أحق بصدقتهم ما دام فيهم من ذوى الحاجة واحد فما فوق ذلك ، وان أتى ذلك على جميع صدقاتها حتى يرجع الساعى ولا شىء معه منها ••

عن فرقد السبخى قال : حملت زكاة مالى لأقسمها بمكة فلقيت سعيد بن جبير فقال : أرددها فاقسمها فى بلدك •

وعن سفيان الثورى : أن زكاة حملت من الرى الى الكوفة فردها عمر ابن عبد العزيز الى الرى •

ويقول الامام أبو يوسف : « يقسم سهم الفقراء والمساكين من صدقة ما حول كل مدينة فى أهلها ولا يخرج منها فيتصدق به على أهل مدينة أخرى ، وأما غيره فيصنع به الامام ما أحب من هذه الوجوه التى سمى الله تعالى فى كتابه وان صيرها فى صنف واحد مما سمى الله تعالى ذكره أجزأه » •

ويقول الامام أبو عبيد : « فان جهل المصدق فحمل الصدقة من بلد الى آخر سواه وبأهلها فقر اليها ردها الامام اليهم كما فعل عمر بن عبد العزيز ، وكما أفتى به جبير ، ثم ذكر صورا كانت تحمل فيها الزكاة الى غير بلدها وعقب قائلا : « وليس لهذه الأشياء محمل الا أن تكون فضلا عن حاجتهم وبعد استغنائهم عنها » •

ومن المتفق عليه أن أهل البلد اذا استغنوا عن الزكاة كلها أو بعضها لانعدام الأصناف المستحقة أو لقلة عددها وكثرة مال الزكاة جاز نقلها الى غيرهم ، اما الى الامام يتصرف فيها حسب الحاجة واما الى أقرب البلاد اليه » •

* حسبنا هذه الاشارات التى ألقت الضوء كافيا على ماتقوم به الزكاة من تطهير النفس والمال وتزكيتها باعتبارها حقا من حقوق السير ، على كل مالك أن يؤديها فى ماله لتتم حركة الثروة فى المجتمع على أساس ربانى صحيح .. ومن الطبيعى أن تفى الزكاة فى الظروف الطبيعية بجميع مقاصد الشرع ، ولكن يثور السؤال عندما تمر بالمجتمع ظروف غير طبيعية تتطلب مزيدا من المال كحرب أو كارثة أو مجاعة ، هل يكون فى المال حق سوى الزكاة ؟ .. وهل يعنى ذلك نوع من التشابه مع الضريبة ؟.

الحلقة السادسة والعشرون

هل في المال حق سوى الزكاة ؟

الواقع العلمى يقول :
ان الزكاة حققت تزكية النفس والثروة ، والمجتمع ..

هل فى المال حق سوى الزكاة ؟ وهل تكفى وحدها ؟

(أ) روى الشيخان وغيرهما عن طلحة رضى الله عنه قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا هو يسأل عن الاسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فقال : هل على غيرهن ؟ قال لا الا أن تطوع .. وذكر الزكاة فقال : هل على غيرها ، قال لا الا أن تطوع » فأدبر وهو يقول : لا أزيد على هذا ولا أنقص منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفلح ان صدق أو دخل الجنة ان صدق .

فمن هذا الحديث الشريف ، ومن حديث رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه : عن واقعة مماثلة مع اعرابى ، ومما رواه الترمذى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك » . ومما رواه الحاكم عن أم سلمة أنها كانت تلبس أوضاما من ذهب ، فسألت عن ذلك النبى صلى الله عليه وسلم قالت أكنز هو ؟ قال : اذا أديت زكاته فليس بكنز .. ومن سنة الرسول العملية أنه لم يأخذ

من المسلمين سوى الزكاة ، على ذلك كله يستند أصحاب الرأى القائل بأنه ليس في المال حق سوى الزكاة •

(ب) واحتج القائلون بأن فى المال حقا سوى الزكاة بما جاء فى الآية الكريمة : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر •• » من دعوة الى الانفاق فضلا عن ايتـاء الزكاة •• واحتجوا أيضا بنصوص أخرى تدعو الى مراعاة حق الضيف وحق الزرع يوم حصاده ، وحق الماعون وهو ما اعتاد الناس أن يتبادلوه فيما بينهم ، وحق التكافل العام بين المسلمين •

* واذا أمعنا النظر لم نجد هناك أى تعارض بين الفريقين •

فالواقع العملى قد كشف بالفعل عن كفاية الزكاة فى تحقيق الأغراض التى أنيطت بها فى تزكية النفس والثروة والمجتمع ، بل وكشف فى مجـال الثروة عن تحقيق فائض حاول عمال الزكاة انفاذه الى موقع الامام فروجعوا فى ذلك حتى تتم كفاية أقاليمهم أولا حسبما مر بنا فى الحلقة السابقة من ضوابط تنقل مصارف الزكاة من بلد الى بلد •

* هذا الأصل العام فى كفاية الزكاة وحدها لا ينفى وجود حقوق أخرى مرهونة بشروطها يلتزمها المسلم بمقتضى الشريعة تارة من نحو الانفاق على الاقارب أو زكاة الفطر ، أو بوحى من ايمانه تارة أخـرى فى كل وجوه الخير ، ولا يوجد قلب ذاق حلاوة الايمـان وبرد اليقين يرضى أن يقف انفاقه عند حد •• ولكن هذه الصور المختلفة من الانفاق تغاير صـورة الزكاة كفريضة مالية تشمل المجتمع بأسره وتخضـع لقواعد منضبطة فى التحصيل والتوزيع ، وهو الأمر المقصود بقول من قال : « هل فى المال حق سوى الزكاة ؟ أى حق من قبيل الزكاة فى قواعده وعمومه وتنظيمه الادارى . واذا دققنا وجدنا أن الحقوق المشار اليها تتعلق بأعيان الأشخاص المطالبين بها حال حياتهم تنقضى بوفاتهم ، أما الزكاة فهى حق يتعلق بالمال يؤدى حال حياة الفرد ويؤدى من ماله بعد وفاته ويؤدى من مال الصبى والمجنون ومن ثم فلاتعارض بين الحقين ••

حدود ما تقتضيه الضرورة :

* وحتى عندما توجد حقوق من نوع الزكاة فى تعلقها بالأموال وشمولها للمجتمع بأسره وخضوعها لقواعد عامة فى التحصيل والتوزيع فانها مع ذلك لا تخل بقاعدة « أنه ليس فى المال حق سوى الزكاة » طالما أن هذه الحقوق ليست دائمة دوام الزكاة وانما فى حدود الضرورة التى اقتضتها ريثما تندفع وتزول أسباب فرضها والا خرجت عن حدود الضرورة الى صورة الفرض الدائم وهو مفهوم الضرائب الذى لا مبرر له من طبيعة الاسلام المالية .. على أن يكون مفهوما أنه الأصل فى حياة الانسان هو الصحة والسلامة والاستثناء أن يصيبه المرض ، فكذلك المجتمع الذى اكتملت له السلامة على الدوام ولا يحتاج الى غيرها من الفروض المالية الا ريثما يدفع مرضا أو يحقق أمرا فوق المعتاد من حركة النمو الطبيعى أو خلاف المعتاد من حركة الجسم السليم وهو لا يتكرر مع الحياة الطبيعية كثيرا .

آية ذلك ما نطقت به أقوال الفقهاء : من أنه : « اذا جاع المسلمون فلا مال لأحد » .

وما قاله ابن حزم : « فرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك ان لم تقم الزكوات ولا فىء المسلمين بهم . فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة ، ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاما فيه فضل عن صاحبه لمسلم أو ذمى لأن فرضا على صاحب الطعام أن يطعم الجائع وله أن يقاتل على ذلك » .

السوابق التاريخية :

* وحتى مع وجود الضرورات الاجتماعية ، التى تقتضى تدخل الامام ببعض الفروض ، حتى مع ذلك نرى تحرج الفقهاء من السماح للامام بهذا الحق الا بضمانات كثيرة حتى لا يسىء استخدامه وبمراجعة السوابق التاريخية مع بيت المال العام ، الذى أصبح بعد الفتوحات الاسلامية يضم

الى جوار بيت مال الزكاة بيت مال الخراج ، نستطيع أن نقف على دواعى التدخل من جانب السلطان ومداه .

واذا علمنا أن السلطان الحاكم على مال الخراج أوسع منه على مال الزكاة ، ومع هذا لم تطلق يده فى أموال الرعية ، أدركنا كيف تكون مدى حركته مع الزكاة من باب أولى .. وفى هذا يقول القرطبى : « واتفق العلماء أنه اذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فانه يجب صرف المال اليها » ..

قال مالك رحمه الله : يجب على الناس فداء آسراهم وان استغرق ذلك أموالهم ، وهذا اجماع أيضا ..

* وقال البعض : « لا حاجة بالدولة الى أن توظف على أموال الأغنياء ، اذ من الممكن أن تستدين من الأغنياء الزكاة الواجبة عليهم لمدة سنة أو سنتين عما يستقبل من الزمان ، كما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك » .

وقال الغزالى فى المستصفى : « اذا خلت الأيدى من الأموال ولم يكن من مال المصالح ما يفى بخراجات العسكر وخيف من ذلك دخول العدو بلاد الاسلام أو ثوران الفتنة من قبل أهل الشر جاز للامام أن يوظف على الأغنياء مقدار كفاية الجند لأنا نعلم أنه اذا تعارض شران أو ضرران قصد الشرع دفع أشد الضررين وأعظم الشرين ، وما يؤديه كل واحد منهم قليل بالاضافة الى ما يخاطر به من نفسه وماله لو خلت خطة الاسلام من ذوى شوكة يحفظ نظام المرور ويقطع مادة الشرور ، ومما يشهده لهذا أن لولى الطفل عمارة القنوات واخراج أجرة الطبيب وثمن الأدوية ، وكل ذلك تنجيز خسران لتوقع ما هو أكثر منه » .

وقال الشاطبى : « انا اذا قررنا اماما مطاعا مفتقرا الى تكثير الجنود لسد حاجة الثغور وحماية الملك المتسع للأقطار ، وخلا بيت المال وارتفعت حاجة الجند الى ما لايكفيهم ، فللامام اذا كان عادلا أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافيا لهم فى الحال ، الى أن يظهر مال بيت المال ، ثم اليه النظر فى

توظيف ذلك على الغلات والثمار وغير ذلك .. وانما لم ينقل مثل هذا عن الأولين لاتساع بيت المال فى زمانهم بخلاف زماننا ، فان القضية فيه أحرى ووجه المصلحة هنا ظاهر ، فانه لو لم يفعل الامام ذلك لبطلت شوكة الامام وصارت ديارنا عرضة لاستيلاء الكفار » .

ولما تأهب الظاهر بيبرس لقتال التتار وكان محتاجا الى الأموال لتجهيز الجيوش ، ولم يكن ببيت المال ما يقوم بذلك ، استفتى علماء الشام فى جواز أخذ شىء من أموال الرعية فأفتوه جميعا بذلك ، وكان الامام النووى غائبا ، فأرسلت اليه الفتوى لتوقيعها فوافق على فتوى العلماء بشرط أن يرد السلطان بيبرس كل ما عند جواريه وأعوانه من حلى وأموال الى بيت المال .

وكان رد شيخ الاسلام المعز بن عبد السلام على السلطان قطز « أنه اذا طرق العدو بلاد الاسلام وجب على العالم قتالهم ، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى فى بيت المال شىء ، وتبيعوا ما لكم من الحوائص المذهبة والآلات النفيسة ويقتصر كل جند على مركوبه وسلاحه ويتساووا هم والعامة » .

وفى أيام يوسف بن تاشفين (فى الأندلس) احتاج الى مال لتجهيز الجيوش فجمع العلماء والقضاة منهم القاضى أبو الوليد الباجى ، وسألهم فى ذلك فأفتوه بالاجماع بأن له أن يأخذ من المسلمين ما يفى بتلك الحاجات ، فأرسل الى المدن بهذه الفتوى ليطلب من المسلمين أموالا لاعانته على ما هو فيه من الجهاد . ووصل الكتاب الى أهل « المرية » وكان قاضيا يومئذ أبا عبد الله بن الفراء ، وهو من الدين والورع على ما ينبغى ، فكتب الى أمير المسلمين ابن تاشفين يقول : « ما ذكر أمير المسلمين فى كتابه من أن أبا الوليد الباجى وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوه بأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه اقتضاها وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجيعه فى قبره ، ولا يشك فى عدله ، فليس أمير المؤمنين (أى يوسف بن تاشفين) بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا بضجيعه

فى قبره ولا من لا يشك فى عدله ، فان كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلته فى العدل فالله سائلهم عن تقلدهم فيك ، وما اقتضاها عمر حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف أن ليس عنده درهم واحد فى بيت المال للمسلمين ينفقه عليهم ، فلتدخل المسجد الجـامع هناك بحضرة أهل العلم وتحلف أن ليس عندك درهم واحد ولا فى بيت مال المسلمين وحينئذ تستوجب ذلك .

وجاء فى الأحكام السلطانية للماوردى : وأما المستحق على بيت المال ضربان :

أحدهما : ما كان بيت المـال فيه حرزا فاستحقاقه معتبر بالوجود ، فان كان المال موجـودا فيه كان صرفه فى جهاته مستحقا وعـدمه مسقط لاستحقاقه .

الضرب الثانى : أن يكون المال له مستحقا فهو على ضربين :

أحدهما : أن يكون مصرفه مستحقا على وجه البدل كأرزاق الجنـد وأثمان الكراع والسلاح فاستحقاقه غير معتبر بالوجود وهو من الحقوق اللازمة مع الوجود والعدم فان كان موجودا عجل دفعه كالديون مع اليسار وان كان معدوما وجب فيه على الأنظار كالديون مع الاعسار .

الثانى : أن يكون مصرفه مستحقا على وجه المصلحة والارفاق دون البدل فاستحقاقه معتبر بالوجود دون العدم فان كان موجودا فى بيت المال وجب فيه وسقط فرضه على المسلمين وان كان معدوما سقط وجوبه عن بيت المال وكان ان عم ضرره من فروض الكفاية على كافة المسلمين حتى يقوم به منهم من فيه كفاية كالجهاد وان كان مما لا يعم ضرره كوجود طريق قريب يجد الناس طريقا غيره بعيدا أو انقطاع شرب يجد الناس غيره شربا فاذا سقط وجوبه عن بيت المال بالعدم سقط وجوبه عن الكافة لوجود البدل ، فلو اجتمع على بيت المال حقان ضاق عنهمـا واتسع لأحدهما صرف فيما يصرف منهما دينا فيه فلو ضاق عن كل واحد منهما جاز لولى الأمر اذا خاف

الفساد أن يقترض على بيت المال ما يصرفه فى الديون دون الارتفاق وكان من حدث بعده من الولاة مأخوذا بقضائه اذا اتسع له بيت المال •

واذا فضلت حقوق بيت المـال عن مصرفها فقد اختلف الفقهـاء فى فاضله ، فذهب أبو حنيفة انه يدخر فى بيت المـال لما ينوب المسلمين من حادث •• وذهب الشافعى الى انـه يقبض على أموال من يعـم به صلاح المسلمين ولا يدخر لأن النوائب تعين فرضها عليهم اذا حدثت » •

ونلحظ على هذه النصوص ما ياتى :

١ ــ ان فترة حياة الرسول كانت هى النموذج الأمثل فى علاقة الحاكم بأموال الرعية فى الظروف الطبيعية أو الاستثنائية ولم تقابلنا فيها سوى حادث توزيع أموال بنى النضير سنة ٤هـ وما سنه لنا عليه السلام من امكان تحصيل الزكاة لمدة سنة أو سنتين عند الحاجة عما يستقبل من الزمان على سبيل الدين •

وهذا الهدى النبوى يرسم لنا الطريق الأمثل فى كل وضع استثنائى يمر به المجتمع •• ولا نعتقد أن مجتمعا ما قد اصطبغت جوانبه بالاسلام عقيدة وشريعة ثم يجد نفسه تحت أى ظرف استثنائى مضطرا الى أبعد من هذه الصور العملية التى تركها لنا الرسول مضافا اليها ما تعمر به القلوب من ايمان يجعل استجابتها للمسارعة فى الخيرات عن طواعية أمرا طبيعيا •• وتبين لنا كلمات الرسول الخوالد حدود سلطان الحاكم على أموال الرعية فى مجتمع الزكاة فى قوله : « أنى والله لا أعطى أحدا ولا أمنع أحدا وانما قاسم أضع حيث أمرت » •

وأين فى حياة البشر ذلك الحاكم الذى لا يتحكم فى الأرزاق والحريات ويقوم بدور القاسم فلا يعطى أحدا ولا يمنع أحدا ، ولا يكون له سـوى الدور الوظيفى الذى يستحق عليه راتبا يقوم بأمره شأن أى فرد فى الأمة يقوم بخدمة عامة كما كان حال الأئمة المهديين بالفعل ••

٢ ــ أن ما ورد من حقوق أخرى على المال تقتضيها اعتبارات خاصة

أو اعتبارات ايمانية أو ضرورات اجتماعية فانها فى الواقع لا تتعــارض مع « ليس فى المــال حق سوى الزكاة » لأنها ما بين حــالات جزئية مرهونة بشروطها أو ضرورات اجتماعية مقدرة بقدرها بلا ثبات أو دوام أو شمول يعطيها صفة فريضة الزكاة •• بل كانت تسمى « بالوظائف » أو « النوائب » أو « الكلف السلطانية » •

٣ ـ ان النصوص الواردة جمعت بين فترة التطبيق داخــل الجزيرة العربية بعد انتشار الاسلام فى ربوعها حيث سيادة الزكاة على نظامها المالى وكفايتها وحدها بالفرض بصفة أساسية وبين فترة الفتوحات وما أدت اليه الأرض المفتوحة عنوة من سيادة الخراج على النظام المالى كما سنفصل ذلك فيما بعد •

وكان واضحا من الاستشهادات أنه سواء أكانت الحاجة الى المال فى بيئة سيادة الزكاة أو فى بيئة سيادة الخراج ففى الحالين كان حرص الفقهاء واضحا على التزام حدود الضرورة فمن مجند للاقتراض ومن مذكر بالتزام الاقتصار على دفع الحاجة وقد اتضح بجلاء مقدار نفورهم التام من احتمال نشوء نظام مالى ثابت له شمول الزكاة وثباتها وهو مفهوم « نظام الضريبة » الذى سنبين الفرق بينه وبين الزكاة • ولا يعتبر نظام الخــراج من باب الضريبة بل من باب الايجار كما سنبينه فيما بعد ••

الحلقة السابعة والعشرون

الضريبة والزكاة .. ليستا سواء .

خصائص تفردت بها الزكاة :
مصدرا ، وباعثا ، وتوجيها ..

ان انسان الحضارة الغربية الذى يضع مصلحته المادية فوق أى اعتبار ، ويعيش دائما فى سجن غرائزه وأهوائه .. هذا الانسان بهذا السلوك هو مفتاح معرفة النظام المالى بكل دوائره المرذولة فى البلاد الرأسمالية ، وتكثر وتتعدد الحلول والاقتراحات لحل مشاكل المجتمع الاقتصادية والاجتماعية ، ولا أحد يفطن الى السبب البعيد الكامن فى نفس الانسان العربى ، أو بمعنى آخر لا يستطيع أحد من مفكرى الغرب حتى لو فطن أو أراد أن يعالج موطن الداء لأن الطبيب فى العادة هو المريض بنفس الداء .

الدائرة المرذولة :

(أ) برغم ادراك بعض المفكرين لأهمية أن تشمل الضريبة الدخل ورأس المال معا بحيث تتناول ثروات الأفراد كلها ، وتدفع الثروات دفعا الى الحركة فى ميدان الانتاج وغير ذلك من المزايا ، الا أن السلطات عجزت عمليا عن فرضها على رأس المال ، واكتفت بفرضها على الايرادات والدخول ، ولم تستطع أن تصل الى رأس المال الا فى حالة وفاة الفرد حيث يمكن حصر التركات ..

سبب العجز ، هو أن الفرد الذى يدخر من دخله أو ايراده حتى يتكون لديه رأس مال لا يرضى أن تكون مكافأة السلطة له على ذلك هو أن تمتد أيديها الى هذه المدخرات بالضرائب ، فى الوقت الذى كان بوسعه أن ينفق دخله كله ابتـــداء ، وهو أجل هذا ولثقته المفقودة فى أجهزة الدولـــة يجد لنفسه ألف طريق للهروب برأس ماله من الخضوع للضريبة .. تستطيع السلطة أن تراقب ايراداته ودخوله لأنها فى المنطقة المنظورة ، ولكن عندما تدخل الى جيبه يستطيع بدوره أن يزوغ بها بشتى الطرق ويدعى عند حلول موعد الضريبة أنه لا يملك أى رأس مال وليس لديه سوى هذا الدخـــل المراقب سنويا من السلطة .

وحتى هذا الدخل تكثر حوله المناورات والحيل التى لا تنقطع .

(ب) أدركت السلطات وأدرك الاقتصاديون أنه طالما لا يحرك الأفراد الاقتناع الذاتى بأخبارهم طائعين على كل عناصر ثروتهم من رأس مـــال ودخـــول فانه يستحيل عمليا القيام بذلك من جـــانب السلطات ، ومن ثم لا يكون هناك بد من أن يكون وعاء الضريبة هو الايرادات والدخول حيث يمكن ضبطها بكل أشكال الرقابة والحساب .

(جـ) واذا أمن الناس شر السلطة وتحققوا من عجزها عن ملاحقة رؤوس أموالهم وانحصرت مناوراتهم معها فى تلك الدائرة المنظورة ، دائرة الدخول والايرادات .. اذا بظاهرة الاكتناز تصيب رؤوس أموالهم لعدم وجـــود وسيلة لتحريك هذه الثروة المكتنزة فى المجتمع .

(د) وهنا ينشط وسطاء الشر مستغلين ما عليه الكثيرون من فقر وفاقة وما لدى أرباب الأموال من مال مكتنز فيهيئون لأصحاب رؤوس الأموال دخولا مضمونة لا تعرض رأس المال لأى مخاطرة عن طريق الربا ويتطور هذا الوسيط البســـيط بين الغنى والفقير فى هذا اللون من المجتمعـــات المنتكسة ليصبح فى المستقبل مؤسسة مالية كبيرة تقوم بنفس العملية الربوية كوسيط بين أرباب الأموال وأصحاب المشروعات . وهذا هو جوهر عمل البنوك فى هذا اللون الشاذ من المجتمعات . ولا تجد البنوك مفرا من فكرة

سعر الفائدة وهو تعبير مهذب للربا ليكون أداة تحريك الثروة للقضاء على الاكتناز .

(هـ) والمعاملات الربوية تؤدى بدورها الى حدوث الأزمات الاقتصادية والى كل ما يعنيه الاقتصاد الرأسمالى من أزمات وضياع ومشاكل ومضاربات حتى لتظهر المعاملات الطبيعية كفقاقيع صغيرة فوق أمواج متلاطمة من المعاملات الأخرى كما يقول كينز ..

وتصوير القرآن الكريم للذين يأكلون الربا بأنهم لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس هو خير تعبير لحالة الفرد النفسية وحالة المجتمع الاقتصادية .

* اذن لقد أفضت العقائد الفاسدة الى السلوك الأنانى والمادى لدى الأفراد ، وهذا بدوره أدى الى استحالة فرض ضريبة على رأس المال فحدثت ظاهرة الاكتناز ، فنشط الوسطاء لتحريك الثروة عن طريق الربا .. فكانت البنوك الربوية .. فكانت الأزمات الاقتصادية ، فالصراع الطبقى ، فالأحزاب السياسية التى تعكس هذا الصراع ، الى آخر ملامح الحياة الرأسمالية ، ونشط المفكرون الاقتصاديون فى تقديم الحلول للقضاء على الربا باعتباره السبب القريب فى أمراض المجتمع ..

١ ـ نظرية هايك الذى يرى تثبيت كمية النقود .

٢ ـ نظرية ارفنج فيشر ، الذى ينادى بجعل الاحتياطى ١٠٠٪ .

٣ ـ نظرية دوجلاس ، الذى يرى تأميم جميع البنوك .

وعيب هذه النظريات جميعا ، أنها لا تمنع ظاهرة الاكتناز ، أى احجام أرباب الأموال عن استثمار أموالهم .

٤ ـ وجاءت اللمحة الذكية ممن فكروا بفرض الضريبة على رأس المال ، ولكن هيهات أن تنجح الفكرة مع الانسان الغربى . فنجد آرثر لويس

يقول : « وفرض ضريبة على رؤوس الأموال ليس عملا يسيرا ، كما أنه ينطوى على صعوبات فنية ضخمة ، فاذا أرادت الدولة فرض هذه الضرائب بطريقة نزيهة فانها لا تستطيع أن تفرضها فجأة ، انها ستحتاج الى مزيد من الوقت والجهد لتقدير رؤوس الأموال التى يمتلكها الأفراد » .

ويقدم الاستاذ سلفيو جسل اقتراحا عمليا « بوضع طابع على النقود يلزم أصحابها وضعه على ورق البنكنوت على فترات مما يؤدى الى وجود تكاليف اكتناز النقود . كذلك بفرض ضريبة على الودائع بقدر حجمها مما يؤدى الى زيادة الاستثمار ونموه » ، وكان يرى جسل أن تكاليف الاكتناز هذه ستدفع أرباب الأموال الى سرعة التخلص منها ، الا أن هذا الاقتراح قد صادف صعوبات عملية عندما حاولوا تطبيقه فى احدى مدن النمسا ، فضلا عن أنه لا يحول دون أن يتحول الناس بمدخراتهم الى أشكال أخرى من الثروة كالذهب ، كما أن عبء الضريبة سيقع على الفرد الأخير .. وأخيرا تحققوا من العجز عن فرض هذا النوع من الضرائب ، وبالتالى من القضاء على ظاهرة الاكتناز الا بأسلوب الربا بكل مساوئه .. فالربا من ثم يعتبر ضرورة من ضرورات النظام الرأسمالى ، وليس ضرورة عصر ، كما فهم بعض المصلحين خطأ .

❋ وعندنا تقوم الزكاة باعتبارها فريضة تتناول رأس المال أيضا — بمهمة القضاء على الاكتناز فى المجتمع المسلم الذى يتبادل الصدق ويسعى فى أرجائه السعاة والمصدقون ، وليس مأمورو الضرائب والمفتشون .

❋ من العرض السابق اتضح لنا لماذا كان وعاء الضريبة فى التشريعات الوضعية هو الايراد وحده .

أما الزكاة فلها طابع خاص فهى :

١ — بالنسبة الى رأس المال الثابت تعتبر فريضة على الايراد ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا زكاة فى المال الضمار » .

٢ ــ وهى بالنسبة الى رأس المال المنقول تعتبر فريضة على رأس المال والايراد معا ، فاذا تعطل رأس المال عن الكسب فان الزكـاة لا تلبث أن تقضى عليه بعد ٤١ سنة فى الأموال التى تقدر زكاتها بربع العشر ، فالزكاة بذلك تتلاشى كل العيوب وتجمع كل المزايا ..

ويمكن بعد أن نجعل أوجه الخلاف بين الزكاة والضريبة فيما يلى :

١ ــ فى التسمية ، فالزكاة عبادة ونماء وبركة ، أما كلمة الضريبة فتحمل طابع عهـود الظلم بما فيها من ضرب واجبـار ، كما تسمى الزكـاة أيضا بالصدقات من تبادل الصدق ، فالذى يدفعها مصدق ، والذى يجمعها مصدق أو ساع .

٢ ــ فى الباعث على الاداء ، فهو فى الزكاة ذاتى لكونها ركنا من أركان الدين يستشعر مؤديها معنى العبادة وصلة الأخوة ، ولذلك يسن لدافع الزكاة أن يقول : « اللهم اجعلها مغنما ولا تجعلها مغرما ويحمـد الله على التوفيق لأدائها » . فعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اذا أعطيتم الزكاة فلا تنسوا ثوابها أن تقولوا اللهم اجعلها مغنما ولا تجعلها مغرما » وعنه صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرما » .. كما يسن لعامل الزكـاة أن يدعو بالخير والبركة لدافعيها ..

عكس هذه الروح تمـاما تقابلنا بين المولين ومأمـورى الضرائب لفقدان الباعث الذاتى على الأداء رغم كل محاولات زيادة الوعى الضريبى .

٣ ــ الزكاة فريضة من الله وليست ضريبة من بشر لذا فهى مقدار محـدود من مال مخصوص يصرف فى مصارف معينـة أما الضريبة فهى محرومة من هذا التحديد وهذه الدقة فى المقدار والأموال والمصارف فكانت فرص الأهواء فيها كثيرة وكانت مدخلا لكافة التقديرات الشخصية التى لا يسهل معها توفر ثقة الأفراد فى الحكام لا فى مقدارها ولا فى انفاقها .

٤ ــ وعاء الضريبة هو الايراد أما وعـاء الزكاة فهو رؤوس الأموال

المنقولة وايرادها وايراد الأموال الثـابتة .. لذلك كان الربا هو وسـيلة القضاء على الاكتناز وتحريك الثروة باعتباره ضرورة نظام رأس مالى .. وكانت الزكاة فى المجتمع المسلم هى وسيلة القضاء على الاكتناز وتحريك الثروة .. ولا لقاء بين الوسيلتين فى ظل اختلاف الأصول والغايات .. ومن هنا كان فشل جميع الحلول الجزئية التى تكشف عن هزيمة نفسية أو عجز عن النظرة الشاملة على أحسن الفروض ..

٥ ــ قصور الضريبة عن التدرج مع الجهد الانسانى المبذول مثلما تفعل الزكاة وهو فى نفس الوقت قصور عن العدل .

٦ ــ من الناحية الادارية فاللامركزية فى التحصيل والانفاق من أصول الزكاة وفى هذا ابعاد لسلطة الحاكم عن التحكم فى الأرزاق والحريات فهو لا يعطى أحدا ولا يمنع أحدا فيكون الله هو الرزاق بضمانات شريعتـه العظيمة ، ولذلك كان على بن أبى طـالب يقول من وحى هذه التربية لمن يجاهرونه بالعداء من الخوارج « لكم علينا ثلاث : لا نمنعكم حقكم فى المساجد ولا حقكم فى الجهاد ولا حقكم فى الصدقات » هذا فضلا عن أن المحلية وبأسلوب الزكاة بالذات تدفع الى روح الأخاء بين أفراد كل بيت وأسر كل حى وأجزاء كل قرية أو مصنع فينمو الحب والتعاون نموا طبيعيا متسقا مع سنة النمو فى الأحياء من القاعدة الى القمة وليس قسرا بقرارات ثورية ... وهذه المحليـة تؤدى الى محلية غيرها من الأوضـاع وتحصر ما تدعو اليه الحاجة من نفقات أخرى غير الزكاة فى حالات الضرورة فلا يقدم الحاكم عليها الا على بينة من دواعيها فلا يستطيع الحاكم أن يميل بمصارف الزكاة من أغراضهـا ولا أن يستنزف الثروات بفرائض فوق الطاقة .. أما الضرائب فهى تبدأ دائما من السلطة المركزية فتزداد بها تسلطا وقهرا وعقما اداريا وعجزا عن التكافل الاجتمـاعى فتلجأ على مضض لترقيعـات لا مركزية تحت وطأة المشاكل ولكن بلا جدوى ..

٧ ــ الزكاة حلقة فى سلسلة من الحلقات يقوى بعضها بعضا تشكل فى مجموعها الملكية الاسلامية تبدأ الحلقة الأولى بالقيام المشروع ثم الحركة

المشروعة داخليا بمبدأ المشاركة وخارجيا بالتزام حدود السير من أوامر ونواه شرعية وبأداء حقوق السير فى صورة الزكاة ..

والضريبة حلقة فى سلسلة من الحلقات يضعف بعضها بعضا يشكل مجموعها الملكية الرأسمالية تبدأ الأولى منها بقيام الملكية قياما قلما يكون مشروعا ثم تقوم الحركة الداخلية على الاستغلال ثم زوال الكثير من ضمانات السير على ما سبق ذكره .. فكل من الزكاة والضريبة علامة على شكل مختلف عن الآخر من أشكال الملكية الخاصة ..

البيئة الجديدة :

هى جديدة على علمنا بها رغم قيامها قبل ذلك وستكون جديدة على هذه المجتمعات المريضة يوم أن تقوم على أصولها ، وفيها لا تجد آفة الربا جوا فاسدا تتنفس فيه وتتخلى عن مكانها فى هدوء للقرض الحسن . تلك الأداة الجديدة لسد الحاجة الى المال بين أرباب الأموال والمشروعات وستقوم دواوين الزكاة بدور المؤسسات المالية التى ستدفع حركة المشاركة فى المجتمع الاسلامى .. وتبرز لنا الآيات الكريمة ملامح هذا المجتمع الجديد فى قوله تعالى : « ان المصدقين والمصدقات واقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم » وفى قوله تعالى : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون به وجه الله فأولئك هم المضعفون » .

فالزكاة والقرض الحسن معالم هذه البيئة الجديدة يحققان لها ما ترجوه من أهداف اقتصادية وانسانية كذلك .. ولن يعد بنا أية حاجة الى دراسة الربا فى البنوك الحالية وكيفية التخلص منها لأنها دراسة جزئية وعقيمة وتغفل أساس للبناء الاقتصادى كله ذلك الأساس الذى عندما يتغير من الملكية الرأسمالية الى الملكية الاسلامية ستتغير داخله كل الأجهزة المالية وتتغير طبيعة عملها ..

* فالزكاة والقرض الحسن رايتان ترفرفان على ما تحتهما من بيئة اسلامية

والضريبة والربا رايتان منكستان تعلنان الحداد على ما تحتهما من موات .. واقامة البناء يسبق فى الزمن اقامة الراية عليه ولعل هذا يفسر لنا لماذا كانت آيات تحريم لربا من آخر الآيات نزولا فقد خطب الرسول فى حجة الوداع سنة ١٠هـ قال : « ألا ان كل ربا من ربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضعه ربانا » ، ربا عباس بن عبد المطلب فانه موضوع كله وعن ابن عباس فى عمدة التفاسير قال : « آخر ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الربا » وروى أحمد أن عمر قال : « من آخر ما نزل آية الربا وان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض قبل أن يفسرها لنا فدعوا الربا والريبة » .. والآن علينا أن نرى مصداق هذا الاطار التشريعى فى مجال التطبيق داخل الجزيرة العربية حيث الأرض العشرية وفى خارج الجزيرة بعد الفتوحات حيث الأرض الخراجية (أو الملكية العامة) ..

الحَلقَة الثامِنَة وَالعشرون

مَـيْدان التطبيْق

مَن أحيَا أرضًا ميْتة فهِيَ لَـه ...

* ليس ميدانا واحدا بل ميدانان متمايزان :

(أ) داخل الجزيرة العربية بعد الفتح حيث « الأرض العشرية » كنموذج عملى للملكية خاصة اسلامية بكل شرائطها فى القيام والحركة كما سبق أن أوضحته النصوص .

(ب) خارج الجزيرة العربية بعد الفتوحات حيث « الأرض الخراجية » كنموذج عملى للملكية عامة اسلامية بكل صور المعاملـة الجديدة عليها كما سنوضحه بعد .

* واذا شئنا نقول هو ميدان واحد كبير ذو مرحلتين متصلتين رغم تمايزهما احداهما هى الأصل والأمثل ، والأخرى الاستثناء الذى أتت به الضرورة مهما كبرت .

* وكان لذلك ديوان الزكاة كأصل يختلف عن ديوان الخراج كفرع مهما عظم شأنه فى وقت من الأوقات ، فسلطان الامـام على الأول يختلف عن سلطانه على الديوان الثانى .

فهو فى ديوان الزكاة لا يعطى ولا يمنع ، ومحكوم بالنصـوص التى تحدد الأموال والنسب والادارة والمصارف ، وهو فى الثـانى ذو سلطان واسع حيث ينفق المال حسبما تكون المصلحة .

واختصاص عمال الزكاة يختلف بدوره عن اختصاص عمال الخراج .

فكان لا يجوز لعامل الخراج أن يقسم ما جباه الا باذن ، أما عامل الزكاة فيقسم ما جباه من غير اذن ما لم ينه عنه .

واذا فضل من مال الخراج فاضل لزم عامل الخراج حمله الى الامام ليضعه فى بيت المال العام المعد للمصالح ، أما اذا فضل من مال الصدقات فاضل لم يلزم عامل الزكاة حمله الى الإمام وصرفه فى أقرب اقليم ما لم ينبه .

* بهذا يضيف التطبيق الى علمنا بالنصوص ثروة تاريخية من الوقائع لا مثيل لها فى تاريخ أمة من الأمم فى مجال الملكية الخاصة والملكية العامة الاسلاميتين على السواء بما يبعدهما عن أى شبه بالرأسمالية أو الماركسية فى التنظيم أو فى الآثار الاجتماعية .. ولنبدأ بذكر قصة التطبيق فى كل ميدان .

أولا — فى داخل الجزيرة العربية « الأرض العشرية » :

ان حركة المؤشر المالى من الفىء الى الزكاة يعطينا القدرة على تتبع حركة الثروة من أوضاعها الاستثنائية الى الأوضاع المستقرة الطبيعية التى تثمر أكمل علاقات انسانية ، وقد تمر من الظروف ما تفرض الأولوية لهذا الوضع أو ذاك لكن هذه الظروف لا تطمس التفرقة بين الأصل والاستثناء مهما امتدت فى الزمان والمكان .

فالزكاة هى الأصل دائما ، وعندما تؤخذ على الخارج من الأرض تسمى أرضا عشرية ويكون حكمها هو الأصل دائما فى مجال التشريعات المالية .. يطول الزمن ، وتتنوع الحلول الاستثنائية ، ولا تغيب هذه الحقيقة عن فهمنا أبدا والا أصبنا بهزيمة نفسية تجعلنا دائما فى ركاب الأعذار والتبريرات .

* وكان من الطبيعى اذن مع انتشار الاسلام فى الجزيرة العربية وغلبته عليها أن تفيض مصادر الفىء الذى أخذت الزكاة تحل محله شيئا فشيئا ، ولقد بلغ الفىء أكبر قدر له مع بلوغ تيار الهجرة أقصى امتداد له قبل فتح مكة التي أعلن الرسول عندها أنه لا هجرة بعد الفتح ..

وتصور وصية الرسول عليه الصلاة والسلام لأمرائه على الجيوش

أو السرايا هذا الوضع المالى الذى يتغير بالهجرة أو بالبقاء ، وذلك فى قوله عليه السلام فى وصيته للأمير : « واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى احدى ثلاث خصال فأيتهن ما أجابوك اليها فاقبل منهم وكف عنهم : ادعهم الى الاسـلام واخبرهم أنهم ان فعلوا فان لهم ما للمهاجـرين فان أبوا أن يتحولوا فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجـرى على المسلمين ولا يكون لهم فى الغنيمـة والفىء شىء الا أن يجاهدوا مع المسلمين » •

هذا النص يوقفنا على ما كان عليه الحال فى العهد الأول اذ جرت عادة المسلمين على تشجيع الهجـرة اليهم ليكون المهاجـرون الجدد عونـا لهم وليستدفئوا لدينهم كذلك ، وظلت هذه السنة ملازمة للحروب فى الجزيرة العربية ، ومن هنا ظل مصدر الفىء والغنائم مسـتمرا حتى تم النصر المبين بفتح مكة •

* ومن الفقهاء من كان يرى أن الفىء يعم جميع المسلمين ، فالمهـاجرون والمقيمون لهم حق فيه •• ويعقب الامام أبو عبيد بقوله : أنه لا تعـارض بين الرأيين ، فلكل وجه غير وجه صاحبه ، حيث يرى أنه فى بدء الاسلام كان الرسول يشترط الهجـرة لمن ينال من الفىء لأن الله تعـالى يقول : « ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا » ، حتى أنه حدث ابن عباس بأن المهاجر كان لا يرث الأعرابى وهو مؤمن ولا يرث الأعرابى المهاجر كذلك فنسختها الآية الكريمة « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » وعندما توطد الاسلام وانتشر فى الجزيرة انتهت دواعى هذه الحال ، وجاءت السنة المطهرة لتعلن أنـه « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهـاد ونية ، واذا استنفرتم فانفروا » ••

وعندما قال فديك لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله : ان الناس يزعمون ان من لم يهاجر هلك ، قال صلى الله عليه وسلم : « يافديك أقم الصلاة وآت الزكاة واهجر السوء واسكن أرض قومك حيث شئت » •

وعن الأوزاعى عن عطاء قال : زرت عائشة رضى الله عنها مع عبيد بن عمير فسألتها عن الهجرة فقالت : لا هجرة بعد اليوم •• كان المؤمن يفر بدينه الى

الله ورسوله مخافة أن تفتن عنه ، فأما اليوم فقد أظهر الله الاسلام ، فالمؤمن من اليوم يعبد الله حيث شاء ، ولكن جهاد ونية » .

وأورد الامام أبو عبيد فى « الأموال » آثارا تبين أن الرسول عليه السلام كان لا يفرق فى أواخر أيامه فى العطاء بين الأعراب والمهاجرين .

* وكان المؤشر المالى يتحرك بدوره ، من الفىء الذى أخذ يتناقص الى الزكاة التى أخذت تنفرد بالمجتمع .. وتترجم ملكية الأرض هذه الحقيقة ، حيث كانت تؤول كل صور المعاملات عليها فى النهاية الى صورة واحدة هى الأرض العشرية على الأغلب ..

الا أن الفتوحات الاسلامية قد جددت موضوع الفىء فى صورة كبيرة استلزمت الدواوين والعمال واستمرت زمنا طويلا وهى صورة الأرض الخراجية التى دخل بسببها تغييرا جوهريا فى النظام المالى فى حياة المسلمين ، حيث أصبح بعد الفتوحات قرينا لنظام الزكاة وصار لكل عمال ودواوين ومصادر ومصارف .. وسنرى فى مرآة التطبيق أحكام الأرض داخل الجزيرة العربية وخارجها ، وهى لم تخرج عن هذه الحالات السبع فى الجزيرة العربية :

١ — عادى الأرض :

أى الأرض التى لا مالك لها ، وتسمى أيضا بالأرض الموات .. وقد أحيا النبى صلى الله عليه وسلم فى أمرها ذلك المبدأ القديم الذى بدأت به الملكية فى الأرض حيث قال : « من أعمر أرضا ليست لأحد فهو أحق بها » . وعن يحيى عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أحيا أرضا ميتة فهى له » . وعن أسمر بن مضرس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من سبق الى ما لم يسبق اليه مسلم فهو له » وقال : « عادى الأرض لله وللرسول ثم لكم من بعد فمن أحيا أرضا ميتة فهى له وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين » [1] .

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص٧٧ .

وليس بين الفقهاء خلاف فى ذلك وانما الخلاف فى هل يصبح المرء مالكا للأرض بمجرد عمارتها أم يلزم لتحقق الملكية وثبوتها من اذن الامام واقراره .

والصوافى تأخذ نفس المعاملة وهى الأرض التى أصفتها الدولة بعد اخراج أهلها عنها كأراضى بنى النضير حول المدينة أو الأراضى التى كان يملكها كسرى أو التى هرب أهلها أو ماتوا أثناء الفتوحات وقد بلغت فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ٤ مليون جريب ، وكان عمر يقطع منها لمن أقطع .

* والحكم فيمن يمتلك أرضا من الموات أو الصوافى أن أرضه تكون مملوكة له ملكية خاصة ليس عليه فيها سوى العشر .. فهى أرض عشرية .

٢ - ارض اسلم عليها أهلها :

وقد جرى عمل النبى فيها « أن القوم اذا أسلموا أحرزوا دماءهم وأموالهم » وأنه « من أسلم على شىء فهو له » وهو مبدأ ينطبق على الأموال المنقولة والعقارية . والذى تشهد له الأحاديث والآثار النبوية . ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يتعرض قط فى بقعة من بقاع العرب لشىء مما كان فى أيدى المهتدين الى الاسلام أدنى تعرض ، بل بقى كل منهم مالكا لما كان يملكه قبل اسلامه .

وقد شرح القاضى أبو يوسف هذا المبدأ فيما كتبه الى هارون الرشيد « وسألت يا أمير المؤمنين عن قوم من أهل الحرب أسلموا على أنفسهم وأرضيهم ما الحكم فى ذلك ؟ »[1] ... فكل أرض أسلم عليها وهى من أرض العرب أو أرض العجم فهى لهم وهى أرض عشر بمنزلة المدينة حين أسلم عليها أهلها وبمنزلة اليمن ، وكذلك كل من لا تقبل منه الجزية ولا يقبل منه الا الاسلام أو القتل من عبدة الأوثان من العرب فأرضهم أرض عشر وان ظهر عليها الامام .

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص ٦٩ .

وفى هذا الشأن يقول الامام أبو عبيد القاسم بن سلام « وجدنا الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده قد جاءت فى افتتاح الأرضين بثلاث أحكام .. أرض أسلم عليها أهلها فهى لهم ملك ايمانهم وهى أرض عشر ، لا شىء عليهم فيها غيره » [١] .

وقال أيضا « كل أرض أسلم عليها أهلها فهم مالكون لرقابها كالمدينة والطائف واليمن والبحرين وكذلك مكة الا أنها كانت افتتحت بعد القتال ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من عليهم فلم يعرض لهم فى أنفسهم ولم يغنم أموالهم .. فلما خلصت لهم ثم أسلموا بعد ذلك كان اسلامهم على ما فى أيديهم فلحقت أرضوهم بالعشر » [٢] .

وقال ابن القيم فى زاد المعاد [٢] « وكان هديه صلى الله عليه وسلم أن من أسلم على شىء فى يده فهو له ولم ينظر الى سببه قبل الاسلام بل يقره فى يده كما كان قبل الاسلام » .

٣ ـ ارض الصلح :

وهى التى قام بين أهلها وبين المسلمين صلح ليبقوا على دينهم .. « فهم وما صولحوا عليه » لقوله عليه الصلاة والسلام « انكم لعلكم تقاتلون قوما فيتقونكم بأموالهم دون نفوسهم وأبنائهم ويصالحونكم على صلح فلا تأخذوا منهم فوق ذلك فانه لا يحل لكم » [٣] .

وعلى هذا المبدأ فقد ترك النبى صلى الله عليه وسلم كل من صالحه من أرض نجران ودومة الجندل وأهل مقنا وأهل جرباء وأهل تبوك وأهل تيماء وأيلة وأذرعات وهجر وما اليها من القبائل الأخرى مقيمين فى أراضيهم وضياعهم وصناعاتهم وتجاراتهم شأنهم من قبل واكتفى بأن يأخذ منهم من الجزية والخراج على ما كان قد صالحهم عليه .

---

(١) الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام .
(٢) زاد المعاصى ٢ ، ص٩٦ .
(٣) اموال لأبى عبيد باب الوفاء لأهل الصلح .

وعلى هذا سار الخلفاء الراشدون من بعده ، فكل مدينة أو قرية فى العراق والشام والجزيرة ومصر وأرمينية أذعن أهلها بطريق المصالحة بقى فى أيديهم كل ما كانوا يملكونه ولم يؤخذ منهم شيء غير ما صولحوا عليه من المال . ولما نقل أهل نجران من داخل الجزيرة الى العراق والشام عوضوا عما كانوا يملكونه من أرض زراعية ومساكن بأرض مثلها وزيادة عملا بوصية عمر رضى الله عنه « أما بعد فمن وقعوا به من أمراء الشام أو العراق فليوسعهم من خريب الأرض وما اعتملوا من شيء فهو لهم لوجه الله تعالى » .

ومن ثم فقد أقرت السنة مبدأ الملكية لأهل الصلح على أرضهم وأوضح الفقه ذلك: فعن أشعث بن سيرين قال: « من السواد ماأخذ عنوة ومنه ماكان صلحا ،فما كان صلحا فهو مالهم وماكان عنوة فهو فيء للمسلمين» (١) . وقال أبو عبيد : فقوله (فهو مالهم) يعلمك أنه لا بأس من شرائه . وقال مالك : « كل أرض افتتحت صلحا فهى لأهلها لأنهم منعوا بلادهم حتى صولحوا عليها » .

* تبدو قيمة هذا الحكم فيما لو أسلم أهل أرض الصلح فيما بعد حيث يسلمون على أرض هى ملكهم فتصير بعد اسلامهم أرضا عشرية ليس عليهم فيها سوى الزكاة (العشر أو ربع العشر) ويجرى التعامل عليها بنظام المشاركة السابق ذكره . الأمر الذى تحقق فيما بعد .

٤ ـ ارض فتحت عنوة :

هى غنيمة للمسلمين التى افتتحوها يصيبهم ٤/٥ تقسم عليهم للراجل سهم وللفارس سهمان أو ثلاثة أما الـ ١/٥ فيكون لبيت المال يوزع على مستحقيه ..وهذا ما نفذه الرسول فى أرض خيبر التى فتحت عنوة (٧ هـ) وكانت ثمانية حصون : ناعم ، القموص ، شق ، النطاة ، الكتيبة ، الوطيح ، السلالم ، حصن الصعب بن معاذ (وكان أعظم حصون خيبر وأكثرها مالا وطعاما وحيوانا) (٢) فتحت جميعها عنوة ما عدا الوطيح والسلالم ففتحا

---

(١) الأموال لأبى عبيد . ص٨١ .
(٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٦١ ـ ١٦٢ .

صلحا بعد ان حوصرا .. وقد قسم الرسول الستة الباقية أى خمسها كما تقضى الآية الكريمة ، فكانت « الكتيبة » لله والرسول بحق الخمس فى مصارفه الخاصة والباقى للمسلمين وكان عددهم ١٤٠٠ منهم ٢٠٠ فارس ، ١٢٠٠ راجل فأعطى الفرسان ٦٠٠ سهم ٣ لكل منهم وأعطى الراجلين ١٢٠٠ سهم لكل راجل سهم فكان مجموع السهام ١٨٠٠ جعلت ١٨ قسما كل قسم يشمل ١٠٠ .. وهكذا .

* معنى هذا أن كل واحد أصبح مالكا لأسهمه من الأرض ملكية خاصة ليس عليه فيها سوى العشر وتعتبر أرضا عشرية ..

غير انه لما هم الرسول باخراج اليهود من هذه الأرض ليسلمها للمالكين الجدد جاءوه وقالوا له نحن أعلم بالأرض منكم ، دعونا نعمل فيها ونعمرها لكم بشطر ما يخرج منها فأقرهم النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « نقركم فيها على ذلك ماشئنا » . وعليه فقد أوقف التقسيم .

وسار الأمر على هذا الحال الى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما أجلاهم من الجزيرة عملا بوصية الرسول بألا تجتمع فى جزيرة العرب دينان ، وبعد أن أجلاهم أعلن رضى الله عنه أن من كان له مال فى خيبر فليلحق به وخير أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فمنهن من اختارت الأرض ومنهن من اختارت تعويضا عنها وحفصة رضى الله عنها اختارت الأرض .. ومعنى هذا صيرورة الأراضى عشرية فى أيدى أصحابها الذين تسلموها ..

* وهناك معاملة ثانية للأرض التى فتحت عنوة وهى التى فعلها الرسول فى فتح مكة حيث قال لأهلها لا تثريب عليكم ولم يتعرض لهم فى نفوسهم ولا فى أموالهم فظلوا كما كانوا وصارت أرضوهم بعد اسلامهم عشرية .. ومن الفقهاء من يرى أن هذه المعاملة لأهل مكة التى فتحت عنوة تعتبر خصوصية لهم دون غيرهم وليست حكما ثانيا للأرض المفتوحة عنوة [1] .

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص ٦٨ .

٥ - أرض الصدقات :

وهى ملك لبيت المال : وكانت هذه الأرض تحت تصرف الرسول ينفق منها على شئون المسلمين وعلى شؤونه الخاصة ، وهى محصورة لأنه قبض عنها فتعينت وكانت تشمل ٦ قطع من الأراضى لكل منها سبب خاص فى تملك بيت المال لها وهى :

١ - أرض مخيرق الحبر اليهودى من أموال بنى النضير وقدرها سبعة حوائط آمن مخيرق بالرسول وأوصى بها ان قتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقد استشهد فى أحد .

٢ - أرض بنى النضير : وهى أول أرض أفاءها الله على المسلمين الا ما كان ليامين بين عمير وأبى سعيد بن وهب فانهما أسلما قبل الظفر فأحرز لهما اسلامهما جميع أموالهما .. ولقد قسم الرسول ما سوى الأرض من على المصلحة العامة فكانت من صدقاته يعضها حيث يشاء ، وكان ينفق منها أموال على المهاجرين واثنين من الأنصار كما سبق أن رأينا ، وحبس الأرض على أهله نفقة سنة وما بقى جعله فى الكراع وسلاح عدة فى سبيل الله [1] .

٣ - ثلاث حصون من خيبر آلت الى بيت المال : حصن الكتيبة بحق الخمس بعد الفتح عنوة لأن الأربعة أخماس وقدرها ٥ حصون وزعت على المقاتلين .. أما حصنا السلالم والوطيح فقد فتحا صلحا فصارت هذه الحصون الثلاثة بالفىء والخمس خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت من صدقاته ..

٤ - النصف من فدك : لما فتح الرسول خيبر جاءه أهل فدك فصالحوه بسفارة محيصة بن مسعود على أن له نصف أرضهم ونخلهم يعاملهم عليه ولهم النصف . فصار النصف منها من صدقاته معاملة مع أهلها بالنصف من ثمرها والنصف الآخر خالصا لهم الى أن أجلاهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيمن أجلاه من أهل الذمة من الحجاز .. فقوم فدك ودفع اليهم نصف

---

(١) الخراج والنظم المالية فى الدولة الاسلامية لضياء الدين الريس ص٩٥ .

القيمة فبلغ ٦٠٠٠٠ درهم وكان الذى قومها مالك بن التيهان وسهل بن أبى ضمه وزيد بن ثابت فصار نصفها من صدقات الرسول ونصفها الآخر لكافة المسلمين ومصرف النصفين سواء .

٥ - الثلث من وادى القرى لأن ثلثها كان لبنى عذره وثلثيها لليهود فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على نصفه فصارت أثلاثا ٣/١ لرسول الله وهو من صدقاته ، ٣/١ لليهود ، ٣/١ لبنى عذره . فلما أجلاهم عمر بن الخطاب قوم حقهم فبلغ ٩٠٠٠٠ دينار فدفعها اليهم ثم عرض على بنى عذره نصفها فدفعوا ٤٥٠٠٠ دينار فصار نصف الوادى لبنى عذره والنصف الآخر الثلث منه فى صدقات الرسول والسدس لكافة المسلمين ومصرف جميع النصف سواء .

٦ - موضع سوق بالمدينة يقال له مهروز استقطعها مروان بن عثمان رضى الله عنه فنقم الناس عليه فاحتمل أن يكون اقطاع تضمين لا تمليك ليكون له فى الجواز وجه [1] .

* أما ما سوى هذه الصدقات فهى من الأموال الخاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال الماوردى : ذكر الواقدى أن رسول الله صلى الله ورث من أبيه عبد الله أم أيمن الحبشية واسمها بركة ، وخمسة أجمال وقطعة من غنم وقيل ومولاه شقران وابنه صالحا وقد حضرا بدرا .

وورث من أمه آمنة بنت وهب الزهرية دارها التى ولد فيها شعب بنى على وورث من زوجته خديجة رضى الله عنها دارا بمكة بين الصفا والمروة خلف سوق العطارين وأموالا .

* وهذه الأصناف من أراضى الصدقات كانت مملوكة لبيت المال يباشر عليها الامام من التصرفات ما يراه من المصلحة نيابة عن المسلمين ، فهى من ثم ليست أرضا عشرية لأن انتاجها كاله كان يوجه فى مصالح المسلمين ويقوم الامام باستثمارها وقد رأينا أن المعاملة عليها كانت على النصف ..

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٣٩ .

ومع أن للامام أن يباشر عليها من تصرفات المالك نيابة عن الأمة حسبما تكون المصلحة الا أن المسلمين كانوا يتحرجون من تغيير وضعها أو اجراء أى تصرف عليها يخرجها من ملك بيت المال لها وكانت وكالة الامام وكالة مقيدة وليست عامة •• ولذلك نقم الناس على عثمان رضى الله عنه أنه أقطع مروان موضوع سوق بالمدينة يقال له مهروز ويعقب الامام الماوردى قائلا : « فاحتمل أن يكون اقطاع تضمين لا تمليك ليكون له فى الجواز وجه » •

كذلك عندما وضع معاوية يده على فدك مغيرا بذلك سنة أبى بكر وعمر اللذين جعلاها مالا عاما ثم أقطعها لمروان بن الحكم عاملة على المدينة فورثها أبناؤه من بعده لم يسترح المسلمون لذلك حتى اذا جاء عمر بن عبد العزيز وكانت قد خلصت اليه ردها الى ما كانت عليه •

وتختلف أراضى الصدقات هذه عن أرض الحمى لأن الحمى كما يعرفه الماوردى هو المنع من احياء الموات املاكا ليكون مستبقى الاباحة لنبت الكلأ ورعى المواشى وقد حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وصعد جبلا بالبقيع (قال أبو عبيد هو النقيع بالنون) وقال هذا حماى وأشار بيده الى القاع •• واذ كان الحمى يشكل حكما سادسا للأرض داخل الجزيرة فسنفرده بتوضيح •

٦ ـ أرض الحمى :

حمى الموات هو المنع من احيائه تمليكا ليكون مستبقى الاباحة لنبت الكلأ ورعى الماشية وقد قدرت الأرض التى حماها الرسول (أرض النقيع) بأنها قدر ميل فى ستة أميال حماه لخيل المسلمين من المهاجرين والأنصار .

وقد حمى أبو بكر رضى الله عنه أرضا بالسرف واستعمل عليها مولاه أبا سلامة . وحمى عمر رضى الله عنه من الربذة مثل ما حماه أبو بكر وولى عليه مولاه هنى •• ولما جاء أهلها يقولون : يا أمير المؤمنين : انها بلادنا قاتلنا عليها فى الجاهلية ، وأسلمنا عليها فى الاسلام ، علام تحميها ؟ فأطرق عمر ثم قال : المال مال الله ، والعباد عباد الله ، والله لولا ما أحمل عليه فى

سبيل الله ما حميت من الأرض شبرا فى شبر [١] .

ولما استعمل هنى على حمى الربذة أوصاه بقوله : « يا هنى : أضمم جناحك عن الناس ، واتق دعوة المظلوم ، فانها مجابة ، وادخل رب الصريمة والغنيمة ، ودعنى من نعم ابن عفان ، ونعم ابن عوف فانهما ان هلكت ماشيتهما رجعا الى نخل وزرع ،وان هذا المسكين ان هلكت ماشيته جاءنى يصرخ : يا أمير المؤمنين : أفتاركهم أنا أبا لك ؟ فالكلأ أيسر على من الذهب والورق ، وانها لأرضهم قاتلوا عليها فى الجاهلية وأسلموا عليها فى الاسلام ، وانهم ليرون أنى ظلمتهم ، ولولا النعم التى يحمى عليها فى سبيل الله ما حميت من الناس شيئا من بلادهم » [٢] .

وتوضح كتب الفقه حدود الحمى بعد الرسول :

أما عن حمى الأئمة من بعد الرسول فان حموا جميع الموات أو أكثره لم يجز وان حموا أقله لخاص من الناس أو لأغنيائهم لم يجز وان حموه لكافة المسلمين أو للفقراء والمساكين ، ففى جوازه قولان :

أحدهما لا يجوز ويكون الحمى خاصا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لرواية الصعب بن جثامة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حمى البقيع قال « لا حمى الا لله ولرسوله » .

والقول الثاني ، أن حمى الأئمة بعده جائز كجوازه له لأنه كان يفعل ذلك لصلاح المسلمين لا لنفسه ، فكذلك من قام مقامه فى مصالحهم وقد حمى أبو بكر رضى الله عنه من الربذة لأهل الصدقة ، وحمى عمر رضى الله عنه من السرف مثل ما حماه أبو بكر وولى عليه هنى وأوصاه وصيته المشهورة ، فأما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا حمى الا لله ولرسوله » فمعناه لا حمى الا على مثل ما حماه الله ورسوله للفقراء والمساكين ولصالح كافة المسلمين لا على مثل ما كانوا عليه فى الجاهلية من تفرد العزيز منهم بالحمى لنفسه .

---

(١) ، (٢) الأموال لأبى عبيد الله ، ص ٢٩٩ فى الأحكام السلطانية ان الذى حمى من الزبدة هو ابو بكر رضى الله عنه حمى ارضا مثلها من السرف ، « الأحكام ص ١٨٥ » .

٧ ـ الثروة الطبيعية :

قال صلى الله عليه وسلم : « الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ والنار » وفى رواية : والملح .. كما تفيد الآثار ، أنه صلى الله عليه وسلم قد استرجع أرض العقيق ممن اقطعها له ، ـ وهى أرض ملح ـ بعد أن قال له أحد الصحابة ، انما أقطعته الماء الفرات كناية عن عموم نفعها وكبير أهميتها مثل ماء النهر سواء بسواء .

فمرمى قول الرسول وفعله ، أن ترتفع كل الأيدى عن هذه الموارد الطبيعية فلا تجرى عليها من التصرفات ما يجريه المالك فى ملكه .. سواء فى ذلك أيدى الأفراد أو الحكام ، ولكن يبقى للدولة دورها الوظيفى التنظيمى حسبما تمليه نيابتها عن الأمة للمصلحة المتركة لا حسبما يمليه التحكم فى الأرزاق والحريات والتسلط باسم التأميم .. وقد أخطأ من استند الى هذا الحديث فى اعطائها هذا السلطان المطلق .. واذا كانت هذه الثروة فى الجزيرة العربية وقتئذ لا تتعدى الماء والكلأ والملح والنار فانها فى بلاد أخرى تتمثل فى الأنهار ـ والمناجم والمصايد والغابات والشلالات وما الى ذلك .

* هذه هى حال الأرض فى الجزيرة العربية فى ظل الاسلام كلها تفصح عن سيادة الملكية الخاصة المرتبطة بالزكاة (أرض عشرية) بجوار حكمى أرض الصدقات وأرض الحمى لوضعهما الخاص .. وحان موعدنا مع الأرض خارج الجزيرة العربية بعد الفتوحات .

الحلقة التاسعة والعشرون

التطبيق .. خارج الجزيرة العربية

المنطق النفسى .. يعزز المنطق القانونى
نظرات جديدة .. فى قضية « الخراج »

نظرة على خريطة العالم فى الشرق والغرب قبل الفتوحات الاسلامية كفيلة بأن تجعل الانسان يقتنع بما قاله بينز عن حالة الامبراطورية البيزنطية وهو قول يصدق أيضا على الامبراطورية الفارسية بأنه ـ لم يكن هناك شىء متيقن منه الا أمران : الموت والضرائب .

ويكاد يكون هذان الأمران المتيقن منهما أيضا فى أنظمة اليوم وهما المتيقن منهما على الدوام فى كل المجتمعات التى حرمت هدى الاسلام ..

كانت هناك ضرائب على الأرض ، ولتطهير القنوات وضرائب على الرأس ، وعلى الأراضى المشغولة بالبناء من المدن وعلى المنازل وعلى كل فصيلة من الماشية وعلى أنواع المهن وعلى المبيعات وعلى النقل من خارج القطر وفى داخله وعلى التركات وهدايا تقدم الى الملك وقرابين تقدم للكنائس وغير ذلك من صور التفنن فى مص دماء الشعوب [1] .

وعلى هذه الغابة المالية المظلمة خرجت جحافل النور من الجزيرة العربية لتبدد الظلام وترفع عن الناس أصرهم والأغلال التى كانت عليهم وأصاخ هذا العالم السادر الى صوت الحق المدوى يوقظ الحكام المتألهين من غفلتهم « أما بعد : فان الله قد ابتعثنا ليخرج من شاء من عبادة العباد

---

(١) الخراج والنظم المالية فى الدولة الاسلامية لضياء الدين الريس .

الى عبادة الله ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ومن ضيق الدنيـا الى سعة الآخرة » .

وهكذا تعرضت الرسالة الاسلاميةفى فتح بلاد الفرس والروم لاختبار جديد حين واجهت مشكلة الأراضى الزراعية الشاسـعة وما يترتب على معاملتها من نتائج اجتماعية بعيدة المدى .

* ولو كانت هذه البلاد لم تعتد لما سلك المسلمون معها سـوى طـريق الدعوة امتدادا لما فعله الرسول الكريم مع كسرى وهرقل فلما اعتدت سير اليها الجيوش تعرض احدى ثلاث : الدخول فى الاسلام أو الجزية أو القتل .

* ولو كانت هذه البلاد قد قبلت الاسلام لعصموا بذلك دماءهم وأموالهم ولأصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم أى لصارت أرضهم ملكا خالصا لهم ليس عليهم فيها الا الزكاة أى أرضا عشرية محددة النسب والمصـارف ليس لحاكم فيها مغنم ولانحطت عنهم شبكة الضرائب الخانقة .

* ولو كانت هذه البلاد قد قبلت دفع الجزية لظلوا أيضا ملاكا لأرضـهم فى نطاق شرائعهم ، ولم يكن عليهم فى أموالهم سوى الجزية .

* ولكنها اختارت الطريق الأصعب ــ طـريق القتـال ــ أو بمعنى أدق اختاره لها حكامها من الطغاة والكهان والمترفون وأصحاب المصـالح فى استمرار هذه الأنظمة المنتكسة الجائرة .. اختاروه وأكرهـوا شعـوبهم المستعبدة عليه فأصلوها نار الحرب .

* فكان عاقبة ذلك أن فتحت هذه البلاد عنوة ، وأصبحت هذه الأراضى الشاسعة معرضة لتطبيق حكم الأرض التى تفتح عنوة عليها ..

ووقفت المشكلة أمام عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحاول لها حـلا يحقق النص والحكمة منه من خلال الضرورات العملية :

وجها لوجـه :

وبدأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشاور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قسـمة الأرض التى أفاء الله على المسـلمين من أرض

العراق والشام اعمالا لحكم الأرض التى تفتح عنوة ..

فتكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم ، فقال عمر رضى الله عنه .

- فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت .. ما هذا برأى ..

- فقال عبد الرحمن بن عوف ، فما الرأى ، ما الأرض والعلوج الا مما أفاه الله عليهم !!

- فقال عمر : ما هو الا كما تقول ولست أرى ذلك ، والله لا يفتح بعدى بلد يكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلا على المسلمين فاذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق ؟ !

فأكثروا على عمر رضى الله عنه وقالوا :

- أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ، ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا .

فكان عمر رضى الله عنه لا يزيد على أن يقول : هذا رأى ..

قالوا : فاستشر ..

فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا :

فاستشار رأى بلال رضى الله عنه ورأى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه وآخرين أن تقسم لهم حقوقهم وقد شددوا عليه حتى كان يقول : اللهم أكفنى بلالا وصحبته .

وكان رأى عثمان وعلى وطلحة ومعاذ وابن عمر رضى الله عنهم رأى عمر وكان ما قاله معاذ رضى الله عنه « انك ان قسمتها - أى بين الفاتحين صار الريع العظيم فى أيدى هؤلاء القوم ثم يبيدون فيصير ذلك الى الرجل

الواحد أو المرأة الواحدة ثم يأتى من بعدهم قوم يسدون من الاسلام مسدا وهم لا يجدون شيئا فانظر أمرا يسع أولهم وآخرهم » •

* فأرسل عمر رضى الله عنه الى عشرة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم واشرافهم فلما اجتمعوا ، حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

— انى لم أزعجكم الا لأن تشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أموركم فانى واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق ، خالفنى من خالفنى ، ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هو هواى ؟

معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به الا الحق ••

قالوا : نسمع يا أمير المؤمنين •

قال : قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم ، وأنى أعوذ بالله أن أركب ظلما لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ولكن رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا فى توجيهه وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين : المقاتلة والذرية ولمن يأتى من بعدهم ••

أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها •

أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر•• لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وادرار الطعام عليهم — فمن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الأرضون والعلوج ؟ !

فقالوا جميعا : الرأى رأيك فنعم ما قلت وما رأيت ، ان لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقوون به رجع أهل

الكفر الى مدنهم [١] فقال : قد بان لى الأمر • فمن رجل له جـزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون ؟ فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعثـه الى أهم من ذلك ، فان له بصرا وعقـلا وتجربة •• فأسرع اليه عمر فولاه مسـاحة السـواد التى بلغت فى عهده ٣٦ مليون جريب ــ الفدان المصرى يساوى ٣ أجربة وكسر قليل ٧/١٠٠ ، وضـع على جريب الزرع درهما وقفيز [٢] وعلى الكرم ١٠ دراهم ؛ وعلى الرطبة ٥ دراهم •• أما الجـزية فكانت بين ١٢ ــ ٢٤ ــ ٤٨ درهمـــا حسب القدرة •• وألغيت جميع شبكة الضرائب الباهظـة التى كانت تئن منها شعوب هذه البلاد والتى كانت تلاحق كل شىء فى حياتهم •• وقد بلغ مقدار جباية سواد الكوفة وحدها قبل أن يموت عمر رضى الله عنـه مائة ألف ألف درهم ــ ١٠٠ مليون •

* وقد أرسل عمر ابن الخطاب كتبه الى الأمراء بما استقر عليه الأمر وقد بعث الى سعد بن أبى وقاص يقول : « أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم الأرض بينهم مغانم وما أفاء الله عليهم •• فاذا أتاك كتابى هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به من العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حضر واترك الأرضين والأنهار لعمـالها ليكـون ذلك من أعطيات المسلمين فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شىء» •

النص والاجتهاد :

واضح أن اجتهاد عمر رضى الله عنه لم يلغ النص الذى يجعل الأرض المفتوحة عنوة غنيمة للمسلمين تقسم عليهم كما فعل الرسول صلى الله عليه وسـلم بأرض خيبر ، وانما هو اجتهـاد فى تطبيق النص بما يؤدى الغرض من

---

(١) الخراج لأبى يوسف .
(٢) القفيز الذى وضعه عمر على السواد يساوى ٦٤ رطلا أو ٣٣ لترا أو ١٢ صاعا أو ٤٨ مدا أو ٨ مكاتيك وهو ــ الويبه ــ اى كيلتان وكان ثمنه ٣ دراهم والدرهم ٥ قروش .. كان الدينار فى زمن رسـول الله صلى الله عليه وسلم يساوى ١٠ دراهم ، وفى النصـف الثانى من العصر الأمـوى ١٢ درهما ، وفى العصر العباسى ١٥ درهمـــا (ص ٣٧٤ الخراج والنظم المالية لضياء الدين الريس) •

لمجموع المسلمين وبما يتمشى مع الواقع الجديد الذى كان يفرض عليهم دوام الاستعداد للقتال وعدم الانشغال بالزراعة ودوام ضمان المدد من خلفهم ، وبما يضع فى الاعتبار حياة أهالى البلاد الذميين أيضا وأمنهم واستقرارهم ..

* ومع التسليم بحق المسلمين فى ملكيتها بعد تقسيمها الا ان الأمر هنا يختلف عنه داخل الجزيرة العربية ، التى كان نصيب المقاتلين منها ٤/٥ لم تكن تتعدى فى الأغلب أدوات القتال والأغنام والأبل وقليلا ما كانت الأرض الزراعية ضمن الغنائم حتى ان توزيعها وتعميم النص عليها لم يكن يثير أية مشكلة .. مثلما حدث فى أرض خيبر وأرض وادى القرى .. ولكن الأمر خارج الجزيرة جد مختلف، فالأراضى المفتوحة عنوة شاسعة المساحة يتعلق بها حياة الملايين من أهالى البلاد المفتوحة فضلا عن ما يتطلبه الفتح من تفرغ الجيوش لمهمة القتال ..

* وقد كان مصير أهل البلاد المفتوحة هو الآخر أحد أوجه الاعتبار القوية التى أسهمت فى تقرير وضع الخراج فقد ذكر حارثة بن مضرب عن عمر انه هم بالفعل أن يقسم السواد بين المسلمين وأمر باحصاء الحالة فوجد الرجل من المسلمين يصيب ثلاثة من الفلاحين فشاور فى ذلك فقال له على بن أبى طالب دعهم يكونوا مادة للمسلمين فتركهم وبعث عليهم عثمان ابن حنيف فوضع عليهم الجزية على ما سبق ذكره .

* ومما يوضح أن هذا الاجتهاد الذى اقتضته الضرورة لم يعطل النص أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال :

« لولا آخر الناس ما فتحت قرية الا قسمتها كما قسم الرسول صلى الله عليه وسلم خيبر » وبهذا كان يأخذ مالك بن أنس وبهذا أشار الزبير ابن العوام على عمرو بن العاص لما فتح مصر فاستمهله حتى يستشير عمر . وقال أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أيما قرية أتيتموها وأقمتم فيها فسهمكم فيها وأيما قرية عصت الله ورسوله فان خمسها لله ولرسوله ثم هى لكم » أى أن أسلمت ابتداء فلهم من مصارف الزكاة سهم فى سبيل الله .

* وقال بعض الناس [١] أن عمر فعل ما فعل برضى من الذين افتتحوا الأرض واستطابة لأنفسهم وكان سيدنا عمر قد أعطى بالفعل قبيلة بجيله نصيبها من السواد يوم القادسية وكان يبلغ الربع لأن القبيلة كانت ربع الناس ، ولما أراد استرجاعها لتخضع لما استقر عليه الاجتهاد قال لجرير شيخ القبيلة : يا جرير لولا انى قاسم مسئول لكنتم على ما جعل لكم وأرى الناس قد كثروا فأوى ان تردوه عليهم ففعل جرير .. فأجازه عمر بثمانين دينار . ويفسر الامام أبو عبيد هذا الاسترضاء بأن سيدنا عمر قد نفل القبيلة هذه الأرض قبل خروجها للحرب فكأنهم ملكوه بالفعل ومن هنا يرى انه لا وجه لمن يزعم بأنه لا بد للامام من استرضاء المسلمين وانما الامام بالخيار فى هذا الأمر ..

النتيجة :

انه قامت أضخم صورة للملكية العامة على وجه الأرض ذات صبغة اسلامية فى دوافعها وآثارها الاجتماعية وأعطانا الاسلام وجها من أوجه الحلول الاقتصادية مثلما أعطانا فى داخل الجزيرة العربية نموذجا للملكية الخاصة الاسلامية التى لا تتشابه من قريب أو بعيد مع الملكية الرأسمالية وهو اليوم يكرر عظمته فى هذه الملكية العامة التى لا تتشابه من قريب أو بعيد مع الماركسية فهو غنى دائما بحلوله الذاتية المنبثقة من عقيدة التوحيد وغايات الانسان الربانية . بل وسيادته على الظروف المادية يشكلها ويسخرها لأهدافه السامية ولكن أصحاب التاريخ المجهول لا يقرؤون ويستمرئون التسول ..

وعليه فقد استقر العمل على ترك الأرض فى أيدى أهلها الذميين .. عليها الخراج وعليهم الجزية لا باعتبارهم ملاكا وانما باعتبارهم منتفعين، لهم عليها حق انتفاع أما الملكية فهى لمجموع المسلمين .

* وكان الخراج يقدر على أساس أن تقدر غلة الأرض ثم يترك للفلاحين مايحتاجون اليه من نفقة لهم ولعيالهم ولمن تلزمهم نفقاتهم للسنة كلها مع

---

(١) الأموال لأبي عبيد القاسم ابن سلام رقم ١٩٦ ص ٧٧ .

زيادة يدخرونها للنوائب ثم يأخذ بيت مال الخراج ـ ديوان الخراج ـ ما بقى لينفقه الامام فى مصالح المسلمين ..

ونظمت قوائم وقواعد العطاء لجميع القبائل الفاتحة من دواوين الخراج وكانت النسبة المقررة من الخراج تزداد وتنقص حسب جودة الأرض ونوع المحصول .

* واكتفى المسلمون بالبقاء فى معسكرات خاصة بهم كان لهم فى بنائها أسلوب خاص يبدأ بتحديد موقع المسجد الكبير ثم تتجه كل الشوارع الرئيسية اليه مثل الأشعة حول قرص الشمس ثم يخصص لكل قبيلة منطقة سكنية خاصة بها ..

وهذه المعسكرات هى التى تحولت بالاستقرار الى شكل المدن المبنية بعد ذلك مثل البصرة والكوفة والفسطاط والرباط والقيروان وغير ذلك من المدن التى نشأت على أيدى الفاتحين والتى كانت نواتها المعسكرات .

وبدأت شمس هذا المجتمع النموذج تشع على ما يجاورها من ظلام الأنظمة الجاهلية شيئا فشيئا من غير اكراه فى الدين وكل ما كان بين الظلام والنور من علاقة انما كانت فى جباية الخراج على قواعده العادلة ليذهب ما يتبقى بعد كفاية العاملين الى ديوان الخراج ليوضع فى أعطيات المسلمين .. وكان للسكن وللبيع والشراء بين هذين النموذجين قواعد وضوابط فى بداية العهد بالفتوحات فلم يكن يسمح للذميين أن يبيعوا شيئا من الأرض الخراجية لأحد من المسلمين لأنهم لا يملكون رقبتها وانما هم اجراء عليها .. وسكت المسلمون على ما كان يجرى بين الذميين أنفسهم من تصرفات البيع والشراء والميراث ما دامت الأرض تحت أى يد منهم ستظل محملة بقيمة الخراج فالأهالى الذميين فى واقع الأمر يتبايعون ويتوارثون حقوق الانتفاع فقط ..

وفوق الخراج كانوا يدفعون الجزية على رؤوسهم مقابل قيام المسلمين عنهم بمهمة القتال والدفاع ، ومن يقاتل مع المسلمين كانت توضع عنه الجزية كما سجل التاريخ آنذاك .

وتوضح واقعة ابن فرقد حدود التعامل على هذه الأرض .. فقد قال عمر رضى الله عنه لعتبة بن فرقد حين اشترى أرضا على شاطىء الفرات ممن اشتريتها ؟ !

قال : من أربابها . فلما اجتمع المهاجرون والأنصار عند عمر قال: هؤلاء أهلها فهل اشتريت منهم شيئا ؟ قال : لا ..

قال : فارددها على من اشتريتها منه وخذ مالك [١] .

ويقول الامام أبو عبيدة : « مذهب الخراج مذهب الكراء فكأنه أكرى كل جريب بدرهم وقفين فى السنة وهذا حجة لمن قال : ان السواد فىء للمسلمين وانما أهلها فيها عمال لهم بكراء معلوم يؤدونه ويكون باقى ما تخرج الأرض لهم » ويقول : « أن معنى الخراج فى كلام العرب هو الكراء والغلة ، ألا تراهم يسمون غلة الأرض والدار والملوك خراجا .. » .

وعن أبى عياض عن عمر قال : « لا تشتروا رقيق أهل الذمة فانهم أهل خراج وأرضوهم فلا تبتاعوها ولا يقرن أحدكم بالصغار بعد اذ نجاه الله [٢] » .

وعن أبى عقيل بشير بن عقبة — عن الحسن قال : « لا تشتروا رقيق أهل الذمة ولا أراضيهم ، قال : فقلت للحسن لم ، قال : لأنهم فىء للمسلمين » .

---

(١) الأقوال لأبى عبيد القاسم ابن سلام رقم ١٩٦ ص ٧٧ .

(٢) وكان عمر رضى الله عنه يقول انه وجد حجته فى توزيع الفىء فى قوله تعالى : « وما أفاه الله على رسوله منهم ، فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير » حتى فرغ من شأن بنى النضير ، فهذه ماعة فى القرى كلها ثم قال :
« ما افاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب .
ثم قال : « للفقراء والمهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم ... »
ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ... » فكانت هذه عامة لمن جاء بعدهم ، فقد صار الفىء بين هؤلاء جميعا .

ويقول أبو عبيد موضحا : « أراه يعنى بالشراء هنا ـ الاكتراء ـ لأنه لا يكون مشتريا والجزية على البائع وقد خرجت الأرض من ملكه » •

وعن الليث بن سعيد بن أبى جعفر القرظى قال : ليس بشراء أرض الجزية بأس : يريد كراءها •

الموقف النفسى :

وفوق المنطق القانونى فى المنع كان هناك الموقف النفسى لدى المسلمين أنفسهم تجاه أرض الخراج ، فقد كانوا يستهجنون اكتراء أرض أهل الذمة لما يترتب عليها فى عنق المسلم من خراج كانوا يرونه ذلا وصغارا • فعن قبيصة بن ذؤيب قال : من أخذ أرضا بجزيتها فقد باء بما باء به أهل الكتابين من الذل والصغار ••

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : ألا أخبركم بالراجع على عقبيه : رجل أسلم فحسن اسلامه وهاجر فحسنت هجرته وجاهد فحسن جهاده ، فلما قفل حمل أرضا بجزيتها ، فذلك الراجع على عقبيه • وعن ميمون بن مهران قال : ما يسرنى أن لى ما بين باب الرها الى حران بخراج خمسة دراهم • ويعقب الامام أبو عبيد على هذه الأقوال قائلا : انما كرهها الكارهون من جهتين :

احداهما : أنها فىء للمسلمين • والأخرى : ان الخراج صغار •

ويستدرك قائلا : ومع ذلك فقد سهل فى الدخول فى أرض الخراج أئمة يقتدى بهم ولم يشترطوا عنوة ولا صلحا منهم من الصحابة عبد الله ابن مسعود ومن التابعين محمد بن سيرين وعمر بن عبد العزيز ، وكذلك رأى سفيان الثورى ، كانوا يرون أن الصغار فى الجزية على الرؤوس وليست التى على الأرض •

ويعقب الامام العظيم أبو عبيد قائلا : « فأرى العلماء قد اختلفوا فى أرض الخراج قديما وحديثا وكلهم امام ، الا أن أهل الكراهة أكثر والحجة فى مذهبهم أبين والله أعلم » •

* والرأى عندى أن هذا الاشكال نبت مع انتشـــار الاسلام بين الذميين ومع اتجاه المسلمين الى التوطن والاســـتقرار بهذه البـــلاد ، واذ بدأت المعسكرات تتحول الى طبيعة المدن وتشابكت علاقاتها بالأقاليم المجاورة لها ازداد الاشكال تضخما على ما سنبينه فى الحلقة القادمة ان شاء الله .

أما أرض الصلح خارج الجزيرة العربيـــة ، فقد ظلت بعيدة عن هـــذه الاشكالات لأنها ظلت ملكا لأهلها لهم عليها كل تصرفات المالك قبل اسلامهم وبعد اسلامهم .. ولعل هذا ما رفع الحـــرج عن نفوس المسلمين فى التعامل عليها . فعن أشعث بن سيرين قال : من السواد ما أخذ عنوة ، ومنه ما كان صلحا فهو مالهم وما كان عنوة فهو فىء للمسلمين . وقال أبو عبيد : فقوله : (فهو مالهم) يعلمك أنه لا بأس بشرائه. وعن حجاج عن الحكم عن عبد الله ابن مغفل قال : لا تشترين من السواد الا من أهل الحيرة وبانقيا وأليس ، قال أبو عبيد أما أهل الحيرة فان خالد بن الوليد كان صـــالحهم فى دهـــر أبى بكر رحمه الله .. وأما أهل بانقيا وأليس فانهم دلوا أبا عبيد وجرير ابن عبد الله على مخاضة حتى عبروا الى فارس ، فبذلك كان صـــلحهم .. ويروى عن الحسن بن صالح الرخصة فى شراء أرض الصلح والكراهة لأرض العنوة ، وهو رأى مالك بن أنس .

ارض الدعوة :

بقى أن نعلم أن الاسلام انتشر بعد موجات الفتوحات فى بلاد جديدة على أيدى الدعاة من التجار والرحالة، مثـــل أندونيسيا والصين وبلاد الترك وافريقيا ، وهذا ما يترتب عليه أن تظل أرضهم ملكا لهم ، فهى عشرية ليس عليهم فيها الا الزكاة .

* ولكن كيف أصبحت حياة الذميين ، أهل هذه البلاد ، فى ظل الخراج بعد أن تخلصوا من كابوس الطغاة من الاقطاعيين والأباطرة والكهنـــة ، وكيف كان استقبالهم لهذا اللون الجديد من الحكام والتشريعـــات ، وكيف

واجه المسلمون بدورهم ظاهرة انتشـار الاسـلام بين الذميين الذين كانوا يدفعون الخراج والجزية بالأمس •• وكيف أثر ذلك على مبـدأ الملكيـة العامة للأرض ، وعلى علاقة الخراج بالزكاة •

لذلك كله قصة كبيرة غنية بالثروة العلمية وبالتجـربة فى تاريخنـا الاقتصادى المجهول لدى أبنائه المثقفين ••

الحلقة الثلاثون

صور الحياة في ظل الخراج

اذا كانت الأرض الخراجية ـ الملكية العامة ـ هى أصلح وضع واجه به عمر رضى الله عنه ظروف الفتح الاسلامى ، فان الأرض العشرية ـ الملكية الخاصة ـ هى الوضع المعبر عن طبيعة السلام والاستقرار .. بهذا نفهم طبيعة الخراج المرحلية بين سلام شامل عم الجزيرة العربية قبل انتقال الرسول الى الرفيق الأعلى فى ـ ظل أرض عشرية ـ وبين استقرار كامل ظلل حياة الشعوب بعد موجات الفتح أنبت الدعوة الى عودة الأرض العشرية كما سنفصل بعد ، وهذا لا ينفى أنه منذ البداية كانت الأراضى التى استصلحها المسلمون حول معسكراتهم أيضا بشرية أعمالا لحكم احياء الأرض الموات [1] ، وكذلك آلت أرض الصلح بعد اسلام أهلها الى أرض عشرية لأن الصلح أبقى على ملكيتهم لها منذ البداية ..

* بهذا ظل الوعى عميقا لدى المسلمين جميعا بين مجتمع العشر ومجتمع الخراج .. الأول للمسلمين بداية ونهاية ، والثانى للأهالى الذميين بعد أن فتحت بلادهم عنوة .. الأول هو الأصل والثانى هو الاستثناء الذى أتت به ضرورة الفتوحات . الأول هو القائد والموجه ، والثانى يعيش فى وصايته .. لم تكن هناك أى مشكلة فى البداية ، لكن الحرج بدأ يتزايد مع انتشار الاسلام فى الذميين .

* واذا كانت المعارك العسكرية فى بدء الفتوحات قد تكلفت بتحرير البلاد من سلطان المستبدين من حكام الفرس والرومان ، فان التفاعل الهادىء بين مجتمع المسلمين ومجتمع الذميين أهل الخراج قد تكفل بتحرير الذميين

---

(١) أصول التشريع الاسلامى للشيخ على حسب الله ، ص ٢٦٩ .

مع الزمن من سلطان الشرك والقوانين الجائرة ، فدخلوا فى دين الله أفواجا بغير سيف ولا اكراه ولا ارهاب حزبى ، ولا غسيل مخ ولا أجهزة بوليسية أو اعلامية ، بل بالمجتمع النموذج المجاور لهم فى صمت .. كان السيف والقتال للرؤوس التى تحجب النور وتوصد أبواب الشعوب فى وجه الحق . ولم يكن من السهل على هذه الطبقات المستبدة المتسلطة من الفرس والروم أن تستجيب لدعوة خالد بن الوليد حين طالبهم بأن يخلوا بينه وبين الفريسين ـ الفلاحين ـ ليدعوهم الى الحق .. وقد تكفل السيف بهذه الرؤوس الباغية وتكفل المجتمع النموذج والقدوة الحسنة بالشعوب التى تحررت من كابوس الحكام والكهان وأصبح فى مقدورها أن تختار .

* وأن هذا الفصل بين معاملة الرؤوس المستبدة وبين معاملة الشعوب المستعبدة تغيب عن الكثير . وقراءة التاريخ تزيل الغشاوة عن أذهان الباحثين .

* أنبأنا التاريخ عن كرامة الحياة التى وفرها الاسلام لكل الذين أسعدهم الحظ بتفيىء ظلاله سواء فى ذلك من كانوا على أرض العشر أم على أرض الخراج وكان ديوان الخراج هو همزة الوصل المالية بين المجتمعين على ما سبق ذكره ويعنينا اليوم فى الدرجة الأولى توضيح صورة حياة الذميين فى أرض الخراج أى فى ظل الملكية العامة ..

* بادىء ذى بدء نقرر أن الوضع الجديد للأرض قد أخرجها من براثن الاقطاع الذى كان سائدا فى هذه البلاد قبل دخول الاسلام عليها ..

أما اليوم ، وفى ظل الاسلام ، فقد أتاح نظام الخراج للأهالى من الرخاء والكرامة ما لم يكونوا يتمتعون بهما من قبل ، لأن العلاقة الانتاجية على الأرض الخراجية ظلت تتراوح بين الايجار والمزارعة ، وهى التى عرفت فى عهد المنصور الخليفة العباسى باسم خراج المقاسمة ، وقد طبقه الخليفة عندما لم تف الغلات بخراجها ، فكان هذا الاجراء للتخفيف عن الأهالى ، وهو نوع من المشاركة ، الأمر الذى لا يمكن أن تسمح به طبيعة المجتمعات العبودية أو الاقطاعية والا فقدت طبيعتها المستغلة .

ونستطيع أن نلمس آثار هذه العلاقة الجديدة فى حياة الناس مما كتبه مسيحيو الشام الى جيش المسلمين عندما خرج لملاقاة الروم ، مما اضطره الى التخلى عن بعض البلاد التى افتتحها ، كتبوا اليه يقولون : أنتم أحب الينا من الروم - وان كانوا على ديننا - أنتم أوفى لنا وأرحم بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا (١) .

كما أغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب اليهم من ظلم الرومان وتعسفهم ، وقال مطران نلورى : هؤلاء العرب لا يحاربون دين المسيح ، بل هم يدافعون عن ديننا ويجلون قساوسنا وقديسنا ويهبون الهبات لكنائسنا وأديرتنا (٢) .

* ظلت هذه الشهادة تتردد فى كل بقعة وصلها نور الاسلام مهما بعدت فى الزمان والمكان ، فقد كتب المستشرق دوزى فى كتابه - تاريخ الاندلس - يقول : لقد أنقذ الاسلام الطبقات الدنيا من المسيحيين العبيد وأقنان الأرض من العبودية والظلم وحررهم من سلطة الاقطاعيين الأقوياء الذين كانوا يعتبرون الفلاحين لا عبيدا لهم فحسب بل عبيد للأرض أيضا ..

لقد كان الفتح العربى حسنة بالنسبة لأسبانيا ، فقد حقق ثورة اجتماعية ذات أهمية بالغة وأزال قسما كبيرا من الآلام التى كانت ترزح تحتها البلاد منذ قرون ، فان سلطة الطبقات ذات الامتيازات وسلطة الكنيسة والنبلاء زالت عن الطبقات الدنيا من المسيحيين وهم العبيد واقنان الأرض ، ووزعت الأراضى المصادرة بين عدد كبير من أفراد هذه الطبقات المستغلة المظلومة.. وكان تحقيق الملكية الصغيرة مصدرا للسعادة وسببا لازدهار الزراعة فى أسبانيا العربية ، كما يقول : لقد حكم المسلمون وفق الطريقة التالية : خفضت الضرائب تخفيضا عظيما بالنسبة لما كانت عليه أيام الحكام السابقين ، وصودرت الأراضى من أصحابها الأغنياء حيث كانت تشغل اقطاعيات عظيمة

---

(١) أصول الفقه للخضرى « ارض العرب ارض عشرية بالسنة وارض البصرة عشرية باجماع الصحابة » ص ٢٤ .

(٢) الفكر الاسلامي والتطور لفتحي عثمان ص٢٢ .

جدا تزرع من قبل العبيد والاقنان ، ووزعت بين هؤلاء الذين كانوا يعملون عليها ، وكان المالكون الجدد ـ العبيد ـ يعملون بحماس ويجنون أفضل المحصول .

ويقول ليفي بروفانسال : أن الازدهار الزراعى الذى أصاب أسبانيا بعد الفتح العربى يعود أيضا الى التقسيم الكبير لملكية الأرض [١] .

ائمة وليسوا جبابرة :

* هذه الشهادات المتضافرة من كل مكان على ما حققه الاسلام فى هذه البلاد ، مرده الى ما هدى الله عمر بن الخطاب اليه فى سن نظام الخراج بما توفر عليه من رجال أمناء ، وما توفر من نظام دقيق ، فقد كانت دواوين الخراج تختص بتوزيع العطاءات على المسلمين وتتكفل فى الوقت نفسه بجميع مشاريع أهل الذمة وبتحقيق التكافل الاجتماعى بينهم جميعا ، ويستطيع من شاء أن يراجع فى كتب التاريخ كيف كان ديوان الخراج يضطلع بهذه المهمة التى تقابل مهمة ديوان الزكاة فى نطاق المسلمين .. وتأتينا البدايات المضيئة لهذه الهداية من أقوال الخلفاء الراشدين وسيرتهم العملية على هدى من كتاب الله وسنة رسوله .

فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل عثمان بن حنيف وحذيفة ابن اليمان وهما من عمال الخراج كيف وضعتما على الأرض ؟ لعلكما كلفتما أهل عملكما ما لا يطيقون ؟

فيقول حذيفة : لقد تركت فضلا .

ويقول عثمان : لقد تركت الضعف ولو شئت لأخذته .

فيقول عمر : أما والله لئن بقيت لأرامل أهل العراق لأدعنهم لا يفتقرون الى أمير بعدى ..

وكان رضوان الله عليا اذا بعث عماله قال : انى لم أبعثكم جبابرة

---

(١) اشتراكية الاسلام ، للدكتور السباعى .

ولكن بعثتكم أئمة ، فلا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تحمدوهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم فتظلموهم ..

وخطب الناس فقال : أيها الناس انه لم يبلغ ذو حق حقه أن يطاع فى معصية الله وانى لا أجد هذا المال يصلحه الا خلال ثلاث:أن يؤخذ بالحق، ويعطى فى حق ، ويمنع من الباطل . وانما أنا ومالكم كولى اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف ، ولست أدع أحدا يظلم أحدا ولا يعتدى عليه حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن للحق .. ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم خذونى بها : لكم على ألا أجتنى شيئا من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم الا من وجهه ولكم على اذا وقع فى يدى ألا يخرج منى ، الا فى حقه (١) .

وكان رضوان الله عليه اذا استعمل رجلا أشهد عليه رهطا من الأنصار وغيرهم واشترط عليه أربعا (٢) ألا يركب برذونا (٣) ولا يلبس ثوبا رقيقا (٤) ولا يأكل نقيا (٥) ولا يغلق بابا دون حوائج الناس ، ولا يتخذ حاجبا .

وكان اذا بلغه أن عامله لا يعود المريض ، ولا يدخل عليه الضعيف نزعه .

* ولما حان موعد رحيل رباح بن عبيدة قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا أمير المؤمنين حاجتك أوصنى بها : قال حاجتى أن تسأل أهل العراق وكيف سيرة الولاة فيهم ورضاهم عنهم ؟ قال فلما قدمت العراق سألت الرعية عنهم فأخبرت بكل خير عنهم فلما قدمت عليه سلمت عليه وأخبرته بحسن سيرتهم فى العراق وثناء الناس عليهم فقال : الحمد لله على ذلك لو أخبرتنى عنهم بغير هذا عزلتهم ولم أستعن بهم أبدا .

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص ٧٧ .
(٢) الأموال لأبى عبيد ص ٤٨ .
(٣) كتاب الجزية والاسلام : تأليف دانيل دينيت ، ترجمة الدكتور فوزى فهيم جاد الله ص ٦٦ .
(٤) الخراج لأبى يوسف .
(٥) الأحكام السلطانية ، للماوردى ، ص ١٧٤ .

* ومن بعده كتب على كرم الله وجهه الى كعب بن مالك وهو عـامله : « أما بعد،فاستخلف على عملك وأخرج فى طائفـة من أصحابك حتى تمر بأرض السواد كورة فتسألهم عن عمالهم وتنظر فى سيرتهم حتى تمر بمن كان منهم فيما بين دجلة والفرات » ..

* هذا الشعاع الهادى من العـدل والرحمة ظل ينتقل عبر البلاد والسنين حتى التقطت أسماعنا صوت الامام العظيم أبو يوسف، وهو يقول لهـارون الرشيد : ومن وليت منهم فليكن فقيها عالما مشاورا لأهل الرأى عفيفا ، لايطلع الناس منه على عورة ، ولا يخـاف فى الله لـومة لائم ، ما حفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنة ، وما عمل به غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت ، تجوز شهادته ان شهد ، ولا يخاف منه جـور فى حكم ان حكم .. وقد يجب الاحتياط فيمن يولى شيئا من أمر الخراج والبحث عن مذاهبهم والسـؤال عن طـرائقهم كما يجب ذلك فيمن أريد للحكم والقضاء .

الاجتهـاد باق :

بعد استعراض ظروف نشأة نظام الخراج يثور فى الذهن سؤال :

هل هذا الاجتهاد من جانب عمر رضى الله عنه فى مواجهة ظروف الفتح يلغى حق الأئمة بعده فى اعمال النص فيما يسـتجد فى عهـدهم من بلاد تفتح عنوة ؟

يجيب القاضى أبو يوسف على هـارون الرشـيد : « وأيما أرض افتتحها الامام عنوة فقسمها بين الذين افتتحوها فان رأى ذلك أفضل فهو فى سـعة من ذلك وهى أرض عشر ، وان لم ير قسـمها ورأى الصـلاح فى اقرارها ، كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى السـواد فله ذلك وهى أرض خراج » .

انتشار الاسلام فى الذميين اهل الخراج ونتائجه :

ظل المسلمون فى هذه البلاد التى فتحت عنوة سنين طويلة ــ بلغت فى مصر أكثر من قرنين ــ وهم يقيمون فى أماكن خاصـة بهم فى حـالة

استعداد دائم للجهاد ، فلم يكونوا لذلك يختلطون بسكان البلاد الأصليين اختلاط توطن ومساكنة ، ولم يكن يؤذن للمسلم بشراء أراضى آهل الذمة ولم يبعث جابيا ..

وبانتشار الاسلام وضعت الجزية عمن أسلم ، وقبح عمر بن عبد العزيز رأى واليه الذى خشى من تناقض الموارد المالية لكثرة الداخلين فى الاسلام من الذميين ، وقال قولته الخالدة ، انما بعث محمد هاديا لأنها ملكا عاما لجميع المسلمين .

غير أنه بانتشار الاسلام فى الذميين بدأت تظهر مشكلة جديدة أخذت تتضخم فى خط بيانى صاعد مع انتشار الاسلام ، حتى تكونت فى النهاية مشكلة حقيقية .. هذه المشكلة تتعلق بملكية الأرض الخراجية بعد أن أصبح عمالها مسلمين لا ذميين يقضى الشرع بأن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، ومعنى ذلك أن يصبحوا ملاكا حقيقيين لا مجرد أجراء ، وتصير أرضهم عشرية لا خراجية ، فهل صار الأمر الى ذلك فعلا ؟ وماذا كان فى الامكان عمله للوصول الى هذه المساواة الفعلية مع اخوانهم الفاتحين ؟ ! .

* يستنكر الامام أبو عبيد استمرار الحال على ما هو عليه بعد استلام الأهالى فيقول : أما قولهم فى أرضه أنه اذا أسلم أو اشتراها مسلم انها تكون على حالها (أى خراجية) ، فان عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الى الناس حين دعاهم الى الاسلام غير هذا ، الا ترى آن كتبه انما كانت تجرى الى الناس أن من دخل فى الاسلام كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، فالمسلمون فى هذا شرع سواء .. ثم استشهد بحادثة جبلة التى يظهر فيها الفرق بين ما على المسلم وغير المسلم من التزامات خاصة بالأرض ، اذ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لجبلة بن الأيهم الغسانى : ياجبلة ، اختر عنى احدى ثلاث ، اما أن تسلم فيكون لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم ، واما أن تؤدى الخراج ، واما أن تلحق بالروم ، فلحق بالروم ..

* والامام أبو عبيد عليه رضوان الله فى هذا الرأى يصدر عن فهم

بمقاصد الشرع وروح التشريع دون أن تقيده نصوص القانون ، والا فان منطقا قانونيا له وجاهته عند من يقف عند حدود النصوص يدفع صاحبه الى أن يقول بغير ذلك لأن الذين أسلموا من الذميين أسلموا بعد أن أخذت أرضهم حكما لا واقعا ، وبعد أن لم يعد لهم أرض لأنها غنمت منهم يوم الفتح ، ثم أوقفت لمصلحة مجموع المسلمين الذين هم أربابها وكانوا قبل اسلامهم يعملون عليها كأجراء وما كان يجريه الأجراء على الأرض الخراجية من تصرفات البيع والشراء والتوارث انما كان يحدث فى نطاقهم فقط دون أن يتعداهم الى أحد من المسلمين الفاتحين .. وكان السكوت على هذه التصرفات من جانب الامام مرده أن الخراج مرتبط بمساحة الأرض تحت أى يد تكون ، حتى عندما شاع التساهل فى تنقل الأرض خارج نطاقها الأول انما كان مفهوما أن الذى يشتريها انما يشترى حق انتفاع وأنه حل محل صاحبها فى دفع الايجار أى الخراج .. وقد أوضح الامام أبو عبيد نفسه عندما قال : لا يكون مشتريا والجزية على البائع وقد خرجت الأرض من ملكه .

فهذا البائع الذمى الذى خرجت الأرض من ملكه لأنها فتحت عنوة اذا ما أسلم بعد ذلك فانه يسلم على أرض لم يكن يملكها أصلا ..

هذا المنطق الشكلى السليم لا ينهض دليلا مقنعا لدى النفوس الحريصة على تحقيق جوهر الدين فى المساواة بين المسلمين بصرف النظر عن البدايات القانونية فى الموضوع .. وهذا ما دعى الامام أبو عبيد الى استنكار التفرقة فيما بعد .

* ويقف الامام الزهرى عند حدود المنطق القانونى فى قوله : « فمن أسلم منهم قبل اسلامه وأحرز له اسلامه نفسه وماله الا الأرض فانها فىء للمسلمين من أجل أنه لم يسلم أول مرة وهو فى منعة » .

والامام الزهرى نظر الى المشكلة من بدايتها حين تفتح احدى البلاد عنوة وتغنم أرضها ، وقوله فى هذا النطاق فقط صحيح. والامام أبو عبيد نظر الى المشكلة من نهايتها بعد أن تغير الزمان وقدم العهد بالذين فتحت

بلادهم عنوة ثم كثر عدد الداخلين منهم فى الاسلام ، ثم تناسلوا ذرية مسلمة توارثت دفع الخراج على سنة آبائهم ، وظهر الحرج واضحا فى عصر الامام سنة ٢٥٤ هـ . فقدكان الامام أبو عبيد أكثر لمسا لطبيعة المشكلة الاجتماعية المعاصرة له ولغيره من العلماء الذين وجدوا فى الدعوة الى انها نظام الخراج واستبداله بالعشر حسبما ستقابلنا تفصيلاتها فى الحلقة القادمة ان شاء الله .

وقبل ظهور هذا الواقع الاجتماعى فان الأمر فى بدايته كان طبيعيا ولم يكن يثير اشكالات ، وقدكان مفهوما بوضوح أنه اذا أسلم شخص من أهل الذمة فانه يخير بين أمرين :

١ - اما أن يبيع أرضه - أى حق الانتفاع طبعا - لأهل ملته ويلحق بمعسكر المسلمين فيدخل معهم فى دواوين العطاء ، وكان الداخلون فى الاسلام يفضلون هذا الانتقال بين اخوانهم .

٢ - واما أن يظل رغم اسلامه مقيما فى بلده ، وفى هذه الحالة لا يتغير وضعه كمنتفع بالأرض ولا تتغير علاقته بالأرض عن علاقة الكراء السابقة ويظل ملتزما بدفع الخراج وتسقط عنه الجزية فقط .. يظهر ذلك من قول على كرم الله وجهه لدهقان أسلم على عهده :

« ان أقمت فى أرضك رفعنا عنك جزية رأسك وأخذناها من أرضك، وان تحولت عنها فنحن أحق بها » (١) .

كما أسلم دهقان على عهد عمر رضى الله عنه يدعى ابن الرفيل ، ففرض له عمر عطاء قدره ٧٠٠ درهم فى السنة وسجل اسمه فى ديوان خثعم ، وفى الوقت ذاته خيره أن يؤدى الخراج عن أرضه اذا شاء أن يقيم فيها (٢) .

تعقد المشكلة :

بعد مدة من الزمان غلب الاسلام على أهالى البلاد المفتوحة ، وفى مصر حدث ذلك ما بين ٢٥٠ هـ - ٣٠٠ هـ .. وحول هذا التاريخ أذن

---

(١) كتاب ابن تيمية للشيخ محمد ابو زهرة ص ١٤٥ .
(٢) كتاب توضيح الزكاة على المذاهب الأربعة لمحمد محمد صقر .

للمسلمين الفاتحين بمصر بمساكنة الأهالى والتوطن معهم . واستتبع ذلك تداخل المعاملات فاشترى المسلم ممن يشاء وتنقلت الأرض من يد الى يد اذ لم يعد هناك فرق بين المسلم الفاتح وأخيه من أصحاب البلد المفتوحة وزادهم الاستقرار تداخلا فى المعاملات .. وبدأت كراهية شراء أرض الخراج لتختفى ليحل محلها الترخص ، وكان هذا تطور طبيعيا ، فالكراهة والتشديد كانا يصاحبان الفترة الأولى من الفتح الاسلامى والترخص جاء حليفا للاستقراء وانتشار الاسلام بين أهالى البلاد المفتوحة . وكان على الفقه أن يلبى حاجة هذا الواقع الجديد .

أخذ الناس يتصرفون فى ظل هذا الواقع الجديد . فى الأرض .. تصرف الملاك من بيع وشراء وتوارث مع استمرارهم فى دفع الخراج . والخراج منبه دائم بأن الأرض فى حقيقة أمرها ملك لمجموع المسلمين وان كل دافع خراج فى حقيقته مستأجر وأنهما باع أو اشترى أو ورث سوى حق الانتفاع .

والزمن الطويل كاد ينسى الناس هذه الحقيقة حتى أن من الفقهاء من كان يرى أن الأرض الخراجية هى ملك لأهالى البلاد وعليهم الخراج . أو لعل هؤلاء الفقهاء قد آثروا أن ينظروا الى القضية من حيث انتهى بها التطور العملى فهذا الامام أبو يوسف يقول لهارون الرشيد عن أرض العنوة « .. وان لم ير قسمتها ورأى الصلاح فى اقرارها فى أيدى أهلها كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى السواد فله ذلك وهى أرض خراج وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم وهى ملك لهم يتوارثونها ويتبايعونها ويضع عليهم الخراج ولا يكلفوا من ذلك ما لا يطيقون » .

وقال أبو العباس بن سريج فى نفر من أصحاب الشافعى : ان عمر رضى الله عنه حين استنزل الغانمين عن السواد باعه على الأكره الدهاقين بالمال الذى وضعه عليها خراجا يؤدونه فى كل عام فكان الخراج ثمنا وجاز مثله فى عموم المصالح كما قيل بجواز مثله فى الاجارة وان بيع أرض السواد يجوز ويكون البيع موجبا للتمليك .

الحلقة الحادية والثلاثون

مشاكل الإستقرار

وفى زمن الظاهر بيبرس عندما دفعته حاجته الى المال على التفكير فى انتزاع الأرض فى مصر والشام من أيدى الناس بدعوى أن هذه الأراضى ملك لبيت المال لأنها فى ملكه من يوم الفتح تبعا لما فعل عمر رضى الله عنه فى سواد العراق وقف فى وجهه الامام النووى وما زال به حتى حمله على العدول عن ذلك وانتهى الأمر ببقاء الوضع فى ملكية الأراضى المصرية والشامية على ما كانت عليه ولقد قال له النووى فى ذلك : « ان ذلك غاية العناد وانه عمل لا يحله أحد من علماء المسلمين ، ومن فى يده شىء فهو ملكه ، لا يحل لأحد الاعتراض عليه ، ولا يكلف اثباته » .

الصور الختامية للمشكلة :

خلاصة الأمر اننا الآن أمام كثرة كاثرة من المسلمين لهم على الأرض حق انتفاع ويدفعون الخراج الى بيت المال ومن ثم توصف الأرض التى تحت أيديهم بالأرض الخراجية ، وان أصبحوا فى واقع الأمر يجرون على هذه الأرض تصرف الملاك يساندهم فى ذلك رغبة فقهية واضحة فى دعم موقفهم فى مواجهة السلطان لولا أن استمرار دفعهم للخراج يقف حائلا دون خلوصها لهم كأرض عشرية للاعتبارات التاريخية السالفة ..

يجاور هذا الفريق فريق آخر من المسلمين تتسم ملكيتهم للأرض منذ البداية بصفة الأرض العشرية ليس عليهم فيها الا الزكاة وقد اكتسبوا هذا الوضع المتميز من جهات شتى ، أما لأنها كانت مواتا فأحيوها ، وأما لأنها أقطعت لهم من أرض الصوافى ، واما لأنها كانت أرض صلح ثم أسلم أهلها مثل أهل الحيرة الذين أرسل عمر بن عبد العزيز الى وليه عبد الحميد بن

عبد الرحمن حين سأله عن أمرهم « من أسلم من أهل تلك الملل فعليه فى ماله الصدقة » واما لأن الأرض رغم فتحها عنوة الا أن الامام من على أهلها بتركها لهم فبعد اسلامهم تصبح أرضا عشرية .

* هاتان صورتان متجاورتان من معاملة الأرض كثيرا ما تنقلت الأيدى عليهما وكثيرا ما تداخلنا فى المعاملات وكثيرا ما استلزمتا فى واقع الحياة تنظيمات ادارية مختلفة ، وكثيرا ما نشط الفقه لمواجهة نتائجهما ولم تكن الأيام تزيد الأمر الا تعقيدا .. ومن نماذج ما أدت اليه من خلافات فقهية:
* أن من رأى الجمهور أن العشر والخراج يجتمعان فى الأرض الواحدة ولا يمنع أحدهما وجوب الآخر وبه قال الشافعى ومالك وأحمد والأوزاعى والنووى والحسن بن صالح والليث واسحق وأبو عبيد وداود وغيرهم واستدلوا على ذلك بما يأتى :

١ - وجوب ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : « فيما سقت السماء العشر » وهو حديث صحيح ولم يخصص شيئا فتناول ما فى الأرض سواء أكانت عشرية أم خراجية .

٢ - ان العشر وجب بنص القرآن : « وآتوا حقه يوم حصاده » ، « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض » أما الخراج فواجب بالاجتهاد ولا يمنع الواجب بالاجتهاد ما وجب بنص القرآن .

٣ - أن العشر والخراج حقان وجبا بسببين مختلفين لجهتين مختلفتين فلا يمنع أحدهما الآخر ..

أما أبو حنيفة رضى الله عنه فيرى أن العشر والخراج لا يجتمعان واستدل بما يأتى :

١ - بحديث يروى عن ابن عباس : « لا يجتمع عشر وخراج فى أرض مسلم » .. وقد رد على هذا بأنه حديث مجمع على ضعفه .

٢ - قال أبو حنيفة : ان الخراج يجب بالمعنى الذى يجب به العشر

وهو منتفعة الأرض ولهذا لو كانت الأرض سبخة لا منفعة لها لم يجب فيها خراج ولا عشر ، وقد رد على ذلك بأن الخراج لم يجب بالمعنى الذى يجب به العشر ، لأن العشر يجب فى نفس الزرع فاذا لم تزرع فلا زكاة ، أما الخراج فيجب على الأرض سواء زرعت أم أهملت .

٣ ـ قال أبو حنيفة : أن الخراج يجب بسبب الشرك ، والعشر يجب بسبب الاسلام فلم يجتمعا وقد رد على هـذا بأن الخـراج لم يجب بسبب الشرك بل هو أجرة الأرض سواء أكانت فى يد مسلم أو كافر .

٤ ـ استدل أبو حنيفة بما روى أن الدهقان لما أسلم قال عمر بن الخطاب: سلموا اليه الأرض وخذوا منه الخـراج ولم يأمر بأخـذ العشر ولو كان واجبا لأمر به .. ورد على ذلك بأن الخراج أجرة لا يسقط باسلامه ولا يلزم من ذلك سقوط العشر وانما ذكر الخراج لأنه ربما توهموا سقوطه كالجزية.

وقد ثارت اشكالات أيضا بخصوص الرى :

يقول الماوردى : « اذا سقى بماء العشر أرض الخراج كان المـأخوذ منها خراجا اعتبارا بالأرض دون الماء » وقال أبو حنيفة : يعتبر حكم الماء ، فيؤخذ لماء الخراج من أرض العشر الخراج .

* هذه نماذج عملية لما وصل اليه العنت من تداخل الخراج مع العشر فى ظل هذا الواقع الجديد الذى جعل من المسلمين من ينوء بقيمـة الخـراج والزكاة معا أو يتوقف عن أحدهما على آراء ، أو يكون الحظ قد أنصفه بادىء ذى بدء فوقع على أرض عشرية لا يجب فيها الا الزكاة .

فهل كان أى حريص على نصاعة الصورة الاسلامية يرضيه أن تستمر الحال على هذه الصورة دون أى تدخل حاسم باعـادة تقـدير الموقف على ضوء ما آلت اليه الأمور حتى تستكمل البيئة الاسلامية ملامحها التى كانت عليها داخل الجزيرة العربية باعتبارها النمـوذج الأمثـل فى العـلاقات ، النموذج الذى يشد أفئدتنا اليه والذى انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى وقد تركنا على المحجة البيضاء .

* بالقطع كان هناك الحريصون من العلماء والحكام الذين فطنوا الى ضرورة التغيير أو التصحيح ، وكان هناك أيضا أصحاب المصلحة فى استمرار التقديم •

لذلك كله قصة ممتعة فى تاريخنا الاقتصادى •• قصة غنية بالثروة العلمية والتجارب العملية والمواقف القوية فى الصراع بين الأرض العشرية والأرض الخراجية ، ولكن أصحاب التاريخ المجهول لا يقرأون •

* فى غزوة بنى المصطلق أعاد الرسول عليه السلام اليهم الغنائم التى غنمها منهم لما أعلنوا اسلامهم ، وكذلك فعل مع قبيلة هوازن حين استرجع السبى من أيدى المسلمين تأليفا لقلوبهم بعدما أعلنوا اسلامهم ، وكان من الممكن أن يثور منطق قانونى شكلى مؤداه أن هؤلاء وهؤلاء قد أسلموا بعد أن زالت ملكيتهم عن أموالهم وغنمها المسلمون • وهو منطق صحيح لكنه دون منطق الداعية الذى تشغله الغاية عن الوسيلة ، والجوهر عن الشكل • ومن منطلق هذه الغيرة الحميدة كان ينادى الامام أبو عبيدة بانهاء مبرر الأرض الخراجية بعد دخول الناس فى دين الله أفواجا ، وكان يرى التسوية بين المسلمين جميعا لا فرق بين من كان من أصل ذمى أو من رجال الفتح ويقول: « المسلمون فى هذا الشرع سواء » •

* والحق أنه ما كان ينبغى أن تستمر هذه الصورة من الصراع بين الأرض الخراجية والأرض العشرية ، أى بين الملكية العامة والملكية الخاصة ، الأمر الذى ازداد مع الأيام تعقيدا ، حتى بعد الناس بالتدريج عن الأصول الاسلامية الصافية فى هذا الركن الهام من أصولنا التشريعية ، حيث كان من الواجب أن تكون دعوة الامام أبو عبيد محل اعتبار بمجرد الاذن للمسلمين بالتوطن وبعد دخولهم فى معاملات مع الأهالى الذين انتشر فيهم الاسلام ••

فأمام هذا التغيير الجوهرى فى طبيعة المجتمع — وهو تغير الى أعلى — من غلبة الشرك الى غلبة الاسلام على الذميين ، ومن الحياة داخل معسكرات الى الحياة المدنية ومساكنة الأهالى من جانب المسلمين الفاتحين •• ومن العزلة المفروضة على الفاتحين فى التعامل على الأرض الخراجية الي السماح بشتي

ألوان المعاملات ، ومن سنة ٢٠ هـ الى سنة ٢٠٠ هـ أو يزيد .. أمام كل هذه التغيرات كان يتحتم ان نستلهم الأصول التشريعية والمقاصد الشرعية قبل أن تغرقنا التفصيلات الجزئية بمعنى أن نعود الى عهد الرسول داخل الجزيرة العربية ـ مرآة لتطبيق الصافية ـ ، كلما غم علينا أمر التطبيق فى ميدان آخر من الأرض لنستلهم من صفائها رؤية صحيحة لأصول الشريعة العادلة .

* لم تكن أرض المسلمين فى الجزيرة كما رأينا ، الا أرضا عشرية ، أى أن ملكيتهم عليها خالصة ، ليس عليهم فيها سوى الزكاة المحدودة الأموال والنسب والمصارف حتى أن الحاكم لا يجد فى ظلها منفذا لسلطان على أرزاق الناس وحرياتهم .. ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أنا لا أعطى ولا أمنع وانما أنا قاسم ، أضع حيث أمرت ..

فاذا كانت ظروف الفتوحات قد وضعت سلطانا ماليا فى يد الامام للانفاق على جيوش الفتح وعلى كل ما فيه مصلحة المسلمين وأهل الخراج على السواء ، فانما هى سلطة كان أئمة الفتح لها أهلا وكانت ضرورة مقدرة بقدرها ..

ومر الزمن ، وانتشر الاسلام فى الذميين ، وتغيرت الظروف ، وبقيت السلطة فى يد نوع جديد من الحكام مختلفين عن أسلافهم العظام .. وأصبحت هذه السلطة هذه المرة تصيب المسلمين جميعا بشررها .. وسهلت نقض الاسلام عروة عروة بعد ذلك .. لأنه وجد فى حياة المسلمين الحاكم الذى يعطى ويمنع على غير ضرورة وفى اعطائه هذا السلطان اللهم الا شهوة المتع والعطاء .. صحيح أن بقية جوانب الشريعة كفيلة بالحد من سلطان هؤلاء .. ولكن الثلمة وجدت على أية حال وبدأت بعدها عوامل الاضعاف تتوالى ..

وجدت الأرض الثلمة حين أصبحت الأرض الخراجية كالمعلقة .. حل من مشكلتها النصف وبقى النصف الآخر .

(أ) أما النصف الذى شمله الحل فهو خلوص الملكية للأفراد فى واقع الأمر لا فى حكم القانون على غرار ما رأينا فى الحلقة السابقة .

(ب) أما النصف الذى ظل معلقا فهو خضوع هذه الأراضى للخراج الذى كان من أول دلالاته انه يتنافى مع الملكية الخاصة ، وكان حقا على المسلمين أن ينظروا اليه على أنه صغار ؟ !

فالخراج ظل ساريا ، لكن الذى سكت عنه الحكام بل عجزوا عن ايقافه هو صيرورتها ملكية خاصة يجرى عليها مالكها جميع تصرفات مالك الرقبة وانتهى داعى تحريم التعامل فى الأراضى الخراجية بين الذمى والمسلم وهذا ما يفسر لنا تضارب النصوص لأول وهلة ولكن فهم النصوص مع مصاحبة الواقع يلقى ضوءا على المشكلة ويزيل التعارض الظاهرى •

* لم تخل البيئة الاسلامية والحمد لله من علماء أمناء ومن حكام راشدين ومن رعية ساهرة على أصول الشرع يدركون الحاجة الى احداث هذا التغير الذى كانت له احدى صورتين :

١ ـ اما أن تعلن السلطة انتهاء مبرر الخراج وأن من يضع يده على أرض من المسلمين يعتبر مالكا لرقبتها ليس عليه فيها سوى العشر ، وفى هذه الحالة سيغرم بيت المال مورده من الخراج ، ولا يبقى أمام الحاكم الا طريق واحد كلما احتاج الى مال ، وهو الطريق الذى سبق تفصيله تحت عنوان : « هل فى المال حق سوى الزكاة » وفى هذه الحالة سيفقد السلطان كثيرا من نفوذه المالى الذى كان يوفره له الخراج ولكن الغنم الدينى فى جانب سلامة تطبيق الشريعة أولى وأغنم •

٢ ـ واما ـ على الأقل ـ أن يبيح بيت المال للناس شراء الأراضى التى تحت أيديهم ـ والتى هى فى الأصل ملك لبيت المال منذ الفتح ـ على أن يدفعوا قيمتها لبيت المال ، وفى هذه الحالة سيكسب بيت المال قيمة الأرض ومن حق الامام هذا الاجراء باعتباره نائبا عن مجموع المسلمين ••

الفقه والرأى العام فى مواجهة :

ان أمة معها من الله نور وكتاب مبين تكون قادرة دائما على توجيه حكامها وتصحيح مسارهم لأنهم ليسوا هم مصدر التشريع بل هم ورعيتهم

سواء فى الميزان .. بهذا تنطق أقوال الفقهاء وتصرفات الرعية فى هذه القضية الشائكة مما كان يجبر الحكام آخر الأمر على الرضوخ ، ومما كان وراء ظهور الحكام الراشدين الذين يصيخون لصوت الحق مذعنين ..

فلا عجب اذن أن يحدثنا التاريخ عن انتهاز الرأى العام الاسلامى كل فرصة ليتجه بالأرض الى وضعها الأصولى أى الى الأرض العشرية ..

« ففى عام الجماجم سنة ٨٢ هـ ، لما أحرق ديوان القطائع فى فتنة ابن الأشعث أخذ كل قوم ما يليهم من القطائع بعد أن كانت ملكا للدولة منذ أيام الفتح وقد كانت غلتها فى عهد عثمان رضى الله عنه ٥٠ ألف ألف (مليون) درهم ، فصارت هذه الأراضى اذن عشر وملكا للأفراد والأسر » (١) .

وذكر البلاذرى « أن أهل الشعيبية من الفرات جعلوها لعلى ابن أمير المؤمنين الرشيد فى خلافة الرشيد على أن يكونوا مزارعين له فيها ويخفف مقاسمتهم ، فتكلم فيها فجعلت عشرية من الصدقة وقاسم أهلها على ما رضوا به (٢) » .

ويبدو أن ضغط هذا الواقع العملى الذى تعددت شواهده فى العصر الأموى ثم فى العصر العباسى من بعد من جانب رعية مدركة للفرق الجوهرى بين نظام العشر ونظام الخراج بل وتتحين الفرص بالخراج ، يبدو ان هذا كان وراء استجابة بعض الحكام لهذا الاتجاه لأن تصرفاتهم لم تنبت فى فراغ .. فيحدثنا التاريخ أن الأمر استمر الى عهد عبد الملك بن مروان لا يجرى فى أرض الخراج بيع ولا شراء ثم أذن لهم عبد الملك والوليد وسليمان فى الشراء على أن يدفعوا ثمنها لبيت المال (٣) .

ولكن لم يكن هذا هو موقف كل الحكام من هذه القضية من حيث أن المنصور فى العهد العباسى منع تحويل الأرض الخراجية الى أرض

---

(١) الخراج والنظم المالية فى الدولة الاسلامية لضياء الدين الريس ص ٢٦٦ .
(٢) الخراج والنظم المالية فى الدولة لضياء الدين الريس ص ٤٩٦ .
(٣) اشتراكية الاسلام ، للدكتور السباعى ص ٨١ .

عشرية [١] .

أما اذا رجعنا قليلا الى زمن الحجاج فنجده قد سن سنة سيئة للمحافظة على موارد بيت المال حيث كان أول من أدخل الجزية من المسلمين فوق قيمة الخراج كما أجبر الذين تحولوا من السواد الى المدن الى العودة الى زراعة الأرض كما كانوا ولم يسقط عنهم لا الخراج ولا الجزية بعد دخولهم الاسلام .

ويذكر الامام أبو عبيد : « أنه لما سكن المدن موال كثيرون أتوا من السواد بعد اسلامهم أجبرهم الحجاج أن يعودوا الى قراهم ووضع الجزية عليهم » كما يذكر أنه يروى عن بعض الحكام بنى أمية أنهم كانوا يأخذون الجزية من الذميين بعد اسلامهم ، ويبررون ذلك بأن الجزية بمنزلة الضرائب على العبيد ، ويقولون فلا يسقط اسلام العبد عن ضريبته ، ولهذا استجاز من استجاز من القراء الخروج عليهم ، وقال فى حقهم يزيد بن حبيب : « أعظم ما أتت هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم ثلاث خصال : قتلهم عثمان ، واحراقهم الكعبة ، وأخذ الجزية من المسلمين [٢] .

خامس الخلفاء الراشدين :

هو عمر بن عبد العزيز الذى ختم بحكمه الوضيىء القرن الأول الهجرى وصحح الموازين التى اضطربت فى أمر الأرض الخراجية والعشرية فى مدة خلافته الرشيدة التى لم تتجاوز عامين .. وكان أول ما فعله ببنى أمية أن صعد المنبر ثم قال : « أما بعد ، فان هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغى لنا أن نأخذها ، وما كان ينبغى لهم أن يعطوناها ، وأن ذلك قد صار الى ، ليس على فيه دون الله محاسب ألا وأنى قد رددتها وبدأت بنفسى وأهل بيتى ، اقرأ يا مزاحم ، وقد جىء قبل ذلك بقسط فيه تلك الكتب فجعل مزاحم يقرأ كتابا كتابا ، فيأخذه عمر وبيده مقص ويقص به حتى لم يبق منه شىء الا شقه » [٣] .

---

(١) الخراج والنظم المالية فى الدولة الاسلامية ، لضياء الدين الريس ص ٤٠٢ .
(٢) الأموال لأبى عبيد ص ٤٨ — ٤٩ .
(٣) بحث اقتصاديات الأمة المسلمة ، د. يوسف كمال .

وكتب الى عامله على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب :

« أما بعد ، فان أهل الكوفة قد أصابهم بلاء شديد وجور فى أحكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم السوء ، وأن قوام الدين العدل والاحسان لا تحمل خرابا على عامر ، ولا عامر على خراب ، انظر الخراب فخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر ، ولا يؤخذ من العامر الا وظيفة الخراج فى رفق وتسكين لأهل الأرض ، ولا تأخذن فى الخراج لا وزن سبعة ، ولا أجور الضرابين ، ولا هدية النيروز والمهرجان ، ولا ثمن الصحف ولا أجور الفيوج ، ولا أجور البيوت ولا دراهم النكاح .. ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض ، فاتبع فى ذلك أمرى فانى قد وليتك من أمرى ما ولانى الله » (١) .

وكتب اليه يقول : « كتبت تسألنى عن أناس من أهل الحيرة يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس وعليهم جزية عظيمة وتستأذننى فى أخذ الجزية منهم ، وان الله جل ثناؤه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم داعيا الى الاسلام ولم يبعثه جابيا ، فمن أسلم من أهل تلك البلاد فعليه فى ماله الصدقة ولا جزية عليه » (٢) .

ارض اليمن :

* وفى موقفه من أرض اليمن برهان جديد : معلوم كيف دخل الاسلام أرض اليمن ، فبعد ما وفدت وفود حمير مسلمين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب اليهم كتابا باقرارهم على ما أسلموا عليه من أموالهم وأرضهم ووجه اليهم رسله وعماله لتعريفهم سنن الاسلام وبين لهم حدود الصدقات الواجبة عليهم ثم تتابع اسلام أهل اليمن ..

ومن ثم كانت أرضهم عشرية لأنها لم تفتح عنوة ، فليس على أهلها

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ٥ ص٢٣ . الطبرى جـ٨ ص ١٣٩ . الخراج لأبى يوسف ص ٨٦ ، المطبعة السلفية . ضياء الدين الريس ص ٢٣٥ .
(٢) الخراج لأبى يوسف ص ١٣١ .

سوى الزكاة نسبها ومصارفها المحددة شرعا • وسبق أن رأينا كيف تراجع معاذ ابن جبل رضى الله عنه مع عمر بن الخطاب حول الفائض من أموال الزكاة لمدة ثلاث سنين متتالية •• وهذا الوضع جعلها تفلت من سلطان حاكم بنى أمية لأنها ليست أرضا خراجية يذهب خراجها الى بيت المال •• ولكن محمد بن يوسف أخو الحجاج حول أرض اليمن الى خراجية •

فجاء عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وأبطل وظيفة الخراج عن أهل اليمن وقرر ألا يؤخذ منهم سوى العشر أو نصف العشر حسب الشرع قائلا : لأن لا تأتينى من اليمن غير حفنة كتم أحب الى من اقرار هذه الوظيفة [1] •

ولما انتقل الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الى ربه وجاء بعده يزيد الثانى أمر باعادة الخراج على أهل اليمن قائلا لعامله : خذها منهم ولو صاروا حرضا [2] •

هكذا كان يدور الصراع بين الأرض الخراجية والأرض العشرية معبرا عن صراع خلفه بين سلطة الحكام وسلطة الشرع ، ولم يعدم ضعاف النفوس من الحكام أسلوبا يحققون به أهواءهم ، ولكنهم والحمد لله لم يجدوا فى الفقه سندا لتصرفاتهم ، فقد ظل فقهاؤنا العظام فى مكانهم السامق يدقون ناقوس الخطر ويصدعون بكلمة الحق لا يخشون فى الله لومة لائم • ومن الحكام من حاول الاستجابة للظروف المتغيرة بنوع وسط من الحلول ، ومنهم من تصدى لسنة التغير فى اصرار أضر بالبيئة الاسلامية •

ففى زمن المهدى الخليفة العباسى حدث تغير جوهرى فى نظام الخراج من خراج المساحة الى خراج المقاسمة ، وكانت نسب المقاسمة التى وضعها الوزير أبو عبيد الله هى : النصف على الأراضى التى تسقى سيحا ، والثلث على الأراضى التى تسقى بالدوالى والربع على تلك التى تسقى بالدواليب • وكان فى هذا الاجراء تخفيف على الناس ومصلحة لبيت المال •

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٨٠ ، وابن الأثير والكامل جـ٥ ص ٢٥ •

(٢) ضياء الدين الريس (الخراج والنظم المالية) ص ٢٤٧ •

★ يحدثنا ابن بطوطة فى رحلته عن صراع مماثل فى الهند فيذكر أن السلطان أبو المجاهد محمد شاه بن السلطان غياث الدين تغلق شاه قد أمر فى سنة ٧٤١هـ برفع المكوس عن بلاده وألا يؤخذ من الناس الا الزكاة والعشر خاصة ص ٤٧٠ طبعة دار بيروت ١٩٦٤ •

وقد بين الامام أبو يوسف سبب العدول عن نظام المساحة الى نظام المقاسمة بأن مدار التشريع هو مراعاة المصلحة وألا يوضع على الأرض الا ما تطيق كما أوضح أن هذا مقياس على ما فعله الرسول عليه السلام مع أهل خيبر اذ قاسمهم على النصف ، وكانت نسب أبو يوسف أخف من أبى عبيد الله حيث كانت ٢/٥ للسيح من الأرض ، أما الدوالى فعلى خمس ونصف، والنخل والكرم والبساتين ١/٣ وغلال الصيف على الربع .

* ولا يغيب عن البال أن أى شكل من أشكال الخراج يعتبر ثورة زراعية كبرى لم تخطر ببال أمة أخرى من الأمم التى عاشت فى ظل الاقطاع أو العبودية .. ومع هذا ، فان هذا النظام الذى خضع لهذه التغييرات لصالح الرعية لم يكن محل رضى لدى كثير من العلماء الذين طالبوا بتصفيته والعودة الى نظام العشر باعتباره الوضع الأكمل فى تنظيم حياة المسلمين .. أليس أنها خير أمة أخرجت للناس ، صراعاتها من أجل الوصول الى الكمال وغيرها لا يحلم بالخروج من دائرة القهر والاستغلال ..

انحرافات :

أما أولئك الحكام الذين ركبوا مركب الشطط فى التصدى لنداء الحق الصاعد من أقوال الفقهاء ومن تصرفات الرعية ، فانهم لم يقفوا عند حدود التصدى ، بل أوغلوا فى الشريعة مسافة أخرى ، حين زادوا على نظام الخراج بعض أنواع الضرائب فضلا عن جبايتهم للخراج على أساس جديد خلاف خراج المساحة أو خراج المقاسمة وهو نظام القبالة أو التضمين . أى التزام عامل الخراج أمام الحاكم بدفع مبلغ ثابت سنويا يتولى هو جمعه من الناس .

فقد عرض أبو جعفر المنصور سنة ١٤١ هـ على محمد بن الأشعث ضمان خراج مصر ولكن ابن الأشعث لم يقبل (١) .

---

(١) الخراج والنظم المالية فى الدولة الاسلامية لضياء الدين الريس ص ٤٩٤ .

وفى القرن الثالث انتشر نظام القبالة هذا وهو أمر لم يقره الفقهاء وحرموه ولهم فيه كلام كثير سنذكره فى حينه ، فيروى ابن خرداذويه عن الفضل بن مروان أنه قبل الأهواز بتسعة وأربعين ألف ألف درهم . وقد قبل آل طاهر أرض خراسان وأعمالها بضمان قدره ٤٤ ألف ألف درهم .

* وكان أبو عبد الله محمد بن أبى جعفر المنصور سنة ١٦٧ هـ هو أول من وضع الخراج (الضرائب) على الحوانيت فى الاسلام وولى ذلك سعيد الحرش.

* وسار المهدى على نفس المنوال فولى موسى بن مصعب من أهل الموصل على صلاة وخراج مصر فشدد موسى فى استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما يقبل به وارتشى فى الأحكام وجعل خرجا (ضرائبا) على أهل الأسواق والدواب ، فكرهه الجند ونابذوه وثارت قيس واليمانية وكاتبوا أهل الفسطاط فاتفقوا عليه ..

النور لا يحجب :

هذه الانحرافات التى تردى فيها بعض الحكام لم تحجب عن العلماء ولا عن الرعية أصول الاسلام الواضحة فى أن ملكية المسلم لأرضه هى ملكية رقبة وليس عليه فيها سوى الزكاة .. وأن هذا هو المحور الذى يجب أن تدور عليه الأحداث والظروف التاريخية فان بعدنا عنه بعدنا بمقدار اذعانا لمنطق الضرورة ، وأن عدنا اليه عدنا ادراكا لمنطق الحق والصواب ، وكان الاحساس بهذه الحقيقة واضحا فى حس الأمة المسلمة دائما ممثلا فى فقهائها الذين لم يشايعوا هوى سلطان ، فكانوا لذلك أئمة الهدى يترجم ذلك ادراكهم للمعنى العميق فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذى تنبأ بهذه الحال فقد جاء فى الحديث الشريف : « منعت العراق درهمها وقفيزها ، ومنعت الشام مديها ودينارها ، ومنعت مصر أردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأتم » يفسره المقريزى نقلا عن أبى عبيد : « بأن رسول الله أخبر بما لم يكن وهو فى

علم الله كائن .. وفى تفسير المنع وجهان : أحدهما أنه علم أنهم سيسلمون ويسقط عنهم ما وظف عليهم فصاروا مانعين باسلامهم ما وظف عليهم ، يدل عليه قوله : وعدتم من حيث بدأتم ، وقيل معناه انهم يرجعون عن الطاعة .. والأول أحسن » (١) .

---

(١) ذكره يحى بن آدم فى الخراج ص ٧١ – ٧٢ فقرة ٢٢٧ من نسخة المطبعة السلفية سنة ١٣٤٧هـ .

الحلقة الثانية والثلاثون

مراحل الضعف والتوقف
قصة الأرض في مصـــر

تنفرد الشريعة الاسلامية بميزات عديدة حتى فيما يصيب بعض جوانبها من تعطيل على أيدى ضعاف النفوس والافهام من الحكام أو الأفراد .. فلا تتداعى حلقاتها نتيجة لتعطيل هنـــا أو خروج هنـــاك بل سرعان ما يسرى التنبيه فى شرايين الجسم الفتى لمحـــاصرة موضع الخطـــر وعزله عن بقيـــة الأجزاء .. حتى لو أصاب هذا العطب عمودا فقريا كالتشريعات الاقتصادية. فان بقية التشريعات الاجتماعية لا تفقد صوابها بل يظل لها استقلالها وعلى كل مسلم التزامها ، ولا تتعرض ولا يتعرض معها دين المسلم للموت بسهولة رغم كثرة الضغوط وتنوع القيود التى تكبل خطاه حتى ولو قبض فى سبيل ذلك على الجمر .. فهو مع هذا العنت فى عافية طالما أن الضريبـــة لم تصب القلب .. أى لم توجه للعقيدة ولم تخلخل الايمان ..

حتى فى أحلك الأوقات التى تتعطـــل فيها كل وحـــدات الشريعـــة فى المعاملات وتبهت فى العبادات فان العقيدة الصافية تقف بمفردها كخط دفاع أخير وقوى يدفع الى كل الأصول التشريعية من جديد كما هى ظاهرة التجديد لأمر هذا الدين على يد من يبعثه الله كل حين من أئمة الهدى ..

الأمر الذى تفتقر اليه جميع الأنظمة الأرضية فهى ان تغير فيها الأساس الاقتصادى للمجتمع تغيرت وراءه كل التشريعات الاجتماعية والسياسية حتى الأخلاق والقيم تلهث هى الأخرى من كثرة التبديل .. وقد أدرك جيب فى كتابه (١) هذه الظاهرة الفريدة وأشار اليها فى قوله : « وأعجب من ذلك أنه بينما حدثت عدة تطورات فى المثل الاقتصادية للشعوب الأخرى (الاسلامية) خلال المائة سنة المنصرمة . بقى النظام الاجتماعى بلا تغيير ، وهذا يبين فى

---

(١) الاسلام والنظام العالمى الجديد ــ لمولاى محمد على راس الرابطة الاحمدية بلاهور ترجمة جودة السحار ص ٤٧ .

الحرية والكرامة الا أنه كانت تفضل بعض الصور على بعض .. وقد رأينا فى الحلقات السابقة من يفضلون العودة الى الأرض العشرية بعد انتشار الاسلام فى الذميين وزوال مبررات الخراج .. ورأينا كيف كان الفقه والأئمة الراشدون والرأى العام المستنير فى جانب الأرض العشرية ، وكيف كان بعض الحكام يتشبثون بالأرض الخراجية لما يتيحه لهم نظامها المالى من سلطان .. ومن ثم كان استمرار نظام الخراج بعد زوال مبرراته هو أول ثلمة فى سلامة التطبيق للتشريعات المالية .. وأفضت هذه الثلمة بدورها الى اعتداء جديد من جانب السلطان متمثلا فى فرض أنواع جديدة من الضرائب علاوة على الخراج لم يكن للبيئة الاسلامية سابق عهد بها .. ثم كان نظام القبالة أو التضمين فى دفع الخراج عدوانا أكبر على أرزاق الناس وحرياتهم .. وبدأت البيئة الاسلامية تفقد الكثير من ملامحها تحت مطارق الاعتداءات المتتالية ، وتحققت فى المسلمين نبؤة نبيهم فى هذا المجال التشريعى الهام مثلما تحققت فى مجالات ايمانية وتشريعية أخرى : «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا وذراعا ذراعا ، حتى لو دخلوا جحرا تبعتموهم . قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ !

ويلزمنا لذلك أن نتتبع فترات الضعف فى التشريع المالى التى انتهت بالتعطيل التام مع موجات الاستعمار الحديث .. وهى قصة لا غنى عنها لمن يريد معالجة أمراضنا الاقتصادية والاجتماعية من وجهة نظر اسلامية ..

فترات الضعف والتوقف :

وقبل كل شىء ننبه الى خطأ شائع يتردى فيه كثير من النـاس حين يحصرون العصر الذهبى للاسلام فى عهود الخلفاء الراشدين ، ويظنون ان المسلمين عاشوا بعدهم فى فتن وحروب ذهبت بسلطان الاسلام فى الحياة ، ولا يقول بذلك الا من نظر الى الأمور نظرة مسطحة ..

ذلك أن العصر الذهبى يقوم على كرامة الانسان ، وكرامة الانسان تقوم على الأصول العقائدية والأصول التشريعية حين لا تمتد اليها يد انسان بالتشويه أو التعطيل .. الأمر الذى وجد على أفضل صورة فى عصر الخلفاء

الراشدين والذى ظلت مقوماته لفترة طويلة بعـدهم فى حياة المسلمين برغم خلافات السطح بين الأمراء .. وقد بقيت حياة المسلمين لقرون طويلة لا تتأثر كبيرا بما يكون بين الحكام من شقاق أو حال بعضهم من فساد ، اذ كان ذلك محصورا فى النطاق الشخصى تارة أو فى الدائرة التى يملكون الدوران عليها تارة أخرى من الاختصاصات المالية والادارية دون أن يملك أحدهم القدرة على أدنى تغيير فى الأصول العقائدية أو التشريعية التى تمثل الحصانة الحقيقية فى الحياة اليومية للمسلمين .. والحالات التى كان يحدث فيها جور سافر على أى أصل شرعى كان يهتز لها الضمير الاسلامى بقوة مثلما تهتز بقية الأصـول الشرعية حين تستعصى على هوى الحكام ويجدون أنفسهم أمام جدران صلبة ليس من السهل عليهم أن يخترقوها .. وسرعان ما كانت تدب الحياة فى جسم الأمة بنفس القوة التى كانت فى الصدر الأول بمجرد موت أو تغيير الحـاكم المعتدى وقيام من هو أصلح منه ..

فعندما خلف عمر بن عبد العزيز حكام بنى أمية المعتدين دبت القوة فى شرايين المجتمع الكبير الممتد من الصين حتى الأندلس ، وزالت كل أعراض الأمراض السابقة على عهده .. ولم يتميز عهده القصير بهذه الظاهرة وحده بل نشاهد تكرارها على فترات متقطعة فى الزمان والمكان .

* هذه القوة لا يمكن أن تأتى بفعل أمير صالح أو تزول بفعل حاكم طالح . ان الأمر أكبر من ذلك ، ان هذه القوة تكمن أول ما تكمن فى عظمة الأصول التشريعية التى تلتف حول حياة المسلمين فى كل صغيرة وكبيرة كأنها أذرع قوية حنون تحميها فى رفق من أى عدوان خارجى يأتى من حاكم جنح أو ضل سواء السبيل .. لأنه فى النهـاية لن يضـع لهم تشريعا من عنـده فى شـؤونهم الاجتماعية أو الاقتصادية وان استطاع أن يسىء فى دائرة اختصاصه المـالية والسياسية .

هذه الحقيقة يجب ألا تغيب عنا حين نتكلم عن فترات الضعف التى طرأت على سلامة التطبيق فى تاريخنا التشريعى .

فلم تكن عظمة عمر بن عبد العزيز فى كونه عادلا يقضي بالحق هنا وهناك

وسط مستنقع من المشاكل والخلافات لا تنتهى لأنه كان سيستحيل عليه التأثير فى هذا البحر الطامى بمقدار كبير ، ولكن كانت عظمته فى أنه كان الامام الفقيه الورع الذى رد كل شىء الى أصوله الشرعية عقيدة ، وشريعة ، فدبت الحيـــاة بسرعة فى كل عود جاف وعاد اليه الاخضرار •• انه روى الحقول الجدباء بمياه الاسلام الحنيف •• فحين نظر الى مشكلة اليمن ووجـد حكام السوء قد فرضوا على أرضها الخراج تكثيرا للمال فى خزائنهم أعاد أمر هذه البلاد الى سلطان الشرع فصيرها أرضا عشرية •• قرار واحد فى كلمات قليلة نشرت السكينة والعدل والاستقرار فى ربوع عشرات البلاد •• وحين دخل الذميون فى دين الله أفواجا أسقط عنهم الجزية والخراج ، قرار واحد أعلى سلطان الشرع وأنزل سلطان الهوى •• كذلك فعل فى كل ميدان تشريعى •• وقدم نفسه وبيته نموذجا عمليا للصدق ، فتطابق سلوكه الشخصى مع قراراته الشرعيـــة فاكتمل النموذج المطلوب فى الامام فاكتمل النموذج الصحيح فى الحياة • من هنا كانت فترة حكمه القصـــيرة التى بلغت عامان رفرف فيهما الاسلام فى كل مكان ، كانت شهادة على عظمة الاسلام نفسه قبل أى انسان أو سلطان •• وبرهان على امكانية التغيير السريع للحيـــاة من الأســـوأ الى الأحسن عندما تتجه فى صدق نحو شرع الله •• ولكنها لا تتجه بهذا الصدق الا عندما يكون على رأسها رجل مثل عمر بن عبد العزيز ••

* أما المجتمعات الأخرى فكل شىء فيها من صنع البشر •• فليس بين الحاكم والرعية ميزان فوق الجميع ، وما أسهل أن يلبس كل شىء على النـــاس باسم القانون ، وباسم الشعب ، وباسم العلم ، وباسم الأحكام العرفية ، وبأسماء كثيرة لا تنفد ، والمجتمعات المسكينة هى التى تدفع الثمن وهى ضحيـــة التجارب ، وكان أحد قياصرة روسيا اذا ذكر بالقانون دق على صدره وقال : هنا القانون ••• وهو فى هذا القول يعبر عن طوية كل حاكم على شاكلته ولكنه لم يملك شجاعته فتبرقع بالديمقراطية الشعبية ••

* هذه المقدمة كانت ضرورية لتوضيح أن فترات الضعف التى كانت تصيب أحد جوانب الشريعة فى القضايا الاقتصادية والاجتماعية تسير فى خط بيـــانى بطىء جدا بالنسبة لفترات الضعف السياسي فى سلوك الحكام ، فالأولى

يتطابق خطها البيانى مع الخط النفسى للأمة ، والثانية يتطابق خطها البيانى مع الخط النفسى للحاكم .. ومن هنا كان طول عمر الشريعة الاسلامية فى ميادين التعامل الاجتماعية والاقتصادية برغم انحرافات الحكام : وهذا يفسره الحديث الشريف : « لينتقضن الاسلام عروة عروة ، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها وأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة » [1] .

ليس معنى ذلك اليأس من امكان عودة الروح فى كل جوانب الشريعة مرة أخرى بل ان ايمان المسلم بحدوث ذلك يعطيه زادا للعمل لا ينضب ففى الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو ما يبشر بذلك ، قال صلى الله عليه وسلم : « تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله اذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله اذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكا عاضا فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها اذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها اذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت » ، وعن أبى سعيد جابر بن عبد الله قال صلى الله عليه وسلم : « يكون فى آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده » .

وقصة الأرض فى مصر وما طرأ عليها من تقلبات تعتبر نموذجا تقريبيا لغيرها من الأراضى التى فتحت عنوة فى مختلف الأقطار الاسلامية والتى تختلف بداياتها القوية عن نهاياتها الضعيفة التى ختمها الاستعمار بتشريعاته الرأسمالية ..

قصة الأرض فى مصر :

١ - فتحت مصر عنوة فكانت أرضها خراجية ، الا أن مصر العليا (الصعيد) وبعض مدن الدلتا فتحت صلحا ونظمت المعاملة معها بعدد من العهود والعقود ، وهذه المدن كما ذكرها البلاذرى هى : عين شمس : تنيس ، دمياط ، تونه ، دميره ، شطا ، دقهلة ، بنا ، بصير ، الأشمونيين ، الفيوم ،

---

(١) عن أبى أمامة مرفوعا . رواه أحمد ٥ - ٢٥١ .

أخميم ، البشرودات ، مدن الصعيد .. وكانت العقود متماثلة تنص على جزية قدرها ديناران على الفرد ، ودينار واحد على الفدان ، كما نصت على ضيافة من ينزل بهذه المدن من المسلمين .. كما كانت هنـاك أرض الصوافى التى استصفاها الفاتحون بعد أن لم يكن لها مالك .. » [١] .

٢ — فى عام ٢٦ ٣٥ هجرية بنى عبد الله بن ابى السرح « أول ديوان للخراج بمصر .. » [٢] .

٣ — فى ٢١٦ هـ انتشر الاسلام فى القرى ، فى ٣٠٠ هـ كان معظم أهالى البلاد قد أسـلموا بتـأثير المجتمع الاسـلامى النموذج الذى كانت نواته المعسكرات ثم أخذ فى النهاية شـكل المدن مثل الفسطاط .. ويصـور ابن عبد الحكم كيفية زراعة الأرض فى ذلك الوقت فيقول : « كان يجتمع ناظر القرية أو عريفها أو رئيسها بأهل القرية ويوزع الأراضى فيما بينهم كل واحد ومقدرته ، والعاجز يقوم مقامه المستطيع ، والقرية كلها تخرج ما عليها من خراج وتسد حاجة كل من يكونون فى حال احتياج من أهلها . وذلك لأن الأرض كانت خراجية ولم تعتبر ملكا لمن هى فى أيديهم بل أيديهم عليها يد اجارة . وكان عرفاء القرى يجتمعون ويتشاورون فيما يجب أن يفرض من خراج على الأرض » [٣] .

٤ — حول هـذا التاريخ اذن للمسـلمين بمساكنة الأهالى فتداخلت المعـاملات وتنقلت الأرض بين الفاتحين وأهـالى البلاد ودخلت فى البيوع والمواريث .. وصار الناس يتصرفون تصرف الملاك ، لكن بقى الخراج على الأرض مذكرا دائما بأنها أرض خراجية وليست عشرية ..

٥ — رغم انتشار الاسلام ورغم حياة الاستقرار اللذين يبرران منطق من دعى الى العودة الى الأرض العشرية كما فعل الامام أبى عبيد الا أن شيئا من

(١) كتاب الجزية والاسلام تاليف دانيل دينيت ترجمة الدكتور فوزى فهيم جاد الله ص ١٤٧ — ١٠١ .
(٢) ، (٣) تنظيم الاسلام للمجتمع لأبى زهرة ص ١٦٥ .

ذلك لم يحدث وظل الخراج ساريا بعد زوال مبرراته •• وهـذا يشـكل الانحراف الأول من الناحية الاقتصادية •

٦ ـ كان الانحراف الثانى حين ظهرت فكرة القبالة أو التضمين فى جمع الخراج •• لأن ضمان عامل الخراج بتوريد مبلغ ثابت سنويا وقبوله العمل على هذا الشرط كان يجعل له سلطانا كبيرا على الناس لم يكن له من قبل حين كان يؤدى ما يجبيه فقط قل أم كثر فى حدود استطاعة أهل البلاد •• فالتضمين أو التقبيل أو القبالة أو الالتزام أو التعهد كلها بمعنى واحد وقد حرمهـا الفقهاء بلا اسـتثناء : « لأن عامل الخراج مؤتمن يستوفى ماوجب ويؤدى ما حصـل ، فهو كالوكيل الذى أدى الأمانة لم يضمن نقصـانا ولم يملك زيادة •• » •• وكان الصحابة رضوان الله عليهم على ذكر بما يؤدى اليـه هذا الأمر فكانوا يشددون فى منع هذا التضمين ، حكى عن ابن عباس رضى الله عنه أن عاملا أتى عمر يتقبل منه أقليم الأبله بمائة ألف درهم فضربه مائة سوط وصلبه تعزيرا وأدبا ليكون عبرة لمن يفكر بعقلية جباة الضرائب من الفرس والروم •• وقال ابن عمر رضى الله عنه « القبالات ربا » [1] وقد وقف الفقه الاسلامى بحزم فى وجه هذا الانحراف. فهذا هو الامام أبو يوسف يحذر هارون الرشيد بقوله : « ورأيت ألا تقبل شيئا من السـواد ولا غير السواد من البلاد ، فان المتقبل اذا كان فى قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم ما لا يجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما دخل فيه ، وفى ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية •• والمتقبل لا يبالى بهلاكهم بصلاح أمره فى قبالته ، ولعله أن يستفضل بعد ما يتقبل به فضـلا كثيرا ، وليس يمكنه ذلك الا بشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد ، واقامته لهم فى الشمس وتعليق الحجارة فى الأعناق ، وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذى نهى الله عنه •• انما أمر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم •• ويختتم هـذا التحـذير الكبير بقوله : « وليس يبقى مع الفساد شىء ولن يقل مع الصلاح

---

(١) الزكاة على المذاهب الأربعة ص ٧٠ لمحمد صقر .

شيء [١] .

هذا الذى حذر منه الصحابة الكرام والفقهاء العظام قد حدث على أيدى عمال السوء فى فترات الضعف ، ويسجل المقريزى طريقة جباية الخراج فى مصر بعد ظهور فكرة التضمين أو القبالة فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى قبل مجىء أحمد بن طولون يقول : « وكان من خبر أراضى مصر بعد نزول العرب بأريافها ، واستيطانهم وأهاليهم فيها واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا وانقياد جمهور القبط الى اظهار الاسلام ، واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين أن متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفسطاط فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الأراضى ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما ينتهى اليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك ، فاذا انقضى هذا الأمر خرج كل من تقبل أرضا وضمنها الى ناحيته فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها ، ويحمل ما عليه من الخراج فى ابانه على أقساط ، ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضى ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجانها بضريبة مقدرة فى ديوان الخراج .. ولم يزل ذلك يعمل به فى جامع عمرو بن العاص الى أن عمر أحمد بن طولون جامعه » [٢] .

٧ ـ حتى عام ٢٥٠ هـ كان الخراج هو الشىء الوحيد الذى يجبى ، وقد رأينا فى الحلقة السابقة كيف باءت بالفشل محاولة موسى بن صعب فى فرض ضرائب علاوة على الخراج فى مصر وقامت ثورة ضده .. هذا الذى فشل موسى ابن صعب فى فرضه قد نفذه أحمد بن المدبر والى الخراج لأحمد بن طولون حيث زاد فوق الخراج ضرائب على الصيد والمراعى ، فأوجد بذلك الانحراف الثالث فى تاريخ التطبيق بمصر .

---

(١) الخراج لابى يوسف .
(٢) الخراج والنظم المالية لضياء الدين الريس ص ٤٩٥ .

٨ — بعد دخول الأتراك مصر أنشأوا نظام الالتزام وهو نفس نظام التضمين والقبالة ، اذ يلتزم شخص يسمى الملتزم بأداء ضريبة ناحية أو أكثر ويعجل بخراج سنة •• وكان الالتزام يقـدر بمزايدة واما باتفاق على الثمن وبين الرزنامة نيابة عن الحـكومة ، حتى اذا تم الاتفـاق أعطى الرزنامة للملتزم تقسيطا أى عقد تلزيم وكانت الحكومة تجعل للملتزم نظير ذلك أراضى غير التى التزمها معفاة من الدفع يحرثها له فلاحو الناحية قسرا لصالحه تسمى (بالأواس جمع أوسية) •• وهذا قد جعل للملتزم سلطانا كبيرا على حياة الفلاحين •• وبهذا بدأ شبح الأسلوب الاقطاعى يتراقص على وجه البلاد •

٩ — فى عهد محمد على وجد نظام المتعهدين وهو شكل جديد للالتزام بدأه محمد على بأن طلب عقود الالتزام من الملتزمين ثم أحرقها ، وحتى لا يثيروا الفلاحين عليـه أرشـاهم باسـتبقاء أراضى الأواسى تحت أيديهم ، وفيما بين ١٨١٣ — ١٨١٨ قسم محمد على أراضى مصر مساحات ثابتة ، وعين الحـدود بين الرى ، وقسم أراضى كل قرية الى أحواض واستعان بكبراء دولته وقواد عساكره بأن يأخذوا على مسئولياتهم نواحى بتمامها بشرط قيامهم بوفاء ما عليها من متأخرات ••

ولما احتاج محمد على الى عمل سلفة اجبارية كان يعتبر ما يدفعه له المتعهد نيابة عن الفلاحين •• والمتعهد بدوره يعتبر الفلاحين مدينين له • ولنـا أن تتصور السلسلة الشريرة بعد ذلك فى جباية هذه الأموال •

كان لابد للانتاج أن يتدهور فى ظل هذا الأسلوب القهرى ، وكان لابد لـكى يستقيم الأمر الحاكم الظالم أن يواصل خروجه على الشرع مرة أخرى ، وأن يتخبط فى وسائله •• وكان طبيعيا أما الفشل الذى حققه نظام المتعهدين أن يقوم محمد على بضربة أخيرة سنة ١٢٢٩ هـ عندما أصـدر مرسـوما بأن تؤول اليه ملكية جميع الأراضى ، ولما بدأ قياس الأراضى خاف كثير من الأهالى وبدأوا يهربون ويتركون الوطن والزرع ، ولما حان وقت الحصاد لم يجـد أعوان محمد على من يعينهم على جمع المحصول اذ هرب الـكثيرون الى سوريا ، فطلب محمد علي من والي صيدا عبد الله باشا أن يسلمهم له فرفض ••

ولما رأى بعينى رأسه تدهور المحصول بدأ يفكر فى العدول عن هـذا الأسلوب ، وعاد الى تقسيم الأراضى وتوزيعها على الأعوان ، وحجته فى ذلك أن المحصول يقل عاما بعد عام .. فهذه أرض بور يوزعها على من يصلحها تسمى « بالابعديات » كانت مساحتها تقدر بـ ٢٠٠ ألف فدان ، وكانت من نصيب الأعيان ورجال الادارة ، وأخرى جيدة لمن يدفع عنهـا الضرائب (شفالك) وكان نصيب أسرته منها كبيرا ، وثالثة معفاة كلية من الضرائب .

* فى عهد عباس الأول ، بدأ العدول عن هذا الأسلوب الاحتكارى . وفى سنة ١٨٤٩ أصدر لائحة أباحت كثيرا من حرية التصرف ، وفى سنة ١٨٥٠ أبطل نظام امتيازات المتعهدين .

* وفى سنة ١٨٥٨ فى عهد سعيد أعيـد حق الملكية للفلاحين بعد وضـع الضرائب على الأرض ، وبهذا اقترب نظام التملك من النماذج الغربية ، ولولا قواعد الميراث وبقايا الروح الاسـلامية فى التشريعات لتـكون الاقطاع فى صورته الشديدة .

١٠ — ختمت سلسلة الانحرافات بالاستعمار : ويصور الامام محمد عبده فترة القابلية للاستعمار التى أثمرها حكم محمد على وخلفائه بقوله: ما الذى صنع محمد على — لم يسـتطع أن يحيى ولكنه اسـتطاع أن يميت ، وجه عنايته الى رؤساء البيوت الرفيعة ، فلم يدع فيها رأسا يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا لجمع السلاح من الأهلين ، وتكرر ذلك كثيرا حتى أفسـد بأس الأهالى ، وزالت ملكة الشجاعة منهم .. لم يبق فى البلاد رأسا يعرف نفسـه حتى خلعه من بدنه ، أو نفاه مع بقيـة بلده الى السودان . أخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثة عن أصله الكريم ، حتى انحط الكرام وساد اللئام .. ولم يبق فى البلاد الا آلات يستعملها فى جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقـة وعلى أى وجه ، فمحى بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفسى ليصير البلاد المصرية جميعها اقطاعا واحدا له ولأولاده ..

الى أن يقول : ظهر الأثر العظيم عندما جاء الانجليز لاخمـاد ثورة

عرابى .. دخل الانجليز مصر بأسهل ما يدخل به دامر على قوم ، ثم استقروا ولم توجد فى البلاد نخوة فى رأس تثبت لهم أن فى البلاد من يحامى عن استقلالها وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنساويين الى مصر .. وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى والموت الأخير وجهلة الأحداث يسألون أنفسهم عنه ولا يهتدون .

فى عهد الاستعمار :

* وعندما احتل الانجليز مصر سنة ١٨٨٢ م فى عهد الخديوى توفيق ، راحت الحكومة تبيع أملاكها وتخفف من قيود الملكية الزراعية .. وعندما صفيت الدائرة السنية وبيعت أملاكها راعى الانجليز أن يخصوا بعض الأسر بأجزاء طيبة من هذه الأرض ، وفى نفس الوقت أقبل على الشراء أعيان آخرون من الذين يوجه لهم أى اتهام بعد تسوية الحساب مع الثورة العرابية .. ومنذ ذلك الوقت ظهرت أسماء جديدة فى قائمة الملاك فى الوقت الذى زالت فيه أسماء من المواطنين ، وما أسرع ما تعطلت الشريعة الاسلامية فى بقية الميادين الاجتماعية الأخرى ، واستبدلت بها القوانين الغربية ، ثم بدأت صبغة الحياة تأخذ اللون الغربى شيئا فشيئا فى العادات والتقاليد والقيم .. وانكمشت الشريعة فى محيط الأحوال الشخصية ، وفقد هذا الفرع شجرته التى كان يتمايل ويورق ويثمر عليها فأصبح يتهدده الجفاف .

* وقد كان العالم يستشرف عصر الثورة الصناعية عندما بدأ مرض الاستعمار يغزو البلاد ، وقد تسلل الى النفوس والعقول قبل أن يتسلل الى الأراضى والسلطان .. وجاء الاستعمار العسكرى متمما لاستعمار نفسى سبقه هيأ له بطش محمد على وكثرة الامتيازات الأجنبية فى عهد خلفائه .

* ولا يفوتنا أن نشير الى المؤامرات التى دبرت لانهاء أمر الأزهر الشريف حصن الشريعة الاسلامية واللغة العربية ، فعملوا على تطبيق سياسة دانلوب فى التعليم بانشاء تعليم موازى للأزهر له الطابع الغربى تشرف عليه وزارة المعارف بحيث يبعد الطلاب والجيل الجديد عموما ثقافيا ونفسيا عن البيئة

الاسلامية الى أن يصير مفهوم الحضارة والتقدم عندهم هو تقليد الغرب وترسم خطاه فى أسلوب الحياة أولا وقبل كل علم فنى .. ولعب أستاذ الجيل ، لطفى السيد دوره الكبير فى هذه المؤامرة الثقافية ، كما لعبها أساتذة كثيرون كنا ننظر اليهم باحترام فى طفولتنا .

* لم تكن السلطة هى الأخرى بعيدة عن هذا الصراع الحضارى ، بل كانت يدها نافذة فى ضرب بقايا الروح الاسلامية والتمكين للنظام الاستعمارى ، وكان لاسماعيل باشا دور رئيسى فى فرض القانون الفرنسى وانشاء المحاكم ومحاربة وتشويه كل من يتصدى له من العلماء ، فكان يقول: لا يمكن أن نعمل فى هذا القرن بما وضع للعرب من نحو ثلاثة عشر قرنا [1]. وأراد أن يستخدم رفاعة بك فى اقناع شيخ الأزهر وغير من العلماء فى اجابة طلبه قائلا له : انك منهم ونشأت معهم وأقدر على اقناعهم .. وكشفت جريدة المنار فى عددها الصادر بتاريخ ربيع أول سنة ١٣٢٣ هـ ، ٢١ مايو سنة ١٩٠٥ سر حملة اسماعيل حين قالت ــ هذه مجلة الأحكام العدلية التى ألفتها لجنة من العلماء هى أحسن من القانون المدنى الفرنسى ، وقد أمر السلطان العثمانى بالعمل بها عندما أسس نظام العدلية وأبطل به الامتيازات الأجنبية فلماذا لم تتبعه الحكومة الخديوية ، بل اختارت على أحكام الشريعة الاسلامية قانون الحكومة الفرنسية ؟ ! كلنا يعرف السبب فى ذلك وهو طمع اسماعيل باشا بالاستقلال والانفصال عن الدولة العليا بمساعدة أوروبا التى ينزلق اليها باتباع خطوات مدنيتها ، فانظر ماذا حل به وباستقلاله ..

آفة المسلمين .. الجهل والطبقة العازلة :

تغيرت الظروف المادية فى ظل الاستعمار تغيرا سريعا ، فالمواصلات خلطت البعيد بالقريب ، والمصانع بدأت تطل بمداخنها ، والأسلوب الاقطاعى والرأسمالى بدأ يرسى قواعده فى معاملاتنا .. وأصبحت قصة الأرض العشرية والأرض الخراجية فى ذمة التاريخ .. ونسى الناس الزكاة كنظام

---

(١) مجلة المختار العدد الصادر بتاريخ ١٦ ربيع آخر سنة ١٣٢٢هـ ، ٣٠ يونيو ١٩٠٤ .

مالى أصيل ، وكذلك الخراج كنظام فريد فى مواجهة ضرورات الفتح ، وذابت هذه التشريعات المالية فى شبكة الناس ، وأعادت بذلك ذكرى الضرائب التى طوقت حياة شبكات ضرائب الرومان والفرس قبل الفتوحات الاسلامية وقامت البنوك بدور الوريث لكل تركة دواوين الزكاة ودواوين الخراج ، وعملت بطريقتها الخاصة التى تتلاءم مع الأسلوب الغربى فى الانتاج •

واختلط الأمر على المخلصين الذين ظنوا أن هذه الحال التى انتهينا اليها تشريعيا ، وخاصة الأوضاع الاقتصادية وعمل البنوك انما هى من ضرورة العصر ، وأن علينا أن نسابق الزمن أمامها بايجاد الحلول الجزئية للمشاكل اليومية ، وعجزوا عن تصور كلى شامل يعالج المشكلة من جذورها فى صورة دعوة الى اقامة الأصول الاسلامية فى حياتنا من جديد فى ميدان التربية وفى الميدان الاقتصادى والاجتماعى على حد سواء ، الأمر الذى سبقت الى ادراكه الحركات الاسلامية المعاصرة وغاب عن العلماء التقليديين •

ومع ما وصلت اليه أحوال مصر من تدهور على مدار هذا الخط الطويل من الانحرافات والغزو الاستعمارى المتشعب الظلال ، الا أن أمر السوء لم يصل الى ما وصل اليه الحال فى البلاد الأوروبية والحمد لله ، بفضل بقايا الروح والفهم الاسلاميين فى النفوس ، وبفضل ما بقى من قواعد تشريعية ضعيفة كقانون الميراث • فنجد أن النظام الاقطاعى فى روسيا كان يستولى على تسع أعشار الأراضى الزراعية قبل قيام الثورة الشيوعية ، فى حين أن قانون الاصلاح الزراعى فى مصر طبق على عشر الأراضى فقط •

وجاءت الطبقة العازلة من الحكام والجهلة والمثقفين القائمين لتعالج التشويهات بتشويهات أكبر حين تصورت علاج الاستعمار فى حياتنا برد فعل أوروبى متمثلا فى العقلية الماركسية •• وزكى الاستعمار بذكاء وعمالة هذا الاتجاه للامعان فى الاضلال من جهة ولمزيد من حجب شمس الاسلام الساطعة من جهة أخرى •• والفهم الواعى يشق طريقه فى صبر وأناة واطمئنان الى أن الزبد سيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ••

الحلقة الثالثة والثلاثون

ضمانات التطبيق
أو النظام السياسي

* كانت المدن الاسلامية كعبة العلم والنور تفنن فى وصفها الواصفون حتى عجز الخيال فى كثير من الأحيان عن التصور خاصة فى مدن الأندلس ، وقد قالوا فى وصف البصرة : [1] عمرت البصرة واتسعت عمارتها حتى بلغ مساحتها فى أمارة خالد بن عبد الله القسرى فرسخين فى فرسخين أى ٣٦ ميلا مربعا فى أرض منبسطة لا جبال فيها ، وذلك ما يقرب من مدينة القاهرة .. وكثرت ثروة البصرة فى أيام العباسيين لاجتماع التجار بها وكانت تجارتهم تمتد شرقا الى الهند والصين ، وغربا الى أقصى بلاد الغرب وجنوب الحبشة .. قال بن حوقل : « وهى موصوفة بالمجالس الحسنة والمناظر الأنيقة والميادين العجيبة والفواكه البديعة والبرك الفسيحة لاتخلو من المتنزهين ولاتعرى من المتطرفين منحدرين ومصعدين .. » وكانت مياه البصرة مرسى لمئات السفن التجارية حتى أنه يروى أن ما كانت تجبيه الحكومة من تاجر واحد من تجارها نحو ١٠٠٠٠٠ر١ دينار فى العام . وقد وصفها الاصطخرى وعدد أنهارها على أيام بلال بن أبى بردة (١١٨ هـ) بما لا يصدقه انسان ، وذكر أن رجلا دخلها فى أوائل القرن الثالث للهجرة فى زمن خمارويه بن أحمد بن طولون قال : « طلبت صانعا يخدمنى فلم أجد فيها صانعا متفرغا لخدمتى» .

* هذه هى صورة الحياة على الأرض العشرية تضاف الى ما سبق بيانه من صور الحياة على الأرض الخراجية . ومع ما كانت تفيض به كل الصور من

---

(١) بنيت سنة ١٧ هجرية .

جلاء أن لهذا النظام قوة فطرية تجعله لا يتأثر بجميع التقلبات التى تصيب ثروات الشعوب التى تدين به » .

من أجل ذلك كان عمر الشريعة الاسلامية فى حياة المسلمين طويلا وتأثيرها عميقا بالرغم من نقض عروة الحكم التى كانت أول عرى الاسلام نقضا ، الا أن ذلك لم يؤد الى نقض عروة التشريعات المالية (الاقتصاد) بمثل السرعة التى تقابلنا فى الأنظمة الأخرى ، اذ كان دون ذلك عمرا طويلا استلزم قرونا أخرى وقوى خارجية ممثلة فى الاستعمار ، ومع هذا بقيت عرى التشريعات الاجتماعية لم تلق السلاح ولم تستسلم رغم محاصرتها الشديدة بالقوانين الرأسمالية تارة أو بالاتجاهات الماركسية تارة أخرى فى السياسة والاقتصاد .. وبقيت العقيدة وراء ذلك كله تمد الجنود فى الميدان بطاقة متجددة تدفع الى تخليص الشريعة الغراء من هجمة الظلام وتعيد الى الحياة والعلاقات صفاءها القديم ..

وحين أدرك الاستعمار القديم والجديد هذه الحقيقة جعل من أهم أهدافه توجيه الضربة الى الاسلام فى القلب عن طريق محاصرة العقيدة ذاتها بأساليب الغزو الثقافى والاستعمارى النفسى الذى تقوم فيه فرق التبشير وأجهزة الاعلام ودور النشر ومناهج التعليم بالدور الأكبر باعتبارها طلائع تمهد الطريق للاستعمار الاقتصادى والسياسى بعد ذلك ليعيش آمنا فى ظل أنظمة علمانية تنتسب الى الاسلام بالاسم والتاريخ البعيد ..

* برغم خصائص العقيدة الربانية وخصائص الشريعة الذاتية التى جعلت أمر الانحراف من جانب الحكام محدود المخاطر فى حياة المسلمين والتى جعلت تقديرات الاستعمار تخيب الا أن الضمانات فى حياة المسلمين على مدار التاريخ لم تقف عند حدود هذه السمات الخالدة بل تعدتها الى كثير من المؤسسات التى قامت بدور كبير فى ضمان التطبيق فأطالت عمر التشريعات فيما بين الناس برغم ما كان عليه أمر الحكام من فساد .. ويتكون من مجموع ضمانات التطبيق ما يعتبر اطارا سياسيا خاصا بالبيئة الاسلامية وله ما يميزه عن غيره من الأنظمة السياسية الأخرى .. لأن كل نظام اجتماعى يكون له اطاره السياسى الخاص به .. فالشكل الحزبى هو اطار المجتمع الرأسمالى

وأدوات طبقاتة المتصارعة .. والحزب الواحد نتاج طبيعى للماركسية عقيدة ومنهجا .. وأخذت مسميات النيابية والديمقراطية فى كل منهما مدلولات مختلفة والأجهزة البوليسية فى النظامين الرأسمالى والشيوعى بمختلف درجاتة نتاج طبيعى لهما وتقوم بتكملة البناء السياسى فى كل منهما .. وخاطىء من يفصل فى تصوره دور هذه الأجهزة عن بنيانهما السياسى .. بل ان الأندية والبارات وتجارات الرقيق الأبيض تقوم بدورها السياسى فى هذه الأنظمة المريضة ، لأن هذا الحشد الظاهر والمستتر من المؤسسات يعمل فى النهاية على التمكين لهذا النظام أو ذاك بشتى الوسائل .. فهل كان الاطار السياسى فى الاسلام كذلك ؟ ! بديهى أن نقول : لا .. فاختلاف الأصول والغايات وتميز الشريعة الاسلامية بخصائصها الذاتية .. قد جعل لضمانات التطبيق صورها الخاصة المتميزة كذلك والتى تكون فى مجموعها الاطار السياسى لهذا النوع الفريد من المجتمعات .. ومن هذه الضمانات التى تنبثق جميعها من الضمانة الأولى ، ضمانة الايمان بالله واليوم الآخر والجهاد فى سبيله ما يأتى :

١ - الأمامة العادلة بالشروط التى وضعها الفقه الاسلامى فى شخص الامام وطريقة توليه السلطة وحدود اختصاصاته وطبيعة مباشرته لمسؤوليته بما يضع أكثر الناس كفاءة وعلما ودينا على رأس هذه الولاية العامة .. ويستطيع من يراجع ما كتبه السلف أن يقف على العجب من ذلك ، الأمر الذى تفتقر الأنظمة الأرضية الى تأصيله نظريا على الأقل مما دعا الى أن يقذف الى مراكز السلطة بالأقدر على أساليب المناورة والخداع أو بالأسبق فى تحريك أسلحة الجيش ، ثم يأتى القانون متأخرا لا ليقود أو يوجه بل ليبرر ويسبغ صفة الشرعية على الواقع الخاطىء ويفتح باب الأضلال على مصراعيه فيتردى سدنة الأنظمة فى وصف الجاهل بالمعلم الأول والمجهول بالأوحد والمفلس بمصدر الخصب والنماء .

لو تردى الفقة الاسلامى الذى بين أيدينا فى رذيلة التبرير هذه ما استحق أن يعيش أئمته العظام فى ضمير الأمة الاسلامية هذه القرون الطويلة .. لقد بقى فى مكانه شامخا معبرا عن الموازين الشرعية وحدها فيما يخص الحاكم أو الرعية على السواء ومنذرا من يفتقر الى شروط الأمامة

بكونه على خطر عظيم لأنه ينعت بالامام المتغلب ، وحسب الحاكم هذه الصفة فى نفوس الأمة ليظل مستشعرا الخطر من الانتفاض عليه فى كل حين .. والتاريخ الاسلامى حافل بهذه الانتفاضات وليس فيه مكان لوصف أحد هؤلاء المتغلبين بالمعلم الأول أو الخالد .

٢ - والقضاء الاسلامى له دوره المشهود فى ضمان تطبيق الشريعة الاسلامية . حسب القاضى الاسلامى ما يلزم توفره فيه من شروط تقترب فى قيمتها من شروط الامامة ، وحسبه سلطانا فوق الامام والرعية على السواء ان ميزان الحق والعدل من عند الله مما أعلى سلطان الشريعة زمنا طويلا وجعل السيادة بالفعل للقانون ، الأمر الذى اذا ظفرت بمثله أمة من الأمم كانت حريتها وكرامتها فى حصن حصين وأغناها عن ضمان الأحزاب السياسية والمنابر الصحفية التى ثبت باليقين أنها فى غيبة القضاء الحر عاجزة كل العجز عن حماية نفسها بل انها لتستخدم فى التضليل باسم الحرية والقانون . والتاريخ الاسلامى ملىء بالصور المشرفة لمواقف القضاء قبل أن يصيبه ما أصاب الأمة كلها من وهن .

٣ - نظام الحسبة : فى مواجهة ظروف الزمان والمكان وما يتطلبانه من جديد كان للبيئة الاسلامية حلولها الذاتية لدوام تحقيق مقاصد الشرع الحنيف من خلال سلامة التطبيق .. من ذلك ما عرف بنظام الحسبة وهى أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وتعتبر واسطة بين أحكام القضاء وأحكام ديوان المظالم ، أقرب شبها بمهمة النيابة العامة مع ما بين الاثنين من فارق كبير ناشىء من طبيعة المجتمع حيث كانت مهمة المحتسب مراقبة تنفيذ الشرع الحنيف فى حياة المجتمع ، فيمر بالأسواق ويتفقد مظاهر النشاط الاجتماعى ويوالى التذكير بالآداب الاسلامية وبموازين الشرع وكان يشترط فيه أن يكون عالما من أهل الاجتهاد فى أرجح الأقوال ، ويستعين على أداء عمله بالمعاونين . وهذا العمل وان كان واجبا على كل مسلم الا أن الفرق بين المتطوع والمحتسب من تسعة أوجه :

١ - فرض عين علي المحتسب بحكم الولاية وعلى غيره فرض كفاية .

٢ ـ قيام المحتسب به من حقوق نصرته الذى لا يجوز أن يتشاغل عنه ، ولكنه من نوافل عمل المتطوع .

٣ ـ انه منصب للاستعداء اليه فيما يجب انكاره وليس المتطوع كذلك .

٤ ـ على المحتسب استجابة من استعداده وليس على المتطوع .

٥ ـ عليه أن يبحث عن المنكرات الظاهرة لازالتها ويأمر باقامة المعروف الظاهر ان ترك .

٦ ـ له أن يتخذ الأعوان .

٧ ـ له أن يعزر فى المنكرات الظاهرة ولا يتجاوز الى الحدود .

٨ ـ يتقاضى على عمله أجرا من بيت المال .

٩ ـ ان له اجتهاد رأيه فيما يتعلق بالعرف دون الشرع ، كالمقاعد فى الأسواق واخراج الأجنحة .

وتقصر الحسبة على القضاء من وجهين :

(أ) قصورها عن سماع عموم الدعاوى الخارجة عن ظواهر المنكرات (عقود . معاملات) الا أن يكون هناك نص صريح فيكون جامعا بين الحسبة والقضاء .

(ب) دور المحتسب مقصور على الحقوق المعترف بها دون المتنازع عليها .

وتزيد عن القضاء من وجهتين :

(أ) يجوز للمحتسب أن يتعرض لتصفح ما يأمر به من العرف وينهى عنه من المنكر وان لم يحضره خصم مستعد ، وليس للقاضى الا بحضور خصم يجوز له سماع الدعوى منه .

(ب)لناظر الحسبة من سلاطة السلطة واستطالة الحماة ما ليس للقضاء.

اوجه الشبه بين الحسبة وبين ولاية المظالم :

(أ) موضوعهما مستقر على الرهبة والصرامة .

(ب) جواز التعرض فيهما لأسباب المصالح والتطلع الى انكار العدوان الظاهر .

ويفترقان فى امرين :

ان المظالم موضوع لما عجز عنه القضاء ، والحسبة لما رفه عنه القضاء .

٤ ــ ديوان المظالم : وهو من توابع القضاء ، وأقرب شبها بمجلس الدولة،والغرض منه استماع شكاوى الناس من القضاة أو الحكام.وبين الامام الماوردى أن الناس عندما لم تكفهم زواجر العظة عن التمانع والتجاذب احتاجوا فى ردع المتغلبين وانصاف المغلوبين الى نظر المظالم الذى يمتزج به قوة السلطة بنصفة القضاء .

ولم يجلس للمظالم بصفة دورية أحد من الخلفاء الأربعة لأن الناس فى الصدر الأول كانوا بين من يقوده التناصف الى الحق أو يزجره الوعظ عن الظلم ، وانما كانت المنازعات تجرى بينهم فى أمور مشتبهة يوضحها حكم القضاء فان تجور من جفاة أعرابهم متجور ثناه الوعظ أن يدبر وقاده العنف أن يحسن فاقتصر خلفاء السلف على فصل التشاجر بينهم بالحكم والقضاء تعيينا للحق فى جهته لانقيادهم الى التزامه ..

وكان أول من أفرد للظلامات يوما هو عبد الملك بن مروان ، ثم عمر بن عبد العزيز الذى رد مظالم بنى أمية على أهلها حتى قيل له وقد شدد عليهم فيها وأغلظ : انا نخاف عليك من ردها العواقب ، فقال : كل يوم أتقيه وأخافه دون يوم القيامة لا وقيته .

ثم كان أول من جلس لها من خلفاء بنى العباس ، المهدى ثم الهادى ثم الرشيد ، ثم المأمون وآخر من جلس لها المهتدى ..

أما فى مصر فكان أول من جلس للمظالم أحمد بن طولون ، كان يجلس يومين فى الأسبوع ثم صار خلفاؤه يولون من يقوم بهاء وفى عصر الفاطميين جلس لها القائد جوهر الصقلي ثم صار الخلفاء بعد ذلك يعهدون بها الى قاضي

القضاة أو الى بعض العلماء وكانوا يجعلون بباب الديوان مناديا ينادى : « يا أرباب الظلامات » .

وفى عصر سلاطين مصر الأيوبيين بنوا دارا للنظر فى المظالم .

ويذكر مؤلف « تاريخ التمدن الاسلامى » انه « كان لسلاطين المسلمين وأمرائهم عناية كبرى فى النظر فى مظالم الرعية ، وكانوا يبذلون الجهد فى رفعها ولو كان الظلم منهم أو من أولادهم ، وأمثلة هذه الحوادث كثيرة فى تاريخ الاسلام فتعود الناس أن يرفعوا شكواهم الى خلفائهم وسلاطينهم فى أيام معينة وصاروا يحسبون ذلك فرضا واجبا ، فاذا أمسك الخليفة عن النظر فى المظالم يوما أو بضعة أيام ضجوا وملوا .. وكان بعض الخلفاء يقسم المظالم الى فروع ، فرع للجند ، وفرع للنظر فى مظالم العمال وغيرها .. » (١) .

مجلس النظر فى المظالم : كان لا ينتظم الا بحضور خمسة أصناف :

١ ـ الحماة والأعوان لاستحضار القوى وتقويم الجرىء .

٢ ـ القضاة والحكام لبيان الحقوق .

٣ ـ الفقهاء ليرجع اليهم فيما أشكل أو اشتبه .

٤ ـ الكتاب ليثبتوا ما يجرى .

٥ ـ الشهود ليشهدهم على ما أوجب من حق .

أما اختصاصات ديوان المظالم فهى كما ذكرها الماوردى :

١ ـ النظر فى تعدى الولاة على الرعية .

٢ ـ جور العمال فيما يجبون من الأموال فيرجع فيه الى القوانين العادلة فى دواوين الأئمة فيحمل الناس عليها ويأخذ العمال بها وينظر فيما استزادوه ليرده الى أربابه .

٣ ـ وفى أعمال كتاب الدواوين لأنهم أمناء المسلمين على ثبوت أموالهم فيما يستوفونه له ويوفونه منه فيتصفح أحوال ما وكل اليهم فان عدلوا بحق من دخل أو خرج الى زيادة أو نقصان بالمراجعة على القوانين ومقابلتها ..

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ـ لجورج زيدان .

٤ ــ تظلم المسترزقة من نقص أرزاقهم (أى الجيش العامل) •

٥ ــ رد الأموال المغتصبة ، وهى اما غصوب سلطانية تغلب عليها ولاة الجور ، واما ما تغلب عليها ذوو الأيدى القوية وتصرفوا فيه تصرف المالك •

٦ ــ مشارفة الأوقاف •

٧ ــ تنفيذ ما وقف، القضاء من أحكام لضعفهم عن انفاذها وعجزهم عن المحكوم عليه لتعززه وقوة يده أو لعلو قدره وعظم خطره •

٨ ــ النظر فيما عجز عنه الناظرون من الحسبة فى المصالح العامة •

٩ ــ مراعاة العبادات الظاهرة كالجمع والأعياد والحج والجهاد من تقصير فيها أو اخلال بشروطها •

١٠ ــ النظر بين المتشاجرين والحكم بين المتنازعين بالحق •• الخ •

٥ ــ دعوى الحسبة : وهى غير نظام الحسبة لأنها خاصة بحق كل فرد على حدة فى أن يرفع دعوى أمام القضاء عن كل ما يخل بالصبغة الاسلامية للمجتمع شعورا منه بالمسئولية الفردية عن حياة المسلمين جميعا وهى درجة من التكريم والوعى لا مقابل لها فى أى نظام اجتماعى عرفته البشرية حتى تمنح هذا الحق للمؤسسات دون الأفراد •

* بديهى أن نفهم من هذا العرض تميز البيئة الاسلامية بمؤسساتها السياسية فى القديم يوم ان كان العالم بأسره يخبط فى ظلام الاقطاع والطغيان وهو خير رد على الذين أساءوا الى تاريخ البشرية وبديهى أيضا أن نعلم أن لذلك دلالة فيما يكشف عنه من امكان اكتشاف أنواع المؤسسات فى المستقبل فى ظل حياة تقوم على أصول اسلامية •• مؤسسات تحقق جوهر المقاصد الشرعية وتعين على سلامة التطبيق مهما كانت أشكالها أو مسمياتها طالما أنها كانت من نتاج البيئة الاسلامية والعقلية الاسلامية وليست تقليدا انهزاميا لمسميات استعمارية ولا نستطيع أن نسبق الزمن فنتكهن بطبيعتها حتى يتحقق المجتمع المنشود •

ملاحظات ختامية :

أولا : ركزنا الاهتمام على التشريعات المالية فى الاسلام باعتبارها العمود الفقرى لأغلب التشريعات الاجتماعية ولأنها تمثل الساق فى شجرة التشريعات الاسلامية ، وباعتبارها أيضا من أبرز قضايا العصر التى يلزم تناولهـا بالمنظار الاسلامى تحصينا للرأى العام من تلبيس الأمر عليه باسم الاسلام وتأكيدا لحلول الاسلام الذاتية وأصالتها ليستيقن الذين آمنوا .

ثانيا : من نفل القول أن نشير الى عقم الدراسات الجزئية بعيدا عن النظرة الشاملة من جهة أو منفصلة عن قضايا البيئة الاسلامية العملية من جهة أخرى مثل تناول قضية الربا فى البنوك الراهنة أو التأمين ضد الحوادث أو التأميم لوسائل الانتاج اذ أن جميع هذه القضايا وغيرها ستأخذ وضعا جديدا فى المجتمع الاسـلامى المنشود القائم على أصوله فى التربية والتشريع ، وان المشاركة فى هذه القضايا الجزئية اليوم انما هو من قبيل الاسعافات الأولية والمشاركات الانسانية مثل حلف الفضول قبل أن تكون حلا اسلاميا حاسما حتى يأتى اليوم الذى يفهم فيه مفكرو الأمة وزعماؤها قيمة النظرة الشاملة وأخطار الترقيع .

ثالثا : كان يلزم الاشارة فى بحث مستقل الى آثار تطبيق الماركسية فى الحياة الاجتماعية والسياسية حتى يكتمل تقييمها من جميع الجوانب ، لأن دراسـة الآثار هى احـدى وسـائل قياس صـلاحية الأصـول بطريقتها الخـاصة البسـيطة والقـوية فى التعبـير والـدلالة ، عن طـريق الاحساس والشعور ، فالمشاعر مقاييس صادقة وحساسة عندما تسجل الجماهير رضاها أو نفورها من لون معين من الحيـاة ، ولو لم ندرك عمليـا ما عليه الأصول من صواب . فالناس فى ألمانيا الشرقية لم يكن فى طاقتهم محاجة العلماء أو مجادلتهم لأن التفوق سيكون من نصيب العلماء ولا شك ، ولكن كان فى وسع فطرة الناس أن تشعر وأن تحس ، وهو أمر لا تفلح حجج الدنيا مجتمعة فى نفيه عنهم ، وقد أصدرت فطرتهم حكما صـامتا على لون الحياة الذى يحيونه بالهرب المتواصل الذى زاده سور برلين امعانا فى التعبير .

ولم يكن الشيوعيون فيما قبل استيلائهم على السلطة فى روسيا يتزودون

بأكثر من الجانب النظرى مضافا اليه رصيد الكراهية للواقع الرأسمالى ورصيد آخر من أحلام اليقظة ، وكان المنطق النظرى يشكل اغراء بما يلمع على سطحه من ألوان ومساحيق لم تتعفر بعد بتراب التطبيق .. حتى اذا ارتطمت الأصول النظرية بالتطبيق انكشف الجديد الذى كان غائبا فى فترة الحماس والأحلام عندما ثارت أمامهم آلاف المشاكل العملية فى تفاصيل الحياة اليومية ، فصاغوا التشريعات وحللوا وحرموا من روح فلسفتهم المادية ومن ضرورات واقعهم الاقتصادى . وكانت النتيجة ألوانا جديدة من الشقاء بددت الأحلام الوردية وكان أول من شقى به هم زعماء الحركة الشيوعية أنفسهم ، اذ قام فيهم القتل والنفى والتعذيب ، وحلت ملامح بريا محل ملامح الأمل العريض ، وقدم العزاء للشعب المنكوب فى صورة تبريرات جديدة عن فترة الانتقال وعن مسئولية الأشخاص لا مسئولية طبيعة النظام وكان لابد للمذعورين أن يقبلوا هذا التبرير ليعيشوا على أمل جديد .. وكان لابد لعشاق السلطة من زعماء الشعوب الأخرى أن يجدوا فى هذا اللون من النظام فرصتهم للسيطرة الكاملة على كل نفس فى شعوبهم ، هذا اذا كانوا على أحسن الفروض يعلمون من وحى أنفسهم ولمصلحة أوطانهم .

رابعا : أعيد التذكير بأن قيمة هذا الجهد البسيط الذى يسره الله لنا فى ظروف صعبة انما هو فى أنه يفتح الطريق لمن يكون أقدر على السير فيه ، فرب سامع أوعى من مبلغ ، وما يعلم جنود ربك الا هو .

وبعد : ففى مثل هذه الأيام ، وعلى وجه التحديد يوم الخميس ٤ ربيع أول سنة ١٣٨٣ هـ الموافق ٢٥ يوليو ١٩٦٣ بسجن القناطر الخيرية عنبر (أ) دور ٣ زنزانة رقم ١٦ ، تمت مراجعة هذا البحث الذى بدىء بالواحات * بحضور بعض الأخوة الكرام ، وختم بأداء صلاة الشكر لله الذى أحبط كيد التفتيشات الهمجية ، فلم تصل اليه والذى شغل نفوسنا بالبناء عن هول الهدم الانسانى المنصب علينا فى كل ساعة من ادعياء التقدم وأعداء الانسان .

ولقد كتبت فى مقدمة البحث يوم ذاك ما أراه صالحا لختامه اليوم ، وما أراه صالحا بعد اليوم .. لى ولغيرى لهذا الموضوع ولغيره من الموضوعات :

* بسجن المحاريق بالواحات قبل الترحيل الى سجن القناطر .

* لقد ترددت كثيرا قبل البدء فى هذا الموضوع ، ترددت بقدر الرغبة المتحركة فى صدرى وبقدر العوائق الجاثمة أمامى ، وبين الرغبة والعقبة سرت بين الاقدام والاحجام ، وان يكن ذلك على حساب الزمن ، وعلى حساب الشعور بالرضا المنبعث من الاطمئنان النفسى ، اذ كيف يحس طعم الرضا من تؤججه الرغبة وتقعده الرهبة ، الا أن هذه المعركة المستورة لم تكن على حساب النية والحمد لله اذ كانت هى بوتقتها التى انصهرت فيها فخلصت خالصة باذن الله أو هكذا أرجو ..

حتى النية التى تهفو النفس الى مذاقها الطيب لا تلبث اذا ما دخلت ميدان العمل أن يشعر المرء أنها وحدها لا تكفى .. ويوم بعد يوم يتولد فى النفس احساس جديد لا أتبينه أول الأمر ثم لا ألبث أن أتبينه دون أن أدرك له كنها ولا حقيقة .. يا للعجب !! .

ألا تكفى النية الخالصة ليندفع المرء بعدها موقنا بالنتيجة ؟ !

والتجربة التى مررت بها أجابتنى فى حزم : نعم وحدها لا تكفى ؟ ! لعل الكثيرين أدركوا معى ذلك العنصر المفقود .. أجل .. انه الأخذ بالأسباب ..

ولكن التجربة يرن صوتها فى نفسى مرة أخرى .. وحتى هذه مع النية لا تكفى اذ قد تتوفر الامكانات كاملة من مراجع وأدوات وظروف مواتية وحظ من ذكاء ، ومع هذا تحس أن هذا العمل الذى توافرت له النية والأسباب ما زال ينقصه شىء ؟ ! ما زال هناك شعور غامض ، فيه من الراحة مثلما ليس فيه منها .

ولم يطل بى التساؤل ، فالتجربة وحدها ــ مرة أخرى ــ هى التى كشفت لى عن هذا الشىء فلم يعد غامضا .. انه التوفيق !! تلك الهداية التى يسوقها الله الى الانسان أو يسوقه هو اليها .. المهم أن يلتقيا ليخرج الانتاج الجديد وفيه من ظاهر الموافقة للشرع مثلما فيه من باطن المراقبة للشارع ، فيه من علو البناء مثلما فيه من عمق الروح .. فيه من الجدة مثلما فيه من الأصالة .. فيه من تقريب الآمال مثلما فيه من تخفيف الآلام .. فيه من الماضى ومن الحاضر .. فيه للمستقبل .

مرت على تجربة لا أنساها على بساطتها •• وكلما تذكرتها هزت نفسى ••
فمنها أدركت ألا غنى للنية والأسباب عن هداية التوفيق •• وفرق كبير بين حال وحال وتتيجة وتتيجة ، كنت أنا محل التجربة فيهما ، فقد شهدتنى فى — سجن جناح — أشد ما أكون رغبة فى تسجيل بحث عن الشيوعية ، وسرعان ما توجت هذه الرغبة بتوافر الامكانات وتوافق الظروف ، فحصلنا على المراجع الأساسية من الشيوعيين الموجودين معنا بالسجن ، وتكونت مجموعة نشيطة قامت بالاتصال والتجميع والتلخيص ، وقد كان للنية كذلك حظها الطيب ، ومع هذا تقاعست نفسى عن اتمام الصفحات القليلة التى أوكلت الى •• وهنا ، وكلكم يعلم ، كل الظروف والأحوال على العكس ، فالمراجع والامكانات شحيحة والظروف، كلها غير مواتية ، فلا وقت ولا مكان ولا هدوء يدوم ، ولا قدرة على التحكم فى شىء من ذلك ، والنية هى النية ، وجاء ذلك الشىء الذى لا تتم النية والأسباب الا به •• التوفيق •

ولم نكد نستأذن السيد ضابط العنبر فى كتابة عدة مقالات لمجلة السجون حتى أقبلت النفس على انجاز هذا العمل ، وتواردت الأفكار وتماسكت أطراف الموضوع وساهمت بدور كبير ما تحت أيدينا من كتب ومجلات ضئيلة وتم تجميع الموضوع وتبييضه فى بضعة وعشرين يوما * •

وهنا لا تسلم النفس من اشكال جديد ••

هل يظفر ذوو النوايا الخالصة — الذين أخذوا بالأسباب — بالتوفيق دائما : التوفيق الذى يتكافأ مع النية والعمل ؟ ! ان يكن الأمر كذلك فقد كان حظى منهما فى سجن — جناح — أكثر ، فلم لم تكن النتيجة أفضل ؟ ! أم أن الله ينزل بقدر ما يشاء ؟ !

ويلح على الخاطر فى صورة أخرى فأتساءل : ما حظ النحلة من النية والأسباب عندما هداها الله لأن تخرج من بطونها شرابا مختلفا ألوانه ، فيه شفاء للناس ؟ ! ألأنها تبدت بعجزها تولى الله أمرها ••

وأجدنى فى آخر الأمر أردد — وقد أعيانى الجواب — لا علينا من أمر

(*) قبل ان يشمله التغيير والاضافات بعد .

النتيجة فاننا محاسبون على النية والأسباب المقدورة وحدهما ، والتوفيق شيء غيرهما أو فوقهما لا نملكه ـ وان كنا فى كل لحظات النية والأسباب محتاجين الى هداية خاصة ـ الا أنه بعد تمامهما يكاد يستقل التوفيق مرة أخرى فيبرز كعنصر أصيل مرتبط بالنتيجة .. وانى آمل أن يكون لى ثواب النية والأسباب فى الحالين ويبقى فى حالة التوفيق من أجر الشكر مثلما يكون لى فى الأخرى من أجر الصبر .. فأنا بين فضل لا أملك له جلبا ، وان كنت أملك الشكر ، وبين ابتلاء لا أملك له دفعا ، وان كنت أملك الصبر ، ولا معدى لى فى حالى الشكر والصبر عن هداية اليهما .

النتيجة : أن الفضل لله وحده ، وليس لى من الأمر شيء ، هذه حقيقة أدركتها ولها صداها العميق فى نفسى .

والله اسال ان ينفعنا جميعا ، وان ينفع بنا والا يجعل الدنيا اكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، وان يخرج البشرية كلها من ظلام الشيوعية ومن ضباب الراسمالية ، الى نور الاسلام الحنيف ..

وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين.

[حــوار خارج الأقبيــة]

تحت هـذا العنـوان بتـاريـخ ١١ ذو القعـدة سنة ١٣٩٦ هـ. (٣ ـ ١١ ـ ١٩٧٦ م). نشرت جريـدة اللواء الأردنية نص المقـابلة التي أجراها معي أخي بلال التل مدير التحرير حول كيفية انجاز كتاب «حوار مع الشيوعيين تحت أقبية السجون» استجابة لطلب العديد من القراء الذين يودون معرفة تفاصيل هذه المغامرة لأن ما كتبته في مقدمة الكتاب تحت عنوان «قصة البحث» لم يكن شافياً بل كان على العكس منبهاً بأن وراء قصة البحث قصة أخرى أكثر غرابة وهي التي من أجلها حضر مدير التحرير إلى بيتي للوقوف على دقائقها وابتدرني سائلاً:

س : من المعروف أن وضع السجين يكون صعباً، ويصعب عليه كتابة رسالة أو خطاب، فكيف أتيح لك كتابة هذا البحث الطويل، وما المراحل التي مر بها حتى وصل إلى يد القارىء.

جـ : باعتباري عضواً في حركة إسلامية كنت دائماً اتطلع إلى الجماعة ـ شأن غيري من الإخوان ـ لتضع لنا منهجاً كاملاً نعمل في ظله، وعندما جمعتنا ظروف السجن بالشيوعيين وجدنا أن الواجب يحتم علينا أن نقوم بدور إيجابي في هذه القضية خاصة بعد أن تحققنا من قدرتنا على تفنيد الأفكار الماركسية، لقد انكسر حاجز الهيبـة في نفوسنا ووفقنا الله سبحانه وتعالى في مواجهتهم وأعطتنا جلساتنا معهم شحنة نفسية جعلتنا نقدم على تسجيل كل ما دار فيها، ولم يكن التسجيل بالأمر السهل في ظل إدارة غشوم تحصي على المسجونين أنفاسهم، فالتفتيش اليومي لا يترك لنا ورقة ولا قلماً ولا علبة ولا مسماراً والويل وإذا عثر على شيء من ذلك ثـم ما هو

أملنا في إخراجها بعد ذلــك ونحن في قلب الصحراء بعيدين عن الوادي والحياة كلهــا في الوادي بعيدة عن نسمـات الحرية، لو فكرنا بعقولنا فقط لعجزنا ولهالتنا النتائج الخطيرة ولكنا كنا مدفوعين على ذلك بقوة الإيمان بالله والثقة في نصره وحسبه إن يرى منا الأخذ بالأسباب، ليفتح لنا بقدرته آفاقاً لا تخطر ببالنا. وأنا الآن بعد أن تم كل شيء أعجب كيف أعطانا الله سبحـانه وتعـالى يومهـا مثل هـذه العزيمـة وكيف صرف عنـا الإحساس بالمخاطر، وكيف خرج البحث بعد ذلك إلى النور.

س : كيف كنت تكتب البحث، في خطوات؟! هل كنت تكتبه في الليل؟ من أين أتيت بالورق؟.

جـ : في الفتــرة الأولى كنا نتسقط من حوش السجن أو من بطن الصحراء أي ورقة متطايرة أو نستفيد من هوامش قصاصات الصحف، وكان أكثر ما أفادنا في ذلك أغلفة علب السجائر التي يلقى بها السجانة وتذكرت كيف كان يكتب الناس قديماً على لحاء الشجر وألواح العظم وسعف النخيل والجلود ولم تبخل علينا المقادير ببعض الأوراق البيــضاء التي تحايلنا على أخذ إذن بها من ضابط العنبر عن طريق الأخ الفنان إبراهيم أبو العيش الذي كان يقوم بإخراج مجلة السجون بدعوى كتابة مقالة عن الشيوعية للمجلة ليكون لنا عند ضبط المكتوب في أي وقت حجة ندلي بها، وزيادة في الاحتياط كنت أقوم بدفن كل هذه التسجيلات في حفرة في موقع عملنا في الصحراء أو في مزرعة السجن فيما بعد عندما تحول محققنا إلى المزرعة ولا نحضرها معنا إلى الزنازين خوفاً من التفتيشات المستمــرة.

المشكلــة الكبـــــرى:

لما اكتمل الموضوع فاجأنا السيد / محمد أبو النصـر عضو مكتب الارشاد الذي كان يتابع خطواتنا باحضار كشكولين عن طريق أحد السجانة لتشجعينا على تفريغ هذه القصاصات والأوراق وأغلفة العلب فيها واثبات كل ما دار في الجلسات بطريقة منظمة، فاختلطت الفرحة بالصدمة، إذ كيف

نتصرف في حفظها ولولا شجاعة الرجل وأبوته ما أقدمنا على مغامرة الكتابة فيها لقد طمأننا إلى مقدرته على إخراجها وعلينا فقط التفكير في طريقة حفظها إلى الانتهاء من الكتابة فيها بأقصى سرعة ولو بدفنها في الحفر أيضاً، ولكن أنى لنا بفرصة الحفر، فالعمل في خارج السجن في طريقه إلى التوقف فسياسة السجن دائماً متقلبة، وجاءت فكرة وضع الكشكول تحت برميل الماء الذي يستعمل في الوضوء في دورة المياه الداخلية بالعنبر والذي حرصنا على استمرار امتلائه بالماء خاصة أثناء فترة الليل حتى الصباح لنأمن حدوث أي شيء في فترة التفتيش المسائية أو الصباحية فرغم أن التفتيش يشمل دورة المياه إلا أن أحداً من السجانة لا يخطر بباله زحزحة البرميل المملوء بالماء.

وعندما كان ينصرف السجانة عقب أي تفتيش كنا نقوم بإخراج الكشكول لنستمر في الكتابة والقراءة على الإخوان والمناقشة والتنقيح وقد قرىء على المستوى الفردي والجماعي حتى تمت بلورته بفضل الله.

س : ونحن بدورنا نسأل كيف خرج البحث من السجن؟.

جـ : لقد تم البحث في سجن المحاريق بالواحات الخارجة، ولما يئست أجهزة الأمن من حملنا على تأييد حكومة الثورة رغم مرور أكثر من ست سنوات مليئة بالتكديرات، قدر المسؤولون أن صلابة موقفنا ناشئة عن تحجر مشاعرنا التي لم تعد تبالي بأي بلاء ولا حتى ببلاء أو محنة حرمان أغلبنا من رؤية أهله طيلة هذه السنوات الست ووجدوا أن مصلحة أهدافهم في حملنا على التأييد تستلزم ترحيل عنصر الشباب خاصة إلى سجن آخر في قلب الوادي قريباً من العمران لعل المشاعر فيه تتيقظ بمباهج الحياة والشعور بالضيق والتخلف بعد زيارات الأهل يزداد ووجدوا أن السبيل إلى ذلك هو في ترحيل الشباب إلى سجن القناطر الخيرية لاضعاف الجماعة بفصل رأسها عن جسدها فيبقى بالواحات رأس بلا جسم ويصبح الشباب بعد نقلهم جسم بلا رأس فيدب الضعف في الجانبين، وكنت ضمن

المجموعة المرحلة إلى سجن القناطر.

لم يكن يشغلني هذا التخطيط المفهوم لنا جميعاً ولا يفزعنا ما ستؤول إليه الأحداث فثقتنا بالله دائماً قوية والتجارب علمتنا فشل أساليب الشيطان في النهاية وانقلابها لمصلحتنا لا خوف ولا فزع فللبيت رب يحميه أما الذي كان يشغلني هو كيفية التصرف في البحث الذي وضحت قيمته في عيني لا سبيل إلى حمله معي لأننا أمام المجهول ولا تطاوعني نفسه بتركه.

وأخيراً لم يكن بداً من ترك الكشكول مع الإخوة المقيمين بالواحات خاصة بعد أن طمأننا السيد/ محمد حامد أبو النصر الجندي المجهول وراء هذا العمل دائماً بأنه سيتولى الإشراف على إخراجه من سجن المحاريق وإيصاله إلى عنوان أخي توفيق بحلوان.

● بعد أن استقرت أوضاعنا في السجن الجديد سجن القناطر بدأت أزاول لأول مرة منذ ست سنوات حقـــي كمسجون في زيارة أهلي واللائحة تسمح لنا بزيارة واحدة خاصة في العام يجلس فيها المسجون مع أهله بدون حاجز السلك، أما بقية الزيارات فتكون من وراء السلك، بواقع زيارة واحدة سلكية كل شهر (بقية وصف الزيارات من غابت الشمس).

وعلمت من أخي بقصة وصول الكشاكيل بريدياً إليه ومن قصة وصولها أطمأننت أن الله يريد خيراً بهذا العمل لأن وصوله كان محفوفاً بالمخاطر لولا أن الله سلم، فرغم أن السيد/ محمد حامد أبو النصر سرَّبه إلى وكيل أعماله خلسة عند حضوره لزيارة بالواحات وأكد عليه ألا يتهاون في توصيله باليد إلى عنوان أخي بحلوان إلا أن الوكيل استسهل بعد ذلك ارساله بريدياً على العنوان وهذه مخاطرة كبيرة في دولة بوليسية تراقب الخطابات فكيف بهذا الحجم من المطبوعات لولا أن رعاية الله أعمتهم عن ذلك حتى وصل به ساعي البريد إلى منزل آخر ولكن أخي كان قد ترك السكن وانتقل إلى سكن جديد وتشاء المقادير أن يمر من أمام سكنه القديم في الوقت الذي كان ساعي البريد يحمل الطرد بيده ويسأل عن صاحبه.

مغامرة ادخاله إلى السجن من جديد:

اطمأننت إلى رعاية الله عندما علمت القصة من أخي وشرحت لأخي كيفية احضاره لي في سجني الجديد مرة أخرى وشرحت له كيف يتفادى تعليمات السجن في دخول المطبوعات.

لأن التعليمات تقضي ألا يدخل الكتب إلا إذا قدم الزوار بها كشفاً ليتم مراجعتها بمعرفة أجهزة الأمن وإدارة السجن بحيث لا تخرج عن الكتب القومية المعروفة، وطلبت من أهلي التقدم بكشف من هذا النوع من الكتب القومية دون ذكر لموضوع البحث، وأن تحتفظ أختي سميحة بالكشكول في ملابسها الداخلية فـي موعد استحقاقي للزيارة الخاصة السنوية حيث نجلس مع الأهل بدون حائل السلك وفي هذه الجلسة المحاطة بالرقابة أتحين الفرصة لأخذ الكشكول ودسه بين الكتب القومية المسموح بها ومن تصاريف القدر أن أهلي كتبوا اسم البحث ببراءة ضمن قائمة الكتب ووضعوه بالفعل بينها وسلموا الجميع مع طلب الأذن للضابط المسؤول فسلمه الضابط لأحد السجانة الجدد ليذهب به مع الكتب إلى أجهزة المراجعة فإذا بالسجان الجديد يخطىء ويظن أن الكتب تمت مراجعتها فيعيدها إلى أهلي ويدخلون ومعهم الكتب والطلب مؤشر عليه بالموافقة، فأدركت الأمر وحمدت الله على الستر بعد انتهاء الزيارة تبقى حلقة أخيرة هامة وهي مراجعة ضابط العنبر للكتب قبل الدخول بها مع تفتيشنا، وتركت الأمر لله يصرفه كيف يشاء مع وجود اطمئنان داخلي بأن أمراً ربانياً سيحدث لأن العين التي سهرت على خطواته حتى الآن ساهرة لا تنــام وذهبت مع السجان إلى ضابط العنبر للتفتيش فلم نجده في مكتبه وطال انتظاره حتى مل السجان وسمح لي بالدخول أنا وصيدي الثمين، فأسرعت إلى زنزانتي وسجدت شكراً لله، وقلبت الكشكول بين يدي فرحاً ووقفت عيني على المقدمة الخطيرة التي قدم بها الأستاذ عمر التلمساني لهذا البحث هي قيمة في ذاتها خطيرة في أعين رجال الأمــن حيث تتسبب في تكديره لبقية الإخوان، فأسرعت على الفور بتمزيقها والألم يعتصر قلبي لأقلل من قيمة البحث في حالة تعرضه

للأخذ في أي تفتيش من التفتيشات.

ذهبت السكرة وجاءة الفكرة كما يقولون: والآن بعد هذه اللحظات السعيدة من الفرح كيف السبيل إلى المحافظة عليه من التفتيشات اليومية التي تقلب كل شبر في الزنزانة.

معركـــة مع التفتيـــش :

● عشت عــدة أيام نجحت فيها بعون الله بمختلف الحيل في تفادي العثــور عليه حسب معرفتي بطبيعة التفتيش من كثرة تكراره، فتارة أضعه خلف ظهري تحت بدلة السجن وتارة أكـور بطانيـة تحت قدمي أضعـه بداخلها ثم أمسكها من وسطها علامة على عدم وجود شيء تحتها ولكن يدي تمسك بالكشكول.

اقتراب الكارثـــة :

لكن الهمس الذي وصل إلينا في أحد الأيام يفيد أن الإدارة تعد حملة خاصة لا تبقى ولا تذر وستتبع أسلوباً جديـداً في التفتيش حيث ستقوم بإخراجنا أولاً خارج الزنازين ثم تكتسح كل ما بداخل الزنزانة ثم تعيد ادخالنا بعد تسليم كل منا بطانيتين وفرش من جديد كأننا نزلاء لأول مرة وبهذا يكون كل ما عدا ذلك من الممنوعات فضلاً عن توقع العقاب على نوعية الممنوعات، وهــنا ازدادت حيرة جميع الإخوان وكنت أشد الجميع حيرة في أمر البحث وأخيراً لمعت في ذهن الأخ رشدي عفيفي فكرة جريئة.

رشدي عفيفي شيخ خفر كفر الشيخ فارس له خطره:

واقنع بها السجان المخصص لدور ٣ الخاص بالمعارضين وهي نقل كل الممنوعـات إلى مخزن الجـاويش نفسه لأنـه لم يحدث في تـاريخ التفتيشات أن مخزن السجان يتعرض للتفتيش لأنه هو عين الإدارة ويدها التي تختاره بمواصفات خاصة تصلح لمضاعفة آلامنا، ولكن الله كان لهم بالمرصاد فيلين لنا القلوب الصلبة، وقيض الله الأخ رشدي ليحقق في هذا نجاحات عديدة ذهبت مضرب الامتثال بيننا، ولا ندري كيف نجح في اقناع السجان محمد البطل الرجل الغليظ الفظ أن توضع جميع الممنوعات في

مخزنة وقد تم ذلك بعد جمعها من جميع الزنازين وسارعت بوضع صيدي في مكان أمين في مخزن الجاويش بنفسي.

ولكن يبدو أن حجم الكارثة ستكون أكبر مما نتوقع لأن إدارة السجن أجلت التفتيش المسائي إلى الصباح بعد أن حضر الضابط بنفسه وأجرى أسلوب التفتيش الجديد على عدد من الزنازين فطن خلالها أن شيئاً غير عادي قد حدث لخلوها من أي ممنوعات ونظراً لضيق الوقت فقد أوقف الاستمرار فيه بعد أن فطن بذكائه أو بوشاية وصلت إليه إلى أن الممنوعات قد جمعت في مخزن جاويش العنبر فعمد إلى مخزن الجاويش مباشرة ونادى على الجاويش فجاءه، ممتقع اللون وأمره باحضار الشمع الأحمر والنار ليختم على باب المخزن إلى أن يأتي في الصباح ويتولى تفتيشه بنفسه فأطاع الجاويش الأمر وهو يرتجف وقد تحقق المسكين من نهايته في هذا اليوم الحزين ولما انصرف الضابط على رأس الحملة ظهر فارس الميدان رشدي ليهون على الجاويش الأمر ولكن بطريقة لم تخطر على بال أحد.

فقد نجح الأخ رشدي ومعاونوه من الإخوان في اقناع جاويش العنبر محمد البطل وكذلك صول السجن بسرعة التتميم في هذا اليوم (أي إدخال المساجين) حتى يتاح لنا فرص التصرف وشارك الصول والجاويش في الخطة بعد أن أقنعهم رشدي بأهمية رفع الشمع الأحمر المختوم ودخول المخزن ونقل كل الممنوعات فوراً لحفظها عند إخواننا المؤيدين الموجودين في الدور الذي يقع أسفلنا، حيث لا يتطرق إلى الإدارة الشك فهم لصلة المؤيدين بأجهزة الأمن واعلانهم التأييد في كل المناسبات وطمأن رشدي بالهم بامكان اعادة الشمع مختوماً كما كان واحضر لهذا الغرض قطعة شمع خام وختماً به أية أرقام ولم يعجز عن احضار النار الممنوعة أيضاً لهذا الغرض، وأغلقت الأبواب وبدأت الحركة المحمومة بين الدورين حتى تم نقل جميع الممنوعات ومن بينها الكشكول إلى زنازين المؤيدين وأعيد غلق وتشميع المخزن كما كان. والكل وراء الشراعات يتابع هذه الحركة

المباركة التي لا تقل مشاعر القلق والتوتر فيها عن مشاعر القائمين بالثورة ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م .

وكان المعتقلون السياسيون من وزراء العهد السابق وضابط الجيش وكبار رجال مصر فيما قبل الثورة يسكنون الدور الرابع فوق المعارضين وينالون معاملة خاصة مريحة، لذلك أتيح لهم أن يظلوا خارج الزنازين ويتابعوا هذه المغامرة بكل الاعجاب وكانت أياديهم تلوح لنا بالتشجيع.

طلع الصباح وجاء الضابط الهمام بجملة العساكر مطمئناً إلى أنه قد وضع يده على أخطر ما تحويه زنازيننا من ممنوعات ولعله كان يمني نفسه بالحظوة لدى المسؤولين بما سيقدمه لهم من قرابين واطمأن إلى وجود الشمع في مكانه واقتحم المخزن بالجنود ولم يجد إلا ما تركناه له عامدين من ممنوعات تشفى غلته كبعض علب الغاز وزجاجات الزيت وباكوات الشاي وهو أمر مخاطره محدودة على كل حال ومتوقعة في السجون وليست هي الممنوعات الحقيقة على المسجونين السياسيين فجن جنونه وخرج مذهولاً ولم يستطع تفسيراً وظن أنه إلى اليوم لم يجد هذا التفسير.

تغيير الخطة :

ولقد نجح الأخ رشدي عفيفي عقب هذه الحملات في تغيير خطة المخابىء في جميع الزنازين بجعلها محفورة في أسقف الشبابيك وحافة الشباك الخشبية هي في الواقع مفتاح كل مخبىء وعند كل مساء ترفع منها المسامير وتخرج الممنوعات وفي الصباح تعود شبابيك عادية ممسمرة لا يرقى إليها الشك وكان هذا المخبأ أأمن مكان في زنزانتي لوضع الكشكول وبعد أن أعدت قراءة البحث وقراءة ما تيسر تهريبه من كتب حول موضوعاته وتجمعت لدي معلومات وتوضيحات أردت أن أدخلها على البحث ليأخذ شكله النهائي، دخلت مرة أخرى في مشاكل احضار الورق والأقلام ومكان الكتابة.

خطة لادخال لمبة غاز:

- أما عن اعادة التبييض فالوقت الأمن هو الليل وفكرت في احضار

لمبة غاز نمرة ٥ وانتظرت مناسبة العيد التي يسمح لنا فيها بدخول طرود الفاكهة والهدايا واتفقت مع أخي توفيق في زيارة سلكية سابقة على يوم العيد بوضع اللمبة كاملة في قش الأرز تحت كمية من البرتقال ونجحت الفكرة واستلمت الطرد وطرت من الفرح لأن أخي د. يحيى والأخ جلال عبد العزيز مساعده الطبي كانا قد وعداني بتدبير كوز جاز يقتصد أنه مما يعطي لهما لتسخين الحقن لعلاج المرضى. إذا لقد حلت مشكلة الكتابة ليلاً من جميع نواحيها لتعذر ذلك بالنهار لنأمن التفتيشات والعيون وبقي علي أن استر الضوء بساتر يجعل النور قاصراً على صفحات الكتابة حتى لا يحس بنا خفر الليل وإلا فإن وجود أي ضوء في الزنزانة ليلاً من الممنوعات التي يعاقب عليها بستة جلدات فضلاً عن الحبس الانفرادي.

المهم أن الأحلام التي تراقصت أمام عيني لم يطل عمرها فقد كان بقية الأخوة يحيون العيد بعمل تمثيلية «المروءة المقنعة» على كوبري العنبر الذي تحول مسرحاً وتجمعت مساجين جميع الأدوار على الدرابيزينات لمشاهدة برنامج العيد، فجأة دخل قائد السجن وهاله ما رأى لأننا ممنوعون من مزاولة أي نشاط رياضي أو ثقافي، فنادى على حراس الأدوار ووبخهم وهددهم بأشد الجزاء وأمرنا على الفور بدخول الزنازين وجرد حملة سريعة للتفتيش وتحطيم كل ما تجده في طريقها واحترت في أمر اللمبة فالحركة المحمومة من السجانة تحول دون محاولة فتح أي مخبأ فاسرعت بوضع اللمبة وزجاجتها في داخل جردل الماء وأصبح من ينظر إلى الماء لا يستطيع أن يميزها بسهولة ووضعت العدة والشريط بين كوم الزبالة المجاور لباب الزنزانة وجاء دورنا في التفتيش والتحطيم لم يعنيني كل ذلك إذا ما سلمت اللمبة وكانت سعادتي لا تقدر عندما غادرت الحملة وقد نجى الله المصباح منها.

وبقيت انهب الليالي في الكتابة بالليل والتخبئة بالنهار حتى أذن الله باتمام كتابته واقتنصت عدة أسابيع أخرى في مراجعته على لجنة من الأخوة: عبد الرحمن البنان، محمد يوسف كمال، فرح جبارة، عبد السلام الدوراني،

الحاج محمد يوسف إسماعيل، لطفي سليم، جلال عبد العزيز وفي الختام قاموا وهنئوني ومنحوني لقب الدكتوراه وسجلنا ذلك في ختام البحث بقولنا:

ـ تمت الرسالة بحمد الله في حوالي الساعة العاشرة والنصف من صباح الخميس ٤ ربيع أول سنة ١٣٨٣ هـ الموافق ٢٥ يوليو ١٩٦٣ بالزنزانة برقم ١٦ دور ٣ عنبر ١ سجن القناطر الخيرية، ونسأل الله القبول وأن تكون في الميزان وأن توزن بدماء الشهداء، «آمين».. وقمت مع اثنين من الأخوة بأداء صلاة الشكر في الوقت الذي كان يقرأ فيه أخي محمد يوسف كمال هذا البيت من الشعر في مجلة المجلة:

شملتنا عناية الله حتى جعلتنا بفضله إخوانا

● بعد فترة نقلنا من هذا العنبر إلى عنبر آخر لعزلنا تماماً عن المؤيدين بعد أن أحست أجهزة الأمن بالتعاون بيننا بل وبعدول كثير منهم عن التأييد فنقلنا إلى دور ٨ بعنبر ٢، لكن عملية النقل لا تتم بدون تفتيش ومراجعة وتحملت قصة أخرى محفوفة بالعناية الإلّهية لا داعي لسردها حتى نجحت في حملة معي في مقرى الجديد.

إخراجه من السجن :

وبقيت أتحين الفرصة لإخراجه من السجن إلى مكان أمين ولم أجد منفذاً لمدة تزيد عن العام تقريباً أمضيتها في عرضه على عدد من الإخوان لقراءته والتعليق عليه كتابه مثل.....، كما تيسر لأخي الحاج محمد يوسف إسماعيل نقل نسخة من البحث لتكون أماناً في حالة تعرض الأولى لأي خطر إلى أن فوجئنا ذات يوم بتعيين وكيل جديد للسجن يتميز بأخلاق طيبة، أخذ يتودد إلينا بوسائل شتى وقدم لنا تسهيلات كثيرة في ميدان الممنوعات، إلى أن توطدت العلاقة بيننا وتعمقت الثقة وبحسه المسلم المرهف كان يدرك أن حاجتنا أكبر من توفير ممنوعات السجن فتفاعل المسجون السياسي مع الحياة الدائرة في وطنه هي شاغله الدائم قبل التفكير في أي ممنوع من شراب أو طعام وقد أخبر الأخوة المسؤولين أنه سيشرف

على زيارات الإخوان وصرح لنا بإمكانية إخراج أي ممنوعات، العادة جرت أن يحارب ضباط السجن ادخال الممنوعات إلى السجون أما ذلك الضابط المسلم فقد فطن أن حاجة أمثالنا هي في إخراج الممنوعات من السجن وإذا كانت الممنوعات الداخلة إلى السجن ليست الأشياء المادية فإن العكس هو الصحيح في الممنوعات الخارجة منه فهي لا تكون إلا من صنف معين من المسجونين هم السياسيون ولا تكون إلا نوع معين من الممنوعات وهو الأشياء المكتوبة.

وعلى الفور لم أترك الفرصة تمر واغتنمت أقرب زيارة خاصة لأحد الاخوان وكانت زيارة الأخ جلال عبد العزيز من محافظة كفر الشيخ وقد خبأ الكشكول ضمن بعض الأشياء الخاصة به، ومن المفروض أن يتم تفتيش أي شيء مرتين مرة من قبل إدارة السجن ومرة من قبل رجال الأمن الذين يفدون إلى السجن خاصة لمراقبة زيارتنا ولثقة رجال الأمن في الضابط الجديد فقد كانوا يكتفون بتقريره عن التفتيش.

وهكذا وأخيراً تم خروج الكشكول بحمد الله بعد أن أعطى الضابط المسؤول تقريره عن خلو الطرد الخارج من السجن من أي ممنوعات ويحضرني في هذا المقام قول للكاتبة المسلمة صافيناز كاظم في كلمتها رسالة إلى أم المجاهدين: «أروع شيء في سجون مصر سجانيها، يأتون في شريحة الشعب المتضعف ليسكن قلوبهم، رغم كل شيء، حب الإسلام والطيبة المصرية التي لا يمكنها أن تتقن القسوة» وهو قول حق من جميع جوانبه قد لمسناه في أكثر من موقف كلما أمن رجال الشرطة أو الأمن بطش المسؤولين عنهم.

فرحة الافراج :

ـ في يوم ١٤ ـ ١١ ـ ١٩٦٤ م . تقرر الافراج عنا في ظل ظروف معينة صاحبت الافراج عنا وكان فضل الله علينا عظيماً حيث شاءت إرادته أن تخرج كما نحب دون أن نتورط في أي خطوة من خطوات التأييد ورضخ المسؤولون للأمر الواقع وأظهروا أكبارهم لموقفنا ورغبتهم في فتح صفحة

جديدة من المعاملة القائمة على الاحترام وتقدير الرأي الآخر ما دام التعبير عنه بالوسائل المشروعة وحمدنا الله الذي خفف عنا وهيأهم لقبول هذه النتيجة وخرجنا إلى الحياة ولم أكد استقر في سكني وعملي حتى أسرعت باسترداد الكشكول شاكراً للأخ جلال تضحيته وصيانته ومرت علينا عدة شهور على هذا الحال لم نكد نضمد فيها جراحنا حتى لاح في الأفق نذر

فرحة لم تطل

شر جديد باستدعاءات لبعض الاخوان وتحقيقات متفرقة في تكتم شديد وبحاستي السادسة توقعت شراً مستطيراً واهمني في الدرجة الأولى أن أبحث للكشكول عن مكان أمين ولم يكن في تصوري غير الأستاذ محمد عبد الحليم عيسى تاجر القماش ببنها واحد رجال الدعوة المعدودين ومن القلائل الذين يحظون باحترام رجال الإدارة في جميع العهود ولم يتعرض لأي سجن أو اعتقال في أي فترة من الفترات فذهبت إليه وفي يدي الكشكول قائلاً:

ــ أضع هذا البحث أمانة عندك حتى تنقشع السحب وإنْ أصابني شيء يكون لك عليه كامل الحقوق والنشر لأنه حق الجماعة قبل أن يكون حقي.

قال : ــ لماذا التشاؤم يا ابني لا يوجد شيء في الأفق.

قلت : ــ الاستدعاءات الفردية المتكررة والهمس ينذر بالشر.. صدقني.. إن لنا حاسة سادسة نشم بها رياح الأحداث وإن شئت فسمها حاسة سياسية تجعلنا نرى من التصرف البسيط أبعاداً كثيرة، ومع هذا فأتمنى أن يخطىء ظني والاحتياط واجب في جميع الأحوال.

قال : ــ إنها فرصة لي لقراءته على كل حال.. قلت نعم.

● لم تمض عدة أسابيع على هذا الحديث حتى هبت عواصف الاعتقالات بصدور قرار ٦ ــ ٩ ــ ١٩٦٥ م. الشهير الخاص باعتقال كل من سبق اعتقاله منذ قيام الثورة حتى تاريخ صدور القانون، وكانت المفاجأة أنني وجدت الأستاذ محمد عبد الحليم عيسى من بين المعتقلين بأبي زعبل وأنه لا يعلم مصير كل ما خلفه وراءه، فاحتسبت الأمر عند الله وعولت في أملي الأخير على النسخة التي لدى الحاج محمد يوسف اسماعيل وكان

بدوره معتقلاً معي فسألته عن مصيرها فقال لي:

الضابط المسلم وجه مصر الحقيقي:

ــ أحمد الله الذي نجانا معاً من قضية محققة وكان الثمن هو حرق النسخة التي عندي وقد حزنت كثيراً على فقدها ولكن نجاتنا من الحكم علينا خفف عني الحزن، قلت كيف ذلك:

قال: عندما دهمت قوة الأمن بيتي كان على رئيس القوة ضابط شهم يكتم إيمانه يسمى الطنطاوي شغل الجنود بتفتيش حجرات البيت ودخل بمفرده معي لتفتيش اوراقي الخاصة لان اهتمام اجهزة الامن في محنة ١٩٦٥م. كانت تنصب في الدرجة الأولى على الأشياء المكتوبة نظراً لما أحدثته كتابات الشهيد سيد قطب من آثار في محيط الشباب ووقعت يد الضابط على البحث الكبير وأخذ يتفحصه ويقلب صفحاته فخفق قلبي وأيقنت بنهايتنا معاً فتشجعت وقلتها كلمة لله بانفعال شديد:

ــ إعلم يا سيادة الضابط أن هذا العمل الهام موجه إلى الشيوعية في الدرجة الأولى وهي الغول الذي سيقضي على الأخضر واليابس على أرض مصر. إن أمر السلطة وظلمها لنا لا يشغلنا في الدرجة الأولى بقدر انشغالنا بمن سيأتي على انقاضنا جميعاً ويذهب بريح الإسلام الطيبة، إن الله سائلك عن ضياع هذا العمل وعن أي أذى يصيب أحداً من الذين قاموا به.

استراح ضميري بعدها وأسلمت أمري لله ولكني فوجئت بأن رفع الضابط رأسه والتأثر والتفكير باديين عليه، ثم قال:

أكنتم تهتمون بأمر الأمة إلى هذا الحد وهم يصفونكم بدعاة التخريب والهدم، اعتبرني لم أرى شيئاً وتدبر أمرك في اخفائه وخرج من الحجرة مسرعاً وأمر العساكر بالخروج وأنهى التفتيش.

قلت فرحاً الحمد لله وجزا الله الضابط خير الجزاء، ونسيت أنه قال لي منذ دقائق أنه أحرقه ولكنه الأمل، فابتسم الحاج محمد وقال: ولكن الفرحة لم تتم فأهلي قد أحرقوا كل شيء بعد خروج الضابط وذهب البحث

أدراج الرياح فحزنت مرة أخرى وقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، لو علم الله فيه خيراً لابقاه.

ومرت ستة سنوات من الاعتقال مليئة بالأحداث الداخلية والخارجية، قدر الله أن تخرج إلى الحياة عقب وفاة جمال عبد الناصر وكان من أول ما

آيــة من الله:

اهتممت به عقب الافراج هو التوجه إلى بنها لزيارة الأستاذ محمد عبد الحليم عيسى للسؤال عنه ومعرفة مصير الكشكول، واستقبلني بالترحاب وأخبرني والحزن يعتصر قلبه أن المباحث أحرقت مكتبته القيمة التي أنفق عمره في إعدادها فحزنت من جديد لانطفاء آخر شعاع من الأمل واستعوضت الله وأخذت أهون عليه بقولي لو يعلم الله فيه خيراً لابقاه وحسبنا ثواب الجهد الذي بذلناه أما النتيجة فهي بيد الله لو شاء لابقاه ونفع به والخير فيما قدره.

وانصرفت بحزن لازمني أطول من أي فترة مضت وبعد حوالي أسبوعين من هذه المقابلة ساقتني الأقدار الى المرور من جانب محل الاستاذ محمد عبد الحليم عيسى ولوحت له بيدي محيياً من بعيد فأشار علي بالقدوم عليه فدخلت وجلست فأشار إلى شيء أمامه قائلاً:

ــ أهذا بحثك، فلم أصدق عيني وسبقتني يدي إليه وغمرني الفرح الذي ذكرني على التو بالرجل الذي وجد دابته في الصحراء بعد أن يئس من العثور عليها وذهب إلى الشجرة ليسلم نفسه للموت ولما فوجىء بها قال اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح وكذلك كان حالي وقلت له: ألم تقل إنه كان بمكتبتك عندما أحرقت ـ

قال : ــ بلى ولكني شغلت بخاطر مهم لأنني أحسست من قراءة البحث أن الله لن يضيع هذا الجهد الذي شعرت فيه بالاخلاص وخطر لي أن أسأل أحد العاملين عندي بالمحل.

ــ يا أولادي ألم يحدث أن امتدت يد أحدكم على بعض كتب مكتبتي حين أحرقت فقال أحدهم:

ـ أنا يا أستاذي لقد حزنت لاحراق المكتبة وحملت منها عدة كتب ما زالت كما هي في بيتي لا أعلم ما فيها.

ـ اذهب يا بني وأبحث فيها عن بحث الأخ عبد الحليم فإن قلبي يحدثني أنه فيها.

ـ وعاد العامل بالبحث في يده كما توقعت وتحقق ظني في الله بأنه لا يضيع مثل هذا الجهد..

عدت إلى بيتي قرير العين وسجدت لله شكراً على هذه المفاجأة الطيبة، لكن أملي في نشره في مصر كان ضعيفاً لأن سلطان الشيوعية ما زال قوياً والرقابة علينا شديدة والامكانيات معدومة وتركت الأمر لله يدبره حيث يشاء.

وذات يوم وأنا في مكتبي بوزارة التربية تسلمت خطاباً من أخي أحمد حجاج بالكويت بداخله تذكرة دعوة لزيارة الكويت ووجدت أن سفري سيتيح لي ما هو أفضل الغنم المادي وهو نشر البحث والكتابة بصفة عامة في عيرن الموضوعات، أما ما وراء ذلك من مستوى مادي فإنه لا يشغلني كثيراً فثقتنا بالله تكفينا ورضاءنا بالقليل أصبح جزءاً من تكويننا وزهدنا فيما في أيدي الناس أصبح خلقاً لا نتكلفه، فليست هذه قضية تشغلنا بحمد الله، ولم يعد يكبر في صدورنا ما تواضع عليه الناس من درجات ومناصب

بين الشك واليقين :

ولكني على يقين أن أجهزة الأمن لن تسمح لي بالخروج من المطار ومعي أي شيء مكتوب فما زال الحذر من الجانبين هو طابع العلاقة بيننا ففكرت في عمل ملخص للبحث يفي بالغرض لاحتوائه على جميع موضوعات ولكنه يوفر في الوقت نفسه الأمان للبحث الرئيسي وذهبت به إلى أحد رجال الأمن الذين أثق في عقليتهم[١] بالمبنى الرئيسي للمباحث العامة واطلعته عليه

(١) هو الأستاذ فؤاد علام.

وتركته عنده عدة أيام فإن أبى ارجاعه كانت المحنة خفيفة وإن رده إلي كان ذلك مشجعاً لي على أخذ البحث الأصلي معي فموضوعاته لا تخرج في الجملة عن موضوعات المختصر بزيادة النصوص والمراجع وغير ذلك.

قــدر جديد :

فلما أعاده إلي وأثنى عليه زايلني بعض الحذر لكن التردد ظل هو الأغلب فعند حدوث الكارثة سيكون هناك ألف سبب بأن القراءة شيء والخروج بالشيء المكتوب شيء آخر وإن الملخص شيء والبحث شيء آخر وضعف الثقة يحيل الأبيض أسود والحسن قبيحاً ولا أعتقد أنه بالعديد من اللقاءات ستتولـد الثقـة بسهولة بجهـاز مخيف لمجرد وجود رجل عاقل فيه حتى شاءت المقادير أن أصلي العصـر بمسجد عمر مكرم بميدان التحرير قبل سفري إلى الكويت بأيام وفي تسليمـة ختام الصلاة وجدت عن يميني أخي عبد المنعم عباس الطيار بشركة مصر للطيران والمعتقل معي سابقاً ولما علم بسفري طلب ارجاء السفر ليوم الجمعة حيث موعد نوباتجيته ليتيح لي الخروج بأي ممنوعات دون أن تتعرض حقائبي للتفتيش فقلت له لكي تكون على نور فإن ما أريد أن أصطحبه هو الكشكول فيه بحث عن الشيوعية فإن كان ذلك يعود بضرر عليك فلا داعي فشجعنـي واعتبرت ذلك من تيسيرات الله لي فأجلت موعد سفري إلى يوم الجمعة وكان عبد المنعم في انتظاري وخرجت حقائبي دون أن تفتح ووصلت الكويت بحمد الله وانتهت هذه الملحمة بنشره في مجلة المجتمع على حلقات وجمعت بعدها في هذا الكتاب الذي بين يدي القـارىء الـذي ذلل الله له المعرفة بدون أي تضحية أكثـر من دفع ثمنـه الزهيـد.

فهرس الكتاب

الموضوع		صفحة
تقديم الطبعة الاولى : بقلم عمر التلمساني		
تقديم الطبعة الثانية : بقلم الاستاذ عبد الله العقيل		
الكاتب والكتاب : بقلم الأستاذ زين العابدين الركابى		
الحلقة الأولى	: بين يدى الدراسة « قصة البحث »	١
الحلقة الثانية	: شروط الحوار والدروس المستفادة	٨
الحلقة الثالثة	: قل هاتوا برهانكم « نموذج من ساحة الفكر الإسلامى »	١٦
الحلقة الرابعة	: الأفكار فى المحك العملى	٢٦
الحلقة الخامسة	: دور العقل فى قضية الإيمان	٣٧
الحلقة السادسة	: أين كانت الكنسية . . . فى خضم التيارات الفلسفية ؟	٤٨
الحلقة السابعة	: القضية الأم . . هى الإيمان	٥٩
الحلقة الثامنة	: الماديون الجدليون فى واد : وحقائق العلم فى واد آخر	٧٠
الحلقة التاسعة	: البلاغ المبين . . بالحجة والسلوك . . معا	٧٩
الحلقة العاشرة	: ضرورة التفريق بين المنهج العلمى للإنسان والأشياء	٩٢
الحلقة الحادية عشر	: شيوعى يسأل	٩٩
الحلقة الثانية عشر	: الامتحان بالرخاء والابتلاء بالشدة	١١٢
الحلقة الثالثة عشر	: ليس هناك قاعدة نلتقى عليها...	١٢٥
الحلقة الرابعة عشر	: مقولة قانون التناقض : خطأ علمى	١٣٤
الحلقة الخامسة عشر	: الماركسية تقهر العلم وتسخره	١٤٦
الحلقة السادسة عشر	: المنهج العلمى للإنسان	١٥٦
الحلقة السابعة عشر	: أداة الاختيار (الملكية)	١٦٥
الحلقة الثامنة عشر	: أنواع الثروة (صور الدخول)	١٧٤
الحلقة التاسعة عشر	: حتميات ماركس تنهار أمام الواقع والتجربة	١٨٤
الحلقة العشرون	: النظرة الإسلامية للتاريخ	١٩٦
الحلقة الاحدى والعشرون	: نظرة الإسلام	٢٠٩

الحلقة الثانية والعشرون : الملكية من عائد العمل ورأس المال ٢١٦
الحلقة الثالثة والعشرون : الحركة الخارجية... ... ... ٢٢٦
الحلقة الرابعة والعشرون : مصارف الزكاة ٢٣٧
الحلقة الخامسة والعشرون : وجوه أخر فى مصارف الزكاة ٢٤٩
الحلقة السادسة والعشرون : هل فى المال حق سوى الزكاة ؟ ٢٦١
الحلقة السابعة والعشرون : الضريبة والزكاة ليستا سواء ٢٦٩
الحلقة الثامنة والعشرون : ميدان التطبيق ٢٧٧
الحلقة التاسعة والعشرون : التطبيق خارج الجزيرة العربية ٢٩٠
الحلقـــة الثلاثون : صور الحياة فى ظل الخراج ٣٠٢
الحلقة الحادية والثلاثون : مشاكل الاستقرار ٣١٢
الحلقة الثانية والثلاثون : مراحل الضعف والتوقف «قضية الأرض» ٣٢٥
الحلقة الاخيرة : ضمانات التطبيق والنظام السياسى ٣٣٨
حوار خارج الأقبية : ٣٥١